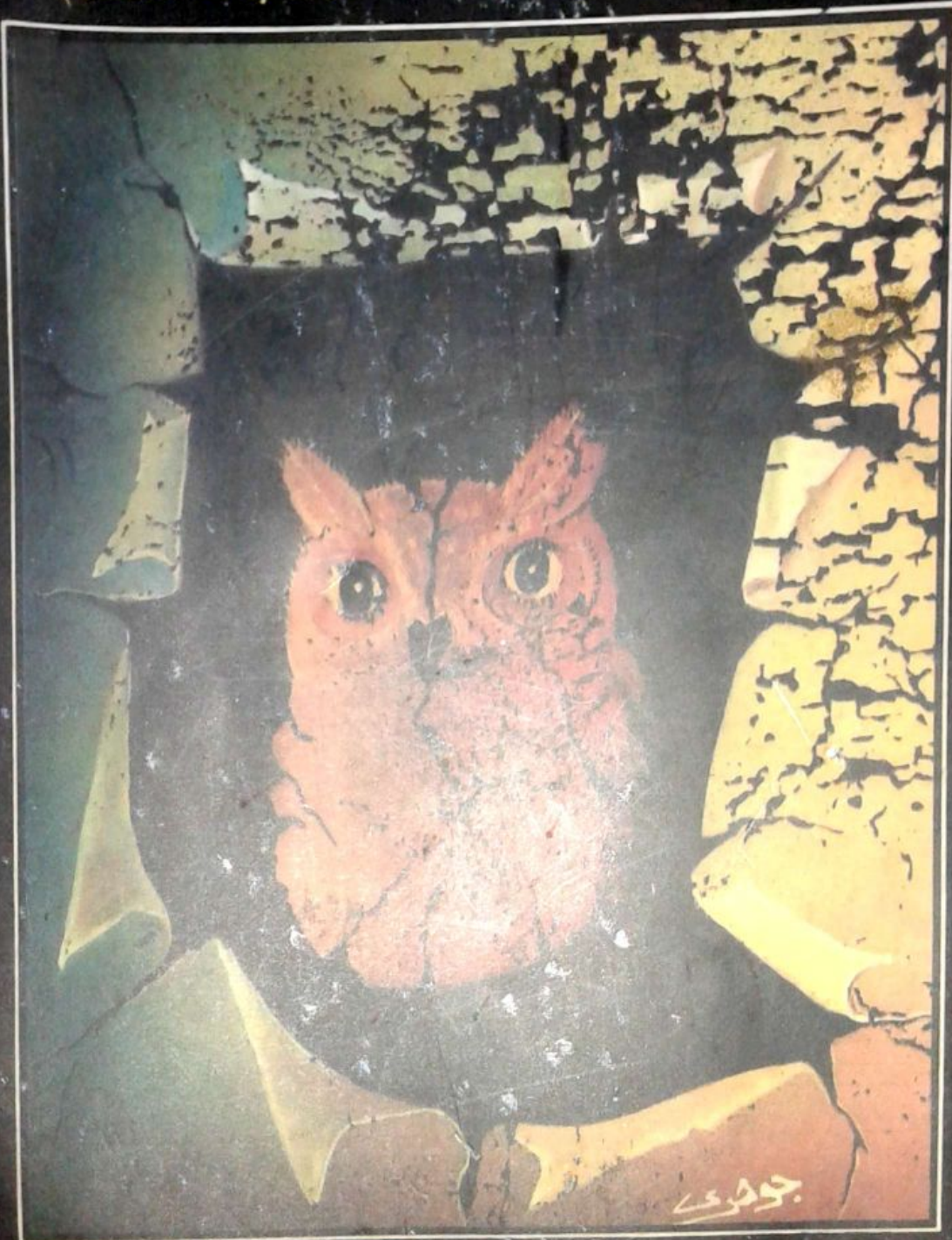


طائر السم

رواية

ترجمة
الدكتور عبدالله احمد النعيم

الدكتور فرانسيس دينق



جورجي



الناشر
ميدلاين المعمورة

ظائر الشوم

تأليف فرانسيس ماديلق ديلق
نقلها إلى اللغة العربية عبده الله أحمد النعيم

بول صابو هو الابن المتبقي لزعيم أفريقي والوريث لتقاليد
ثقافية عظمى . من خلال تنشئته على ذكرى ملاحم الأعمال
الوطنية لشعبه . يعلم بول عن مآساتها الكبرى : تلك الليلة
المسومة التي اختطف فيها غزاة من الشمال أمه ومعها ابناها
التوامين إلى الإيد بينما أصيب الآخر بعاهة مستديحة من جراء
أحداث تلك الليلة . ظل والده . الزعيم ملبنديت . رابط الجيش
إمام تلك الأحداث . ولكن بول كان يعي تماما تاريخ ومفاناة
عشيرته .

وبحكم مكانه ونفوذ عشيرته وعزتها . فقد رشح كبار
القبيلة بول لمستقبل مجيد . ثم أرسله إلى مدارس المبشرين
في الجنوب حيث أطلق عليه اسما مسيحيا هو الياس
بالتفريغ . أضفى عليه تعليمه مسحة ثقافية شمالية . وتحت
رعاية شمالي بارز (واسمه على الجاك) لمس في الصبن
ملاحم المستقبل غير العادي . تم اختيار الياس للدراسة
بالتفوية العربية في بادو مان حيث تخرج بارع الدرجات
وعند انضمامه إلى صفوف الجيش سطع نجمه كضابط جنوبي
متميز .

ومع شعوره بالتنازعات الثقافية في نفسه هو . وإن لم
يفرك تماما قوة تلك التنازعات . دخل الياس . والاسم
يستخدمه المسلمون في الشمال أيضا . عالم السياسة حيث
أصبح الناطق الرسمي باسم تحالف قوى المعارضة
السياسية . وبينما هو القائم بأمر المحرومين من غير
الشماليين والمعبر عن وجهة نظرهم . وقع الياس في حب
القناة فضيلة . ابنة أخي ولي نعمته على وأخت بركة محمد
الجاك . السياسي الشمالي البارز . وكانت فضيلة شابة قوية
الشكيمة ومتهجرة الروح رغم تنشئتها في البيئة المسلمة
التقليدية . مما جعلها الند الأمثل لروية الياس وموقعه .
واتسمت علاقتهما العاطفية بالجذب الشهواني العارم ولكنها
تلوثت بسوء التفاهم العائلي المتكرر وبطيشهما معا . فكيف
لها أن تبقى ؟

يتزامن بروز نجم الياس مع وقوع السودان فريسة للفقر
والحرب الأهلية والتناحر الثقافي . هل هذا هو وقت . ظائر
الشوم . الذي يعتقد الكثيرون بأنه نذير الخراب . والذي سبق
أن تلبا بليدة مصيبة التوامين في حياة عشيرة الياس : تنتهي
الرواية بسلسلة من الاكتشافات المفاجئة والمولمة التي تؤكد
المحور الجوهرى في الكتاب . ذلك أن علاق الدم الناجمة عن
تفاعل طويل الأمد قد انجبت أمة واحدة يتحتم عليها الخلاص
من العداوات الثقافية القائمة على الجهل والتميز لكي تبعث
وتنقذ مستقبل الشعب السوداني . وهكذا يرمز ظائر الشوم إلى
النذير قبيل وقوع الكارثة . بينما تعبر قصة الياس وفضيلة
عن بصلص الأمل للجميع .

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم المترجم

تكرم مؤلف هذه الرواية ، الدكتور فرانسس مدينق دينق ، باطلاعى على المسودة للأصل الذى تم نشره الآن باللغة الإنجليزية ، فتأثرت كثيراً بحبكتها الروائية الأخاذة ، وتفاعلت مع معالجتها اللبقة لأدق وأخطر المشاكل التى تواجه الشعب السودانى .

وللمؤلف مساهمات عديدة فى هذا المجال على الصعيد النظرى فى كتاباته الممتازة عن ثقافة الدينكا فى جنوب السودان ، وكذلك على الصعيد العملى فى خدمة بلاده فى أرفع المواقع الدبلوماسية والتنفيذية .

ومن أهم القضايا التى يعالجها الدكتور فرانسس على الصعيدين النظرى والعملى مسائل التعددية الثقافية والعرقية فى إطار الوحدة الوطنية . ومع تقديرى العظيم لجهوده تلك ، إلا أنى وجدت أن معالجته لهذه المسائل فى قالب القصصى مؤثرة ونافاذة للغاية . فكما ذكرت فى خطابى له الذى نشر كتقديم لأصل الرواية المنشور باللغة الإنجليزية بعنوان « Cry of the Owl » لعل النهج الروائى يكون هو الأجدى فى النفاذ إلى وجدان المجتمع ..

فالمطلوب هو إبراز وتنمية مقومات الذاتية القومية المشتركة ، ليس فقط بالرغم من التمايز الثقافى والعرقى ، بل ومع الحرص على ذلك التمايز كظاهرة صحية تدل على حيوية التفاعل والتعايش الإيجابى المعافى .

وهذا لن يكون إلا بالمعالجة الصريحة والأمينة لإشكاليات ومشاعر
دفيئة في أعماق الوجدان والوعى الفردي والجماعي .
ومثل هذه المعالجة تقتضى بالضرورة طرح وجهات النظر المختلفة
حول الامور من غير حجر ولا وصاية من أحد ، حتى تتم التصفية
للخلافات على أرضية مشتركة من الاحترام المتبادل .
ومن دواعى إعجابى العظيم بهذه الرواية أنها قد أطلقت في نفسى
الإعجاب والتقدير لثقافة قطاع كبير من أهل وطنى ، واطلعتنى على
وجهة نظرهم في العديد من المسائل الاصولية في حياة المجتمعات
والأمم .

كنت أتوهم أنى قد نجحت في تجاوز دواعى التعصب الثقافى
والعرقى الشائع عند أمثالى من أبناء شمال وأواسط السودان ،
وبخاصة عند قبيلة الجعليين التى أنتمى إليها . إلا أن هذه الرواية قد
اقنعتنى بإعادة النظر في ذلك الوهم ، وبعثت في نفسى خواطر دفيئة ما
كنت أعى وجودها ولا أقدر أثرها على معتقداتى وسلوكى .

وللفائدة التى وجدتها في نفسى من خلال هذه التجربة ، اقترحت على
المؤلف ترجمة الرواية إلى اللغة العربية ونشرها بصورة تيسر اطلاع
السودانيين عليها . ولشيوخ الأمية في قطاعات كبرى من المجتمع
السودانى ، فإنى أقترح السعى لإشاعة التجربة بالوسائل المرئية
والمسموعة ، مثل الإخراج الإذاعى والسينمائى .

شرفنى المؤلف بإسناد مهمة الترجمة لى ، فكانت هذه المحاولة التى
أرجو أن تساهم في تحقيق الغرض المطلوب منها . وأنا إذ أقدم هذا
الجهود المتواضع ، أحب أن أسجل شكرى الجزيل لكل من عاوننى في
إكماله ونشره . وأخص بالشكر الأستاذ الأديب / عصام عبد الرحمن
أحمد ، الذى تكرم بترجمة أغانى وأشعار الدينكا إلى اللغة العربية .

عبدالله أحمد النعيم

الفهرس

الصفحة	الموضوع
١٣	الجزء الأول (الإطار)
١٥	الفصل الأول
٢٣	الفصل الثاني
٣٣	الجزء الثاني (النشأة والتكوين)
٣٥	الفصل الثالث
٤٣	الفصل الرابع
٥٧	الفصل الخامس
٦٧	الفصل السادس
٧٥	الفصل السابع
٩١	الفصل الثامن
١٠١	الجزء الثالث (النمو)
١٠٣	الفصل التاسع
١١٣	الفصل العاشر
١٢١	الفصل الحادي عشر
١٣٥	الفصل الثاني عشر
١٤٥	الجزء الرابع (الخدمة)
١٤٧	الفصل الثالث عشر
١٦٥	الفصل الرابع عشر
١٨٣	الفصل الخامس عشر
١٩٣	الفصل السادس عشر
٢١٧	الفصل السابع عشر
٢٢٧	الفصل الثامن عشر
٢٤٣	الفصل التاسع عشر
٢٥٥	الفصل العشرون
٢٧٣	الفصل الحادي والعشرون

لعنة اليوم

جدتى ، جدتى ..
ألويل بنت شول ..
قد أنت وهى فى عزة محمية بالإله ..
هى سيدة فخمة انجبت العديد من البنين ..
ثم .. يا حزنها !
حطمت معولا وهى تحفر قبراً لهم ..
تركت والدى كعجل جاموسة منفرد ..
تصرخ اليوم فى دارنا فى الدجى ..
طائر الليل القى علينا دجى سحره ..
صاح طير عظيم ..
« حين ياتى السحر ، حين ياتى السحر ..
يا ابن دينق ، حين ياتى السحر ..
سوف تدفن طفلا - هنا - آخر »
طائر الليل القى على والدى سحره ..
فهو يعلم أين مقابرنا ..
ولذا ظل طفلا وحيدا أبى ..
أرضنا ، أرضنا ..
أرضنا فى جحيم ..
والدى سربلته الجثث ..
لم يعد موضع لقدم ..
ولذا صرت عبدا ..
مرغما عاملا فى ديار اغتراب ..
ماريال ! لن أبوح بما قد وجدت ..

البحث عن الأخ الضائع

انا اعرف قلب الام ..
امى امى ابنة دينق ..
ثقتى فى ذاك القلب ..
ولذلك ادعوها فى صلواتى ..
لن يلفتنى عن دربى شىء ..
درب منحتنيه امى :
« ابنى ، اخوك الأصغر قد ضل طريقا فى القفر ..
حتى لو سار الى قرن الشمس ..
ابحث عنه حتى تمسك كفك كفه ..
هذا ما قر بصدرى والتصق كساق الضبع ..
العرجاء ..
الشمس شوتنا حتى احمرت أعيننا ..
فى الجو تطير الطيارات ..
وعلى القضبان تسير قطارات ..
ولذا تهتز الأرض طوال الليل ..
وقفزت من النوم ..
كصبي زارته الأرواح بحلم ..
إذ كان ينام بنصف الليل ..
ماعدت أفكر فى النوم ..

الجزء الأول (الإطار)

الفصل الاول

استيقظ إلياس بول مليك ذلك الصباح مبكراً أكثر من العادة وهو يشعر بثقل فى الرأس لقلة النوم. فقد بلغه فى الليلة السابقة مرض والده مليك، المعروف بلقب ملينقديت زعيم قبيلة الدينكا ميثانق من شمال شرقى بحر الغزال .. ومفاد الخبر أن ملينقديت مريض مرضاً شديداً ، ولعله على وشك الموت ، ولذلك يود أن يكون ابنه عند فراش موته .

ذهب إلياس إلى سريره مبكراً ، وكأنه بذلك يعجل بانقضاء الليل حتى ينصرف إلى الإعداد للسفر الفورى صباح الغد . ولكنه قضى ليلته يتقلب فى فراشه ، مستغرقا بسبب احتمال موت والده فى كابوس طويل بين النوم واليقظة .. حتى واجهه الصباح بالحقيقة المرة عن مرض والده واحتمال موته . فكان عليه التحرك بسرعة لعله يرى والده على قيد الحياة مرة أخيرة .

وبعد السواك وشرب شاي الصباح المعتاد ، استحم إلياس ثم لبس بدلة أفريقية صيفية ، وذهب للاستعداد للسفر .

كان يوماً من أيام أوزيل شديدة الحر فى العاصمة المثلثة . ركب إلياس عربته البيجو ٥٠٤ التى اشتراها حديثاً بالدين ، ثم انطلق سائقا أسرع من العادة على شارع مدنى متجهاً من أركويت ، حيث يسكن ، إلى وسط مدينة الخرطوم ، ثم على شارع النيل إلى كوبرى النيل الأبيض فى طريقه إلى أم درمان . وعبر الكوبرى وعند ملتقى النيلين يقع المبنى الفخم من الطوب الأحمر المحفوف بالرخام المزركش بلون عاجى .

فى ذلك المبنى كان ينعقد « مجلس الشعب » الذى كان أداة طيعة لإجازة الأوامر الجمهورية للرئيس المشير جابر المنير . ولكن منذ أن أطاحت الانتفاضة الشعبية بالرئيس المنير وأعدت الحكم الديمقراطى إلى البلاد ، أصبح المبنى مقراً للجمعية التأسيسية التى تم انتخابها حديثاً لتضع دستوراً جديداً للبلاد .

وكان إلياس عضوا في تلك الجمعية ، نائبا عن دائرة شمال شرقي بحر الغزال حيث يحتل والده موقع الزعيم القبلي الأعظم ، وكانت تلك الدائرة من المناطق القليلة في جنوب السودان التي أمكن إجراء الانتخابات فيها رغم الحرب الأهلية التي منعت ذلك في باقي أنحاء الجنوب .

كانت ساحة الجمعية مكتظة بالسيارات ، حيث دفع الحر والحماص لعودة الديمقراطية بالناس إلى داخل المبنى المهيّب . وفي داخل المبنى حيث الزينة تأخذ بالألباب .. السقف الرفيع تزيّنه أنوار الكرسنال ، رخام مصقول على الأرض ، والنوافير المئارة تتساب نحو الجداول المخفية نوعا ما .. نظام إنارة أخاذ يغمر العتبات العريضة المؤدية نحو السطح المرتفع وعليه أوعية ضخمة تحمل أشجارا مكتملة النمو .. منظر أخاذ يطفى على البيئة الصحراوية القاتمة في ذلك الجزء من البلاد .

تخطى إلياس صالة القاعة متجها إلى مكتب رئيس الجمعية من خلال مكتب معاوني الرئيس حتى وقف عند مكتب السكرتارية الواقع خارج مكتب رئيس الجمعية مباشرة . نهضت السكرتيرة الشابة الجميلة في ثوبها الخلاب وابتسامتها اللعوب ، وأخذت إلياس إلى داخل مكتب رئيس الجمعية ، السيد الجيلاني . تقدم السيد الجيلاني ، وهو رجل أسمر في أواسط الخمسينات من العمر ، من خلف منضدة فخمة من خشب المهوجني ، لتحية إلياس . كان يرتدى عباءة عربية وعمامة ملفوفة بانتظام على رأسه بالطريقة السودانية .

- أهلا أهلا بالأخ إلياس .

قال السيد الجيلاني مرحبا بحفاوة ظاهرة ..

- تفضل بالجلوس

جلس إلياس على أحد المقاعد المقابلة لمنضدة الرئيس ، الذي بادره قائلا :

- يظهر أن رسالتى قد بلغتك . لقد أرسلت لك وللأخ بركة محمد لتحضرا لمقابلتى .

- لقد حضرت الآن إلى الجمعية واتييت إلى مكتبك مباشرة دون ان اتلقى رسالتك .

أحس الجيلاني بالحزن في صوت وهيئة إلياس ، فبادره سائلا -

- أن شاء الله خير؟ يبدو عليك الانقباض .

- لقد تلقيت أخبارا مزعجة عن والدى . إنه مريض مرضا شديدا ، ولعله على وشك الموت . لذلك فإنه يرغب في مقابلتى بأسرع فرصة ممكنة . أرجو ان أمنح عظة للذهاب فورا .

- يؤسفنى جدا ان أسمع هذا .. أجابه الجيلاني . « طبعا يمكنك الذهاب متى

رغبت في ذلك . كنت قد طلبتك أنت وبركة لمناقشة كيفية معالجة بعض الأمور الحرجة والحساسة التي تواجه الجمعية . ولكن ذلك امر يحتمل انتظار عودتك .

انفتح الباب أثناء حديث الجيلاني ودخل شاب يرتدى جلبابا وعمامة وهو بركة محمد

الجاك الذى قال محيا -

السلام عليكم

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ..

أجابه الجيلاني وإلياس معا .

- اهلا .. اهلا

اضاف الجيلانى ،

ثم وقف هو والياس لاستقبال بركة ، كانت على سحنة بركة بعض الدهشة الخفية الممزوجة بالترقب الفاتر وهو يقترب من الياس ، وكأنه يتساءل لماذا يود رئيس الجمعية جمعهما معا .. قد يخفى شعور بركة على العامة ، ولكنه لا يفوت على أمثال الجيلانى ممن يدرون بحقيقة الجو السائد فى الجمعية . لم يندهش الجيلانى لما رأى لأنه لاحظ منذ فترة برود العلاقة بين الرجلين .

واستمر الجيلانى فى تكرار عبارات الترحيب « اهلا وسهلا ... » صافح بركة الجيلانى ثم التفت إلى الياس قائلاً:

بطريقة شكلية خالية من الحفاوة والمودة: «السلام عليكم».

- اهلا .. اهلا

اجاب الياس بطريقة مقتضبة فيها بعض الحرارة المتأنية ، كأنها محسوبة ، مما يؤكد التوتر فى علاقة الرجلين .

رغم أن بركة كان يبدو أكبر سناً ، إلا أن الرجلين كانا فى أوائل الثلاثين من العمر ، كلاهما طويل القامة ، نحيف البنية ، دقيق الملامح ، داكن السحنة ، وسيم الهيئة . الا أن ذلك التشابه الخارجى كان كل ما يجمعهما ، إذ أن الرجلين كانا يمثلان جماعتين مختلفتين عرقياً وثقافياً ودينياً .. بل ومتناحرتين .

كان محمد بركة هو الناطق عن حزب أمة الاسلام الحاكم ، والذي يتمسك بالذاتية العربية الاسلامية للسودان ويطالب بتطبيق الشريعة الاسلامية . اعتماداً على أغلبية الجماعات المسلمة فى السودان وعلى المصادر المالية الغزيرة من الدول العربية والاسلامية ، ويهدف حزب أمة الاسلام إلى رفع راية الإسلام والعروبة ليس فى السودان فحسب ، بل ويهدف أيضاً إلى نشر الدين الإسلامى والحضارة العربية فى كل أنحاء افريقيا .

أما الياس بول ملك فقد كان الناطق عن تنظيم حديث التكوين اسمه التجمع الثورى لأقليات السودان ، وهو تجمع يمثل حركة سياسية جذرية تهدف الى خدمة مصالح الجماعات الريفية المحرومة فى البلاد . رغم زعامة الصفوة المسيحية من جنوب السودان ، الا أن التجمع كان يخدم أغراض كل الجماعات غير العربية فى البلاد ، لذلك كان يحظى بدعم متزايد من قبائل شرق وغرب السودان والتي احتفظت بذاتيتها العرقية واللغوية الاصلية رغم تدينها بالإسلام . رغم غلبة الاسلام والعروبة على ذاتية تلك القبائل حتى الماضى القريب ، الا أنها بدأت فى تأكيد الذاتية الاصلية فى الآونة الأخيرة .

فى ظاهر الحال ، كان يبدو أن التجمع الثورى لأقليات السودان هو تنظيم الأقلية فى المعارضة ، إلا أنه فى الحقيقة كان يمثل مصالح غالبية السكان والتي تسمى اصطلاحاً بالأقلية لعدم توحيدها ولهامشية دورها فى الحكم . كانت قيادة التجمع تدرك أن هذه الجماعات تشكل قوة لها دورها فى مستقبل البلاد لو أدركت حقيقة نفوذها . لهذا كان التجمع يشكل تهديداً حقيقياً للصفوة العربية الحاكمة . الا أن برود العلاقة بين بركة والياس كان أكثر مما يمكن رده الى الخلافات السياسية التي تكون دائماً بين السياسيين دون أن تؤثر على علاقاتهم الشخصية . كان الجيلانى منزعجاً بصورة خاصة لهذا التوتر

بين الرجلين لأنه يقدر أن لشعور الرجلين تجاه بعضهما البعض أثره السلبي أو الايجابي على أعمال الجمعية بحكم دور الرجلين في قيادة حزبينهما . وقد قصد الجيلاني من دعوة الرجلين الى مكتبه تناول هذا الأمر عسى أن يصفى الجو بينهما ويحسن من علاقتهما الشخصية . فقال :

- هناك عدة أشياء عن أعمال الجمعية كنت أود مناقشتها معكم أيها السادة ثم التفت الى بركة وأضاف :

الا انى علمت الآن أن على الأخ الياس الاسراع الى أهله لأن والده يعاني من مرض خطير

رد بركة بطريقة شكلية : يؤسفنى أن أسمع هذا .

- أشكرك على شعورك .. إنها إرادة الله ..

واصل الجيلاني الحديث ، ثم أوحى بطريقة لبقة الى غرضه من جمع الرجلين قائلاً ليس فى وسعنا عنل الكثير فى الوقت الراهن إلا أنى أحب أن أرى المزيد من الود والتقارب بينكما ، ويمكننى أن ألعب دور الوسيط ان شئتما . لن نتحدث عن هذا هذه المرة ، ولكن أرجو أن تفكرا فى الأمر وسوف نواصل فى اجتماعنا التالى» .
ظهر من الصمت الواضح الذى واجه به الرجلان حديث الجيلاني انهما ادركا ما كان يرمى اليه .

واصل الجيلاني حديثه مخاطبا الياس بقوله ؛

يما أنك يا أخ الياس فى عجلة من أمرك فاننا نسمح لك بالذهاب .

اشكرك يا سيد الجيلاني .. سوف اعود بأسرع فرصة ممكنة .

سافر الياس فى نفس اليوم بالطائرة الى مدينة واو حيث أعطى سيارة حكومية يقودها رجل شرطة من الأعراب ، وبرفقة شرطى آخر من قبيلة « بالاندا » ، واتخذوا طريقهم الوعر شمالا نحو قرية الياس ناحية داك - جور .

طوال الرحلة كان الياس يفكر فى والده وعلاقته الوثيقة به ، ويتساءل كيف تكون الدنيا بدونه . تذكر معالم علاقتهما منذ طفولته ، وخلال سنوات المدرسة ثم الكلية الحربية . وكلما فكر فى علاقتهما كوالد وابن ، أو فكر فى اعتماد القبيلة على والده ، كلما ازدادت عليه صعوبة قبوله احتمال وفاة والده .. وتنهد بصوت مسموع راجيا أن يستعيد والده الصحة ويعيش لسنوات عديدة .

ومع ازدياد الظلام ، أدار السائق الأنوار الأمامية للسيارة .. وفجأة استوقفهم منظر مهيب . فى وسط الطريق قبع أسد هائل ، وهو يزار وفمه مفتوح تماما وأنيا به المرعبة ظاهرة . كان الأسد يضع أقدامه الخلفية تحت جسمه الثقيل ، ورجله الأمامية اليسرى ممدودة وقابضة على الأرض بينما كانت رجله الأمامية اليمنى تتحرك فى الفضاء بدون هدف واضح ، مما يوحي بأنه مبهور بأنوار السيارة . ضغط السائق على مفتاح آلة التنبيه ، ولكن بدلا من أن يتحرك ، أصدر الأسد زئيره المعهود كملك الغابة . وعندها تناول السائق بندقيته المعلقة على سقف المقعد الامامى .

وهنا .. اعترض الياس قائلاً :

- لا تفعل هذا ، ألا تعلم أن الاسود من أكثر المخلوقات حبا للسلم؟ ان الاسود

لا تقتل إلا عند الضرورة ويجب الا تقتل إلا عند الضرورة ايضا .

دهش السائق العربى اى دهشة لذلك القول ثم تساءل :
ولكن يا سيدى كيف نواصل السير ؟ يمكن ان يكون هذا الاسد مصدر خطر
حقيقى لسيارة صغيرة مثل هذه ، اين نكون نحن لو قلب الاسد السيارة راسا على
عقب ؟ فى العالم الآخر ؟

شعر الياس بالتحدى الذى يواجهه . فرغم انه نجح فى إيقاف الأعرابى السائق عن
إطلاق النار ، الا انه كان يخشى أن يطلق الشرطى الآخر النار من خلف السيارة . انزل
الياس زجاج شبك السيارة من جهته هو ووضع رأسه خارج السيارة ليقول للشرطى
الأخر بعدم اطلاق النار .

كانت لدى الياس أسباب عميقة الجذور للحرص على عدم ايداء ذلك الحيوان ، فقد
سمع ان الأسد حيوان مقدس لدى عشيرته وأن العلاقة بين عالم الأسود وأسرته تعود
الى تاريخ غارات الأعراب طلبا للرقيق . حسب ما فهم الياس ، فقد حاول الأعراب الإغارة
على قريتهم فى منتصف الليل لولا أن هاجمتهم جماعة من الأسود التى قتلت عددا منهم
وتشتت البقية هاربين طلبا للنجاة . ووقتها قامت زعامة القبيلة ، وهم عشيرة الياس ،
باجراء طقوس علاقة القرب مع الأسود ، حيث تعهدوا بعدم الاعتداء على الأسود وأخذوا
عهدا طقوسيا من الأسود بعدم الاعتداء عليهم . ومن شروط ذلك التعهد المتبادل انه إذا
هم أى من الطرفين بانتهاك ذلك العهد ، فسوف يلقى حتفه فى تلك المواجهة . وقد أخذ
شيوخ القبيلة ثورا مقدسا ، وصلوا ، ثم ربطوا الثور الى شجرة فى الغابة قربانا
لصداقتهم مع الأسود . وحسب أساطير العشيرة ، فقد راعى الطرفان شروط العهد .
وحتى فى العهود القريبة ، كان من المعروف أن الأسود قد وفرت الحماية للدينكا ضد
هجمات الأعراب . وعرفانا بالجميل ، فقد حافظت عشيرة الياس على علاقتها بمملكة
الأسود بتقديم القرابين من الأبقار ، بعضها يبقى فى القطيع علما بأنه ملك مقدس
للأسود ، وتذبح أبقار قربانا للأسود بينما تترك أخرى فى الغابة لتجدها الأسود
وتلتهمها .. لقد كانت علاقة وثيقة لا يستطيع أى من أفراد العشيرة انتهاكها اذا أراد
السلامة .

كان الياس يشعر بأنه ، رغم ان تدينه بالمسيحية يحرم عليه الاعتقاد بمعتقدات
الوثنية ، الا انه لا يستطيع انتهاك عهد أسرته الذى أصبح جزءا من تقاليد الأسلاف .
ففى أعماق نفسه كان يتوجس خوفا من انه لو انتكح عهد آبائه ، فان الشر سيلحق به او
بأحد أفراد أسرته . وحيث كان والده على وشك الموت ، فقد كان الوقت غير مناسب على
الإطلاق للتصرف بطريقة غير مسؤولة .

راودت هذه الخواطر الياس فى لحظة من الزمن ، وعندها انعقد عزمه فورا وطلب من
السائق إطفاء أنوار العربة . وفى ضوء النجوم الباهرة كان من الممكن رؤية الأسد وهو
يجلس فى تحد وسط الطريق .

قال الياس للسائق : « سأصعد الى ظهر العربة ومعى بندقية معبأة .. وعليك ان تقود
العربة ببطء وبدون اضاءة . فى اللحظة الحاسمة سيقفز الأسد الى جانب الطريق ..
ووقتها تدير الاضاءة وتسرع فى قيادة السيارة . إذا لم يتحرك الاسد من وسط الطريق ،
سوف أقوم أنا بإطلاق النار فى اللحظة الحرجة .

- ولكن يا سيدى ، اذا اخذت الهدف من تلك المسافة القريبة وقفز الاسد الى ظهر السيارة .. ماذا يحدث ؟

وبما ان الياس كان قد عقد العزم على عدم الاستسلام للخوف ، فقد اجاب السائق :

- فى بعض الاحيان على الانسان ان يتصرف على اساس العقيدة .. دعنا نجرب . طلب الياس من الشرطى ومساعد السائق الانتقال الى المقعد الامامى للسيارة وتركه وحده فى الخلف إصرارا منه على عدم تعريضهما للخطر فى سبيل المحافظة على تقاليد أسرته هو .

وكان الشرطى من قبيلة « بالاندا » قصير القامة ، ممتلئ الجسم ، يرى ان واجبه المهنى يتجسد وقتها فى حماية عضو فى البرلمان . فقال :

- هذا من المستحيل فنحن هنا لحمايتك انت ، سواء اكان ذلك من البشر ام الوحوش .

- اؤكد لك انى ساكون أكثر امنا بدون وجودك معى على ظهر العربة .
وتساءل الشرطى مع شعوره ببعض الإهانة .
كيف يمكن ان يكون الامر كذلك ؟

- هذا امر دينى لا أستطيع شرحه لك الآن .. ارجو ان تثق بما اقوله لك .
تحرك الشرطى الى المقعد الامامى مع بعض التردد .. ولكنه عبا ببندقيته تحوطا لاطلاق النار اذا دعا الامر لذلك .

وعندما تحركت السيارة الى الامام بدون اضاءة ، بدا الاسد اهدأ خاطرا واكثر قبولا للشئ المقبل نحوه .. كان لا يزال يواصل الزئير وتحريك ذراعه اليمنى فى الهواء ، ولكنه ظهر أكثر مسالمة مما زاد يقين الياس انه على حق . ورغم ازدياد قرب المسافة بينه وبين الاسد ، لم يكن الياس ينوى اطلاق النار على الاسد . وفجأة قفز الاسد الى جانب الطريق ، ولكن قبل ان يضىء السائق انوار العربة ويسرع بها قفز الاسد الى ظهر العربة . حدث ذلك بصورة غير متوقعة لدرجة ان الياس لم يجد الوقت حتى للتفكير فى اطلاق النار .. ثم أصبح ذلك مستحيلا لان الاسد اطاح بالبندقية من يد الياس . أصبح الياس مشلولا من الخوف بدرجة لم تمكنه من محاولة التقاط البندقية أو التحرك بأى صورة من الصور ، وظل يحدق فى وجه الاسد ، ثم حدث شئ مدهش حقا .. أخذ الاسد يقدم ذراعه الايسر ثم الايمن على التناوب تجاه الياس ، وكأنه قط اليف . من شدة الدهشة لم يدرك الياس حقيقة ما حدث ، دع عنك معرفة كيف يتصرف .

فى ذلك الوقت كان السائق قد أضاء انوار العربة وأسرع بها غير مدرك ان الاسد كان على ظهر السيارة . ومع ازدياد سرعة العربة ، أطلق الاسد زئيرا عاليا ولكنه بصورة ودية ، ثم قفز إلى جانب الطريق . سمع السائق الزئير وافترض ان الاسد لا يزال يطارد السيارة مما دعاه للمزيد من الاسراع فى القيادة . فمضى بعض الوقت قبل ان يستعيد الياس وعيه ويضرب على سقف المقعد الامامى ليوقف السيارة بعد ان ابتعدوا عن موقع الحادثة .

كانت رواية الياس لما حدث لمرافقيه شبيهة بالاساطير ، ولكنهم ايقنوا انه مهما كان من مبالغة في رواية الياس فان ما حدث كان معجزة .
ونسبة للظلام الدامس واعتبارا لحالة عدم الامن في المنطقة ، فقد تحتم عليهم قضاء الليلة في نقطة شرطة « مشوى » والتي كانت تبعد بضعة اميال من موقعهم .
وبعد ليلة غير مريحة قضوها بين عوالم الواقع والخيال الذى عمقته تجربتهم مع الاسد ، استيقظوا مبكرين وتناولوا الشاى ثم انطلقوا في رحلتهم .
وخلال رحلتهم عبر ارض الدينكا ، كان دوى محرك السيارة والغبار الكثيف يعلن عن مقدمهم . كان اطفال و كلاب القرى المجاورة للطريق يطاردون السيارة العابرة ،
فرصة نادرا ما تتاح لهم . وحيث إن الوقت كان لا يزال موسم الجفاف ، فإن الحيوانات الوحشية كانت قد هاجرت وخلفت وراءها أرضاً جديبة ، ترتجف فى سراب
وقد امتلا الافق بهياكل الدينكا الطويلة النحيفة وقطعان ماشيتهم . والتجا الناس الى اكواخهم وتحت الاشجار من قيظ الحر وكانهم يخدمون لفترة الصيف محافظة على طاقتهم لحين وقت الجهد والعمل فى موسم الامطار حيث يشتغلون مرة اخرى
بفلاحة الأرض .

وكلما اقتربوا من قريتهم ، ازدادت ضربات قلب الياس . كيف حال أبيه الآن ؟
هل هو على وشك الموت حقا ؟ هل توفي فعلا ؟ ياله من خاطر مزعج !! ماذا يفعل هو
إذا حدث ذلك ؟

وانصرف ذهنه الى حالة الجمعية التأسيسية والتوتر العرقى الذى يتحكم فى
الاحداث السياسية ، ثم مقابلته الوجيزة لمحمد بركة ، كل ذلك وكأنه يحاول أن
يصرف نفسه عن الموقف الراهن . وكان فى اسم قريته مدعاة لاسترجاع احداث
الماضى .. قرية « داك - جور » - والذى يعنى « حيث انتهكت قوى الاعراب » ، فى
التاريخ المروى عندهم أن الدينكا قد اتخذوا موقفاً قوياً فى هذا الموقع ضد غزوات
الاعراب طلبا للرقيق وأرغموهم على التراجع ثم الانسحاب التام فى نهاية الأمر .
وظهرت قرية داك - جور على البعد . برغم أنها كانت محاطة بالاشجار من ثلاث
جهات وبنهر يجرى طوال العام من الجهة الرابعة ، الا أن القرية كانت تتمتع برؤية
رائعة لكل السهول المحيطة بها والتي تنتشر فيها نقاط المياه المحاطة بالنباتات
الكثيفة . وعندما اصبح صوت العربة المقبلة مسموعا فى القرية ، انطلقت الكلاب
جارية نحو العربة وظلت تطاردها عندما عجزت عن اللحاق بها . وجرى الأطفال
المتربون نحو الغبار المدوى ، المقبل تجاه قريتهم ، وهم لا يدركون انه الياس قد
عاد الى القرية .

الفصل الثاني

وجد إلياس القرية مشتعلة بالنشاط حيث كان الناس يتحركون بين الأكواخ التي تحيط بالقرية وبالشجرة الظليلة التي تركز وتحدد ملامح مسكن العشيرة. وكان بين الأكواخ (زريبتان) للأبقار، كل منهما تشمل مساحة مجموعة من الأكواخ العادية. ووسط مسكن العشيرة عدد من الأوتاد التي تربط عليها الأبقار عندما لا تكون في (الزريبة). وكان قطع الأبقار قد أطلق للرعى بالقرب من المساكن. أما العجول الصغيرة.. فقد كانت تنادى في حزن واضح حيننا لأمهاتها، وهي تنتظر نقلها من حر الشمس إلى ظل الأشجار.

وانشغل ولدان، وجسداهما العاريان ممسوحان بالرماد، بجمع روث الأبقار ثم نشره في الشمس ليجف ويستخدم كوقود للنار حيث يطرد دخانه الذباب والناموس بعيدا عن الناس وعن قطعان الأبقار وكان غناؤهما الطروب يتناقض بشدة مع جو الترقب المتوتر الذي خيم على القرية بسبب مرض مليونقديت. إلا أن أهل القرية لم يكونوا يعترضون على ذلك لأن الغناء عندهم هو تنغيم مصاحب للعمل ولا يدل على عدم الشعور بجو الكارثة المخيم على القرية.

وعندما التف الأطفال حول إلياس، اتجه هو نحو العربة وأخذ حقيبتين كبيرتين مليئتين بالبلح والحلوى ووزعها على الأطفال، بينما شق طريقه وسط حشود المستقبلين بحثا عن والده. وبسرعة علم أن الشيخ في الكوخ الذي كان الرجال يدخلون ويخرجون منه زحفا على الركب من خلال مدخل صغير لا يتجاوز ارتفاعه الثلاثة أقدام. وعند وصل إلياس إلى الكوخ حبا على يديه وركبتيه إلى الداخل. ولم يكن ذلك صعبا عليه إذ كان الكوخ هو كوخ والدته الذي اعتاد على الحبو إلى داخله منذ الطفولة. كذلك أعانته البدلة الصيفية التي كان يرتديها على الحبو بتلك الطريقة.

وكان خبر وصول الياس قد بلغ والده . وبمجرد دخول الياس جلس والده ثم حاول الوقوف لاستقبال ابنه ، ولكن ذلك لم يكن بالأمر الهين . ورأى الياس والده ، في قامته المديدة وشعره الأبيض القصير ، وهو يحاول التخلص من الغطاء . كان جسده العارى حتى الوسط قد أصبح مجرد جلد على العظام وكأنه هيكل حى . وعندما رأى والده في تلك الحالة كادت الدموع تفيض من عينيه .. إلا ان الياس كان يعلم أن منظر الدموع في عينيه ، وهو الابن المفضل .. سوف يزعج ويحبط والده . ولم يرد الياس أن يسبب المزيد من الحزن لوالده ، فمسح الدموع من عينيه وكأنه يزيل جسما غريبا .. ثم أسرع نحو سرير والده ليكفيه مشقة الوقوف .

- هل هو أنت حقا يا ابني الحبيب بول ؟ هل جئت حقا ؟ كل شيء كما ينبغي أن يكون . حتى لو مت أنا هذه اللحظة فسوف أمضى وقلبي ملىء بالفرح .

أراد الياس أن يقول لوالده الا يفكر في الموت ، ولكن ذلك القول في الحالة التي كان عليها الشيخ هو ضرب من العبث وتشجيع كاذب يعتبر إهانة لذكاء وحكمة الشيخ . وبعد تبادل عبارات السلام تناول الياس وسادة ذات ثلاثة أرجل خشبية وجلس عليها مقابلا لوالده الذى جلس منها على سريره .

- لعله من الأفضل أن ترقد يا أبى .. اقترح الياس ذلك في حذر حتى لا يبدو منزعجا أكثر من اللازم .

- لا ، فانا على أحسن حال . حتى ولو كان الجلوس سيقتلنى ، فهذا هو أحسن وقت لذلك .

لقد مضت سنوات عديدة منذ أن شاهد الياس داخل كوخ والدته . فقد كان الكوخ مثل غالبية مساكن الدينكا .. دائرى الشكل قطره حوالى اثنتى عشرة قدما ، يتكون من مجموعة من الأعواد المتناسكة بالطين . وعلى الجدران يقوم هيكل أسطوانى الشكل منسوجة عليه أغصان الأشجار ثم قش السافنا . ورغم أن سقف القش يبدو أملس من الخارج ، إلا أنه من الداخل تظهر الأغصان والأقواس المربوطة حولها ثم قنوات النمل الأبيض الذى يغزو الخشب .

على الجانب المقابل لسرير الزعيم ملك موقع صغير للنار يستخدم في الليل لاحتراق اوراق أشجار تصدر رائحة محببة للناس .. بينما يطرد دخانها الناموس . وفي مؤخرة الكوخ (دكة) قائمة على أربعة سيقان حيث تودع الأواني والمعدات المنزلية . وخلف ذلك في نهاية الكوخ حربتان مركزتان على قطعة من الجلد المسقى بالزيت . كان رأس إحدى الحربتين في شكل ورقة شجر والآخر في شكل رمح ، وكل منهما مربوط الى ساق طويل ورفيع مزين بأحلاق معدنية . تلك هى حراب زعيم القبيلة المقدسة والتي جاءت عبر اجيال طويلة من الأجداد والذين كانوا جميعا زعماء روحيين لأهلهم .

كان الزعيم ملك قد ترك وحده ليرتاح ولكنه استقيظ بحركة مقدم ابنه . وما أن دخل الياس الكوخ حتى تبعته أعداد متزايدة من الناس ، بعضهم لزيارة والده ولكن غالبيتهم لمقابلته هو . وخلال وقت وجيز أصبح الكوخ مكتظا بالناس لدرجة تسبب الاختناق ، بينما اجتمع المزيد من الناس بالخارج . فبخلاف المدخل الضيق لم يكن هناك مصدر للهواء سوى ثلاث فتحات ضيقة ومتباعدة لا يزيد عرض الواحدة منها على بضع بوصات . كاد إلياس أن يصرخ من شدة الحر والرائحة المزعجة ، ولكنه لم يشأ أن يسيء الى اهله .. فهو يعلم جيدا أنهم قوم شديدا العزة والحساسية .

وفجأة صدر صوت قائل : « افسحوا الطريق للعراف ، العراف قادم ، دعوه يدخل » .
وطلب من الناس الخروج لافساح المجال للعراف ايويلديت ليجد فرصة مع مريضه وابن
المريض . زحف ايويلديت الى داخل الكوخ ثم انتصب قائما ليحيى الياس الذى كان قد
وقف لمقابلة الرجل المقدس .

وحسب أعراف قساوسة الدينكا ، رفع ايويلديت يده اليمنى مفتوحة الكف بينما تبادل
عبارات التحية بوقار دون أن يصافح الياس باليد .

كان ايويلديت رجلا طويل القامة نحيفا بوجه طويل بارز عظام الوجنتين . وكانت هيئته
وديعة في حزم وصرامة ، تتحول سحنه بين النظرة التى تخترق وتتقصى في خفية الى
الابتسامة المشرقة التى تفصح عن أسنان متراسة ناصعة البياض . حتى شعره الطويل
المشوط بالصدف والخرز كان يبدو كمظهر جمالى أكثر منه من مظاهر الزعامة الروحية .
ومن تناقضات اختلاف الأزمان أنه كان يرتدى رداء قصيرا مع قميص داخل كلاهما على
النهج الاوربى . هذا بالاضافة الى قطعة من جلد الفهد ملفوفة حول الكتف والتى تشكل
جزءا من زيه التقليدى ، حيث يمكن استخدامها كفراش أو غطاء للحماية من التلوث
الروحى . فحيثما جلس ايويلديت ، سواء أكان ذلك على سرير أو مقعد أو قطعة من
الخشب ، فإنه دائما ما يضع قطعة جلد الفهد فوق ما يجلس عليه .

قدم الياس مقعدا لايويلديت الا أن العراف اعتذر عن قبوله بكل احترام واختار أن
يجلس على الحصيرة بعد التأكد من أن قطعة جلد الفهد كانت بينه وبين الحصيرة . وبعد
فترة صمت للمجاملة بدت طويلة ومتوترة ، شرع ايويلديت فى الحديث قائلا : الحق لا بد
أن يقال .. عندما نواجهكم يا معشر المتعلمين .. فأننا نمارس عملنا مع ترقب للتدخل
من جانبكم لأن اساليبكم تختلف عن اساليبنا .

كان ايويلديت محقا فى ذلك ، فقد شجع المبشرون المسيحيون الدينكا الذين تدينوا
بالمسيحية على اهمال ورفض ما يسمونه ممارسات الوثنية . والتى كانوا يرونها صادرة عن
الشیطان . الا أن الياس كان قد نضج بالقدر الكاف ليقدر أن ذلك الأسلوب كان ساذجا
أكثر من اللازم . وعلى كل حال ، فإن الرجل انما يحاول أن يقدم المساعدة جهد طاقته .
فقال إلياس فى محاولة للإصلاح :

- لا اعتقد انه عليك أن تشعر بذلك .. فنحن جميعا نطلب نفس الهدف الا وهو
الصحة الجسدية والروحية للناس .
تأثر ايويلديت بتلك الكلمات فقال :

انه صحيح أن الناس تختلف .. هناك دائما الابن الذى يستمع الى اقوال من هم
أكبر منه سنا وينتفع بحكمتهم ، بينما يفتن آخرون بحب المغامرة وكل ما هو جديد ..
فرغم اننا قد قبلنا منافع التعليم والطب الحديث .. فهناك متسع من المجال للوسائل
التي خدمت اجدادنا لاجيال عديدة .

سر الزعيم مليونديت لهذا الحديث وعبر عن سروره بابتسامة وديعة تجاه ابنه .
واستحيا إلياس لذلك وهو يقول :

- بلغنى أنك قد تعرفت روحيا على سبب مرض والدى ..
فقال ايويلديت : يعود الامر الى وقت طويل ، كما تعلم ، فان والدك قد سعى على
الروح مليونديت ، ولا أعرف ماذا قيل لك من قبل عن والدك .. فان قصة حياته مرتبطة

بوباء الجدرى الرهيب الذى كاد ان يبيدنا نحن ال ميثانق جميعا . لقد توفى العديد من الناس من ذلك المرض . ولم ينحسر المرض الا بعد ان قام جدك بعمل وليمة كبرى للروح ملينقديت ذبح فيها ثورا عليه بقع بيضاء وبنية اللون (اى ثور فى لون ملك) إكراما للروح ملينقديت . وحسب معرفتى الروحية ، فقد ظهر ان الروح ملينقديت يطالب الآن باعادة ابنه الذى هو والدك . إن الروح ملينقديت معروف بفضل ورحمته ، فاذا دعى بالكلمات المناسبة فإنه سيستجيب لصلوات الناس الذين سبق أن أنقذهم من المرض . لم يملك إلياس الموافقة على تشخيص العراف ، لكنه لم يكن أيضا مستعدا لابداء المعارضة . بدلا من ذلك ، جلس يستمع فى تأدب ، وهو يومئ برأسه بالموافقة فى مجاملة من وقت لآخر . وعندما فرغ العراف من الحديث ، أنقذ إلياس من حرج البحث عن تعليق مناسب دخول عمه (اكلول) الذى قال : ايها الزعيم ، الا ينبغى أن نبدأ الدعاء الآن ؟ لقد بدأت حرارة الجو فى الازدياد ، ومن الواجب تقديم القرابين فى برودة الصباح وليس فى حرارة الظهيرة .

كان اكلول هو أخو ملينقديت من جانب الأب فقط ، حيث كانت أمه هى الزوجة الثانية لوالدهما . كان رجلا فى الخمسينات من العمر ، متوسط القامة شديد النحافة ، مثله مثل الدينكا من جيله . كان بينه وبين ملينقديت من التوتر والمنافسة أكثر مما هو معهود بين غير الأشقاء من الاخوان ، الا أن ذلك الشعور كان مخفيا تماما ، بل ومعوذ عنه باظهار المزيد من التعاضد الأسرى والود الأخوى . وكان المعروف عن الأخوين أنهما على ود وتقارب شديدين بالنسبة لما هو معهود عن غير الأشقاء .

وأجابه أيولديت بصوت خفيض .. فيه السلطة الروحية .. فلم يكن مطلوباً منه هو شخصياً المشاركة فى الطقوس . ولكن كان عليه نثر الماء المقدس على الثور قبل تقديم القربان فقال :

- قولك الحق .. ادع كبار القوم الى المحراب .
وانتشر الخبر عبر القرية ليحضر كبار القوم الى المحراب .. لقد تأخر الوقت على تقديم القربان ..

فى ذلك الوقت انحنت سيدة من خلال المدخل وهى تعلن فى احترام تقليدى : إني قادمة .

وبعد الدخول انتصبت قائمة ليظهر محيها النبيل قامة طويلة لامرأة فى اواسط الخمسينات من العمر ، وقد لفت قطعة من القماش حول وسطها . بينما وضعت على كتفها ثوباً تقليدياً من جلد الغنم المفتوح من الجانبين . تبادل إلياس والويل التحية فى عاطفة خفية لأنه من غير اللائق بين الدينكا للامهات والأبناء ابداء مشاعر الحب والود من أحدهما تجاه الآخر .

« ايها الابن ، ان النساء أيضا فى شوق لك . وقد ضغن بالانتظار . بينما يجتمع كبار القوم لتقديم القربان ، عليك الذهاب لتحية أمهاتك وأخواتك .

بما أن ملينقديت كان الزعيم ، فقد كان عنده أكبر عدد من الزوجات فى القبيلة . كانت والدة إلياس هى الأولى ، ولكن كان بعدها العديد من الزوجات ، كلهن مرتبات فى هيكل تصاعدى صارم تحتل فيه الويل موقع « زعيمة » النساء التى تحترمها كل الزوجات الأخريات اللاتى لا ينادينها باسمها بل بلقب « مان مديت » أى « أم مديت » نسبة لابنها الأكبر .

واختار الياس بول وجود والده ووالدته معا ليحكى واقعة لقائه مع الاسد . وكان يبدو عليهما الاستغراق التام في الرواية ، حيث كانا يعبران عن الاستحواذ التام من وقت لآخر من غير مقاطعة الحديث . وكانت الويل بخاصة تكرر عبارة « اسمع وخذ العبرة » كلما جاءت نقطة مثيرة في الرواية . وعندما فرغ الياس قالت الويل :

- انى غير مندهشة لما حدث . ها انت ترى بعينيك ما كنت تسمع من قبل عن العهد القديم بين عالم الاسود وعشيرتك .

صدرت في ذلك الوقت عن ملينقديت ضحكة خافتة ثم قال مشيرا تجاه الويل .
- توقفى ! انك تتحدثين عن احداث موغلة في القدم ، ماذا عن الحدث القريب الذى وقع لك انت والتوامين ؟ ثم اتجه نحو ابنه وقال : - تعلم عن حادثة اختطاف الاعراب لامك واخويك التوامين . ذلك عندما وقع اخوك مديت من على جواد العرب وكسر عظم المقعد مما سبب له عاهة العرج التى عانى منها باقى حياته حتى اختفى من هنا . اما امك والابن التوام الآخر اشويل فقد اخذهما الاعراب حتى تم انقاذ امك فيما بعد ، ولم نسمع عن اشويل بعد ذلك . لولا تدخل الاسود في تلك الاحداث لعانى قومنا المزيد من الخسائر . فكما ترى يا ابنى بول ، فان امك قد قالت الحق . من الخير انك الآن قد رايت بعينيك ما يقوله كبار القوم لكم يا معشر المتعلمين عن قوى الاجداد الروحية . ان ارواحنا هى رسل الله وكلماتها قوية . ولكن التعليم قد اصم اذانكم عن سماع كلماتنا . انكم لا تسمعون ما نقول . وحتى عندما تسمعون ، فانكم لا تأخذون ما نقول الى قلوبكم . يدخل الحديث من اذن ليخرج من الاخرى . ان ذلك الاسد لم يات اليك عبثا . دعنى اخبرك الآن يا ابنى ان ذلك الاسد جاءك برسالة ، وان تلك الرسالة سوف تظهر . انى واثق من ذلك . يجب الا نشغل رؤوسنا بمحاولة تخمين كنه تلك الرسالة .. الشئ المهم هو ان الاسد جاءك ولم يؤذ احدا ، وهذا يعنى انه كان رسولا . مهما طال العهد ، فان تلك الرسالة سوف تظهر . علينا الآن اكرام مقدمه لك بتقديم حمل كقربان . ولكن يمكن عمل ذلك فيما بعد عندما تهذا هذه الجلبة الراهنة .

حسنا ، دعنى اعود الى كلمات الأسرة لبسيطة .. وهنا قالت الويل مواصلة حديثها السابق : (ان قلوب النساء تتفطر بالانتظار . دع بول يذهب ليتحيتها .

وافق الزعيم ملينقديت على ذلك فخرج الياس مع امه . وفي الطريق ، رأى الياس الثور المربوط على وتد عند المحراب الى الجانب الايمن من زريبة الماشية الكبرى . كان عماد المحراب هو جذع شجرة منزوع اللحاء ومركز في الارض وقد برزت افرع الشجرة وكأنها تمثال . ومن الافرع تدلت العديد من الأشياء : اصداق واساور وخرز وما الى ذلك ، بقايا القرابين التى سبق ان قدمت الى ارواح الاجداد . وحول جذع الشجرة والافرع نمت نباتات متسلقة مثل نبات «كواك - جوك» العجور (الخيار) المقدس .. الذى تستخدم فى المباركة . وحول كل أنحاء الموقع المرتفع الذى يشكل ارض المحراب تناثرت عظام وجماجم الحيوانات التى سبق تقديمها كقرابين وضحايا .

عندما اجتمع كبار القوم ، شكلوا دائرة كبيرة حول الثور استعدادا لتقديم القربان والدعاء . ودعا اكول ، أخو الزعيم ملينقديت ، عمهما الاكبر مجاك قائلا :

يا عمى ، ارجو ان تقول الكلمة :
قاصدا بذلك « الصلاة » حسب اصطلاح الدينكا ..

وكان مجاك والذي يعرف ايضا باسم مجانقديت رجلا قد تجاوز الثمانين من العمر ،
بقامة طويلة منحنية على العصي المشعبة التي يرتكز عليها وزنه الخفيف . كان وجهه جافا
وقد غارت عيناه في محجريهما . أخرج التبغ من فمه بيد مرتجفة ووضعه في حافظة التبغ
(الحقنة) ثم أدار بلسانه القطع المتبقية من التبغ في فمه ثم ثقلها الى الخارج عدة مرات ،
ثم تنحنح وأعلن : أمسك كلمتى هذه .

وهنا كدر بقية كبار القوم الرد التقليدى في صوت جماعى بعد أن كانوا منتظرين في
صمت :

- أمسك كلمتى .

- انت يا الله ، وايتها الأرواح في السموات ، ومعهم انتم اجدادنا داخل الارض .
لكم جميعا اوجه كلمتى .

كدر كبار القوم آخر كلمة بصورة جماعية .

- ونحن لا نناديكم لشيء سييء ، وانما لنطلب منكم الحياة .

ورجع صدى التكرار الجماعى للكلمات الأخيرة « لنطلب منكم الحياة » ثم واصل مجاك
الصلاة « طوال تاريخ قومنا إنما بسبب الزعيم يعيش القوم في البلاد » .
وواصل كبار القوم التكرار الجماعى للكلمات الأخيرة مع كل مرحلة من الصلاة
والدعاء .

- عندما يعتاد الناس على قيادة وحماية زعيمهم ، تاتى روح الموت وتاخذه منهم .
وذلك هو ما يهلك القوم . لقد عانى قومنا كثيرا ، وساءت الأحوال . ولكن ابنك هذا
مليبقديت الذى وضعتموه في موضع الزعامة والقيادة في قومكم قد اصبح مصدر ثقة
وقوة لقومنا . لقد اعطى وجوده قلوب قومنا القدرة على الاحتمال والاحتفاظ بالبلاد .
لماذا اعطيت انت يا اخى ابنك اسم عليك ؟ ألم يكن ذلك اكراما للروح التى انقذت
قومك من الكارثة ؟ أم يباركه الله وانتم ايتها الأرواح العليا لينمو ويصبح الزعيم
الذى تريدون لقومه ؟ لماذا تأخذونه الآن من قومه الذين يحتاجون له الآن أكثر من
أى وقت مضى ؟ أنت يا الله ، وانتم يا اجدادنا ، ليست هذه هى الطريقة المناسبة
لمعاملة الاحفاد . نحن نعلم انكم تعلمون كل شيء ، وأن منتهى الحكمة وقمتها
عندكم ... ولكننا نعتقد ايضا انكم تريدون أن تسمعوا رأى احفادكم في الأمور
والالم الذى يشعرون به في قلوبهم . لكم الكلمة الأخيرة ، ولكن ينبغى الا تغمضوا
اعينكم وأذانكم عن صرخات احفادكم .

لقد انتهى قومنا ، ولم يبق من الكبار من يوجه الشباب . أنا رجل عجوز وأيامى الباقية
أصبحت قليلة . قريبا سيكون عليك هو أكبر ابن لكم في هذا العالم . كيف تأخذونه وهو لا
يزال يتمتع بالقوة التى تمكنه من القيادة ؟ لا ، لقد رفضت أنا كلمة الموت . انقذوه حتى
ينفذ ارادتكم ويحمى قومكم في هذا العالم .. وتقبلوا بدلا عنه هذا الثور ، « ملك » ، الذى
سنقدمه قربانا كهدية خاصة لكم .

ثم واصل الحديث موجهها كلامه نحو الثور :

- اما انت يا « ملك » هذا هو الغرض الذى من أجله جاءتك البركة كثور مقدس منذ
أن كنت عجلا صغيرا . لقد وقع عليك الاختيار لتقدم للروح مليبقديت عسى أن تكون
فداء يوما ما لانقاذ القوم من الشر . إن موتك ليس بالشيء السييء ، وانما هو موت

طبيب . كلنا سنموت يوما ما ، ولكنك تموت اليوم من اجل غاية نبيلة وهى انقاذ حياة زعيم هذه البلاد . منذ بداية الخلق ، فقد منح الله الناس البقر كحليف لهم في حربهم ضد ارواح الموت . انه واجبك المقدس ان تعين الانسان في سعيه للحياة الكريمة الطيبة . انها حياة البقر وحده هى التى تضعها الارواح في مصاف حياة الانسان وتقبلها كبديل لحياة الانسان . وهكذا ، نسالك ان ترضى بتقديمك كفداء فضلا منك . انك لا تهان بهذا وانما تكرم . هذه هى كلمتى .

وتقدم رجل كبير آخر لياخذ دوره في الحديث .
' امسك كلمتى هذه ، انا اوجه حديثى للروح الكبرى مليونيديت . لقد تم اختيار هذا الثور . واهدائه لك اكراما لقوتك المنقذة للحياة والتى سبق ان انقذت واعادت اهل هذه القبيلة من كارثة الجدرى . ان الرجل الذى نصلى من اجل حياته اليوم ، قد سمي عليك اكراما لك على العمل الطيب الحسن الذى قممت به . انقذ زعيمنا من اجلنا . نحن في حاجة له . انا رجل قليل الكلام . هذا كل ما اردت ان اقول في تلك اللحظة ، لفت احدثهم النظر الى اقتراب مجموعة من الناس وهى تحمل رجلا على سرير .

لا بد ان يكون هذا هو العم ميثانقديت .
قال اقول : لم نتوقع حضوره نسبة لانه هو ايضا لم يكن في صحة جيدة . ومع اقتراب الجماعة ، افسح الآخرون المجال لموقع سرير العم ميثانقديت . تركزت العيون على الرجل العجوز في موقعه البارز في الدائرة . قال اقول :
دع العم ميثانقديت يقول كلمة مادام قد حضر .

وافق الجميع وانتظروا حتى يستجمع ميثانقديت انفاسه وافكاره . لا بد انه قد فكر كثيرا في الطريق ، لانه جلس على سريره في ضعف واضح ، ويداه ترتجفان ، وفمه يمزغ على الفراغ ، وقد سال لعاب الكبر من فمه . وبعد ان اصلح وضع جلبابه القديم المتسخ ، بدأ الحديث في صوت مرتعش وكأنه رجل في برزخ بين عالم الاموات والارواح .
- انا اكبر الناس سنا هنا ، اكبر سنا حتى من ابن اخى مجاك . لقد رايت الكثير في هذا العالم . انى ابقى متيقظا اغلب الليالى وانا اتفكر فيما حل بقومنا . وما يراه قلبى ليس مدعاة للسرور . ايام اجدادنا والتى شهدنا بعضها ، كان الله والارواح الغليا قريبة من الانسان . كان الناس يعيشون بمقتضى كلمة الله والاجداد . عندما كان احد الكبار يدعو الله والارواح ، كانوا يستجيبون ، وحتى عندما تسوء الاحوال ، فقد كان الله والارواح والاجداد السالفون يعلنون عن رغباتهم ، وكان الانسان يطيع . وعند الاستجابة لرغباتهم ، كان الله والاجداد السالفون يرفعون خطر الشر وتعود الاشياء الى طبيعتها . كان الناس موحدين في الكلمة وتابعين لطريق الله كما وهبه لنا اجدادنا السالفون . ولكن الآن فقدت الصلوات معناها . لم يعد الاجداد السالفون يستمعون لاصوات الاحفاد التى تدعو وتطلب العون . لم يعد الله يعبا لصلوات النمل في هذا العالم .. ولكنى لا القى اللوم على الله ، او على الارواح او الاجداد السالفين ، لان اجيال اليوم قد انصرفت عن منهج السلف . وهذا لا يمكن ان يسر اباؤنا الروحانيين . لم يبق لى طول عيشى ، وقد شرعت فعلا في التفكير فيما يمكن ان ابلغه لاندادى الذين ذهبوا قبلى . ما سابلغه لهم لن يسر

قلوبهم . ولكن ماذا استطيع ان افعل ؟ لابد من ابلاغ الحقيقة ، حتى لو كانت مؤلمة .

واصل ميثانقدت الثرثرة واستمر الصوت الجماعى فى تكرار كلماته وعباراته الاخيرة ، ولكن فى حماس متناقص باستمرار ، بينما ظل هو يركض على البرزخ بين الاموات والاحياء .

- ولكن ، لابد ان نلجا لك ، يا الله وايتها الارواح وايها الاجداد السالفون . ايا كانت الاخطاء التى ارتكبتها احفادكم على الارض ، اغسلوا قلوبكم منها وباركوهم بريح باردة تهبهم الصحة .

وصدر صوت موجه لأفكار العجوز :

- صوب صلواتك تجاه الامر القائم الآن ، الا وهو صحة الزعيم ملينقدت . بدت على الرجل العجوز علامات عدم الرضى عن تلك المقاطعة لانه لم يكن من أعرف الدينكا التدخل على تسلسل افكار المتحدث فى مثل هذه المناسبة الجليلة ، وخاصة عندما يكون المتحدث رجلا كبيرا فى مثل سن ميثا نقدت. ونظر ميثا نقدت ليرى من هو مصدر المقاطعة غير اللائقة ، ثم عض على شفته غاضبا وواصل الحديث .

- هذا مثال لطيش الشباب الذى اتحدث عنه . ولعل هذا يؤذيني أكثر مما يؤذى اسلافنا . ولكن يجب ان نقبل مجرى الاحداث فى الحياة .. ويجب الا يصرفنا ذلك عن واجبنا ان نحمل احفادنا . أنت يا الله وانتم يا جدودنا ويا اسلافنا ، من الذى يبقى ليتحدث باسمكم فى هذا العالم ؟ انقذوا ملك وتقبلوا الثور . هذا ما قضى الله عند الخلق ، وهو ان البقر هى وسيلة خلاص الانسان لينام [ملينقدت] طيبا ثم يستيقظ فى تمام الصحة . أما أنت أيها [الثور] « ملك » ، أرض بتقديمك فداء وتبول كما ينبغى. على حيوانات الفداء ان تتبول كناية عن تقبل مصيرها . هذه هى نهاية كلماتى ..

وتتبع ذلك صمت مهيب ، وكانما كان الجمع ينتظر ان يرى اثر كلمات ميثانقدت وعندها خار الثور ثم تبول مما ارضى الجميع . وتصارخ القوم : « نقواث » أى « إصابة للهدف » .

وهى عبارة تقال فى الحرب عندما تصيب الحربة العدو ، وفى المناسبات الدينية تقال كناية عن انتصار الخير على الشر . وقال الجميع معلقين على ما حدث .
- لقد تقبل الثور الضحية .

وبذلك حان وقت ذبح الحيوان . تقدم عدد من الشباب واستخدموا الحبال لاختراع الحيوان وتوجيهه جهة الشرى لاستكمال الطقوس . وبعد ان قام احدهم بلمس عنق الثور بالحربة المقدسة ثم وجهها بعيدا عن المساكن ، اقترب رجل آخر من الثور واستخدم حربة حادة فى قطع جرح صغير فى عنق الثور وكأنه يقصد ان يقلل الى اكبر درجة ممكنة من حجم الجرح الذى يلحقه بالحيوان . ثم أدخل رأس الحربة الى عمق الجرح واستوثق من انه قد قطع الشرايين مما سبب اندفاق طوفان من الدم الى اثناء وضع بعناية فى الموقع المناسب لاستقبال الدم .

يجب قطع وتوزيع لحم حيوان الاضحية بموجب قواعد صارمة حسب مقتضى النسب والعمر والجنس . وفى تلك الأثناء ، ذهبت جماعة منتخبة من كبار القوم ، وفيهم

مجانقديت واكلول ، لاسلكمال عملفة المباركة الطقوسفة . قطع مجانقديت العجورة المقدسة الى نصففن وقذف بها الى أعلى بفنما نظر كل الناس لفرولا كفف فسقط النصفان . والقاعدة هف انه لو سقط النصفان . ووجههما الى أعلى ، فذلك فعنى حسن الطالع للشفاء . وإذا سقط احد النصففن ووجهه الى أسفل والأخر ووجهه الى أعلى ، فسوف يقذف الأول بعفدا وفسكخدم الثاني لمباركة الشخص المرطف بلمسه به على الجبفن والصدر والقدمفن . أما إذا سقط النصفان ووجههما الى أسفل ، فذلك فعنى ان الصلاة لم تقبل .

ف البدافه ، سقط النصفان ووجههما الى أسفل . كرر كبار القوم المحاولة ولكن بنفس النلفة . تبادل الناس نظرات قلقة . صاح مجانقديت معبرا عن شعور الجمفع : - فاء الله وفاء أرواح عشفرفنا وأنتم أفاها الجدود لن تصرفونا بهذه السهولة ، نحن نطلب منكم صفة وسلامة ملفنقديت ، ولن ننصرف حتى ترونا انه سوف فشفف . نرجوكم إجابة صلاتنا .

وتم تكرار المحاولة مرة تلو الأخرى ، حتى جاءت النلفة المطلوبة فف المحاولة الرابعة ففن سقط وجهها نصفف العجورة الى أعلى .. وتصافح الجمفع فف صوت جماعف بالعرفان والشكر للرب « فففف .. فففف » وبعد مباركة ملفنقديت بكل من نصفف العجورة ، تم الاعلان بأن الأضحفة مقبولة وان فرص اسكعادة الزعفم لصحته قد أصبحت كبفرة ، ولكن لا فسكطف أى شخص ، بالطبع ، أن ففكك بثقة تامة باسم الله والارواح العلفا والسلف من الأجداد .

ما كادت احققات الأضحفة تنتهى حتى جمعت السحب بالترفرف فلما كان العصر اككسى العالم بظل ككفف فجب الشمس . ورغم أن الوقت كان قرففا من موسم الأمطار ، فان أكثر الناس تفاؤلا لم ففصح عن أمله فف أن فبارك الآباء السماوفون الأضحفة بهطول الأمطار . ومع انتشار الدخان السمفك فف السماء وبدافة دوى الرعد بأصوات مملكة الارواح أصبح من الواضح أن الله والارواح العلفا قد اسكجابت لدعاء النمل من البشر ففهم . وعندما هب الرفح الباردة إفذانا بهطول الأمطار الغزفرة ، اسككعت القرفة بنشاط محموم ففك أسرع الناس فف جمع حوائفهم الى داخل الأكواخ وزرائب الماشفة . وكدخلت أصوات الرجال والنساء فف الهواء :

- الا ترى أن المطر قد نزل ؟ هل فمكن لأحدكم أن فحضر الخراف والماعز ؟ من الذى فرفب امر الماشفة ؟

وكرارى الناس فف كل الاتجاهات . كانت لحظة اخلط ففها الفرح بالبركة النازلة من عل مع الانزعاج بسبب التفررف المفاجئ فى الموسم . وكان هناك أيضا الخوف من أن الآباء فف الأعلى عندما فسكجبفون لدعاء أحفادهم فف الأرض فقد فعبرون أيضا عن غضبهم بارسال ضربة العصا الفف تصاحب العاصفة الرعدفة « الصاعقة » لذلك كان الرجاء من كبار القوم أن فقولوا بعض الصلوات وفنثروا فب الذرة حول أنحاء المساكن .

قال إفولفدفف وهو ففظر فجاه السماء باناء من القرع ففه كمة من الذرة ففده الفسرف وفده الفمنى مملوءة فبب الذرة :

- فاء الله والدنا العظفم .. نحن نرحب ببركك وهواء الحفاة البارد الذى جاء به مطرنا لمنازلنا . انه برد الصفة والعاففة العامة لمفنقديت وقومه وقطعانهم وذلك هو ما صلنا وفقدمنا الأضحفة من أجله . دعه ففزل غزفرا لأن ذلك فسعد قلوبنا . ولكن لا تدع الخراب ففسد عملك الطفب . أصرف ضربة عصا الصاعقة عن رؤوس أحفادك ولنفكن رعدك

صوت الطبل الذى يرقصون على أنغامه وليس صوت الغضب الذى يسكتهم أو يأتيهم بحزن الحداد . ليكن برقك نورا يوجه خطانا فى الظلام وليس ضربة الموت . ثم بصق على حب الذرة فى يده اليمنى وقذف بها فى الهواء ، وبصق على الذرة فى اناء القرع فى اليد الأخرى واخذ الحب ونثره فى الاتجاهات الأربعة . وتبعه أكل الذى قال :

- اتحدث أنا فقط لأضيف صوتى الى ما قاله ايويلديت . انكم يا آباءنا العلويون قد نحتموننا الأمل ببركة هطول الأمطار . لا تدعوا أى شر يفسد ذلك الأمل . هذه هى كلمتى ..

ثم بارك الذرة أيضا بأن بصق عليها وقذف بها تجاه السماء ، واستدار وكرر العمل وقذف بالذرة فى جميع الاتجاهات .

وهطلت الأمطار بغزارة مصحوبة بالرعد لدرجة أن الناس التصقوا ببعضهم البعض فى مزيج من عواطف الراحة والرغبة ، الرجال مزدهمون فى زرائب الماشية والنساء فى الاكواخ ، وجميعهم يجدون بعض السند فى قربهم من بعضهم البعض . ومما يشهد على ولاء الدينكا لقطعانهم أنهم قد جمعوها كلها وادخلوها فى زرائبها . كان ذلك عملا هينا بالنسبة للأغنام لأنها بمجرد أن شممت رائحة المطر وبخاصة عند نزول القطرات الأولى منها أسرع نحو الزرائب لأنها تخاف من الشعور بالماء على صوفها . ولكن الخراف كانت صعبة المراس لأنها ، رغم انزعاجها من المطر ، كانت مضطربة لدرجة أنها لا تعرف ماذا تفعل .. بجانب الالتصاق الى بعضها البعض كالقطيع أخذت تتبع أى اتجاه يأخذه أى واحد منها . ولم تكن الماشية أحسن حالا من الخراف . الا أن تلك المواقف الحرجة هى التى أوجبت على الدينكا إتقان خبرات قيادة القطعان منذ الطفولة ، وهكذا لم يفقد حيوان واحد خلال الاضطراب الناشئ عن هطول الأمطار .

استجار الياس ورفاقه بمبنى جدرانته من الطين وسقفه من القش يستخدمه والد الياس كقاعة للمحكمة . كان المطر يتوقف لفترات قصيرة ولكنه واصل الهطول طوال الليل تقريبا . وتبع مغامرة الليل تحول معجز فى البيئة صباح اليوم التالى . امتلا الجوبأصوات الضفادع والحشرات . وتحولت الأرض المحيطة بقرية داك - جور الى بحيرة كبيرة ، حيث انتشرت الطيور من كل لون وشكل وحجم تنشر أجنتها وتغرد بأصواتها المميزة أغانى الراحة والفرح . وأضافت الفراشات والحشرات الطائرة مساهمتها فى نسيج عالم المخلوقات الملونة الطائرة . وفى المواقع الجافة ظهرت مجموعات من الحشرات الحمراء تسمى الويلدنيق وأخرى داكنة الحمرة اسمها نيانكوتكوميت . ومما زاد جمال الظهور المفاجئ لكل هذه المخلوقات الحية تناقض ذلك مع الظروف الكالحة المحرقة لليوم السابق - الموسم السابق - ..

هكذا تتناقض البلاد التى تحكم فصولها ثنائية الجفاف والامطار - التحول الحاسم فى البيئة كالليل والنهار - وبذلك تخلق ظروف الحياة والموت لكل مخلوقات الله على الأرض . لم يصل الانسان طلبا لسطوع الشمس وإنما صلى طلبا للمطر والرياح الباردة التى تصاحبها . ولكن حتى تلك البركة والخير يمكن أن يكون مصدر خطر وموت عندما تتبادل مواسم الحر والجفاف والحرمان من جهة ، والمطر والخضرة الكثيفة والوفرة ، من جهة أخرى ، فى وزن دقيق قابل للاختلال . ولكن هذه المرة كانت كلها خيرا وبركة من الآباء العلويين .

الجزء الثاني

(النشأة والتكوين)

الفصل الثالث

إلياس مبكراً ، استاك ثم غسل وجهه ثم جلس على مقعد خارج محكمة والده ،
استيقظ وبعد قليل انضم إليه رفاقه . وأثناء تناولهم لشاي الصباح وهم يتعجبون لتحول
الطبيعة ، جاء أحد الصبية ليخبر إلياس أن والده يرغب في مقابلته . أسرع إلياس
إلى كوخ والده حيث وجدته ومعه والدته ، وكان والده يحتسى الشاي بحيوية ظاهرة . لم يكذب
بصدق إلياس التحول الظاهر على والده .

- « كيف نمت يا والدي ؟ »
- علي احسن حال . اشعر اني احسن بكثير مما كنت منذ وقت طويل .
- ثم خاطب ملينقديت الويل قائلاً :
- صبي كويها من الشاي لايك .
- شكرا ، فقد شربت الشاي لتوى ..
- اشرب المزيد .
- حسنا اذن ، دعني اصبه انا ...
- قال الياس موافقا .
- الويل ، ربما يكون من الاحسن ان تتركينا الآن وحدنا . اريد ان اتحدث مع بول .
- وما الذي ينعنى من حضور حديثكما ؟
- قالت الويل في احتجاج متواضع .
- هناك اشياء لاينبغي ان يعرفها إلا الرجال : ولكن ، بعد إعادة النظر ، ربما يكون من
الافضل ان تعلمي ما ساقول هذه المرة . ولكني اريد ان يبقى هذا سرا بيننا . إنكن

معشر النساء لاتحفظن الاسرار . من الضروري ان تحتفظى بما ساقول لنفسك .
- اى سر فضحته انا . من قبل ؟

تساءلت الويل مع ضحكة توفيقية جعلت ماقاله مليونديت كتاكيد لخصوصية ما سيقال
اكثر منه نقدا لها هي :

- كما قلت لك ياابنى فقد نمت بصورة طيبة ليلة البارحة ، واشعر بتحسن واضح
اليوم

قال مليونديت مواصلا حديثه . « لقد حدثت عدة اشياء ارى انه من الضرورى ان
اخبرك عنها . يبدو ان ماقلته لك بالأمس عن رسالة الاسد قد ظهر فعلا . لقد كنت نائما
عندما استيقظت على صوت زئير أسد . لم يكن زئير اسد جائع ، وانما زئير سلمى .
وعندما استيقظت تماما وحاولت ان اسمع المزيد بانتباه ، لم اسمع شيئا . وسألت
المرأة ، زوجة أبك الشابة والتي كانت نائمة معى ، ولكنها قالت انها لم تسمع اى زئير
لأسد ، وصرفت الامر الى أنه مجرد حلم . لم انازعها فى الأمر ، ولكننى مثيقن انى قد
سمعت زئير أسد . وأسترجعت تجربتك ثم شعرت أنه حتى لو كان حلما فهناك رسالة فى
ذلك الحلم . على كل حال ، فقد قررت ان اعود الى النوم مرة اخرى .

كنت قد نمت لفترة وجيزة عندما استيقظت مرة اخرى ولكن هذه المرة على صوت نعيق
بومة . لقد كانت على رأس هذا الكوخ . كان المطر قد توقف لوهلة . وهذه المرة سمعتها
زوجة أبك أيضا . وأرادت ان تخرج لتطرد البومة ولكنى منعته من ذلك . يعتبر اهلنا
اليوم طائر شؤم لأنه يتحرك ليلا . ولكن ولنفس السبب ، فإنه طائر حكيم لأنه يرى
الاشياء فى الظلام ، اشياء لايراهها الآخرون . وشعرت أنه ربما كان فى تلك الزيارة دلالة
خاصة وغرض معين . لذلك قلت كلمات قليلة فى الصلاة لأجدادنا طالبا ان يكشفوا لى
غرض زيارة الاسد والبومة . لقد أعادت الزيارتان إلى ذاكرتى فاجعة أسرتنا حين نعى
اليوم ثم تبع ذلك هجوم العرب وتدخل الأسود ضدهم . على كل حال ، فقد صليت طالبا
لمعرفة دلالة هاتين الرسالتين .

ثم عدت إلى النوم مرة اخرى حيث رأيت حلما مدهشا . رأيت ان حربتينا المقدستين ،
علامة قيادتنا السماوية ، مشتعلتان بلهب أبيض وقد استدار حولهما ثعبان من نوع
الأفعى النافخة وهو رمز عشيرتنا ، لم يكن الثعبان متأثرا بحرارة اللهب الذى كان مجرد
حلقة من النور . وأخذت ذلك بأنه يعنى نور ارواحنا . وأنا لاازال فى الحلم ، قمت واقفا
وصليت امام الحربتين طالبا للاستيضاح ، ثم مسحت الثعبان بالزبدة ووضعت امامه
قطعة من الزبدة الذائبة . ووقتها ظهر والدى بجانب الحربتين ومعه شخص لم أتمكن من
التعرف عليه بسهولة . وكان ذلك الشخص ممسكا بحبل ملفوف حول عنق الثور « ملك »
الذى قدم قربانا بالأمس . ظهر الثور حيا مثله مثل أى حيوان فى القطيع .
تحدث أبى أولا فقال :

ياابنى ، أستمع لحديثنا جيدا ولكن لاتحاول ان تلمسنا . نحن من عالم غير عالمكم .
الرجل المرافق لى هو مليونديت الروح التى سميت أنت عليها . أنت تعلم انى سميتك عليه
لأنه أنقذ قومنا من كارثة الجدرى . أنه واهب للحياة وليس بقاتل . ورغم ذلك ، فقد كان
ايولديت محقا عندما أستنتج ان مليونديت كان يريد ان يأتى بك الى عالم الموتى .
وكان هدفه من ذلك حسب نقاشه للامر معى هو ان ينقذك .

لقد كنا نراقب عالمكم وقد أزعجنا بشدة أن نرى التحولات التي لاحظناها . لقد تغير قومنا بسبب قوى أجنبية . جاء الأنجليز أولا وادخلوا شبابنا في دينهم وعلموهم لغتهم ومنهجهم في السلوك . ولكنهم على الأقل تركوا غالبية قومنا تحت قيادة زعمانهم ليحيوا حياتهم على نهج الأسلاف . ثم جاء العرب من الشمال وأبعدوا المصريين والآنجليز وقالوا أنهم يريدون للسودان أن يكون حرا من الحكم الأجنبي وأنهم يريدون لعرب الشمال والقوم السود في الجنوب أن يتحدوا في أمة واحدة . ولكن هذا تحول الآن الى كارثة بالنسبة لقومنا حيث تعرضوا لنوع الحروب التي كانت تدمر بلادنا قبل حضور الأنجليز . والآن يتم تحويل قومنا الى مسلمين ويصرفون عن دين أجدادهم . وهكذا تم تحويل أهلنا مرتين خلال فترة حياتك أنت ، أولا إلى نهج الأنجليز والآن الى نهج العرب . وبذلك الت قدرتك على التحكم في الأشياء حسب أساليب عهد الأسلاف القديم إلى الضعف والذوال .

وأصل والدي حديثه ليقول :
لتحافظ على موقفك عليك أن تجعل قومك يصدقون أن قدرات أسلافهم لا تزال سارية حين أن قومك فقدوا القدرة على التحكم في أمورهم . يقال الآن بضرورة إلغاء نظام الزعامة واستبدال الزعماء بقيادة منتخبين . أن هذا يعنى نهاية قيادة الأسلاف من خلال الزعماء السماويين . ويزعم ملينقديت ، وأنا أوافق في ذلك ، أنها ستكون كارثة لو تمكن الحكام الأجانب من إنهاء زعامتنا القديمة . سيكون من الأفضل أن تنسحب أنت بطريقة طبيعية وتترك جيل الشباب ليتولوا سلطاتهم بالطرق التي يعرفونها جيدا .
سنواصل نحن أسلافهم ، ومعنا أنتم ابناءهم ، مراقبة أحوالهم عن كثب ونبارك جهودهم من هنا لكي يحتفظوا بأسماء قومنا حية ويحققوا تحكما مؤثرا على أمورهم هم . هذا هو السبب الذي من أجله أرسلنا الأسد لمقابلة بول ليعلم أن أرواح عشيرتهم معهم حتى في بلاد الغربية البعيدة . لقد أستمتعت أنا وملينقديت لصلوات كبار القوم من أجل ابقائك لمصلحة القوم وقررنا الاستجابة لطلبهم في الوقت الحاضر . ولكننا ياابنى قد ظهرنا لك لكي ننصحك بأعداد أبنائك لتولى الأمور وتقديم القيادة التي يحتاج لها القوم حسب مقتضى الأحوال السارية الآن . ولكي ينجحوا في مواجهة التحدى ، لابد أن يجتمع أولادك معا . أفنع بول أن يبحث عن أخيه اشويل الذي اختطفه العرب وهو طفل صغير وكذلك مديت الذي اختفى بعد ذلك . لقد أكتشفنا موضعهما . يعيش احدهما حياة خطيرة في مدينة عربية . أما الآخر فقد لقي توفيقا طيبا لكنه تحول إلى أعرابي تماما .. يجب على بول . البحث عنهما وإعادةتهما إلى خدمة قومهم معه هو . هذه هي كلماتنا : سوف تبقى أنت على قيد الحياة بالقدر الذي يحقق هذه النبوءة .. وبعد ذلك سنحضرك لكي تتقاعد بوقار وتحفظ ميراث الأسلاف في القيادة . يجب أن نذهب الآن . مع السلامة ياابنى ..
بعد ذلك ذهبت في نوم عميق حتى إستيقظت هذا الصباح وأنا أشعر بتحسن كبير . وهكذا ، ياابنى ، هذا ماحدث ليلة البارحة وتلك هي كلمات والدي . ليس عندي المزيد لأضيفه إلى ذلك .

ومع حديثه ، أشار إلى الحربتين المقدستين المركوزتين في خلفية الكوخ . لقد تم توارث الحربتين الكبيرتين ، إحداهما في شكل صفق الشجر والأخرى في شكل رمح ، تم توارثهما عبر الأجيال في الأسرة منذ عهد موغل في القدم ، حيث كانتا رمز قوة الحكم السماوى . كانت الحربتان مركوزتين على قطعة من الجلد المسوح بالزيت وبجوارهما

كان يرقد ثعبان من نوع الأفعى النافخة وأمامها قطعة من الزبدة الذائبة .
صاح اليباس الذى كان حتى تلك اللحظة مستغرقا فى الرواية فى صمت واستحواذ تام .
- ما هذا ؟

.. فاجاب والده قائلا :

- استيقظت هذا الصباح ووجدت الأفعى هنا . وهكذا قمت وقلت بعض كلمات الصلاة واعطيتها الزبدة . كما ترى ، ياابنى ، لقد نجوت من هذا المرض .. وسوف اظل حيا لبعض الوقت ، ولكن لا بد من تحقيق ارادة اسلافنا . يجب ان تجد اخويك وتعمل معهما من اجل غاية السلم والرفاهية لقومكم . لم يعد هناك اى موجب لبقائك هنا . يجب ان تعود لانجاز مهمتك .

لاحظ إلباس أن عيني أمه كانتا مثقلتين بالدموع . وعندما انتهى والده من حديثه ، لم تتمالك أمه نفسها وأنفجرت باكية . غضب ملينقديت لهذا السلوك وقال :

- الويل ، هذا هو بالضبط ماكنت أخشاه عندما طلبت منك الخروج . كيف تجربين على البكاء بسبب نبوءة الاسلاف ؟ ألم تسمعى انى لن اموت الآن ؟ هل هذا الخبر يسبب البكاء أم كنت تودين لو مت ؟ لا اريد ان ارى اى دموع أخرى وإلا فانك ستجعليننى أقول كلمات قاسية ..

قالت الويل فى احتجاج وهى تمسح دموعها ..

- كيف تقول هذا؟ كيف تتحدث بمثل هذه الطريقة الباردة عن أولادنا التوأم، وكيف تسترجم ذكراهما وتتوقع منى عدم إظهار شعورى؟ ألا ترى أنى حاولت جاهدة أن أنسى ولكنى لا أستطيع؟ وهانذا تتحدث عنهما وكأنهما لا يزالان على قيد الحياة وتتوقع منى أن اظل هادئة؟ لعلك تريدهما للقيادة ، أما أنا فلا ابالى ما اذا اصبحا قادة ام لا ، وإنما ادعو الله أن تكون محقا وأن يكونا على قيد الحياة وبصحة جيدة ..
وأثناء حديثها كانت تجهش بالبكاء .

- ايتها المرأة ، ليس ماقلته من كلماتى أنا ، انما أنا مجرد لسان ينطق عن الاسلاف . يجب الا تشكى فى صحة كلماتهم . انك تتحدثين وكان اطفالك قد ولدوا لامرأة من غير أب لهم . هل هم اطفالك أنت وحدك أم هم اطفالنا معا ؟ توقفى عن البكاء وإلا فإنك ستغضبين اسلافنا وتجعلينهم يأخذون أولئك الاطفال إلى الأبد .

شعر اليباس بأنه بعيد عن عالمهم لدرجة أنه لم يعرف كيف يتصرف . لقد كان يعلم حقا عن قصة أخويه المفقودين ، ولكنه لم يدرك من قبل ماتعنيه ذكراهما لوالديه . وفى حقيقة الأمر ، كان اليباس منزعجا نوعا ما من الاشارة لدور أخويه فى القيادة . هل يعنى هذا أن والده ، وهو صاحب الفكرة على مايببدو ، غير راض عن دور اليباس ؟ أم لعله متالم لفقد ولديه الآخرين وأراد أن يبرر تجديد البحث عنهما ؟

صرف إلباس هذه الأفكار المتشككة عن ذهنه واستبشر لخاطر احتمال بقاء أخويه على قيد الحياة . كم يكون رائعا أن يجتمع بهما ! وبما أنهما أكبر سنا منه ، لعلهما يعينان على تحمل اعباء القيادة . عبرت هذه الخواطر ذهنه فى لمحة وهو يستمع لوالديه بينما يواصل مراقبة الثعبان .

- ياابى ، هل هذا الثعبان قاتل ؟

تساءل اليباس عن أمر كان يشعر بأنه يقتضى الاهتمام العاجل فقال :

- لننقله أو نتخلص منه بطريقة ما .

- يا ابني ، هذا هو بالتحديد ما كان يعنيه اسلافك . طرقكم مختلفة ، ولكن يجب ان تفهم طرق قومك . اى قوة تكون قاتلة هى ايضا قادرة وبنفس القدر على حماية الحياة . إن عشبنا مشهورة بقدرتها على الاهلاك عن طريق توجيه اللعنة ، ولكننا ايضا مشهورون بالقدرة على تقديم الحماية الروحية لقومنا . هذا هو ماترمز اليه هاتان الحربتان المقدستان . وكما أن قدرتنا على الاهلاك مؤثرة فقط على المعتدين ، فان قدرة الجد الراقد عند الحربتين قاتلة فقط للذين يستحقون العقوبة . بخلاف ذلك ، فهو مصدر حماية . الا ترى أنه هنا بإرادة الله وإرادة الأسلاف ؟

- اليس هناك اى شىء يمكننا عمله يا ابني لحماية الناس من احتمال حادث مع

الثعبان ؟
- تدخلت أمه قائلة : عليك ، أن بول يقول الحق هذه قرية بها عدد كبير من الناس . من المحتمل أن جدنا الأفعى النافخة قد يريد التحرك في أنحاء القرية وقد تطؤه الماشية او يطؤه الناس عن طريق الخطأ . وقد يأخذ هو ذلك ماخذ الإهانة ويرد على العدوان . وبذلك نكون قد فتحنا جبهة جديدة مع الأرواح . لذلك أقترح ان يؤخذ الأفعى بعيدا حماية له ولمنع الأذى من الآخرين .

قال ملينقديت موافقاً : اذهب للبحث عن حمل يكون تشكيل ألوان جلده أقرب ما يمكن من لون الأفعى النافخة . ثم اطلب أنت ايولديت أن يحضر برفقة أخى اكول . سوف نقدم الحمل قرباناً للأفعى قبل أن نأخذه بعيداً من هنا . يجب أن نتوسل إليه وللأسلاف لنوضح أن أخذه بعيداً ليس تعبيراً عن الرفض وإنما للحماية .
- ليس فى ذلك ما يمكن الاعتراض عليه .

قالت الويل ذلك مؤكدة وهى تشعر بالسعادة لأن الزعيم قد استمع إلى نصيحتها : وعلى كل حال ، فقد بلغتنا رسالته وسوف نعمل بمقتضاها .

كانت قرية داك - جور حافلة بالاحتفالات تقديراً للكرامة والبركة المعجزة بنزول الأمطار وشفاء الزعيم ملينقديت . وبذلك ازدادت وتعمقت سمعة ايولديت التشخيصية والعلاجية المعروفة، وأخرجت الطبول واستجابت القبائل البعيدة لنداء الطبول فجاءت لتشارك فى الرقص والغناء تعبيراً عن الفرح والامتنان . وذبحت البهائم وأعدت الأطعمة فى وفرة كبيرة . وتواصلت الاحتفالات لأيام إلا أن سر الرسالة السماوية بقى محفوظاً بين الياس ووالديه .

خلال أيام من نزول الأمطار التى بشرت باستجابة القوى السماوية للصلاة من أجل عافية الزعيم ، هطل المزيد من الأمطار واستمرت البيئة فى التحول . وحينها تغطت السهول ببساط من العشب الأخضر الجديد وأزهرت الأشجار وانتشرت الضفادع والحشرات فى النهر . فكانت سمفونية الطبيعة موسيقى ينام عليها الناس فى المساء وأنغاما يستيقظون عليها فى الصباح . وأشجع الأطفال رغبتهم فى الاستحمام البارد فى برك الماء حول القرية بينما انتشرت الأبقار تأكل من وليمة العشب الكثيف .
ورغم أن إلياس قد أصبح أكثر استيقاناً من صحة والده إلا أنه كان يشعر بضرورة أخذه معه الى الخرطوم للكشف الطبى والعلاج اذا دعا الحال .

فقال والده : « لاارى داعيا لذلك ياابنى ، لقد افصح اسلافنا عن ارادتهم وعلينا العمل بها . لاحاجة لى بنصح الأطباء » .
- ياابى ، انى اثق فى حكمة ارادة الاسلاف ، ولكنى لاارى ضررا من استكمال ذلك بالانتفاع بالطب الحديث ..

- ولكن ذلك سيجعل اسلافنا يعتقدون أننا لانثق فيهم .

ياابى فى وقتنا الحاضر يجب الا نعتقد بوجود تعارض بين نهج الاسلاف ونهج العالم المتقدم ، يجب فض هذا التعارض .

ترك الياس الأمر عند ذلك الحد وهو موقن أنه سيحتاج لدعم كبار القوم بما فيهم ايولديت ، الرجل المقدس . ولدى أول فرصة للحديث مع ايولديت فى حضور والده ، اثار الياس الأمر بطريقة يضمن بها أن العراف لن يفهم الأمر وكأنه طعن فى جهوده هو قال الياس : إنى أعتقد أنه من الأحسن استخدام كل وسائل الدفاع المتوفرة لدينا ضد المرض . فمن الأفضل التأكد بدلاً من أن يذهب المرء ضحية .

وكانت مهمة اقناع ايولديت أسهل بكثير مما تصور إلياس لان العراف كان لايرى اى تعارض بين المذاهب المختلفة نحو عافية مليونديت .

قال ايولديت : لقد كان رأبى دائما ، كما قلت أنت ذلك اليوم ، اننا نعمل جميعا لنفس الهدف وهو عافية وسلامة الإنسان ، ونحن نلجأ مباشرة إلى الله واسلافنا طلبا لزوال الشر الذى يهدد الحياة ، ولرد العافية وحماية رفاهية الانسان فى المجتمع . بينما يعتمد الأطباء أكثر على العلاج الذى يصنعه البشر . ولكن بدون مباركة الله أو ارادته ، فلن يجدى علاج الأطباء . الا ترى اننا نعمل جميعا إلى نفس الهدف ؟

وهكذا تقر فى نهاية الأمر أن يأخذ الياس والده معه الى الخرطوم . وتم اختيار إحدى زوجات الشيخ الشاب لتصاحبه وتمرضه . إلا أن الويل أصرت أيضا على الذهاب قائلة :

- إننا نصلى لشفاء مليونديت ، ولكنى أريد أن أكون بجانبه فى مرضه وخصوصا اذا توفى .

وأنتهى الأمر على كلمتها ، رغم أن إشارتها لاحتمال وفاة مليونديت قد صرفت على أساس أنها صورة غير مناسبة من صور الاستسلام للقدر .

وحرصا منه على الجمع بين العناية بوالده وواجباته كعضو فى الجمعية التأسيسية ، كان رأى الياس أن يغادروا القرية بمجرد استكمال الاعداد لسفر والده . وعندما أن أوان السفر ، أعد مكانا لرقاد مليونديت على ظهر العربة على أن تجلس الويل والزوجة الصغرى بجانبه . وجلس الياس والحارس بجانب السائق . وأصر مليونديت أن يأخذوا معهم حملا لتركة فى الموضع الذى ظهر فيه الأسد ليكون هدية أو رمزا للعرفان . وربط الحمل إلى سياج السيارة فى الخلف .

كانت الرحلة متعبة لأن الأمطار قد أغرقت سطح الأرض الذى كان من قبل مثل الطريق المعبد فجعلته ثقلا بالطين والأوحال . وبذلك أصبح الطريق وكأنه خط طويل من الوحل الذى عوق السير فى العديد من المرات .

فكان كل الركاب ، ما عدا مليونديت وزوجتيه والسائق طبعاً ، ينزلون لمعاونة محرك السيارة فى دفع العربة . ولم يعبأ أحد لحماية ملابسه أو جسده من الاتساخ بالطين . وكلما زاد

اتساخهم بالطين ظهر أنهم يعملون بجد واجتهاد . وبذلك تصاعد شعورهم بالفضيلة .
وعند وصولهم إلى الموضع الذي ظهر فيه الاسد توقف السائق بموجب التعليمات التي
تلقاها مسبقا ، وهو يسأل الياس والمرافقين قائلا :
- اليس هذا هو الموضع الذي ظهر فيه الاسد ؟ »

ووافقوه على ذلك ، وكان الزعيم مليونيديت مجهدا لدرجة لم تمكنه من القيام بالطقوس
اللازمة . ولكنه قال بعض كلمات القربان وهو راقد على ظهره ، ومد يده نحو الحمل ومسح
على ظهره ثم قال :

- اربطوه إلى جذع شجرة ، سيخضر صاحبه ويجده هناك .
وبعد الفراغ من ذلك انطلقوا في طريقهم مخلفين وراءهم الحمل الذي كان مثيرا لشفقة
الياس بول ، ولكن بالنسبة لوالده وأمه كان رمزا لايفانهم بالتزامهم نحو الأسلاف ووعدا
بنجاح استعادة اشويل ومديت التوامين المفقودين ، تماما كما تنبأت رؤية مليونيديت .

الفصل الرابع

يعلم كل أهل قرية داك - جور عن فاجعة التوأمين أشويل ومديت وأمهما . كان ملينقديت وأويل قد فقدا طفليهما الأولين - توأمين من الأولاد اللذين تمت تسميتهما «نقور» و«شان» حسب العرف السارى . كان الطائران ، كما يعرفهما الدينكا رمزيا .. قد طارا بعيدا .. أى ماتا فى حادثتهما . وبدأ الوالدان يشعران بالعض بميلاد ولديهما التوامين الثوانى ، أشويل ومديت ، حين حلت بهم الكارثة الأخرى

كان الحديث عن الاستقلال على أشده حين انتشرت الشائعات عن عودة أيام غزوات العرب من الشمال طلبا للرقيق وسط القبائل الأفريقية فى الجنوب . انتشرت تلك الشائعات خلال انسحاب البريطانيين وأستبدلهم بإداريين سودانيين من الشمال . وخلال أشهر قلائل قبيل الاستقلال انفجرت مخاوف الجنوب فى شكل تمرد سرعان ماتحول إلى اضطرابات واسعة الانتشار قتل خلالها المئات من الشماليين فى الجنوب بصورة قاسية . وبعد تدخل الحاكم العام البريطانى ، تم إقناع المتمردين بوضع أسلحتهم ، وأستتب الأمن مرة أخرى . واتفق الشماليون والجنوبيون بالاجماع على إعلان الاستقلال من داخل البرلمان . ولكن سرعان ما بدأت الأمور فى الانهيار . فبدلا من المحاكمة العادلة للمتمردين والاستجابة لتظلمات الجنوبيين التى وعد بها الحاكم العام ، أتجهت الحكومة المستقلة إلى الانتقام من المتمردين والجنوب بصورة عامة . ولكن لم يكن جميع المتمردين قد استسلموا بعد ، فلجأ بعضهم إلى الغابات لمواصلة القتال ضد الحكومة والذى تصاعد إلى حرب أهلية شاملة بين الشمال والجنوب .

واشعل القتال روح العداة العرقى والثقافى وبدا فى فتح جروح قديمة وإنعاش الحروب القبلىة بين العرب والدينكا . وكان ذلك الصراع على أشده فى الجهات الشمالىة الغربىة من الجنوب حىث الموجه العنيفة بين الدينكا هثيانق والعرب البقارة (رعاة البقر) . فى تلك المصادمات ، عاودت القبائل العربىة ممارساتها القديمة فى الغزو لأخذ الأبقار والرقيق . بالنسبة لأسرة ملينقديت بالتحديد ، تعود الكارثة إلى الليلة التى نعقت فيها البومة ، منذرة القرىة بالغزوة الوشيكة الوقوع . كان الدينكا ميثانق قد اشتبكوا مع العرب وأوقعوا بهم خسائر كبرىة فى معركة ضارية انتهت بأنسحاب العرب مخلفين وراءهم موتاهم فى العراء لتأكلهم الطيور . وذات ليلة لاحقة ، نعقت البومة وأصرت على العودة والنعيق رغم طردها أكثر من مرة . كان ملينقديت فى كوخ مع إحدى زوجاته الصغيرات فخرج من الكوخ وهو يحمل الحربتين المقدستين وغنى نشيد الزعامة السرىة الذى ينادى به فقط عندما تكون كارثة على وشك الحلول بالقبيلة .

قال ملينقديت فى الصلاة المصاحبة للنشيد :

- انتم يا أبائى ، ايا كان الشىء الذى تنعق عليه البومة ، اصرفوه عن قومى . لقد حاربنا العرب قبل قليل ، وبما اعرفه عنهم ، فانهم سيعودون طلبا للانتقام . اقلل طريقهم يارب أبائى . لم نكن نحن البادئين بالعدوان ، وانما العرب هم الذين طاردونا كالحيوانات . ذلك هو السبب الذى من أجله منحتم انتم آيتها القوىة العلوية النصر لقومى . لا تهجرونا وقفوا معنا . لتكن مباركتم هى درعنا . لا تمكنوا العرب من إهراق نقطة دم واحدة فى هذه القبيلة .

وبمجرد أن عاد الزعيم ملينقديت الى سريره سمع صوت زئير أسد على البعد . ومثله مثل بقية الدينكا ، فقد كان ملينقديت يعلم عن مخاطر بينتهم وسلوك الحيوانات الوحشية . لذلك كان من الواضح له أن ذلك الأسد كان يتصارع مع ضحية . لم يكن الزئير صادرا عن أسد هارب وإنما عن أسد مقاتل . ولكن مع ماذا أو مع من ؟ هل كان ذلك مع ظبى أم بقرة أم مع انسان .

كان ملينقديت يستمع فى انتباه الى أصوات الأسد عندما سمع صوت سهيل الخيل فى وسط القرىة . وبعد ذلك مباشرة سمع صياح النساء والأطفال ، وقد اختلطت أصواتهم مع أصوات الخيول . وأسرع ملينقديت خارجا وكذلك خرج بقية رجال القرىة ، الا ان ما وجدوه قد أحبطهم تماما . كان العرب قد اختفوا ومعهم الويل ، زوجة ملينقديت ، وأشويل ، أحد ابنيها التوامين . اما مديت ، التوام الثانى ، فقد سقط من على أحد الجياد وظل راقدا على الأرض وهو يبكى وغير قادر على الحركة - فقد أصيب بكسر فى عظم المقعد .

كان التوامان وقتها دون الثانية من العمر ، وفى تلك الليلة كانا يعانيان من مرض الاسهال . وفى حدة الغضب الأعمى أو التهور ، كانت الويل قد فتحت باب الكوخ وأخذت التوامين الى الخارج رغم نصيحة النساء لها بعدم الخروج . ربما فعلت ذلك تقديرا لشعور النائمين بالكوخ الذين قد يتأذون من اسهال الأطفال ، ولكن لدى استرجاع ما حدث ، فقد كان سلوكها فى غاية الطيش ، وخصوصا باعتبار الخوف من الحيوانات المفترسة ومن الانسان الذى كان سائدا وقتها .

تعالت صيحات الحرب وانضم العديد من الشباب الآخرين الى شباب القرىة فى البحث عن العرب . ولكن لم يكن هناك اى أثر يمكن ان يدلهم على اتجاه البحث ، فكان جهدا

ضائعا وخطرا . وبناء على نصيحة كبار القوم ، تقرر ايقاف البحث ومواصلته في الصباح .

وسريعا ما انتشرت الاخبار بأن العرب قد جاءوا في جماعة وأن أسدا قد قطع عليهم الطريق ، وهو الأسد الذي سمع صوت زئيره في قرية ملينقديت . هاجم الوحش العرب وقتل أحدهم وقد وجدت اشلائه مبعثرة في موقع الهجوم صباح اليوم التالي . وكما ظهر من آثار الخيول والأقدام في المنطقة ، فلا بد أن يكون الأسد قد جرح آخرين . وعلى ما يبدو ، فقد سمع الناس القريبون من المنطقة أصوات العرب وخيولهم وعلموا أن اعداءهم في معركة مع الوحش ، وقرروا غض الطرف عن الورطة التي وقع فيها غزاة الرقيق علما بأن واقع الحال هو أن يكونوا هم أو الأسد ضد العرب .

ورغم أن فاجعة اختفاء أشويل قد أحرزت ملينقديت وأسرته ، إلا أنهم وجدوا العزاء والعض في عودة الويل . إلا أن الويل نفسها ظلت تعاني الألم العاطفي الشديد لفقدائها أحد أبنائها . كما أنها لم تسامح نفسها لأخذها التوأمين خارج الكوخ في تلك الليلة المليئة بالأحداث وكانت تشعر بالذنب لهربها من معسكر العرب وحدها مخلفة أشويل أسيرا لدى العرب . ولكن لعل أكبر من عانى من تلك الأحداث هو مديت . فرغم أنه قد نجى من الغارة ، إلا أن كسر عظم المقعد لم يلتئم أبدا . ووسط الدينكا المفرطين في الحرص على الجاذبية والجمال الجسماني ، فقد كان عيب مديت الجسماني مصيبة شخصية كبرى .

تم ارسال كشافين لتتبع آثار الخيول ، ولكن تداخلت آثار الأقدام والخيول بحيث أصبح من الصعب تحديد الجهة التي ذهب فيها العرب . هذا بالإضافة إلى أن معسكرات العرب كانت متناثرة ولم يكن من السهل تحديد المعسكر الذي استقر فيه الغزاة . وأوشك الناس على اليأس من معرفة مكان الويل حين جاء الخبر عن المعسكر الذي تم فيه علاج بعض الجرحى من آثار هجوم أسد . وبما أنه لم يكن هناك حادث آخر مع أسد في المنطقة ، فقد أوحى الخبر بأن أولئك قد يكونون حقا هم الأعداء المطلوبين .

وتم وضع خطة للهجوم المفاجيء على المعسكر بحيث يوجه المهاجمون نداءات لأويل وابنها بلغة الدينكا ليتجهوا نحو الانقاذ . وتم تنفيذ الخطة حسب الاتفاق ، وعندما وصل فريق الانقاذ إلى أقرب قرى الدينكا إلى معسكر العرب ، اختبأ الفريق في القرية في انتظار حلول الظلام . وعندما راح معسكر العرب في نوم عميق ، اقترب فريق الانقاذ وشكل ثلاثة صفوف . كان على الصف الأول التقدم وبدأ الهجوم بغرض إثارة الفوضى وسط العرب وقطعانهم بينما ينادى أفراد الفريق بلغة الدينكا لأويل لتسرع نحو الصف الثاني . وبما أن قطعان العرب لم تكن مربوطة إلى الأوتاد داخل الزريبة ليلا ، فقد فزعت واندفعت فكسرت السياج وداست على بعض الناس . لم يكن العرب قد استعدوا بعد لرد الهجوم عندما صدرت التوجيهات إلى الويل التي أجابت بلغة الدينكا أيضا واتبعت التوجيهات . ولكن كانت المشكلة أن ابنها لم يكن معها وقت الهجوم . وبينما كانت الويل تتجه نحو فريق الانقاذ والت الصراخ : « ابني ، ابني .. لا أعرف أين وضعه العرب » . ولكن لم يكن الوقت يسمح بالتردد ، فخلال دقائق معدودة اكتسح المهاجمون المعسكر ثم انسحبوا ومعهم الويل وقطيع من أبقار العرب . وبعد ذلك انسحب العرب بعيدا عن أراضي الدينكا ولم يسمع أحد شيئا عن أشويل .

وكانها تعوض عن تلك الأحداث ، فقد حبلت الويل مرة أخرى ، واعتبرت هي وزوجها ذلك الحمل كعوض عن فقدهما ، فأولياها اهتماما كبيرا . وظل ملينقديت يتابع أخبار حمل الويل بقدر غير معهود من الزوج عند الدينكا . كانت الويل تجد كل ما تحتاج له من الغذاء والعناية ، ومنعها ملينقديت من أى جهد جسمانى قد يؤثر على نمو الطفل .. الا ان ولادة الويل كانت فى غاية الصعوبة . وعندما بدأت الام المخاض ، دهشت النساء المتقدمات فى السن والعالمات بهذه الأمور من صعوبة المخاض لامرأة مثل الويل سبق ان ولدت توائم على مرتين . واستمر المخاض وازداد الألم .. إلا أن الطفل لم يخرج . وحسب العرف ، لم يسمح للرجال بالحضور . وعندما طال وقت المحنة أكثر من المعقول ، اجتمعت النساء الكبار حول الويل وأخذن يعرضنها الى محنة اخرى . وقالت احدى كبار النساء من عشيرة ملينقديت .

- « الويل يا زوجة أخى .. عند قومنا عادات نلجأ إليها فى مثل هذه الظروف ، على النساء الاعتراف باى ذنب يكن قد اقترفه من قبل وذلك لتفادى مخاطر الحمل والميلاد . انت امرأة ، ويمكن لاي امرأة ان تخطيء . المهم الا تعرضى حياتك وحياة طفلك للخطر بالتستر على الخطا . كل ما عليك هو ان تقولى الحق لاننا نملك الطقوس التى تزيل اللعنة الناجمة عن الذنب .

وقالت امرأة اخرى : الويل .. لقد ترك لنا السلف بعض الاعراف لمثل هذه المناسبات . صحيح ان فكرة معاشرتك لرجل آخر غير مقبولة لاي شخص فى هذا الكوخ وأنا أعلم أنها مؤلمة للغاية لاي رجل من الأسرة . إلا أننا نسألك الآن عن سر يتعلّق بالحياة والموت . اعترفى واصرفى هذا الشر . ماذا لو عاشرت رجلا آخر ؟ لن تكونى اول ولا آخر من فعل ذلك . فان القلب ضعيف ويمكن ان يميل امام الهوى العابر ، ذلك من طبع الانسان ولا يوجب ان تعرضى نفسك للموت .

وكان ذلك الحديث مثل وضع الملح على الجرح بالنسبة للويل التى قالت وهى تصرخ من الألم : أه ، ياظهرى ، ان ظهري ينكسر . انى اموت ، انى اموت ، انى مية .

وواصلت النساء المحيطات بها المطالبة : اعترفى ، اعترفى . ومع اجتماع الالم الجسمانى والعاطفى صاحت الويل : يااهلى ، ليس هناك ما اعترف به . لم اقترف اى ذنب . الله يعلم بانى لم اقترف اى ذنب . لم اسع لاي رجل . حتى عندما كنت فتاة شابة ، لم يعرف عنى انى انظر الى الرجال . ياالله ، دعنى اموت واتخلص من هذا .. لا استطيع الاحتمال اكثر من ذلك ..

تم استدعاء سريع لامرأة عرافة من قرية مجاورة . دخلت المرأة الكوخ وعليها هدوء بعث الامل فى الآخرين ، ثم وبخت النساء لاظهار الجزع الذى يعقد الامور فى نظرهما ، وتسألت العرافة فى سخرية .. وماذا لو ماتت ؟ هل ستملا الارض بحيث لا تترك مجالا لدفن الآخرين ؟ ..

وبعد ان طلبت من الجميع الخروج من الكوخ ماعدا امراتين أو ثلاثا يقين لمشاهدة عملها ، أخذت تتحسس بطن وظهر وفخذى الويل وهى تتفوه بكلمات لنفسها . ثم أخذت فى التحول التدريجى حتى دخلت فى حالة غيبوبة وتفوهت بعبارات فى لغة غير مفهومة للنساء الحاضرات . وبعد ذلك انتصبت قائمة وتجولت فى انحاء الكوخ وهى تصرخ

وتشير بيديها وكأنها تطرد شيئا ما بعيدا . كان اداؤها من القوة الغامرة لدرجة ان الويل نفسها استغرقت فيه وكادت ان تنسى ان المرأة قد جاءت بسبب حالتها هي . ثم جلست العرافة في مواجهة الويل ، وهي لاتزال تتنفس بصوت مرتفع وتبدو متغيرة لدرجة تكاد تبعث على الخوف من نظراتها الحادة النفاذة .

وقالت : والآن انظري شديدا الى داخل عيني . اني اقول لك ان الارواح قد ذهبت . لم تكن ارواحنا وانما كانت ارواحا اجنبية ، وبمعاونة اسلافنا فقد طردناها بعيدا . وعليك الآن ان تتغلبى على هذا الخوف وتلدى طفلك .

وبمعاونة النساء الاخريات ، ارقدن الويل على ظهرها وجعلنها تدفع بينما كن يعصرن على بطنها وظهرها . وفجأة خرج الطفل ثم صرخ اعلانا بان الولادة قد تمت بنجاح وسلامة ، وكان طفلا ذكرا جميلا . واستقبلت النساء الطفل بقول جماعى : ثيتى .. تبارك الله ..

وبينما أمسكت النساء ابداء عبارات الثناء التى قد تصبح نذير نحس على الطفل .. قال ايولديت للمينقديت :

ليؤخذ الخروف البنى اللون والدجاجة البنية اللون ليلا الى مكان بعيد في الغابة ويتركا هناك حيث تجدهما تلك الأرواح الأجنبية . فلا نريدها أن تعود إلى الويل طلبا للطعام .

وبما ان الطفل قد ولد بعد توأمين ، فقد تمت تسميته بول حسب عرف الدينكا في التسمية . وبحكم الظروف الحزينة التى تم فيها الحمل ولاعتباره حملا تعويضيا وبحكم مخاطر وصعوبة ولادته ، فقد اعتبر بول طفلا خاصا . ولكونه طفلا خاصا لوالديه ، فقد وجد رعاية خاصة من دائرة اوسع من الاقارب والآخرين من المحيطين بمنزل الزعيم ملينقديت . الا ان تفانى الويل لطفلها كان زائدا عن كل ذلك ، وقامت بنظم بغض الابيات التى أصبحت اغنية مدح ينشدها كل من يحمل الطفل ويهدده في حنان وايقاع مصاحب للغناء .

الطفل الاسمر يا اسمر

العرب لامك قد سحروا

والدينكا أمك لم تهجر

مولود في قلب الماساة

لكنك جئت على قدر

ابسم لا تلفت عين الشر

من عاين بشرتك السمرا

كيف ينفث في حبي سحرا

اعماه الله واعمه قدرات عشيرتنا قهرا

اصغيري ارقد في سلم

فبلادك في ايد اخرى !

كان ملينقديت يحب الاستماع الى تلك الاغنية وهو يتوهم نوعا ما ان زعامته هي الايدي الامينة التى تضمن السلام في البلاد ، ولكنه كان يعلم جيدا ان حمايته واهية في احسن الاحوال .

كان الوقت قد أوغل في موسم الامطار قبيل نضج المحصول الجديد ، وذلك هو الوقت الذى يوشك قوت الناس فيه على النفاد مما يحوجهم الى دعم مصادرهم الضعيفة بجمع عدة أنواع من الاطعمة من البيئة الطبيعية المحيطة بهم ، من أوراق الشجر وأنواع من الحبوب والفواكه والخضراوات والذرة البرية . وكان احسن ما يمكن جمعه هو الأرز البرى فى المستنقعات القريبة من القرى . وكانت النساء يقمن بجمع تلك الاطعمة بجهد جهيد وذلك بوضع أنية من القرع على رؤوس النبات الذى يشبه التين حتى يتمكن من جمع حبوب الأرز البرى .

كانت الويل غائبة معظم النهار وهى تعمل فى جمع الأرز البرى وقد تركت بول فى رعاية نساء القرية . وبما انه كان يفتقد أمه ، وربما لأنه كان جائعا أيضا ، فقد أخذ بول فى البكاء بصورة لفتت نظر والده ملينقديت . كانت إحدى أمهات الطفل الصغيرات .. إحدى زوجات أبيه الاصغر من والدته .. تغنى له وتحرك اناء من القرع لاصدار صوت رتيب أملا فى أن تجعله ينام ، ولكن بلا جدوى . وعلى غير العادة ، حمل ملينقديت الطفل بنفسه وأخذ يهدده على كتفه ليهدأ ، ولكن بلا جدوى أيضا . وبعد وقت طويل أجهد بول نفسه لدرجة انه ذهب فى نوم عميق لم يستيقظ منه الا بعد عودة أمه .

لعل تلك الواقعة هى التى حفزت ملينقديت لأن يقترح أن الأوان قد حان لفظام بول وارساله لجديه من ناحية أمه . كان عمر بول وقتها لا يعدو العام والنصف . ورغم زعم ملينقديت ان الولد قد أصبح أكبر من أن يواصل الرضاعة الا ان تلك السن كانت مبكرة لفظام طفل عند الدينكا . وربما كان ملينقديت يشعر بالحاجة للتعويض عن فقد اشويل ومصيبة مديت وذلك بالحصول على طفل آخر فى وقت مبكر مما هو متعارف عليه . فقال ملينقديت لأوليل فى حنان واضح : يا زوجتى العزيزة .. هذه الأوقات قاسية ، وميلاد الاطفال يضمن بقاء واستمرار القوم .. وبذلك القول كان ملينقديت يعنى أكثر من مجرد ضرورة ارسال بول لجديه من ناحية الام للفظام ، ان كان يرمى الى رغبته فى معاودة معايشة زوجته وهو أمر يحرمه عرف الدينكا خلال فترة الرضاعة . فحسب الاعتقاد السائد ، فان انتهاك تحريم المعايشة بين الأزواج خلال فترة الرضاعة يسبب المرض ، وربما الموت ، ليس فقط للطفل وانما ايضا يهدد حياة بقية الاطفال الرضع فى القرية .

واحست الويل بالخجل من الايحاء بالمعايشة الزوجية وهى جالسة على الأرض مقابل سرير زوجها وقد عقدت رجليها تحتها فنظرت الى اسفل من غير هدف واضح . كانت غريزتها تعارض الاقتراح ليس فقط لشعورها بأنها تحتاج لزمان اطول مع طفلها وانما ايضا لانها كانت تخشى الاقاويل التى تنطلق فى القرية حول مثل هذا الفطام المبكر . فقد يبدو الامر وكأنها متشوقة أكثر من اللازم لمعاودة معايشة زوجها رغم ما يعنيه ذلك من تهديد لمصلحة الطفل . ردت الويل على اقتراح زوجها فى صوت خفيض ومستسلم لا يعبر عن حقيقة شعورها .

- كيف استطيع ان ادفع طفلى بعيدا عنى وهو فى مثل هذه السن المبكرة ؟ حتى الأرواح سوف تعترض على تصرفى ؟

شعر ملينقديت بالتحدى من اشارتها للأرواح ولكنه فسر ردها بأنه تعبير عن الحياء وليس نقدا ومعارضة له هو . ورغم أنه لم يستفز لقولها فى حقيقة الامر ، إلا انه أحس

بضرورة تأكيد سلطته الروحية فقال :

- منذ متى أصبحت أنت تتحدثين باسم الأرواح ؟

قال ذلك وعلى وجهه ابتسامة ساخرة بعض الشيء :

- لا تنسى انى انا الذى اطلق الابقار المقدسة لارواح الاسلاف من اجل الزواج منك .
انا الذى ينبغى أن يعلم ما يحقق مصلحة ارواح العشيرة . وانا قد اطلقت الابقار
المقدسة من اجل الحصول على الاطفال .

عندما تفكرت الويل فى كلمات ملينقديت عاودتها خاطرة طالما مرت عليها فى العديد من
المناسبات . لولم تكن قد أصرت على ارضاع طفليها التوامين طوال تلك الفترة لكانا قد
ذهبنا الى والديها فى غالب الحال وبذلك يكونان قد نجوا من المصيبة التى حاقت بهما . لقد
زادت تلك الخاطرة دائماً من شعورها بالذنب . لذلك ، عندما راودتها فكرة الاحتفاظ بطفلها هذه
المرّة قررت على الفور التراجع عن موقفها وعلى كل حال ، لم يكن الأمر من النوع الذى
يناقشه الزوجان وهما جالسان على البعد من بعضهما البعض ، كما لا يمكنهما المخاطرة
بالاقتراب من بعضهما البعض لما قد يشعل ذلك من عواطف الشهوة بينهما .
فقالته الويل فى نبرة إصلاحية :

لندع الأمر هكذا فى الوقت الحاضر .. سوف أتحدث مع أمى لأرى ما تقول عن
اخذها للطفل فى هذه السن ..

عندما ذهبت لزيارة أمها وهى تحمل بول معلقا على ظهرها ، كانت الويل تدرك أنها فى
الحقيقة انما تذهب لتسلمه الى أمها . فقد اتفقت مع ملينقديت مسبقاً على ارسال بقرتين
حلوبتين الى الجدين لأغراض فطام بول ، على أن يؤجل ارسال البقرتين الى ما بعد
الاتفاق الرسمى مع الجدين . لم تكن هناك حاجة للنقاش فى واقع الحال لأن والدى الويل
كانا فى غاية الفرح والسعادة باستلام الطفل وتوقع احتمال أن تحمل ابنتهما بطفل آخر .
وكان هناك سبب آخر لاستعدادهما لقبول الطفل . لقد سمعا كثيراً عن ندم الويل بأنها لو
كانت قد أرسلت التوامين لوالديها للفظام لتجنب المصيبة التى حلت بهما . ولا يدري
أحد المخاطر التى تنتظر بول . لذلك شعر والداها بضرورة الاستجابة لغريزة الأمومة
عند الويل . فقامت لها أمها مداعبة :

- من يدري فقد ترزقين ان شاء الله بتوامين آخرين .

ورغم افتقاد بول لأمه ، الا انه تقبل الحب الغزير الذى بذله له جداه .

كما يوحى اسمه ، فقد كان منشول ، والد الويل ، ذا سحنة شديدة السواد حتى
بالنسبة للدينكا . كان طويل القامة نحيف الجسم بوجه رفيع مستطيل وقد برزت عظام
خديه ويبدو أكبر من عمره الذى كان يناهز الستين فى ذلك الوقت ، وعندما لا يكون عارياً
تماماً كما هى العادة فى قريته ، فانه يرتدى جلباباً ، الا انه لم يكن يحتاج لذلك ولا يرتدى
الجلباب إلا عندما يضطر لاستقبال الزوار أو عندما يقوم هو بزيارة الآخرين .

لم يكن منشول زعيماً ، لكنه كان من سلالة من الزعماء التى تقع فى الموقع الثانى
بالنسبة لعشيرة ملينقديت فى ترتيب الزعامة عن قبيلة ميثانق . كان معروفاً بتفانيه فى
المسائل الروحية ويتمتع بأقصى الاحترام كرجل بارز من عليّة القوم . اما زوجته نيانكير ،
واسمها يعنى « ابنة النيل » لأنها ولدت فى موسم جفت فيه الأنهر الصغيرة مما اضطر
الناس الى الهجرة الى نهر النيل طلباً للماء ، فقد كانت ، على النقيض من زوجها ، فى غاية
السمرة بالنسبة للدينكا . وقد شاع أن جدتها الكبرى كانت أميرة عربية اختطفها الدينكا

واهدوها الى احد زعمائهم . الا ان ذلك كان في وقت غابر يصعب تذكره الآن . كانت نيانكير قصيرة القامة وتصغر زوجها بعدد من السنين ، الا ان ذلك لم يكن واضحا من هيكلها النحيل الذى أنهكه الجهد المتواصل اكثر من العوز والفقر . كانت تبدو مستقيمة القامة ضعيفتها وهى ترتدى تنورة من الجلد تلفها حول وسطها وتتدلى حتى الركبتين وقد تركت جسدها حتى الوسط عاريا ، وقد ابرز نحول وجهها من بروز عظمى الخدين وتدلى ثدياها على عظام الصدر البارزة وكأنهما قطعتان من الجلد المطبوق .

لقد أخذت روح الموت اطفال منشول ونيانكير بصورة مفاجئة . مات اول طفل ذكر بعد فطامه بقليل ثم ماتت ابنة فى طفولتها الباكرة . وبعد ذلك رزقا ابنة اسمياها نيانقوط « اى البنت التى فيها الأمل » ولكنها توفيت فى سن السابعة بعد ان بدأوا فى الاعتقاد بأنها ستحيا وتكبر . ووقتها اجتمع كبار القبيلة البارزون ، وقد دفعهم الشعور بالتعاطف مع الزوجين الى محاولة عمل شئ تجاه مصائبهما . ذهب القوم لزيارة منشول ذات صباح ومعهم بقرة حبلى بنية اللون واسمها الويل . دهش منشول وأسرته للزيارة غير المتوقعة ، ولكنهم قاموا بواجب الضيافة حيث ذبحوا حملا وكرموا الضيوف . ثم جاء وقت الحديث الجاد وكانت المبادرة من المتحدث باسم الجماعة الزائرة :

- « منشول يا ابن بلدنا . لم نحضر لان أحدا قد طلب منا خدمة أو معروفا وانما ايفاء منا بواجب نشعر به تجاه كل فرد من افراد مجتمعنا وبخاصة تجاه من عاش حياته وفق قيم ومثل قومه . انك فى تقديرنا ذلك الشخص ولذلك نشاطرك الآلام فى مصيبة اسرتك . لقد احضرنا معنا بقرة بنية اللون اسمها الويل لنقدمها قربانا لله ونصلى من أجل ان ترزق طفلا يحيا ليكون ثمرة الخلاص لاسرتك . لقد احضرنا بقرة وليس ثورا لاننا سنصلى طلبا لابنة انثى وليس لابن ذكر . اننا نرغب فى تقديم القربان للروح « أبوك » وليس لابنها دينق ولا للروح الاعلى - نيااليج - الله .. فأغلب الناس يصلى طلبا لابن ذكر ، الا اننا نرغب ان يسمع الله صلاة اخرى . سنصلى طلبا لابنة انثى تنبت فيها بذور أجيال المستقبل . لقد احضرنا البقرة الويل وهى حبلى حتى يملأ ذلك عيون روح الموت .. ان هذه الصلاة لا تقتضى ردا منك لأنها مبادرة إخوتك افراد القبيلة ونرجو ان تقبلها من فضلك ، لانه بدون ذلك الفضل فان مباركتنا وصلاتنا ستكون بلا جدوى .

ثم تحدث عضو آخر فى الجماعة فقال :

- لن يطول حديثنا يا منشول نحن هنا لعمل شئ يختلف عما هو معهود . كما قال اخونا ، يصلى الناس عادة طلبا لابن يواصل النسل . وهم عادة ما يوجهون صلاتهم إلى الله أو إلى الروح دينق أو أى واحد من الأرواح الذكور . وقد قررنا توجيه الدعاء إلى الآلهة الأم والاعتماد على تعاطفها مع الامومة . لذلك اخترنا « أبوك » ام دينق . إذا تمت الاستجابة لصلاتنا ودعائنا ورزقت ابنة وعاشت فانها لن تكون اما للأجيال القادمة فحسب ، وإنما ستمهد الطريق لآخ يأتى بعدها .

وقال متحدث ثالث :

منشول .. لا يستطيع أى رجل ان يحيا دون ان يتنفس الهواء من حوله . ان قومك هم الهواء من حولك . تماما مثلما انك لا تقرر تنفس الهواء وانما تتنفسه بصورة عفوية فانك لا تملك ان تقبل أو ترفض صلاة قومك التى قالوها نيابة عنك . لذلك ليس هناك مجال للنقاش ، ولقد احضرنا معنا بقرة اسمها الويل وسوف نصل

طلبا لابنة انثى تسمى الويل . كل هذا الحديث لإخطارك فقط بما نفعل وليس للنقاش . ولكن قبورك مرغوب فيه ومطلوب بطبيعة الحال .
جلس منشول يستمع الى الحديث في انتباه شديد ، ورأسه مطاطا في تائر واضح لما يسمع . وعندما تمكن من الحديث بعد صمت طويل قال :

- يا رجال قبيلتي ، لا اعرف ماذا اقول . ان الصمت هو احسن وسيلة للتعبير عما اشعر به . ولن اقول لكم انى ارغب في ان تصلوا من اجل ابن ذكر ، فانتم ادرى بما ترغبون فيه والسبب الذى من اجله ترغبون في ذلك . لن انازعكم في الامر . كل ما استطيع ان اقله هو انى ارجو ان تستجيب « أبوك » لصلاتكم وان يعينها الله والاسلاف في ذلك .

وتم تقديم القربان على ذلك الاساس . اجلس منشول ونيانكير على فراش من الجلد وعلى حجرهما حربة في شكل صفق الشجر وهى ترمز الى الانثى ، وبعد صلاة مطولة كرر فيها كبار القوم مجمل ما قالوه من قبل ، وضعوا الحربة على بطن نيانكير ثم صوبوها تجاه السماء ، واعادوا تكرار ذلك عدة مرات مع النطق الجماعى بكلمة « نقوث » ، وهى ترمز الى الميلاد المعافى وقبول رسالتهم .

حملت نيانكير بعد ذلك بقليل ثم وضعت ابنة انثى سميت الويل على البقرة التى قدمت قربانا . ورغم ان امراض الطفولة قد هددت حياتها وخشى الناس ان تموت ، الا انها عاشت ثم ولد من بعدها ابن ذكر سموه اليبير ، اى « الهواء العليل البارد » - وهو رمز الصحة والبقاء .

وهكذا تمت الاستجابة التامة لصلاة القوم ، ونشأت الويل لتصبح اما لاحفادهم . ورغم انها فقدت طفلها التوامين الاولين وحلت المصيبة بالتوامين الآخرين ، الا ان بول جاء رمزا للاستمرارية مما اسعد جديه كثيرا . وكانما جاءتهم البركة الكاملة التى عادلت لعنة المحنة وبرأتهم من اى اتهام بانهما قد عانيا الكوارث المتلاحقة لانهما ملوثان روحيا . وفى الحقيقة ، فلدى من يعرف الزوجين عن كثب ، فقد كانت معاناتهما غير مبررة على الاطلاق . ورغم ان عرف الدينكا يقول بانه من النادر الا ترتبط مثل تلك المعاناة بالذنب الاخلاقى ، لم يكن احد يربط بين معاناة الزوجين واحتمال مخالفة منهما للمثل والاخلاق ولو فى الخفاء . يعتقد الدينكا ان الله والارواح قد يكونون متقلبي المزاج بل وقد يستمتعون بالقسوة المفرطة فى بعض الاحيان ، وانه على الانسان احتمال ذلك كجزء من الارادة العليا للقوى العلوية والسفلية . وعند الدينكا كذلك ان ارواح الاسلاف دائما على حق بطريقة او باخرى ، وحتى عندما يصعب ويخفى الفهم والتبرير على البشر .

رزق منشول كذلك بابناء من زوجة اخرى اسمها اليمو ، وهو تحريف للاسم العربى حليلة ، مما يوحي بان اصلها من قبيلة غير الدينكا وانه قد تم تبنيها او انها من اصل رقيق . إلا انه كان محرما عند الدينكا الحديث عن مثل تلك الاشياء المهينة . حتى حقيقة ان طفلها الاولين ، وهما ابنتان إحداهما كانت متزوجة ، قد اتيا معها الى منزل منشول ، ظلت سرا بين افراد العائلة . اما طفلها الآخران وهما ولدان ، فقد رزقت بهما من منشول . وكان الابن الثانى ، واسمه مريال ، محببا ومقربا من ابيه ، وبما انه كان فى الرابعة من العمر عند حضور بول ، فقد اصبح رفيقا مقربا من بول . ولكن فى عموم الحال ، فقد كان من الواضح ان اليمو واطفالها

في موقع وضع متدن في هيكل الأسرة أكثر مما يمكن تفسيره بوضعها في هرم الزوجات - أي أنها كانت دون المقام الذي يحتمه وضعها كزوجة ثانية لمنشول . كانت الزوجتان تعيشان في منزلين يبعدان عن بعضهما البعض بعدة أميال ، ويفرق بينهما عدد من المزارع التي يملكها ويزرعها أعضاء أسر أخرى تعيش على أطراف تلك المزارع . يتكون كل من المنزلين من كوخين أحدهما للنوم والآخر للطبخ .. وزريبة للماشية . كان منشول مثله مثل كل الدينكا ، يرسل غالبية ماشيته وخرافه ومعزاه خلال موسم الأمطار مع الشباب من الجنسين إلى الأراضي المرتفعة الواقعة إلى جهة الشمال ، ولكنه يحتفظ بعدد قليل منها في القرية لتوفير اللبن والحاجات الأخرى ، مثل الذبائح لأغراض الضيافة أو لتقديم القرابين إلى الله وأرواح الأسلاف .

وبينما كان منشول يتنقل ذهابا وإيابا بين منزلي الزوجتين ويساعد كلا منهما في مزرعتها ، إلا أنه كان يقضى أغلب أوقاته مع نيانكير . كانت الويل طفلها الأول وابنتهما الوحيدة ، مقربة من والديها مما ساعد على تحبيب بول إلى جديه أكثر من العادة .

كانت الأثارة العاطفية المحيطة بحياة بول بالإضافة إلى أنه ابن زعيم من دواعي أيلائه اهتماما خاصا ليس فقط من جديه وإنما من كل أقاربه من جهة الأم . كانوا جميعا يدلونه ويمجدونه ويمدحونه بكل الوسائل ، إلا أنه لم يكن مدلا بطريقة سلبية مفسدة للطبع . ومع نموه في السن وزيادة وعيه بما يدور حوله ، كان بول يستمتع بما يجده من اهتمام وتقدير من يكبرونه في السن ، لكنه كان يسعى كذلك لأن يكون جديرا بذلك . وحتى في تلك السن المبكرة ، بدأ بول في اظهار مستوى مذهل من الفهم والوعي والفصاحة . كان يجلس في الأمسيات مع جده ويستمتع إلى صلواته التي يقولها استجابة لأصوات الحيوانات والطبيعة التي تجسد عنده رموز أرواح الأسلاف . وبسبب استغراق بول في تلك المناسبات الجادة بالإضافة لظهوره بمظهر الجدية المفرطة الذي عمق من أثر سمعته الناجمة عن ظروفه الخاصة ، فقد لقب «وين - ياث» - أي الطفل المقدس .

ذات صباح ، استيقظ بول وهو يشكو من صداع ، ومع تقدم اليوم زادت حالته سوءا حتى إذا جاء المساء كان يرتجف من الحمى . وكان ذلك في أواسط موسم الأمطار . رقد بول خارج المنزل ليدفئ جسمه في حرارة الشمس عندما تجمعت السحب الكثيفة وحولت النهار إلى ليل ، ثم بدأ الرعد . فافترض الناس أن السماء ستمطر وأخذوا يجمعون حوائجهم إلى داخل الزرائب والأكواخ ودخلوا للاحتباء من المطر . هبت الريح وغبار المطر أولا ثم هطلت الأمطار الغزيرة وقصف الرعد وتلألأ البرق ، وصاحب ذلك هبوط شديد في درجة الحرارة . كانت نيانكير مشغولة بإشعال النار لتدفئة الكوخ عندما فاجأها منشول بأن رفع بول من فراش الجلد على الأرض بالقرب من النار وقال :

- نيانكير ، من فضلك افتحي لي الباب .

- تساءلت نيانكير في دهشة :

- ماذا تفعل ؟

- « انى خارج بالولد » ..

وقالت وهى لا تصدق ما يحدث :

- لماذا ؟

- ان هذا الطفل لا يحتاج لحرارة نارك وانما يحتاج للهواء البارد الذى ترسله روح دينقليت مع الرعد والمطر الغزير .

أجابت نيانكير فى احتجاج : منشول ، إنك تأخذ الطفل إلى موت محقق . كيف تضيف المطر البارد إلى برد الطفل ثم تتوقع أن يعيش ؟ » .

- « يا عزيزتى نيانكير ، كيف تتشككين فى واجبى المنبعث من اسلافي ؟ اريد ان أعرض مصير الطفل إلى الله وأترك مباركة الماء المقدس لتسقط على جسده . انى اعهد بمصيره إلى الله . إذا أراد الله ان يأخذه ، فإن هذا الكوخ لن يحميه . وإذا أراد الله ان ينقذه ، فهل هناك ما هو أفضل من مباركة الماء المقدس المنبعث من دينق ابن « ابوك » - دينق الابن الاول لله ؟ لا تنازعينى وافتحى الباب .

وكانما تدفعها أيد خفية ، جذبت نيانكير أغطية الباب المغلقة بإحكام ، وفتحت الباب بما يكفى لخروج منشول ومعه بول الذى كان يصرخ من الخوف . وبمجرد أن خرجا ، والمطر والرعد والبرق على أشدها ، سمعت نيانكير منشول وهو ينشد ويصلى بينما واصل بول الصراخ بأقصى طاقة رثتيه . واصل منشول النشيد والصلاة إلى دينق ، روح المطر ، وهو غير عابىء لصراخ الطفل :

الجد الأكبر دينق

وأبونا دينق ، ابن « أبوك »

انت الظل الوارف

يتقيؤه الناس ليرتاحوا

انت هدير ابينا الراعد فى السموات

هانذا قد جئتك بابنى للتبريك

ان لم افعل سوءا

انقذه ودعه يشف مساء اليوم

وإذا قارفت كبيرة

فأقصمنى وانقذ ابنى

وإذا عشت انا وابنى هذا الليل

ارنى ابنى يقظان غدا وعلى فمه بسمات

دعه يلعب كى يستمتع بالعمر الغض

انت ابو الكل

انت القوة فوق الكل

باركنا وتبارك اسمك

عندما عاد منشول إلى داخل الكوخ ، شكرت نيانكير الله لأن الطفل لا يزال يصرخ بالحياة . وخلال فترة وجيزة ذهب بول في نوم عميق لم يستيقظ منه إلا صباح اليوم التالي . ولم يكد يصدق منشول ونيانكير أعينهما عندما رآياه وهو يبتسم في اشراق وحيوية .

أخذ موسم الندرة في الانتهاء عندما نضج المحصول ، فكان بول ومريال من أوائل من اختلسوا طريقهم إلى حقول الذرة خلف القرية وكسروا بعض السنابل الناضجة بالقدر الكافي للأكل . وسريعا ما اشبع الكبار نهم الصغار بانتقاء السنابل الناضجة وشوائبها على النار أو داخل كوم حارقة مكونة من روث البهائم المحترق . لقد كانت هناك متعة خاصة ومميزة في ذلك الحصاد المبكر .

وبينما كان بول ومريال يتخذان طريقهما وسط الحقول بين المنزلين ، كانا يشبعان شهيتهما لقصب السكر من بين سيقان الذرة ، أولا من النوع المعروف بأسم « نقاي » الذي يزرع بالقرب من المنازل وينضج مبكرا ، ثم من النوع الذي يتأخر في النضج وهو من صنفين ، أحدهما أسمر اللون واسمه « روث » والآخر أبيض اللون واسمه « اماراك » وكلاهما يزرع في المزارع الأكبر والأبعد عن القرية . ومع تلتخ أقدامهما العارية بالطين والذي كثيرا ما تخترقه الأشواك الحادة المدفونة في الوحل ، كانت مغامرة الولدين هي الاستكشاف وسط الحقول بحثا عن اللون المناسب من القصب .

فبينما يدل اللون الأبيض على أن القصب خال من السكر ، كان اللون المائل إلى السمرة هو بشارة الوعد بحلاوة السكر . وحسب العرف السارى في البلاد ، والذي كانا يدركانها رغم حداثة سنهما ، هو أن لكل فرد قدرا من الحرية في قطع القصب الحلوم من أى مزرعة مادام لم يبالغ في الاستهلاك ولم يفسد الكثير من الزرع . كان بول ومريال يمضغان القصب حتى تنهك فكاهما . ومع تقدم الموسم ، أصبح من الواضح أنهما ليسا وحيدين فيما يفعلان . ومع انضمام المزيد من الناس الى عملية المضغ ، إنتشرت الشقائق الحادة ، والقاطعة أحيانا ، من لحاء القصب وبقايا المضغ ، انتشر ذلك في أنحاء القرية والطرق العابرة للحقول .

بينما يسمح لبول ومريال وأمثالهما من الأطفال ، وكذلك للصبيان دون سن الرشد ، أن يشبعوا أنفسهم من تلك الأطعمة الطازجة بمجرد أن تنضج ، إلا انه لم يكن من المسموح للبالغين تناول تلك الأطعمة قبل وليمة الشكر وتقديم القرابين لأرواح الأسلاف . وعندما جاء اليوم المعلوم ، تم اعداد الطعام الوافر من الذرة حديثة الحصاد مثل « اكوب » والذي يعد من عجيب الذرة المقطع الى كرات دقيقة الحجم ثم يطهى ويقدم مع السمسم المسحوق واللبن أو المرق من السمك أو اللحم . كذلك هناك نوع يسمى « ارور » والذي يعد من نفس العجين ولكنه ممزوج بطريقة مختلفة . رغم أنه من الممكن اعداد تلك الأطعمة من الذرة طوال العام ، إلا أن إعدادها من الذرة حديثة الحصاد كان له مذاق متميز . وتزداد لذة ذلك الطعام عندما يخلط مع السمن . كذلك يتم اعداد الجعة (المريسة) من الذرة بكميات وافرة يتناولها الجميع ، حتى الأطفال ، كما تذبح الذبائح لتوفير اللحم . وبعد تقديم القرابين عند المواقع المقدسة أو بالقرب من النهر يتم الاذن للجميع بتناول الأطعمة التي أعدت لوليمة الشكر على المحصول الجديد . ويبلغ انفعال بول بموسم الابتهاج أوجه عندما تعود الماشية الى القرية قرب نهاية الموسم لتأكل قصب

المحصول الثانى والمعروف باسم « انقول » والذى يسود الاعتقاد بأنه مغذ ومنتج للين بصورة خاصة .

وفى موسم الحصاد هذا يتمازج اشتعال الدينكا بالعناية بالماشية مع سهولة الحياة فى القرية بصورة مبدعة وخلاقة للجمال .. أنواع من الحيوانات من كل الأحجام والأشكال والألوان تنتشر فى كل مكان .. الهواء الممتلىء بأصوات من مختلف الدرجات والأحجام ، الشباب من الرجال والنساء يعرضون جمال أجسادهم المحلاة بأنواع الحل المختلفة ، والغناء فى الحب والذكريات والفخر يصاحب كل أنماط النشاط . ويفرق كل ذلك الجميع بمتعة عارمة وشهوة للحياة بصورة لا تفوت حتى على الأطفال .

وفى تلك الفترة تعرف بول على أختى والدته الآخر ، اليبير ، الذى كان قبل ذلك فى المعسكرات البعيدة عن القرية كان ألبير فى جماعة الانداد التى تسمى بجماعة بقر الجاموس ، وهم آخر من تم تدشينهم ولذلك يتطلعون الى موقع الفرقة المهيمنة . ومثل والديه ، فقد كان ألبير مولعا ببول . ورغم فارق السن ، حيث كان اليبير يقارب العشرين من العمر ، فقد كان يعتبر بول مثل الأخ الأصغر ، إلا أن محبة اليبير لبول لم تتأثر بالتنافس المعهود بين الأخوين ، بل كانت علاقتهما مدعومة بالشعور الخاص المعهود بين الخال وابن الأخت عند الدينكا ، ويعتقد الدينكا بخصوصية تلك العلاقة بحيث يملك الخال القدرة على مباركة أو توجيه اللعنة على ابن أخته .

لم يطل عهد اليبير فى القرية عندما ناداه والده ذات مساء لحديث خاص بينهما . حكى منشول لابنه قصة مرض بول وصلاته هو من أجل صحة حفيده والشفاء المعجز الذى تم لبول من مرضه الشديد . ثم زادت الجدية فى لهجة منشول عندما واصل الحديث ليكشف عن جانب من الرواية كان مؤلما لابنه .

لقد قدمت حياتى فداء لبول من الموت . لم تقتلنى الصاعقة ليلتها ، إلا أن تضحيتى بحياتى من أجل حياة حفيدى قد قبيلت . لا يدري أحد كيف تتصرف الأرواح . لقد تم انقاذ بول لأنى سلمت حياتى إلى روح الموت ولا أدري أنا متى ستأخذ روح الموت حياتى ، إلا أنى أعلم أن حياتى لن تطول لأرى الاستجابة لدعائى بتولى بول الزعامة لقومه . ذلك أمر لك أنت وابن أختك . أنا لا أشك إطلاقا بأن بول سيحيا ليكون زعيما لقومه . مهما طال العهد ، فسيتحقق ما أقوله لك يا ابنى » .

انزعج ألبير لحديث والده عن الموت ، ولكنه لم يجد شيئا حكيما أو مفيدا يمكن أن يقال فى معارضة حديث والده . كل ما أسعفه من القول هو عبارة : « يا أبى ، أنت أصغر سنا من أن تفكر فى الموت »

فلم يملك والده إلا أن يرد قائلا ..

— ما الذى يجعلك تعتقد أن للعمر ادنى علاقة بإرادة الله ؟ ان روح الموت تختار من كل الاعمار . ويمكن لإرادة الله أن تمنع الحمل بالطفل ، أو تقضى عليه فى رحم امه ، أو أن تنهى حياته فى مهد الطفولة . كما يمكنها أن تاتى على الرجل أو المرأة فى مقتبل العمر . لقد كادت روح الموت أن تقضى على بول وعرضت أنا أن أموت فداء له . ولكن لا تنزعج يا ابنى ، فان كلماتى لن تقتلنى اذا لم يحل يومى .

كثيراً ما أكد منشول علاقة الخال بابن الأخت بتكرار النصح لابنه ألبير بأن بول امتداد
لوجود ألبير في مجالات الزعامة . كان يقول لالبير ان الابن الوحيد (مثل ألبير) يحتاج
لحماية الزعيم بينما يحتاج ابن أخته لكل الدعم الروحي والأدبي الذي يملكه أقاربه من
ناحية أمه ، وذلك لكي يكون زعيماً مؤثراً وقادراً وسط عشيرة والده . وحفز منشول ألبير
ليكون قلبه « أبيض » تجاه بول بصفة دائمة وألا يحمل أى حقد أو ضغينة له أو لوالديه أو لأى
فرد من أفراد أسرته لأن الأسلاف قد يأخذون ذلك مأخذ اللعنة . وبدلاً عن ذلك ، على ألبير أن
يصلى من أجل عافية ورفاهية بول وزعامته عندما يكبر .

الفصل الخامس

مضى الزمن وبول يستمتع بفترة الفطام بين أهله من ناحية الأم، حيث كان كل موسم يأتي ويمضي بصفاته ومتعته المميزة. وظل بول يأمل في السماح له بالذهاب إلى معسكر الماشية بعيداً عن القرية. كانت الماشية تأتي إلى قرب المنازل بطبيغة الحال حسب مقتضيات الموسم، إلا أن الذهاب إلى المعسكر البعيد هو حلم كل دينكاوى وكثيراً ما عبر ألبير عن رغبته في اصطحاب بول إلى المعسكر، إلا أن والديه كانا يعترضان بأن بول لا يزال أصغر من أن يذهب بعيداً عن رعاية والدته أو جدته. وأخيراً تمت الموافقة على ذهاب بول عندما كان في الخامسة من العمر، وقرر منشول مصاحبة حفيده في الرحلة إلى معسكر الماشية. وبما أن الرحلة كانت طويلة، فقد حمل ألبير ابن أخته على كتفيه وأمسك بقدميه المتدليتين حول عنقه بينما أمسك بول برأس خاله للمزيد من الحماية.

يرى الدينكا أن الحياة في معسكر الماشية أرفع وأفضل من حياة القرية. فهي أولاً تعتبر أدعى إلى الصحة والعافية إذ نادراً ما يمرض الناس أو يموتون في معسكر الماشية لعل ذلك يعود إلى أن من يمرض في المعسكر يؤخذ إلى القرية حيث يعافى أو لا يعافى. إلا أن الاعتقاد السائد هو أن السبب هو نظام الغذاء في المعسكر وقوامه منتجات الألبان والحبوب المدعومة بالسمنك أو اللحم من حين لآخر. غير أن عزة الحياة في المعسكر هي أكبر كثيراً من نظام الغذاء، إذ أنها تجسد ثقافة الماشية التي تجعل الدينكا يعتقدون أنهم أفضل الرعاية.

رغم أن بول لم يكن في السن التي تمكنه من الفهم والتقدير التامين للدلالات الاجتماعية والاخلاقية لحياة المعسكر، إلا أنه أدرك غريزيا وجود شعور بالترقية والتفوق

والرفعة . بمجرد الفراغ من استقبالهم ليلة وصولهم ، بدأ بول يشعر بمناخ السعادة والعرض الشهوانى الذى يغمر المعسكر . مثله مثل كل المنظمات الاجتماعية لدينكا ، كان المعسكر مقسما الى وحدات مستقلة قائمة على أساس الأسرة ثم الافراد من كل أسرة . يجلس الرجال حول موقد المشية ، حيث يحرق روث المشية الجاف فى تل حلزونى الشكل حتى يصبح رمادا مريحا للاجساد . وفى اطراف المعسكر مناطق مغلقة لمعيشة الفتيات حيث يقمن بالطبخ وضرب اللبن كل صبح لاستخراج الزبد وهن يغنين الاغانى المحببة الى نفوسهن . وقد تكون تلك الاغانى من نظم الفتيات أنفسهن أو من نظم نساء أخريات أو رجال . يقوم الشباب من الرجال بالترفيه عن افراد المعسكر بالغناء « لثيران الذاتية » وهم يستعرضونها فى أنحاء المعسكر فى الصباح والمساء . « وثيران الذاتية » ثيران تخصى وهى عجول صغيرة ثم تنمى لأغراض جمالية واستعراضية . يقطع قرنا كل ثور ذاتية فى زاوية معينة لكى ينمو القرنان حسب الشكل المطلوب . وعندما يكتمل نمو القرنين ، يخرقان فى أطرافهما لتعليق الحلى . وبما أن هذه الحيوانات المنتخبة تجمع بين استكانة الثور المخصى ، وهوشىء لازم لوظيفتها الاجتماعية ، وبين العدوانية والحيوية الطبيعية فى الثيران ، فانها بذلك ترمز الى التناقضات المضمنة فى وضع الشباب من الرجال . فرغم أنهم خاضعون لسلطة من هم أكبر سنا ، وعليهم اظهار فروض الطاعة لهم ، إلا أنه من المنتظر منهم كمحاربين اظهار الفضائل الحربية كالشجاعة والمروءة والحيوية ، وهم كثيرا ما يبالغون فى اظهار تلك الفضائل .

سمع بول العديد من الرجال يغنى أغانى ثور الذاتية ، حيث يلبس الرجل سوارا من العاج حول أعلى ذراعه الأيسر وخرزا حول وسطه وعنقه وقد علق ريشة من النعام على قطعة من القماش الزاهى الالوان ملفوفة بعناية حول شعر رأسه الكثيف المصفف ، وهو يمسك بمجموعة من الحراب فى يده اليسرى ويرفع بيده اليمنى عصا غليظة محدودة الرأس . وكأنه على اتفاق مع المغنى ، يستجيب ثور الذاتية بالخوار بايقاع جميل وهو يضرب على الأجراس المعلقة حول عنقه . ومن وقت لآخر يقذف بالحلى المربوطة الى طرفى قرنيه . وفى كل ذلك الفخر والعزة « للوالد » ، وهو اللقب الذى يمنحه الدينكا لصاحب ثور الذاتية . وعند نهاية العرض يتلقى المغنى هدية أو ما يسمى جائزة « اطلاق » من فتاة معجبة ، وتشيع أحب الاغانى ويتغنى بها الآخرون حيث تصبح رمزا للوزن والنفوذ الاجتماعى لصاحب الاغنية .

رغم أن بول كان يجد متعة شديدة فى تلك المناسبات ، إلا أنه شعر بالفخر والانفعال الزائدين عندما وقف خاله ألبير ذات مساء وأصدر صوتا عاليا منغما معلنا انه على وشك الغناء والعرض حول أرجاء المعسكر . واستجاب ثوره « ميجوك » ، وهو ثور جميل أرقط اللون ، يغلب عليه اللون الأبيض بنقاط سوداء فى المقدمة والمؤخرة ، استجاب باطلاق خوار ردا على صوت صاحبه . ربط ألبير جرساً حول عنق ميجوك وحلية على طرفى القرنين ، ثم أخذ الحراب والعصى فى يديه وبدأ العرض فى ضوء القمر الباهر الذى انعكس على الحلى التى يتحلى بها ألبير والثور . وعندما جاء الى ناحيتهم من المعسكر . كان ألبير يتغنى بأغنية كان لها أعمق الأثر على بول . ورغم أن بول لم يفهم الا طرفا من معانى الاغنية ، إلا أنه رقد وهو يبدو وكأنه نائم ولكنه كان فى الحقيقة مأخوذا ومفتتنا باللحن والكلمات التى كان مضمونها كما فهمه بول يقول :

نساء عشيرتي نوحى
ونوحى يابنات الشؤم
يجيء العام
وبصحه إلى ابوابنا الموت
يجيء العام
وحين يجيء حتما سوف يحزننا
عيون الشر قد نفتت عشيرتنا بأسحار
وتصرخ ، وهى تلعننا ،
« حذار من قبيل الموت »
الا يا قوم ! كفى ضحكا على دمننا
فلم نطعم من الموتى
ولكننا ضحايا النحس
ضحايا النحس قد أمرت تحديق في عيون الرب
كبار القوم قد جاءوا وصلوا عند معبدنا
ونادوا أم دينق ، « أبوك »
منشول ابنك المخزون قد طالت به الأشجان
هبيه طفلة كى تنجب الابناء
أجابت « أبوك » وجاءت الويل أختى امرأة
وايضا جاء روح الموت صاح بها
« تعالى أوليل كوني مع الإخوان والأخوات
فهم لك كلهم شوق
ونسوتنا راين هنا وأيدى الموت زاحفة فولولن
ولكن أوليل طلبت هدوء البال
« على على لاتبكوا ، فما قد حان وقت الموت
ولم تتخل عنى الآن امى « أبوك »
واسمعها تناجى الرب :
« اغث هذى الوحيدة فهى سوف تكون للذرية الارض
حصاد عشيرة السلطان « ماننقديت »
وابصر شيخنا أختى أوليل
واعطاني مجوك عجلا
لذا فخرى بعجل رئيسنا الربى
مجوك يامن انت بك من حظيرة ربنا أختى
عشيرتنا سيرفع رأسها اسمك
وكم غنيت من اجلك
لأرفع اسم منشول أبى وعشيرتى ايضا !

عادة مايمجد الرجال قريباتهم من النساء اللاتي اتى ثور الذاتية عن طريق زواجهن ، سواء اكان الثور جزءا من المهر او ولداً لإحدى الأبقار التي قدمت مهرا للمرأة . تأثر بول لتمجيد أمه ولأنسأة أسرته التي استرجعتها كلمات الأغنية . وهو يفكر في الوفيات التي لحقت بأسرته من ناحية الأم والأب والفاجعة التي ألحقها العرب بأسرته هو بخاصة ، لم يملك بول إلا أن يربط بين مصير الأسرتين . صارت أغنية ألبير شائعة للغاية في المعسكر حيث كان العديد من الرجال والنساء يتغنون بها . ووجد بول نفسه يحفظ كلمات الاغنية عن ظهر قلب ومن غير عناء ، يرددها لنفسه كثيرا حيث كانت تحركه كل مرة بنفس القدر الذي حركته به عندما قدمها ألبير لأول مرة .

عندما أنقضى الموسم وهطلت الأمطار ، أن الأوان للعودة إلى المنازل والمشاركة في الزراعة ، وهى عمل يتعاون عليه كل الأجيال من الجنسين . يبدأ العمل بمرحلة تسمى « شوم » وهى مرحلة بذر البذور ، حين يكون التوقيت حاسما ، لذلك يعمل الناس بجهد شديد . يبدأ العمل اليومي في الصباح الباكر ، حيث يحضر منشول وألبير للبذور مستخدمين عصيا طويلة ، بينما تقوم نيانكير ومعها بول - وفي مزرعة « المنزل الآخر » تقوم أليمو وأطفالها - بوضع البذور في الحفر ودفنها بالأقدام . وأثناء العمل يغنى الرجال والنساء ، كل يستمع إلى غنائه هو وإن كان على مسمع من غناء الآخرين . وتعتمد تلك الاغاني على معانى كلماتها كما تعتمد وبنفس القدر على الحانها . ومع تفاوت وتفرد طريقة الأداء ، فإن تلك الاغاني تعكس أيضا التجانس والروح الجماعى .

وفي الوقت المناسب ، تتوقف نيانكير واليمو عن العمل لتنصرفا الى إعداد الطعام ، كما يعمل الأطفال ، بطبيعة الحال ، وفق طاقة كل منهم وقدرته على التحمل . اما الرجال ، فأنهم يواصلون العمل منذ الصباح وحتى المساء ولا يتوقفون إلا لتناول الطعام . وعندما ينمو الزرع بالقدر المناسب ، يحين وقت العزق والذي يعمل فيه منشول وألبير جنبا إلى جنب مع النساء ، حيث يزحفون على الأرض ويعزقون بمنجل ذات مقابض خشبية قصيرة . وبما أن المنجل آلة خطيرة ، فإن الأطفال لايشاركون في عزق الزرع . أن عملية العزق عملية شاقة وتستغرق الكثير من الزمن ، وهى يجب أن تتم مرتين لضمان المحصول الطيب . إلا أن منشول وأسرته تمكنوا من استغلال المزيد من الأيدي العاملة بأن أعدوا كميات كبيرة من الجعة (المريسة) وذبحوا ثورا لأغراض وليمة العمل التي دعوا اليها أنداد البير والرجال من الجيران . إلا أن مساهمة الأنداد والجيران لم تكن بديلا عن جهد أفراد الأسرة حيث يتحتم العمل على كل فرد من أفراد الأسرة . من العرف السائد أن تعفى الأسرة الشباب حديثى التدشين وبعض المتقدمين في السن من العمل في المزرعة لقضاء الوقت في معسكرات الصيف . أذن منشول لألبير ليذهب مع أنداده الى المعسكر ، إلا أن البير أختار الانتظار حتى يفرغ من المساهمة في عزق الزرع ، تقديرا منه لحاجة والده لأيدى الرجال في العمل . وفي الوقت المناسب ، طلب البير السماح لبول بمرافقة خاله إلى معسكر الصيف وتمت الموافقة بذلك .

رغم أن بول وأطفالا آخرين قد انضموا إلى المعسكر ، إلا أن المناسبة كانت في الحقيقة لمن بلغوا سن الرشد . إذ يساعد الصبيان والفتيات على العناية بالماشية وتوفير الخدمات للرجال - ذوى الرفعة والتهديب - وفي تلك المعسكرات يمارس هؤلاء الرجال الشباب مايسمى « توج » أى الرقاد والخلود الى الراحة ، حيث يشبعون من اللبن واللحم ويقفلون

من الحركة بقدر الامكان .. فشغلهم الشاغل هو تسمين انفسهم . ولكن الاثر هو تحسين الاجسام وليس السمنة لأجسادهم الطويلة النحيلة . وخلال فترة المنتجع هذه ، ينظم الشباب الاغانى حول المسائل التى تعينهم ، والتى تتفاوت بين استرجاع تاريخ اسرهم بتمجيد معالم اساطير اسلافهم واغانى الحب التى ترمى إلى الحصول على موافقة الفتاة ورضى اقارب الجانبين على عمل الترتيبات اللازمة للزواج المقترح . كما يغنى الشباب تمجيدا لأولئك الاقارب الذين تكرموا باستثنائهم عن العمل فى الزراعة ومدوهم بالأبقار اللبون فى منتجعهم . وهذا النوع من الغناء يعرف باسم « واك » - اى « التطهير » . وبانتهاء المنتجع يعود الشباب إلى أهلهم وهم ينتقلون من قرية إلى قرية فى صورة جماعية يؤدون رقصة خاصة ويقدمون اغانيهم .. تقدم الاغانى لأولئك الذين نظمت من أجلهم ، وكثيرا ما يحفزهم ذلك إلى الاستجابة العفوية لما طلب منهم فى الاغنية .
لم يفصح ألبير فى اغنيته عن طلب واضح ، وإنما كره التعبير عن الحزن للمأسى التى لاقتها أسرته وأعاد كلمات التمجيد لأعمال اسلافه البطولية ، لأن بقاء الاسلاف يعتمد على الاستذكار الخلاق بواسطة الأجيال اللاحقة .

تقول كلمات اغنية اليبير :

عشيرتى نسل من الأبناء المفردين

سلفنا قد كان ابنا مفردا

ووالدى قد ظل ابنا مفردا .

كذاك صرت ابنا مفردا

عشيرة الأبناء المفردين

فلترفعى الاسم الذى به ضاء الطريق

وأرشد الدينكا لدرب الرب

وكيف يحيون معا فى هذه الحياة

ياعجلى الابرق يا مجاك

فلترفعن قرنيك للسماء

وسوف أعلى فوقك الغناء

مغنيا أسماء من مضى من الآباء

مغنيا كى اسمع الناس بهذى الأرض

مغنيا كى اسمع الاسلاف فى الغبراء والأرواح فى السماء !

انتفع بول بتجربة المنتجع من خلال التصاقه بخاله ، واستمتع بالغناء والرقص ، بما فى ذلك جوانب المأساة والفخر فى اغنيته .. خاله هو . وكأنما أصبح بول نفسه من الرجال « ذوى الرفعة والتهذيب » ، ورغم حداثة سنه ، فقد شارك فى المعانى الجمالية والمسئوليات الاخلاقية لمن بلغوا سن الرشد ونيابة عن الأسر التى يمثلها هو .

من خصائص مجتمع الدينكا انه لا يليق بأى رجل « من ذوى الرفعة والتهذيب » ان تواصل الحمل والولادة . فبمجرد ان يصبح أكبر أطفال المرأة مستعدا للتدشين اذا كان ذكرا ، اول للزواج اذا كان أنثى ، يجب على الأم التوقف عن الولادة . أى انه يتحتم عليها الامتناع عن المعاشرة الزوجية . كان بول أصغر سنا من ان يفكر بهذا المستوى ، ولكنه عندما حضرت أمه للزيارة بعد عودتهم من معسكر المنتجع ، نظر الى بطنها المنتفخة ثم

ادار نظره بعيدا وهو يبتسم في حياء لم يفت على خاله أليير الذى اطلع على خواطره . لدى البالغين العالمين بمثل هذه الامور ، فقد تأخر حمل الويل عن اوانه ، اذ كان من المتوقع ان تحمل بعد فطام بول بقليل ولكن لم يتحقق ذلك الأمل فورا . اما من وجهة نظر بول ، فهو لم يكن يفكر بجدول زمنى . كل ما كان يعنيه هو أن امه قد كانت ظاهرة الحمل . وعندما انفردا وحدهما قال بول لأمه :

- يا أمى ، لماذا تبرز بطنك بهذه الطريقة ؟
اسكتته أمه قائلة :

- لا ينبغي ان نتحدث بهذه الطريقة عن طفل لم يولد بعد لأن ذلك قد يجلب اللعنة ويؤذى الطفل .

- هل تحملين طفلا في بطنك ؟

- نعم .

- لماذا ترغبين في الحصول على طفل آخر ؟

تسائل بول معبرا عن تناقض وغموض مشاعره تجاه ذلك الحدث .

- ولماذا لا أرغب في طفل ؟ ألا تريد أختا أو أختا ؟

قال بول في محاولة لتغيير اتجاه أسئلته : هل هذا هو المكان الذى كنت فيه أنا قبل أن أولد ؟

- نعم يا عزيزى .

- ولكن لم يطلب منى أحد ان اتنازل عن مكانى له .

لم تكن أويل تتوقع ذلك القول ، الا انه تحتم عليها أن تجيب :

- لا يسأل الشخص عن التنازل عن مكانه في رحم الام . ان الله هو الذى يقرر من الذى يشغل ذلك المكان . لا يعلم إلا الله هل سيكون المولود ولدا ام بنتا . حاول بول ان يكون ايجابيا تجاه احتمال الميلاد ، ولكنه فعل ذلك بصورة صبيانية حيث قال :

- بما انه عندى اخ الآن ، هل تستطيعين ان تخبرى الله بانى اريد أختا ؟

- حسنا ، يمكننا ان نصلى طلبا لأخت ، ولكن الله هو الذى يعلم أحسن ما يمكن ان يعطى عندما يقرر العطاء . ان وجود الطفل في بطن الام ليس بضمان ان الطفل

سوف يولد . وحتى عندما يولد الطفل ، فانك لا تعلم ماذا يختار الله ان يفعل بعد ذلك - هل سيمنحنى الطفل ام لا .

قال بول وقد ظهر عليه الخوف بصورة واضحة مما قالته أمه « انى أريد أن أعيش » كما ان الحديث عن الموت قد تكرر من أقربائه لجهة الأم ، وبخاصة في أغانى أليير فى معسكر المشية . « لا أريد ان أبتعد عن جدى وجدتى ولا عنك أنت وأبى وأخى مديت » .

- ان شاء الله سوف تعيش .

- وماذا عن الطفلة فى أحشائك ، انى أريدها ان تعيش .

- اننا نصلى الى الله لكى تولد الطفلة وتعيش .

- كيف يولد الطفل يا أمى ؟ هل ستخرق بطنك وتخرج ؟ الا يكون ذلك مؤلما ؟

- من المؤكد انه سيكون مؤلما ..

قالت الويل وهى سعيدة بالجزء الاخير من السؤال الذى مكنها من تفادى الجزء

الاول .

ولكن .. لله طريقته فى عمل الأشياء . رغم أن ميلادك كان مؤلماً ، إلا أنك لم تترك جرحاً على جسدى .

لم تطل المدة منذ عودة الويل الى قرية داك - جور عندما كان بول جالساً مع جديه قرب النار ذات مساء وجاءهم زائر بالخبر المحزن بمرض الويل . قال الزائر « كان الناس فى انتظار العراف عندما غادرت القرية هذا الصباح ، ولكن الخوف الا تعيش الويل ليوم آخر » .

كان بول اصغر سناً من أن يفهم المدلول الكامل لحالة امه ، الا انه علم مما قيل ومن الجو العابس والحزن الذى خيم على وجهى جديه أن امه كانت فى خطر كبير ، لم ينم منشول ولا نياكير تلك الليلة ، بل ولم يرقد منشول على الاطلاق أغلب الليلة اذ كان يجلس ويقول كلمة الصلاة الى الله وإلى ارواح الاسلاف :

ياالله وانتم ايها الاسلاف . ماذا فعلت لاستحق كل هذا ؟ لماذا فقدت مكانى فى قلوبكم ؟ الست انا من دم هذه العشيرة ؟ هل انت بى امى من رجل آخر ؟ إن المرء لا يراكم وجها لوجه عندما يخاطبكم ، ولكنكم تسمعون كلمات أطفالكم فى هذا العالم . اذا ماتت ابنتى فسوف يتحتم على أن اتقبل حقيقة انى لا املك آباء فى عالم الارواح . اما إذا عاشت ، فسوف أعلم أن كلماتى قد بلغت أذانكم وقلوبكم وسوف اكرم اسماءكم كابن تقى وورع .

غادر منشول منزله قبل الفجر فى طريقه الى قرية داك - جور . أرادت نياكير الذهاب ايضا الا انه اقنعها بالبقاء لرعاية بول حيث اتفقا على تجنبه مشاهدة معاناة والدته . لم تكن المسافة الى داك - جور بالبعيدة حتى على اقدم الرجل العجوز الواهنة حيث وصل الى داك - جور قبل أن يحين وقت اطلاق الماشية الى المرعى . وطوال الرحلة كان منشول يصلى ويتحدث مع نفسه . وعندما اقترب من القرية أخذ يراقب الموقف بانتباه ليرى ما قد يوحى عما لحق بابنته خلال الليل . وغمره الشعور بالراحة عندما لم يسمع أصوات البكاء على الموتى . الا ان ذلك لم يكن حاسماً ، فربما يكونون قد بكوا فى الصباح الباكر . ولكنه لم يرمأ يدل على الإعداد للدفن وذلك من المؤكد من بشائر الخير اذ ان اعداد القبور ليس بالأمر الهين وتظهر دلائله الواضحة .

شوهد منشول وهو يقترب فأخذ فوراً الى قاعة المحكمة لمقابلة الزعيم ملينقديت الذى ذهب احدهم لابلاغه بمقدم منشول . ورغم انه كان متشوقاً للذهاب الى كوخ الويل ، الا انه يتحتم عند الدينكا على والد الزوجة التزام طقوس الاحترام . لم يكن من اللائق له ان يدخل الاكواخ بدون اذار واعداد لمقدمه . سأل منشول فور وصوله عن الويل وأفيد بأنها على الأقل قد عاشت تلك الليلة . عرض عليه سرير ليجلس عليه ولكنه اعتذر مفضلاً الجلوس على وسادة من الخشب المجوف يحملها عادة كبار الدينكا من جيله ويستخدمونها كوعاء ومقعد ووسادة . وجاء اكلول ، أخو ملينقديت غير الشقيق ، وذلك بعد أن جلس منشول على مقعده المتواضع .

قال اكلول لمنشول وهو يخاطبه باللقب المناسب لوالد زوجة الاخ عند الدينكا . - هذا لا يكون ياابى .. كرجل كبير انت تعلم اكثر منى ان الجلوس على الارض ورفض الجلوس على السرير إنما يعادل الحداد على ابنة لاتزال على قيد الحياة . هذا

٤٠
على التاكيد امر خطير . ارجوك ان تجلس على السرير .
- ياابنى ، لابد من الاقرار بالحق ولو قال به طفل .
اجاب منشول وهو يقف ليجلس على السرير .
بعد ذلك بقليل حضر الزعيم مليونديت . وتم اكرام الضيف بتقديم الماء حسب العرف
ثم جاء دور الترحيب المطول :

- وا - يا والد .
- « نعم » . اجاب منشول .
- هل جئت .
- نعم .
- هل قضيت الصيف .
- نعم .
- والشتاء ايضا ؟
- نعم .
- هل الناس هناك .
- نعم .
- وممتلكاتك ، هل هى هناك ؟
- نعم .
- اذن كل شىء على ما يرام ؟
- نعم .
- ثم رد منشول التحية بنفس الطريقة المطولة .
- ويندى - ياابنى .
- نعم .
- هل بقيت .
- نعم .
- فى صحة طيبة ؟
- نعم »

وتواصل الترحاب الذى شمل كل ما يهم الناس . ثم اخذ اقول دوره فى التحية وكذلك
تبعه آخرون . وبعد الفراغ من التحية والترحاب ، انصرف الاهتمام الى حالة الويل . افاد
مليونديت بأنها قد قضت ليلتها بصورة طيبة لأول مرة منذ فترة الا انها بكل اسف قد
فقدت الطفل .. فقال :

- لقد ولدت الجنين بالامس بعد وصول العراف الذى اقترح تقديم ثور قربانا ،
بمجرد تقديم قربان - ولدت الويل ولدا جميلا ، وقد فرحنا جميعا ، ولكنه توفى
فجأة وهو نائم عصر البارحة .

استمع منشول فى صمت . وعندما فرغ مليونديت لم يقل منشول معلقا على ما
حدث إلا عبارة واحدة :

- بين كا .. هكذا ، ذلك هو ما كان .
- نعم ..

قال مليونديت ذلك مؤمناً بصورة تؤكد واقع الحال .
ظل منشول صامتاً بعض الوقت ثم أضاف .

- اشين كى واج - ليس هناك ما هو سىء .

فقد شعر بالراحة نوعاً ما لأن الويل لاتزال على قيد الحياة ، ويبدو أنها قد تجاوزت
مرحلة الخطر من الموت .

وبمجرد اكتمال الاستعدادات ، تمت مصاحبة منشول الى كوخ الويل ودخل زحفا
ليجدها جالسة على فراش من الجلد ، وقد اعترتها حالة من الضعف جعلتها مجرد جلد
على العظم . وقد ساءت حالتها أكثر لفقدما الطفل . كما ان الجلد الذى كانت تجلس عليه
قد لوث بالرماد مما يدل على حالة الحداد عند الأم من الدينكا . وعندما رأت الويل والدها
انفجرت باكية وهى تقول :

- يا أبى ، لن يقتلنى شىء بعد الآن . اعتقد انى قد نجوت ، ولكن الذى يؤلمنى هو أن
طفلى قد اخذ منى ثمننا لحياتى . كنت ارجو أن يكون الحال هو عكس ذلك وممت انا
ليحيا الطفل ..

شعر منشول بالحاجة لتقديم رد ايجابى ، فقال لها فى غضب حنون :

- لقد تفوهت بقول طفل . هل سمعت أبداً عن طفل يلد اماً؟ انها الام التى تلد
الطفل ، وليس مجرد طفل واحد وإنما ، ببركة الله ، تلد العديد من الأطفال ، يموت
بعضهم ويحيا البعض . لكن شاكرين انك على قيد الحياة ، ولنصلى وندعو أن
تكتمل لك العافية وتعوضى نفسك واسرتك بطفل آخر .

كان منشول مسروراً فى سره لأن صلواته من أجل حياة الويل قد وجدت الاستجابة ،
والمطلوب الآن التأكد من استكمالها للصحة . ولأجل ذلك الغرض عليه مواصلة الصلاة ..
طلب منشول ماء فى وعاء جديد وعجورة مقدسة وصلى طلباً لشفاء الويل ثم قطع العجورة
الى نصفين وقذف بهما الى الهواء . سقط النصفان ووجهاهما إلى أعلى مما يوحى بأن
الصلاة قد قبلت وستتم الاستجابة لها . عبر منشول عن امتنانه للأباء من أعلى ومن
أسفل ، ثم قذف بالماء على الويل بعد أن باركه بأن بصق عليه . وبعد ذلك انضم الى
الرجال لوهلة قصيرة لأنه أراد العودة بسرعة ليطمئن أهله على سلامة الويل . وهكذا ،
قبل انتظار الافطار ثم غادر بعد الاكل مباشرة .

بعد عودة منشول قررت نيانكير الحضور الى داك - جور ليس فقط لزيارة الويل ، وانما
لتمريضها ايضا وبخاصة لغسلها بطريقة تقليدية .. ويعتبر الدينكا أن الغسل المنتظم
بالماء الحار ضرورى لاستعادة الشفاء بعد الولادة .

وبما أن مليونديت قد أخبر منشول أنه يعتقد أن الاوان قد حان لعودة بول إلى منزله ،
فقد قرر جداه أن يعود بول مع نيانكير . وهكذا انتهت فترة الفطام لبول ، والتى كانت
فترة هامة فى تكوين شخصيته .

ومع أن بول قد فقد بذلك الاهتمام الخاص والتفانى الذى وجدته من جديه ، إلا انه
تعوض بدلا عنه بالعودة الى الحب والحنان اللذين وجدتهما دائماً عند أقربائه لوالده .
كذلك أعانه على الانتقال الشعور بالاستمرارية بوجود جدته نيانكير فى قرية داك - جور .
هذا بالإضافة إلى أنه قد توحد مرة أخرى مع أخيه مديت .

الفصل السادس

المحزن ان العناية التي وجدها بول قد تصاحبت مع معاناة اخيه الاعرج من مديت . لقد حاول مليونديت كل احتمالات العلاج لعظم المقعد المكسور عند الاطباء التقليديين ولكن بلا جدوى . وفي نهاية الامر ، ينس الجميع من ان يروا مديت بدون العرجة المؤلمة . وكونه كسيحاً هو أمر محزن بصورة زائدة عند الدينكا لما عندهم من اعتزاز تقليدي بجمال الاجسام .

من الصعوبة بمكان ان ينشأ الشخص كطفل اعرج في بلاد الدينكا ، فكل العاب الاطفال تقريبا تقتضى اللياقة الجسمانية ولا يتردد اتراب مديت في الاشارة إلى عدم لياقته . وكان من المحزن لأولئك كثيراً ان تراقب معاناة ابنها من المصيبة التي لحقت به في تلك الليلة المشئومة . إلا ان مديت على ما يبدو قد نمتى قوة ارادته بصورة تتناسب ومصيبته ، وكان يحاول اداء كل مايفعله الاطفال رغم يقينه انهم سيسخرون منه . وبما انه كان تواما ، فقد كان من المفترض انه تعبير عن الإرادة الإلهية ، لذلك خصصت له ولروح اخيه الغائب اشويل ابقارا مقدسة لايملك والده التصرف فيها . لهذه الاعتبارات الروحية وبحكم عدد الابقار التي كان يملكها في تلك السن المبكر فقد كان يحظى بوضع اجتماعي متميز . إلا أن ذلك كان في نظر البالغين فقط ، اما الاطفال فلم يكونوا يرونه الا كصبي اعرج وينادونه باسم « نقول » وهو الوصف المهين للاعرج او الكسيح .

وذات مساء مقمر ذهب الاطفال إلى اطراف القرية للعب ، وكان مديت وقتها في العاشرة من العمر . وبعد ذهابه معهم بقليل عاد مديت وقد ظهر عليه من علامات الحزن أكثر من المعتاد وتساءلت أولئك وهي تناديه بلقب « طائر » الذي يستخدمه الدينكا للتوأم : ما الذي يزعجك يا طائري العزيز ؟

رد مديت وهو يحاول جاهداً أن يمسك دموعه : لاشيء ...

كيف تقول ان كل شيء على مايرام وانت تجاهد لكبت البكاء ، الا تعلم ان الطفل الذى لا يبكي بعينه سوف يبكي فى بطنه وان ذلك يسبب له مشاكل فى المعدة ؟ وذكرها قولها ذلك كما ذكره هو ايضا بتلك الليلة اللعينة عندما اخذت الويل الطفلين إلى خارج الكوخ بسبب مرض الاسهال الذى كانا يعانيان منه . وعندما طرا لها ذلك الخاطر كادت ان تنفجر هى بالبكاء الا انها تذكرت ان واجبها هو تشجيع الولد المسكين فقالت : أخبر أمك بالحقيقة ، هل أساء إليك أحد الصبيان الصعاليك ؟ . اخذ مديت فى الاعتراف بما حدث وهو يبكي :

- كنا يامى نلعب لعبة الالبوك .. عندما كنت اجرى من صف الاولاد الى حيث تقف البنات ، اخذوا جميعا فى الضحك .. ثم صاح ادول فى صوت عال سمعه الجميع : « انظروا الى الطريقة التى يجرى بها ، ألا يناسبه حقاً أن يكون من الضباع » . لم أستطع ان اواجه البنات بعد ذلك ، فعدت الى المنزل ، لماذا فعل العرب فى هذا يامى ؟ لماذا لم ياخذونى مع اشويل ؟ لو اخذونى لكنت الآن شخصا سويا رغم انى اسير عند العرب ... كم اتمنى لو اموت ..

ثم أجهش بالبكاء والعيول . استشاطت أوليل غضباً وانتصبت قائمة ثم ذهبت إلى مكان لعب الأطفال وقد قطعت غصناً من شجرة فى الطريق وقالت :

- اين هذا الكلب المدعو ادول ؟

كان ادول هو ابن اكلول ، الأخ غير الشقيق لملينقديت .. كان أكبر سناً من مديت ، لكنه اقصر قامه منه ويبدو اقوى عودا . ادرك الجميع ماسيحدث ولم يعرض احد منهم المساعدة . ولكن أوليل رأت ادول فقبضته بيدها اليسرى وأخذت تضربه على الارداق بغصن الشجرة ، وعندما تمكن من الافلات منها جرى بعيدا تبعته وهى تضربه على الاكتاف وحيثما ادركه السوط . كان ادول يصرخ وهو يهرب نحو كوخ والدته وعادت أوليل إلى منزلها وهى لاتزال تشتعل غضبا . وبعد ذلك بقليل جاءت نياندينق ام ادول وهى تجر ابنها خلفها وصاحت مخاطبة الويل فى سخرية واضحة :

- ايتها النبيلة زوجة الزعيم ، ليس من الرحمة ان تتركى الشخص على وشك الموت . إليك به ، أرجوك ان تجهزى عليه .. خذيه واقتليه ..

ادركت الويل وهى لاتزال غاضبة ان نياندينق تتحداها للعراك . كانت المرأتان فى عمر واحد تقريبا وقد تزوج اكلول من نياندينق بعد زواج ملينقديت من الويل بفترة وجيزة ، وقد كان ابن نياندينق أكبر سناً من مديت .. ليس فقط لان الويل قد فقدت طفلها التوامين الاولين ، وانما ايضا لان نياندينق قد حملت بابنها ادول قبل الزواج وهو السبب الاساسى الذى من اجله حفز الناس اكلول للزواج منها . كانت نياندينق امرأة جذابة اقصر واملا عودا من الويل ، لكنها كانت ذات حيوية واسلوب مسرحى استعراضى . لذلك كانت الطريقة المسرحية التى قدمت بها احتجاجها على ضرب ابنها جزءا من شخصيتها . وبينما كانت تخاطب الويل اخذت تجمع اطراف تنورتها وتضمها بين فخذيه بطريقة النساء الموشكات على العراك . استجابت الويل بنفس الطريقة وهى تصرخ غاضبة :

- هكذا اتيت انت ايتها المرأة لتلقينى درسا ، فانا على استعداد لك . اذا كنت تتوهمين ان بطنك الكبيرة هذه والتى حملت سفاحا وانجبت هذا الابن الحيوان سوف ترهبني فانت مخطئة . لم تولد اى منا فى هذه الاسرة ولكن يعلم الجميع انى حملت بابنى هنا .. أنا لم أمارس العهر لاد كلبا يصف ابن عمه بأنه ضبع .

بدأت نياندينق بالهجوم واشتبكت المرأتان في صراع يدا بيد وقدمًا بقدم. اجتمع الناس وتدخلوا للفصل بينهما وهم ينادون عليهما بالتوقف. صاحت إحدى نساء العشيرة الكبيرات: الويل.. كيف تفعلين هذا وانت عماد هذه الأسرة؟ ألا تعلمين أن الزعامة ليست بالأمر المهين، كيف تتصرفين وكأنك زوجة صغرى؟ أنت الزعيمة بين نساء هذه القبيلة وعليك أن تتصرفي كزعيمة.

ووجدت نياندينق أيضًا نصيبها من اللوم حيث صرخت المرأة الكبيرة في وجهها. - ليست الويل أمك؟ ليس العمر وحده هو أساس الاحترام، كيف تجرئين على رفع يدك على امرأة هي أكبر منك مقامًا؟ ألا تعلمين أنها الزوجة الأكبر في هذه العشيرة... لقد ارتكبت خطأ فادحًا.

إلا أن الويل ونياندينق تجاهلتا ذلك النداء وواصلتا الشتائم.

صاحت نياندينق:

- أتركوني أريد أن أريها كيف تشعر الأم عندما يعاقب النساء أطفال الغير على أخطائهن.. هل هو طفلي الذي جعلك تخرجين بأطفالك تلك الليلة؟ لماذا تجعلينه يعاني من مصيبة جلبتها أنت على طفلك. أيتها الأم؟

قالت الويل مستخدمة الكلمة السوقية «لامرأة» عند الدينكا: «أنا أعرف شعورك نحو أطفالك وانت تعاشرين الرجال كما كنت تفعلين حتى تنصبي الفخ لرجل عن طريق الحمل بطفل. أنا لست ككبار القبيلة الذين خدعتهم. لن أسمح لحيلك بأن تنظلي على هذه الأسرة».

وفجأة سمع صوت اقتراب مليونديت وهو يقول:

- لقد تفوهتین بما يكفى من الألفاظ البذيئة، لأريد أن أسمع كلمة واحدة من أى منكما. لتذهب كل واحدة إلى كوخها.

وخيم الصمت بينهما.. كانت كل من المرأتين تدفع نحو منزلها، بينما قال ملنقديت:

- كل شخص إلى مكانه.

وعاد الهدوء والاستقرار تدريجيا إلى قرية داك - جور.. ورغم ذلك فقد بدأ صراع خطير. شعر أكلو أن الإهانة لزوجته بانها حملت سفاحا أهانة له هو.. فرفض تناول أى طعام يطبخ في منزل الويل.. وبما أنها الزوجة الكبرى التي تشرف على الخدمات المقدمة من الزوجات الصغيرات فقد امتنع أكلو عن أى طعام يقدم من زوجات مليونديت، وهكذا امتد الصراع ليشمل الأخوين أيضا.

لاحظ مليونديت أولا أن أكلو لم يتناول الشاي معه صباح اليوم التالي كما هي العادة، وقرر صرف النظر عن ذلك والبحث عما يمكن عمله. وعندما رفض أكلو تناول طعام الإفطار وبدأ يعتذر كلما أحضر الطعام من منزل مليونديت، قرر الأخير طرح الأمر للنقاش واختار لذلك وقتا كان عمهما مجانقديت حاضرا.

قال مليونديت: يا عمى عندي كلمة بسيطة أقولها لك أنت وكبار القوم الحاضرين منا. لعلك تكون قد سمعت أن النساء اشتجرن بسبب الأطفال. وكما هو معهود بين النساء، فقد تمادين وقلن أشياء لا ينبغي أن تقال لأنها تمس شرف الأسرة. يجب صرف هذه الأمور لأنها سفاست معهودة عن النساء. ولكن بكل أسف، فقد أخذ أخى الأمر بجدية. لقد لاحظت أنه يرفض الطعام الذى تعده زوجاتي. إنه شىء خطير أن يحدث هذا بسبب نساء غريبات عنا احضرناهن إلى اسرتنا لخدمة اغراض اسلافنا. لقد رايت أن اضع هذا الأمر امامكم.

استدارت الوجوه نحو اكل للإجابة ، وجلس هو دافنا وجهه في كفيه ، وعندما شعر بأنه مطالب بالاجابة تنحنح وابتعد يديه عن وجهه ثم قال : إن اخي محق في قوله انه لا ينبغي للزوجات أن يلقمن روابط الرحم في الغيرة المعهودة عن النساء . ولكن ما حدث اكثر من مجرد التنازع التقليدي بين النساء . لقد شككت زوجة اخي في صحة زواجي وشرعية ابني عندما قالت ان زوجتي قد خدعتني وارغمت العشيرة على تزويجها مني . ان هذا اخطر من مجرد شجار بين النساء ، إذ انه إهانة لكرامتي وخلقى . هذا هو السبب الذى من اجله ارفض ان اتناول طعامها . لا أريد ان اورط كل أسرة اخي في هذا الامر ، ولكن الويل هي زعيمة نساء الأسرة . كيف استطيع التمييز بين طعامها وطعام الأخريات ؟ انا لا استطيع ولا ينبغي لى التمييز بين زوجات اخي .

بدأ ملينقديت بالقول :

- لعله من المناسب ان ارد على ما قاله اكل . إلا ان مجانقديت اعترض قائلاً :
- لا ، فنحن لا نريد ان يتحول الامر الى قضية امام المحكمة . لا داعى لحديثك في هذه المرحلة . على كل حال ، لم يوجه اكل حديثه ضدك ، وما قاله ضد زوجتك يمكن ان يرد عليه الآخرون .

واستدار مجانقديت نحو اكل وهو يخرج التبغ من فمه ويتفل القطع المتبقية في فمه ثم قال :

- ألم تسمع ابدا ان النساء هن اللاتي يقطعن روابط الرحم ؟ نعم ، هن غريبات تركن أسرهن لينضممن الى عشائر أزواجهن . ليس هذا بالامر الهين . وعموما هن يقمن بواجبهن في خدمة عشائر أزواجهن خير قيام . ولكن علينا ان نتذكر انهن في نهاية الامر غريبات . فاذا اصفنا هذا الى غيرتهن ، علينا ان نتوقع الخطر على تضامن العشيرة . كيف يستجيب رجل كبير مثلك إلى اسباب الفرقة ويخضع لها لدرجة الامتناع عن تناول طعام اخيك ؟ ان هذا خطأ . هل احضرت الويل هذا الطعام من ابيها او امها ؟ وحتى لو احضرت الطعام من اهلها ، هل تغض الطرف عن حقيقة انها هنا لان أخاك الأكبر ، وهو في مقام والدك ، قد دفع ماشيتكم ومنها الابقار المقدسة لعشيرتك ، للحصول عليها كزوجة ؟ اليست هي ملككم بموجب الحق المقدس ؟ ام تريد ان تجعلها رأس اسرتكم بحيث تقرر تصرفاتها هي علاقاتكم انتم ؟ ان واجبك هو ان تتحكم وتوجه تصرفاتها وليس لها هي ان تقرر طريقة تصرفك انت .

بصق مجانقديت مرة أخرى ثم واصل الحديث :

- وعلى نفس القدر من الأهمية ان تقرر بان الخط الذى اتخذه انت انما تقف فيه مع زوجتك ضد زوجة أخيك . هل تقول بأن زوجتك كانت محقة عندما أيدت موقف ابنها الذى وصف الابن التوام لأخيك الأكبر انه من جنس الضباع ؟ كان ينبغي على زوجتك ان تكون اول من يعاقب ابنها لاستخدامه ذلك الأسلوب عديم الرحمة . نحن نسامحها لأنها لم تسمع الإهانة بنفسها . ولكن عندما رأت ان زوجة اخيك قد عاقبت ابنها ، كان عليها ان تتحرى الامر قبل ان تتخذ موقف المدافع . ما كان لها ان تدافع عن ابنها بطريقة عمياء . انها مخطئة وانت ايضا مخطيء عندما تظهر وكأنك تاخذ صفها . بوصفى عمك والممثل للأسلاف في هذا العالم ، اطلب منك ان تتوب وتشارك في تناول طعام اخيك .

ظل اكل صامتا ورأسه مطأطأ . ولكن كان من الواضح أن كلمات عمه قد نفذت اليه واخذت تؤدي مفعولها . جاءت امرأة بالشاي عندما اكمل مجانقديت حديثه . وقف صبي وتناول الشاي منها وبدأ في تقديمه للكبار المجتمعين . انتهم مجانقديت فرصة صمت اكل فقال للصبي :

- صب كوبا من الشاي لعمك ودعنا نراه ينهى هذا الامتناع غير اللائق ؟
روقتها تدخل مليونقديت قائلا :

- يا عمي مجانقديت ، لا اريد ان اخالف كلماتك باى صورة من الصور ، ولكنى اشعر بالمسئولية عن الكلمات الحمقاء التي قالتها زوجتي . اريد ان استرضى اخي باهدائه بقرتين .. وطلب العفو منه . كما اقترح ايضا اذا اراد اخي ان يعفو ويصفح ، ان نساله انهاء امتناعه في وليمة طقوسية غدا .. وذلك لكي نقدم القرابين الى الاسلاف ونسالهم أن يجمعونا في الوفاق .

قال احد كبار القوم الحاضرين .

- لقد تحدثت كما ينبغي للزعيم ان يتحدث .

- ماذا بقى لأقول أن يطلب أكثر من هذا ؟ اقترح الا نخرجه بمطالبته بالرد . لقد اختتم اخوه الامر بمنتهى الحكمة .

الا ان اكل قرر ان يتحدث رغم ذلك فقال :

- اعتقد انه ينبغي ان اجد الفرصة للاقرار بالحكمة التي قيلت . إنكم ياكباري وياخي قد أعنتموني على الانتباه . انى اقول بانى مدين لأخي باكثر مما عرض ان يقدم لى لانى كنت ساقع ضحية لاساليب النساء . انى اهديه اربع بقرات لارضائه وتحقيق الوفاق معه ، ولكنى اتقبل بكل سرور هديته البقرتين لى كرمز للتعاقد والتضامن المتبادل .

واختتم مجانقديت الحديث قائلا :

- انكما الاثنان بحق ابناء اخي ، بمثل هذا الشعور والتفكير ، لا يبقى لنا ما يوجب القلق على مستقبل أسرتنا والقبيلة التي نترعماها .

وتم دفع مقتضيات الاسترضاء والوفاق وتقديم الوليمة الطقوسية ، وبذلك ظهر ان روح الوفاق والتضامن قد عادت الى الاسرة .

وفى ضحى احد الأيام بعد تلك الازمة بقليل ، وقد تم إطلاق الماشية للرعى ولكن كانت الخراف والماعز لاتزال مربوطة فى الزريبة . كان مليونقديت جالسا فى جماعة تحت ظل شجرة قاعة المحكمة .

انتصب مديت قائماً من مجلس والده وأخذ طريقه نحو زريبة الماشية ليطلق الخراف والماعز للرعى . وعندما رأى مليونقديت عرجة ابنه تأثر بدرجة أفقدته رباطة جأشه . ومن غير أن يعي ما يقول ، أو حتى يفكر فى أن مديت كان لا يزال على مسمع منهم ، قال مليونقديت متحسراً وكأنه يفكر بصوت مسموع :

- يا للمصيبة التي حاقت بابنى . احيانا ارجو لو انه لم يولد او انه مات عندما سقط من على ظهر الجواد .

واصل مديت سيره نحو زريبة الماشية وكأنه لم يسمع شيئاً ، ولكنه كان فى حالة هياج داخلى . وبمجرد ان دخل الزريبة وأصبح منفردا مع الاغنام والخراف انفجر باكيا . رأت اجاك ، الأخت الصغرى لنياندينق وخالة ادول ، مديت فى طريقه الى الزريبة وقررت متابعتها ، مدعية انها قد نسيت ان تحلب بعض الاغنام . سواء اكان السبب شعورها بالذنب من تصرف ابن اختها تجاه مديت ودفاع اختها عن تصرف ابنها ادول ،

ام كان شعورا طبيعيا ، فقد كانت أجاك تشعر بعاطفة ود تجاه مديت . لقد كانت أجاك جميلة بصورة لافتة ، متوسطة القامة سمراء اللون بمقاييس الدينكا .. وقد افترقت أسنانها بالصورة المثالية لجمال الاسنان عند الدينكا . ورغم أنها كانت في مثل عمر مديت ، إلا أنها كانت أنضج جسديا من المعهود بالنسبة لعمرها ، مما زاد من جاذبيتها . وبمجرد أن شعر مديت بأن شخصا ما قد دخل الزريبة ، أصلح من حاله ليبدو طبيعي المظهر ، إلا أن انتفاخ عيونه كان يفضح حالته .

قالت أجاك وهى لا تملك الا تبدى حزنها لحالة مديت :

- هل هناك ما يدعو للانزعاج ؟

فقال مديت وهو مصمم على عدم إظهار الحقيقة : لا ، لا شيء ربما تضايقت عيوني بسبب الدخان في الزريبة .

رغم ان الأمر كان يبدو أكثر من ذلك ، إلا أن تفسير مديت ظهر مقنعا . وعلى كل حال ، فقد أنقذهما ذلك التفسير من الحرج .. قالت أجاك في محاولة لتفسير وجودها هناك :

- لقد فكرت ان احضر لأرى اذا كانت اى من الاغنام لم تحلب بعد ..

لم يكن من المعتاد أن تحرص فتاة على حلب الأغنام والنعاج بتلك الصورة ، لذلك قدر مديت حقيقة الأمر وكان مسرورا لزيارتها للزريبة فقرر عدم التعليق على قولها لشعورها بافتضاح أمرها . قامت أجاك باختيار عدة اغنام على أمل ان تجد لبنا يقوى حجتها . إلا أنها لم تطل البحث لأنها كانت تفضل أن تتحدث إلى مديت .

- إنى أسفة لأنى لم أجد الفرصة للحديث معك على انفراد منذ الواقعة المحزنة مع ادول .

أشار مديت بما يوحى بتقديره لشعورها .

- أريدك ان تعلم انى في غاية الخجل من تصرف ابن أختى واختى .. أرجو الا تشملىنى أنا معهما في ذلك التصرف ..

- لماذا افعل ذلك وانت لم تفعلى اى شىء مسيء لى ؟

أجابت أجاك بحكمة أنضج من سنوات عمرها : لعله لا يكفى ألا يفعل الإنسان شيئا مسيئا .

فقال مديت بصورة حمقاء : لأفهم ما تعنين ..

- اعنى انه ربما كان على أن احتج ضدهما وقتها .

وتساعل مديت بمعقولية موازية لنضج أجاك :

- وماذا كان يجدى ذلك ؟

- كان ذلك على الأقل يدلك بطريقة اكثر إقناعا بأنى لست في صفهم وانما في صفك انت .

ظل مديت صامتا .. وكذلك فعلت أجاك . ثم قالت وكأنها تحاول تحريك الموقف الجامد . ربما يكون من الافضل ان اتركك لمواصلة عملك .

أجاب مديت :

- أريدك ان تعلمى ان كلماتك قد وقعت وقعا طيبا على قلبى ، وبانى لن انساها . خرجت أجاك من الزريبة تاركة مديت يتفكر في دلالات مقابلتهما . لقد كانا أصغر سنا من أن يفكرا في الحب ، ولكن كان هناك شىء ما في رقة ولطف سلوك أجاك وجمالها - مما جعل قلب مديت يخفق بالانبهار . وبينما ظل هو يفكر في أجاك وشعوره نحوها ، أخذ

يحدث نفسه بأن يحول مصيبيته الى تعبير جمالى . وقرر ان يشرع فى نظم اغنية ، ولكن بما انه لم يدشن لمرحلة الرجولة بعد ، فإن اغنيته لن تعدو أن تكون لحنا من الحان لعب الطفولة . وكانت مصيبيته هى موضوع الاغنية .

إننى طفل الماسى
عندما اسمع إيقاع الطبول
لست ادرى ! هل انام ؟ أم اوتى ؟
فاذا وليت لا ادرى : الرقص ؟ أم اراقب ؟
وبعجز مثل عجز الضبع اسمه الكلاب العاوية
هل اصد النفس عن سرب البنات

ثم اجثو كى اراقب
فتية الحظ خفافا فى الملاعب ؟
ام على قلب من التصميم اركب
علنى احظى بانظار البنات ؟
لست من يياس بل سوف اقاوم
مثل ليث قد تجرح
مثل جاموس به قرن تكسر

ولكن رغم مجاهدته لتحقيق الاعتبار الجمالى لنفسه كأساس لاكتساب القبول والاحترام الاجتماعى ، إلا أن مشاكل مديت تواصلت .

عندما كان فى حوالى الثانية عشرة من العمر ، شارك فى حفل رقص للأطفال اجتمع فيه البنات والاولاد . وكان طويل القامة ، إلا أن طوله جعل عرجته أكثر لفتا للنظر . فى رقص الدينكا ، يقف الرجال أو الاولاد صفا ثم يبدؤون فى الرقص أمام الفتيات . وبعد المراقبة لبعض الوقت لتفحص الراقصين ، تنضم الفتيات الى الرقص ، كل منهن أمام الرجل الذى تختاره . فقد يختار عدد من الفتيات الرقص مع رجل واحد بينما يبقى عدد من الرجال بلا شريك فى الرقص . وبما ان فتيات الدينكا صادقات فى اختيارهن فى عموم الحال ، فإن اختيار أو عدم اختيار الرجل يعكس فى العادة الشعور الحقيقى .
عندما بدأ الاولاد فى الرقص ، انضم اليهم مديت وهو ينشد بصوت مرتفع وكأنه يعرض عن عيبه الجسمانى :

يافتاتى إننى كنز خفى
إن رقصى هو وقف للجميلة
من ترى الكنز الخفى
يافتاتى لا تعيرى السمع للعزال من هذى القبيلة
اتبعيني واقطفى تلك الثمار !

كانت كلماته اكبر من سنوات عمره لدرجة يصعب معها تصديق أنها صادرة عنه . ورغم ذلك ، عندما انضمت للفتيات إلى الرقص ، ظهر الأمر وكأن مديت سيظل وحيدا . كان القمر كاملا ومضيئا واصوات الطبول عالية . وملا الأطفال ، فى صغر سنهم وبراعتهم ، ملأوا قلوبهم بالأحلام العاطفية . وأوشك مديت على التسليم بقسوة واقع حياة الدينكا عندما رأى أجاك تقترب منه للرقص . كانت تبدو فى غاية الجمال وقد لفت قطعة

من القماش الزاهى الالوان حول وسطها وعلقت الحلق بأذنيها وألخزذ حول عنقها
ووسطها . كان مديت قد قرر في نفسه انه يرتاح لاجاك ، بل ولعله يهواها . ولم يحلم ابدا
ان تختاره هو في مثل هذا الرقص العام . كان يرقص مع اجاك وهذه الافكار تعبر خاطره .
وخلال رقصهما لم يتحدثا بخلاف الإنشاد من جانبه هو ، وكان ذلك هو عرف الدينكا .
ورغم انه كان يأمل في شعور عاطفى وليس مجرد الشفقة ، إلا ان مديت كان يجد في
صداقة اجاك مصدر قوة ودعم اعانه على التغلب على الشعور بعدم الثقة الناجم عن
عاهته .

الفصل السابع

استمرت العلاقة العاطفية الصبيانية بين مديت وأجاك فى النمو. وفى ألعاب الطفولة المختلفة التى تجمع بين الأولاد والفتيات .. سواء أكانت رقصاً أم تمثيلاً لأدوار البالغين، كان مديت وأجاك ينجحان فى اختيار بعضهما البعض فى أغلب الأحوال . فى ألعاب الأزواج مثلاً التى يمثل فيها الأطفال دورى الزوج والزوجة، كان مديت وأجاك يلعبان دور الزوجين . وذلك بالطبع بصورة بريئة . وقد يصف البعض صداقتهما بأنها حب عذرى ، ولكن قد يجد آخرون عنصراً شهوانياً فى علاقتهما ، على الأقل بالقدر الذى أزعج كلا من نياندينق وأويل ، كل لأسبابها الخاصة .

سالت نياندينق معاتبة ذات مساء :

- لماذا تلتصقين بذلك الولد مثل « انوات - طوك - يول » النبات الذى تلتصق حبوبه على اذنان الغنم والخراف ؟ ألا يوجد فى كل هذه القرية اولاد آخرون للعب معهم ؟

قالت أجاك وهى مصممة على عدم تفويت أى فرصة لمواجهة أختها : « ما عيب مديت ، إذا جاز لى السؤال ؟ » .

ردت نياندينق : أنت وعيونك التائهة ! ألا تعلمين أن هذه هى الطريقة التى تبدأ بها الأمور ؟ إذا كنت تختارين الأعرج كصديق فى هذه السن المبكرة ، فمن يدري أين ينتهى بك المطاف عندما تكبرين ؟ يجب أن تدرى عينيك على حسن الاختيار منذ الصغر . ردت أجاك فى غضب :

- « كيف يمكنك ان تقولى هذا القول اللئيم يا نياندينق ؟ » الا يكفى انك قد سندت تصرف ابنك الطائش تجاه مديت ؟ انى خجلة من تصرفك . واقول لك الآن انه اذا كانت هذه هى الطريقة التى ستوجهينى بها فمن الاحسن لى ان ابحت عن التوجيه من الغرباء .

فقلت نياندينق وقد خرجت عن طورها من الغضب :
- كيف تجرئين على مخاطبتي بهذه الطريقة ايتها الفتاة اللعينة ، لن اسمح لك
بمواصلة هذا السلوك العايب تجاه اعرج . لم احضرك هنا لكي تنحرفي وتصبحي
فقدنا لاسرتنا . اذا لم توقفى هذا التصرف المشين ، فسوف ارسلك الى منزل اهلنا
حيث مقامك .

قضت اجاك ليلتها تلك دون أن تنام ، وقد واجهها التحدى . هى بالطبع كانت راغبة في
البقاء حيث يتسنى لها اللعب مع مديت أو على الأقل التواجد بالقرب منه . الا أنها لم تكن
لتسمح لأختها بابتزازها .. وهى على كل حال مصممة على أنها لن تبتعد عن مديت ارضاء
لأختها بأى حال من الأحوال . عقدت اجاك العزم ، ولكنها قررت عدم اشراك أختها في
قرارها . بدلا عن ذلك ، سعت للحديث مع مديت بأول فرصة . وكأنها تود العودة الى موقع
لقاتهما السابق ، فقد اختارت اللقاء به في زريبة الماشية عندما كانت الماعز والخراف على
وشك الانطلاق للرعى .

- لقد تشاجرت مع نياندينق . انها تود الا اوصل اللعب معك وقد هددت بارسالى الى
منزل اهلى إذا تماديت في اللقاء بك . انا لا ارغب في الذهاب ، ولكنى ادرك أيضا انى
لو بقيت فانى لا ارغب في ان اتوقف عن لقياك . لذلك قررت ان اذهب باختيارى الى
منزل اهلى بدلا من ان امكن نياندينق من ان تطردنى من منزلها .
سكنت أجاك لتزبى رد الفعل لدى مديت بينما ظل هو صامتا لبرهة من الزمن . رغم أنه
كان يبدو حزينا وهو مطرق ، الا أنه لم يكن من الممكن ادراك حقيقة شعوره . وأخيرا
قال :

- لقد تشاجرت انا كذلك مع أوليل . هى أيضا تريدنى ان اتوقف عن لقياك .
دهشت اجاك لقوله . لم تكن هى قد أفصحت عن أسباب أختها في معارضة صداقتهما
لأنها كانت تشعر بأن ذلك أوضح من ان يستدعى التفسير ولكنها لم تكن تتصور أى
سبب لمعارضة أم مديت لصداقتهما ؟

تساءلت اجاك في تردد :
- هل ذكرت لك أى أسباب ؟
- على كل حال ، انا لا يهمنى ما تقول .
ولكنها أصرت قائلة :

- هل يمكن ان تخبرنى رغم ذلك ..
- لم تكن امى تعترض عليك انت شخصا ، على ما اعتقد ، وانما تعترض على اختك .
لقد قالت انه ليس من الحكمة الاقتراب اكثر من اللازم من أمثال اختك .
- وماذا قلت انت لها .

- اوضحت لها انه ليس هناك ما يجمع بينك وبين تصرفات أختك وأنتك تخالفينها
الراى . هذا بالاضافة لانى قلت لها انى لست بالابن الذى توجهه امه .
- وماذا قالت هى ؟

- لقد ابتسمت وقالت : يا ابنى ، افعل ما يبدو لك . ان اجاك فتاة طيبة . مادمت
سعيدا بصداقتك معها ، فهذا هو الذى يهمنى .
اختتمت اجاك الحديث :

- يا مديت ، انى ذاهبة كما قلت لك . ولكن إذا كانت صداقتنا تعنى أى شيء بالنسبة لك ،
فسوف نلتقى مرة أخرى . على الأقل ، فسوف أذكرك أنا دائما .

ولكن اذا كانت صداقتنا تعنى اى شىء بالنسبة لك ، فسوف نلتقى مرة اخرى .
على الاقل ، فسوف اذكرك انا دائما .

شعر مديت بقلبه يخفق ، لكنه لم يفصح عن عواطفه ، واختار أن يعبر عن نفسه من خلال الصمت . وهكذا افترقا في صمت .

واصل بول اللحاق بأخيه الأكبر بسرعة . ورغم مصيبة مديت ، فقد كان بول ينظر اليه كمثل أعلى ويشارك في معاناته من عاهته الجسدية . وفي حقيقة الامر ، كلما استمتع بول بتقدير واعجاب الآخرين له هو زاد شعوره بعجز أخيه . كان يؤله أن يسمع أى اطراء يقارن بين مظهره هو وحالة أخيه اذ يبدو له الامر وكأنما كانت مأساة أخيه هى الثمن لكونه هو سوى الجسم . سبب له ذلك شعورا غامرا بالذنب لم يجد له تفسيرا وكلما عجز عن تفسير ذلك الشعور بالذنب زاد تمكنه منه .

وذات يوم ، بينما كان مديت وبول ينظفان زريبة المواشى ، وهما يزحفان في وحل روث وبول البقر ويرفعان من روجهما بغناء أغاني العمل ، سمعا صرخة حادة صادرة من جهة كوخ والدتهما . لقد كانت قطعا صيحة امرأة تنوح حزنا على موت أحد . وتعرفا على صوت والدتهما ، ودون أن يتبادلا كلمة واحدة أدركا غريزيا أن جدهما لأمهما قد توفى . مع انهما كانا يعلمان أنه كان مريضا وقد قيل أنه قد تحسن بصورة واضحة ، الا أن تلك الصرخة لايمكن أن تعنى الا أنه قد خسر معركة للبقاء .

وبدون أن يسألا عن السبب أقبلا من زريبة المواشى ملطخين بروث البقر والبول والعرق ، وهما يبكيان بأعلى صوتيهما . أصبحت كل القرية في حالة انزعاج وضجيج .. وقد اندفع الناس تجاه كوخ ألويل . ويحاول بعضهم منعها من أن تؤذى نفسها اذ أنها كانت تلتقى بنفسها على الأرض تنوح وتنوح .

- أه يا أبى

- أه يا أبى

- أه يا أبى منشول

- أه يا أبى منشول

- لقد مات أبى

- لقد مات أبى

- أه يا أمى المسكينة

- يا أمى المسكينة

- أمى أصبحت وحيدة ، انى أصبحت وحيدة

- أه يا للمصيبة

- يا للمصيبة

وبينما كان الولدان يراقبان أمهما وهى تصرخ في الم ، شعرا بحالة عميقة من العجز واليأس ، وكأنما تحطم العالم الذى يعرفانه . وتدرجيا بدأ نواح أمها في الانحسار ومعه بكاؤهما أيضا .

في تلك المرحلة كانت أمها قد قذفت بكل عقود الخرز ومظاهر التجميل الأخرى التى كانت تتحلل بها ومسحت جسدها بالرماد والتراب كما تفعل المرأة في حالة الحداد ، وظهرت حالة من الإعياء والانهيار وسط الجمهرة التى احاطت بها . بدت ألويل وكأنها

هى وسيط الموت ، رمزاً ومركزاً للقسوة الازلية الصادرة عن العالم الروحى لله والآلهه
والتي ضربت على البشرية منذ بدأ الخلق .

وبينما تواصل حضور وذهاب الناس وهم يحاولون مواساة أوليل بالكلمات ، جلس
الولدان وهما يشاركان فى حزن والدتهما ويمتعضان للكلمات التي كانا يسمعانها تقال
لوالدتهما .. فقد تساءلت إحدى النساء الكبار وهى لاتتوقع ردا على سؤالها :

- ماذا يمكنك ان تفعلنى عندما يختار الله ان يعذب الشخص ، ولايمكك الانسان إلا ان
يرضخ لإرادة الله . هل يمكنه مقاومة الله ؟ وهل سيعيد حزنك والدك للحياة ؟ كلا
ابدا . لاشك أنك بحق امرأة منكوبة فقد عانيت من العديد من الوفيات بين إخوانك
وإخوتنا ثم وقعت ضحية لقسوة الغزاة العرب .. والآن ، والدك الذى بقى عزاء لك
قد سقط واستسلم لروح الموت . إنها حالة ينفطر لها القلب ، ولكن ذلك هو قدرك
ولايمكنك تغييره ، بل عليك قبوله .

ثم استدارت نحو الولدين وواصلت الحديث :

- اذا انقذ الله ولدك بول هذا فهو سيكون على الاقل بعض العزاء لفقدك .

لم يصدق بول أن يكون إنسان بهذا القدر من عدم الحساسية لشعور الآخرين ، وفى هذه
الحالة بالذات شعور أخيه مديت ، وكأن ذلك لم يكف ، كانت المرأة أكثر وضوحاً بقولها :
- اما بالنسبة لهذا الابن الثانى الذى حطمه العرب ، فانا لا اهتم بمجرد ذكره ، فهو
ايضا فى عداد الاموات . إن عاهته جزء من المصيبة التي عليك احتمالها ، ولكن بول
هذا يكفى ، حتى ابن واحد كاف ليكون مصدر إنقاذ للعشيرة .

لاحظ بول أن مديت قد انصرف وعيناه ممتلئتان بالدموع التي أوشكت ان تنهمر ،
نهض بول وتبع أخاه ، ناسيا فى ذلك الوقت أنهما كانا هناك بسبب فقدتهما لجدهما ،
الرجل الذى أصبح يراه هو كوالده الأكبر بحق . وبطريق مبهمه ، تذكر بول ليلة أخذه
جده خارج الكوخ فى المطر وصلّى من أجل عافيته . لقد كان بول وقتها مريضا وكان اصغر
سنا من ان يدرك الدلالة الكاملة لما يحدث أو أن يفهم كلمات الصلاة التي قالها جده .
ولكنه سمع فيما بعد أن جده لم يصل فقط من أجل صحة بول ، وإنما قدم نفسه كفداء
لإنقاذ حفيده . وقد أخبره البير ان والده لم يكن يتوقع أن يعيش كثيرا لأنه قد قدم حياته
من أجل إنقاذ بول . وبما أن صلواته قد وجدت الاستجابة ، فإن الرجل العجوز كان يتوقع
أن يتحقق جانب الصفقة المتعلق به هو أيضا .

ومر شعور بالذنب على قلب بول ، ولكنه أدرك أنه لم يكن هناك ما يمكن عمله تجاه
جده المسكين . بدلا عن ذلك كان يفكر فى مديت . من الأهم والأوجب أن يقدم ما يمكن من
الدعم لمديت . ومع مضي الوقت ، ازداد الشعور بالتضامن بين الأخوين بينما اتسعت
الشقة بين وضعيهما الاجتماعيين .

وذات يوم ، وقد عاد بول ومديت لتوهما من السباحة فى النهر ، استدعى ملينقديت
بول . واصل مديت طريقه إلى زريبة الماشية بينما ذهب بول لوالده الذى وجده جالسا
تحت الشجرة فى صحبة رفاقه التقليديين . جذب ملينقديت بول نحوه وعلى وجهه ابتسامة
عطوفة ثم اطلق الخبر .

- ياابنى لقد كنت افكر لتوى أن الوقت قد حان لذهابك إلى المدرسة . إنك لاتزال
طفلا ، ولكنك قد كبرت بالقدر الذى يمكنك من ان تكون بعيدا عن والديك . هذا
مايفعله الأولاد على كل حال عندما يذهبون إلى معسكر الماشية .

لم يكن بول يعلم ما يكفي عن موضوع الذهاب إلى المدرسة ليرد إيجاباً أو سلباً على اقتراح والده . لكن آخرين من الجماعة تحت الشجرة علقوا على الأمر .
- ايها الزعيم ، كيف تقول مثل هذا الكلام ؟
ثم بادر احد الكبار قائلاً :

- هل بول ولد يمكن أن تغامر بمستقبله بهذه الطريقة ؟ الا يفقد الولد الذي يرسل إلى المبشرين ؟ وكيف ترسل ابناً وحيداً للمبشرين وهو أمل قومه وقائدهم في المستقبل ؟

ماكان يعنيه الرجل بالطبع هو إن مديت وهو الخليفة الطبيعي لزعامة والده ، كان غير مؤهل جسمانيا للدور ، مما يجعل بول هو الابن الوحيد المؤهل من أبناء الزوجة الاولى . ضحك مليونديت على قول الرجل ، إلا أن أحد أعمامه لم يجد في الأمر مدعاة للضحك فقال معلقاً :

- لاتضحك يا ابن أخى .. من تتوقع ان يتحمل مسئولية القيادة عندما تصبح انت اكبر من ان تتولاها ؟ إن ابنتك الأكبر مجرد تذكارات لصراعنا المتصل مع العرب . إن القيادة تقتضى العلم بالكلمات الروحية لأسلافنا وليس الكلمات الدنيوية التي يملا بها المبشرون رؤوس الاولاد . لاتدع فكرة الذهاب إلى المدرسة تدخل إلى رأس الولد . إن قومه في حاجة له .

مع غضب بول من استبعاد مديت ، لكنه لم يقل شيئاً إذ كان في الحقيقة مستغرقاً في الاستماع للنقاش بين والده وكبار القوم . واصل مليونديت النقاش بقوله :
- عسى ايها القوم الجالسون هنا الا تروا حقيقة مايدور حولكم ، لقد ارسل كل زعماء الدينكا الذين اعرفهم تقريبا اولادهم إلى المدارس . لماذا تعتقدون أنهم قد فعلوا ذلك ؟ اتظنون أنهم يتوقعون ان يتعلم اطفالهم من المبشرين عن الله وكلمات الاسلاف اكثر مما يمكننا نحن اباؤهم ان نعلمهم ؟ بالطبع لا .. لقد ارسلوا اولادهم إلى مدارس المبشرين ليتعلموا الكتابة والقراءة وليتعلموا اكثر عن الطب الاوروبي ، وليعدوا انفسهم للعالم الجديد الذي ادخلته حكومة الانجليز على قومنا . هذه اشياء لانعلم نحن عنها شيئاً بما فينا الزعماء ، نحن في هذا كالقوم العمى والصم البكم . كيف نكون قادة مؤثرين في عالم لانفهمه . إن قيادة المستقبل هي في ايدي هؤلاء الاولاد الصغار الذين ترونهم يذهبون إلى المدارس . لهذا اريد ان يكون بول هناك . اما عن ابني الآخر الذي حطمه العرب ، فليس هناك مايمكن عمله ، دعوه يعانى هنا وسط اهله .

ومن الصمت الذي تبع ذلك القول ، ظهر ان مليونديت قد قدم حجة قاطعة ، وتحدث احد كبار القوم مؤيداً لما قاله الزعيم .

- يا أهل بلدنا . ألا تعلمون أن القائد حتى لو لم يكن متعلماً ، فإنه أبعد نظراً وأكثر حكمة من عامة الناس . إن الزعيم مليونديت ينظر بعيداً في المستقبل الذي لانراه نحن ، هذا هو السبب الذي من اجله يجلس هو في موقع القيادة . وبهذه الطريقة يمكنه أن يكوننا في الطريق الصحيح ويجنبنا العثرات . ايها الزعيم ، لقد انزعتنى . برغم ان ابني لن يكون قائداً ، ولكن بسبب الكلمات التي سمعتها منك ، فاني سوف ارسله إلى المدرسة لاعدده للعالم الجديد الذي وصفته انت بتلك البراعة .

واعترضت أوليل على إرسال ابنها إلى المدرسة لنفس الأسباب تقريبا التي ذكرها الآخرون ، إلا أن مليونديت تغلب على اعتراضها بقوله :
- انظري ابنتها المرأة ، لقد دفعت أنا أبقار اسلاف المقدسة لكي تحضري أنت وتلدي قائدا لقومي . إن بول ليس طفلك ، إنما أنت مجرد وعاء استخدمه الله في توصيله إلى وإلى قومي . إنه ابني ، ابن أبقار الاسلاف وابن القبيلة . لاتعترضى على قولى .

كانت المدرسة الأولى التي ذهب إليها بول هي « نيامليل » إحدى مراكز تعليم المبشرين في غرب بحر الغزال . كانت نيامليل مؤسسة نشطة تزدهر فيها التعاليم الكاثوليكية بسبب تفانى الدينكا المعهود ، حيث تبعث الحياة في الرسالة المسيحية من خلال غناء الدينكا الجماعى المميز . كان القساوسة والراهبات الايطاليون يلبسون ثيابهم التقليدية ويزينون كنيسة المدرسة بصور المسيح ، ومريم والقديسين والملائكة . وبالخارج كان الموقع تزينه الأشجار والأزهار براقاة الالوان . ورأى بول فى نيامليل رمزاً للجنة التي يعد بها أولئك الذين يتخذون المسيحية ديناً . كانت حياة الدينكا التقليدية ودينهم توصف في المدرسة بالبدائية والتحلل وعدم الاخلاقية ، بينما تستدعى مفاهيم الدينكا للأخلاق والرفاهية لدعم الرسالة المسيحية . كذلك لم ينج الاسلام من الادانة ، فبدلاً من اعتباره كأحد الاديان السماوية ، كان يوصف بأنه مصدر شر وتلوث روحى ولايختلف كثيراً عن المعتقدات البدائية للوثنيين الأفارقة ، لا خلاص إلا عن طريق المسيح وكنيسته . تاتى الصورة واضحة وقوية في الأغاني التي لقنت لبول وزملائه الذين تدينوا بالمسيحية ليغنوها في الصلوات والعروض العامة .

وطننا نيامليل

مصيفنا نيامليل

قسيستا من يحفظ النظام في الديار

ياسيدى ، ياوالدى ، الأرض قد هدها الكفار

الأرض قد هدها « المحمديون »

ماذا ترى النصرى فاعلين

اميل هذى الناحية وروح الشر طالعة

يستقبل الشرق المحمديون

يستقبلون حيث الشمس مشرقة

يا للشقاء !! يا للشقاء !

تلفنا ارواح بانقة

وبعضها عيونها شريرة

وبعضها تصيب بالاسحار

وبعضها أشرار يقلقون الأبرياء

الأرض قد تزلزلت

وراسها في عقدة قد اولجت

وامنا مريم يرهبها الأشرار

عويل في منتصف النهار

غوثاه ! ياماه ! ياماه !

غوثاه إذ نحارب الاشرار
كما لنا في هذه الحياة ! كما لنا في هذه الحياة
كما لنا في الارض مانهواه

كان أساس نجاح المبشرين المسيحيين مع الدينكا، كما ظهر من الحجج التي قدمها ملينقديت في دعم قراره بإرسال بول إلى المدرسة، وهو الربط الوثيق بين نشر كلمة الله وبين توفير الخدمات الدنيوية للناس مثل الطب الحديث والتعليم. إلا أن نجاح المبشرين كان جزئياً، إذ أن الدينكا قد تقبلوا الرسالة الجديدة حيث رأوا المصلحة، واستبعدوها حين تصادمت مع قيمهم الأساسية ورؤيتهم للعالم. وكان هناك بالطبع فارق الأجيال في رد فعل الدينكا. في بعض الأحيان، كان الأطفال يتقبلون الرسالة التي يقدمها المبشرون بينما يصرفها البالغون على اعتبار أنها جزء من عالم الأوهام والأساطير التي تستهوى الأطفال ولكنها عديمة المعنى عند البالغين.

عندما طلب بول الإذن من والده ليتدين بالمسيحية، تساءل ملينقديت لماذا يرغب ولده في الانضمام الى دين يقيده هو، ابن الزعيم، بالزواج من امرأة واحدة.

اجاب بول شارحا :
- لأنه اذا لم يتم للمرء الميلاد الجديد عن طريق التعميد المسيحي، فان المرء لا يدخل منزل الله في الجنة وبدلا من ذلك، فان المرء سيحكم عليه ان يحترق في منزل النار .. الجحيم .

تساءل ملينقديت عن معنى هذه المنازل بعد ان يموت الانسان .
فشرح بول قائلا :

- انه في يوم المحكمة الكبرى، سيبعث كل الاموات مرة اخرى وسيقضى بين الناس على اساس اعمالهم في هذه الحياة. من عاش حياة شريرة سوف يوضع في النار، بينما يوضع من عاش حياة الفضيلة في منزل الله.

قال ملينقديت معلقاً : يالها من أكاذيب بلقنكم إياها المبشرون .

بعد ان يموت الانسان وتاكله آفات الارض، كيف يبعث مرة اخرى ويقضى في امره ؟ .

مصرف بول سؤال والده بأنه دلالة على جهله بكلمة الله، ذلك هو على التحقيق الجهل الذي تعنيه اغاني المدرسة في الابيات التي تدعو اساتذتهم الى ارشادهم :

العلم نور .. العلم نور

ياسيدي افتح مداركنا له، افتح مداركنا له

وعقولنا مثل الصخور وعقولنا مثل الصخور

وعقولنا مثل الثرى وعقولنا مثل الثرى

سنضيلها بشعاع نور

وتصبح فينا الامهات :

ابناؤنا ضلوا الطريق

والأرض أضحت دون ابن

أماه لست بلانمك

إذ انت لاتدرين شيئا ، إذ انت لاتدرين شيئا

هى كلمة الدنيا تجيء

زحفا تجيء من البعيد

وهناك فى الخرطوم طفل

ياتى وينهض ماشيا

أرضيك من بيض البقر

ما امر اقلامى اذن

ما امرها بيض الثياب

أصبح الخوف من الجحيم والشوق إلى الجنة الذى يصرفه الكبار غير المتعلمين على اعتبار أنه أوهام الطفولة ، أصبح ذلك حقيقة راسخة عند الشباب الذى اتخذ المسيحية ديناً .

ياأما البيضاء يا مريم

هيا لببيت الرب فى الأعلى

أواه بيت النار أواه

هذا مكان الحزن والبؤس

علق الزعيم مليونيديت على حديث ابنه بقوله :

- لو افترضنا ان المبشرين محقون واننا معشر الدينكا على خطأ ، وان الذين يعمدون سيذهبون الى منزل الله بينما يذهب غير المعمدين للحريق فى منزل النار هل ستكون سعيدا وانت وحيد فى منزل الله بينما تحترق باقى اسرتك فى منزل النار ؟

ومن وجهة نظر بول كانت تلك هى ايضا حكمة الجهل ، لأنه قد تعلم من المبشرين انه يوم المحكمة الكبرى ، سيواجه الناس الله كافراد وليس كجماعات أو أقرباء . ولا يعتبر أى شخص مسئولاً عن خطايا الآخرين .. كما انه لن يكون من الممكن لأى شخص ان ينقذ شخصا آخر من عقاب الله .

ابتسم مليونيديت ابتسامة التفوق الروحى الذى يتمتع به الكبار .. وقال : اذهب ياابنى ، ليتم تعميدك كمسيحى . على الأقل سوف توفر ماشيتى من ان تدفع للزواج المتعدد عند الدينكا .

وهكذا تم تعميد بول واتخذ اسما مسيحيا هو الياس . منذ أيامه الأولى فى نيامليل ، كان مدخل بول الى التعليم نقطة تحول مثيرة ظهرت منافعها بصورة واضحة وإن لم تتحقق كلها منذ الوهلة الأولى .. فعندما عاد الى اهله بعد ان تعلم القراءة والكتابة ، زاد من صيته ظهور ملكاته الحديثه . ومع ازدياد تعليمه ، بدأ والده فى الاستفادة منه فى كتابة خطابات الرسمية والشخصية ومسك الدفاتر لأغراض الضرائب ، وكل ذلك يؤكد مركزه الاجتماعى بصورة واضحة .

ورغم ذلك ، حرص بول على صحبة مديت خلال العطلات المدرسية حيث كان ينطلق عاريا ويعاود ممارسة أسلوب الحياة التقليدية . ظل بول مولعا بمعسكر الماشية الذى كان

يوالى الذهاب اليه مع مديت . وقد تركت زيارة معينة للمعسكر اثرا قويا لا ينمحي . كان قد بدأ الرحلة تجاه المعسكر ذات يوم بعد الظهر في رفقة بعض أعضاء المعسكر ، وعندما حل الظلام رأوا ضوء نيران المعسكر ينطلق نحو السماء ، وقد امتزج مع ضوء مغيب الشمس والدخان والغبار . وعند اقترابهم من المعسكر والذي يبلغ الميل عرضا ، لقيهم دوى من نباح الكلاب ثم صيحات السخرية العابثة من الشباب الذين سبقوهم الى المكان . تصايح الشباب كل بعد الآخر « إنهم يأتون بالمرض إلى المعسكر » . كذلك كانت روح التعالي والصلف عند أعضاء معسكر المشاة . ولكن عند بلوغهم الجزء الخاص بهم من المعسكر ، وجدوا الترحاب الحنون .

كانت الحياة في المعسكر في غاية الحيوية والتنوع ، حيث يسعى الرجال والنساء الى لفت نظر بعضهم البعض من خلال طريقة المشى والحديث والمداعبة والغناء والرقص والمغازلة . وفي كل ذلك ، كانت المشاة تمنحهم تميز الذاتية والتعبير عن الذات والمقام الاجتماعي . وبالنسبة للأطفال ، وبخاصة الاولاد منهم ، كان هذا جزءاً من فنون وخبرات عرض أنفسهم بطريقة عنيفة ، وكثيرا ما يتخذ ذلك صورة العراك كنوع من انواع الرياضة . تنمى هذه القدرات في الشباب كوسيلة لاعادتهم لدورهم الهام كمحاربين والذي يتولونه بعد التدشين في احدى الفرق العسكرية .

وفي ثاني أيامها بالمعسكر تأكدت لبول ومديت أهمية « مجموعة الأنداد » كوسيلة لتطبيق الوسائل الاخلاقية والاجتماعية لتأديب وتربية الاعضاء . كان الصباح باكرا والمشاة لاتزال مربوطة الى اوتادها . اجتمعت جمهرة من الشباب بسرعة خارج المعسكر واخذوا يتصايحون صيحات الحرب وهم يزحفون تجاه جزء معين من المعسكر . لقد كانوا أعضاء المجموعة الحربية المهيمنة من « مجموعة الأنداد » المعروفين بلقب « التماسيح » ، الذين تصادف وجودهم في المعسكر في ذلك الوقت . أخذ بعضهم يجرون ويقفزون في رقصة حربية اسمها « قورا » ، وهم يتبارزون ويطعنون بحراهم . وعندما اقتربوا من غايتهم التهبت العواطف وارتفعت الحمى إلى القمة . وفجأة ، جرى رجلان نحو ثور جميل المظهر وقد برز قرناه في اتجاهين مختلفين . في البداية ، وجه الرجلان حراهما نحو الثور ، وكأنهما يستعرضان مهاراتهم الحربية . ثم طعن أحدهما بحريته نحو عنق الثور ، وصوب الآخر حريته نحو قلب الحيوان ثم قذفها . وخلال لحظات ، بدأ الحيوان وقد غمرته الحراب وهو يجاهد عبثاً لإطلاق نفسه من مربطه . وحتى بعد أن سقط ، انهال عليه المحاربون بالحراب ، يمزقونه ويقطعون أوصاله بطريقة وحشية تدعو إلى التقزز . وبعد قليل ، بدأ الثور وكأنه قد سقط ضحية لهجوم حيوانات متوحشة مزقتة إلى قطع صغيرة .. وبعد ذلك أخذ كل من شاء شريحة من لحم الثور ، إلا أن هدف العملية لم يكن اللحم وإنما هو معاقبة احد أعضاء المجموعة اتهم بأنه قد أهان الجماعة بارتكاب جريمة السرقة . وذلك بأن استولى على حمل شخص آخر ، وذبحه وسلخه وشوى جزءاً من لحمه ليأكله هو . وبعد ذلك عاد ببقية اللحم الى المعسكر وزعم انه قد اصطاد ظبيا في الغابة . ومع انه قد استوثق من أن بقية اللحم الذي احضره الى المعسكر لم يكشف عن هوية الحيوان ، الا انه كان قد شهد جرمه ولدان عادا فيما بعد الى الموقع ووجدا رأس وجلد الحمل وأخذاهما معهما لدعم روايتهما . وعندما علم الرجل ان امره قد انفضح وأن البينة ضده قد احضرت لم يجرؤ على مواجهة أنداده وبقية أعضاء المعسكر . فاختفى خلال

الليل دون ان يخلف اثرا على المكان الذى ذهب اليه . الا ان ذلك لم يؤثر على الطريقة التى تعاقب بها جماعة الانداد المذنبين من أعضائها .
تتم نفس الاجراءات العقابية ضد جرائم مثل الاغتصاب او اى تصرف غير اخلاقى قد ينتهك كرامة الفرد او جماعة الانداد بدرجة خطيرة . ولم يكن ذلك العقاب وفقا على الانداد من الرجال ، وإنما تتخذة جماعة الانداد من النساء أيضاً ضد أعضاء جماعتهم . التى هى جماعة أنداد مكونة من النساء تعاقب أفرادها أو أعضاءها من النساء أيضاً . كان مديت وبول يعلمان عن حادث مشهور اتهمت فيه فتاة بسرقة إثناء من القرع ملهى بالزبد . فى تلك الحالة قتل « ثور الذاتية » الخاص بأخى الفتاة بنفس طريقة الطعن بالحرايب بواسطة أعضاء جماعة أنداد الفتاة اللاتى عاونهن جماعة الانداد المقابلة لها من الرجال ، كان الثور حيواناً جميلاً محلى بالزينة المعلقة على قرنيه وقد تعلق جرس حول عنقه . لقد كانت عملية مؤلمة للغاية إلا أن الأثر الأسوأ كان على حياة الفتاة نفسها .

فكانما لم تكن الطريقة التى قطع بها ثور الذاتية لأخيها عقوبة كافية ، فقد جاء رجل الى المعسكر فى اليوم التالى وهو يرتدى الأساور والخرز وقد جعل ريشة على قطعة من القماش حول شعر رأسه ومجموعة من حرايب الزينة فى يده اليسرى وعصا غليظة ذات رأس محدودب فى يده اليمنى . وكان هو خطيب الفتاة المفضوحة . ذهب الرجل وهو يغنى وينشد نحو ثور الذاتية الذى سبق أن دفعه كجزء من مقدم المهر للفتاة ، وأطلق الثور من الودت وهو يغنى ، وبذلك أشار الى انه يفسخ خطوبته من الفتاة ويستعيد الماشية التى دفعها كمهر لها :

لماذا لم اندر من قبل ؟ كيف يتوقع الناس منى ان اتزوج من لصة ؟ ليكن اخذى لثورى اشارة لقومى انى انفض يدى عن هذه الفتاة . حتى لو مت فانى لن ادنس شرف عائلتى بدفع ابقار اسلافنا من اجل فتاة مدنسة الاسم .
واصل الرجل الغناء بهذه الكلمات وهو يطلق الثور .

وبذلك اصبح واضحا لمديت وبول أن السرقة من أسوأ المخالفات للعرف الاخلاقى عند مجتمع الدينكا .

كذلك اوضحت هذه الاحداث المثيرة لمديت وبول الاهمية القصوى لنظام الانداد . بعد وصولهما الى المعسكر بيومين ، دعا الاولاد الكبار الى حفل رقص ليلى خاص بالاولاد فقط . وبمجرد ان بدأ الرقص ، صاح اكبر الاولاد واعنفهم داعيا للانتباه ، فتوقفت اصوات الطبول وساد الصمت . وكان من الواضح انه متمكن من الموقف بصورة تامة . قال الشاب : كما تعلمون فيما بيننا قادمون جدد وبهذا اعنى بالطبع مديت واخاه الصبى بول .

وعندما لاحظ المتحدث ان بول قد امتعض لوصفه بأنه صبى اضاف موضحا بقوله :
- انى لا اقصد اهانتك يابول ، وانما اعنى فقط انك الاخ الأصغر ، ولذلك لا يجوز تحديك لاثبات جدارتك لتكون عضوا فى مجموعة اندادنا . اما بالنسبة لأخيك ، فاذا اراد ان ينضم الى مجموعتنا ، وهو فى العمر الذى يمكنه من ذلك ، فعليه ان يقاتل ليجد طريقه الى ذلك . نحن نعلم انه كسيح ولكننا نفترض ان خصيتيه كاملتان وانه لايزال رجلا فى القلب والجسد . ان نظامنا يحتم على الرجل الذى يرغب فى الانضمام الى مجموعة اندادنا ان يختار احدنا للقتال . واذا كسب المعركة او على الاقل لم

يضطر الى الاستسلام ، فانه يصبح مؤهلا للعضوية بينما تعنى الهزيمة ان عليه الذهاب الى مجموعة الانداد الأصغر سنا .

تشكل اعضاء مجموعة الانداد في هيئة حدوة حصان حول مديت الذي دعى لان يختار . لم يكن له أن يقبل العار برفض العرض لأن ذلك يكون جينا مطلقا . كما انه لم يشعر بانه غير مؤهل لقبول التحدى . كانت مشكلته الوحيدة هي كيف يختار . بالطبع ، يكون من الحماسة ان يختار اعنى واشرس اعضاء المجموعة ، ولكن ليس من الرجولة البحث عن الأضعف . وبينما كان يستعرض أعضاء المجموعة رأى مديت صبيا ذا عين واحدة ولكنه بخلاف ذلك معاق وقوى ، فاختر ذلك الولد للمعركة وكانه قد وجد ان عاهته هو تعادل عاهة الصبي .

كان الصراع هو الجزء الأول من المعركة ، وبسرعة اشتبكا بينما كانت الجماعة تشجع من غير تحيز مما ادهش مديت . هذا بالاضافة الى ان خصمه اثبت انه مقاتل متمرس كان قد فقد عينه في معركة كما علم مديت بعد ذلك . تمكن الخصم من اسقاط مديت الى الأرض بسرعة ، ولكن اثناء عراكهما على الأرض تمكن مديت من التغلب على خصمه . وبعد ذلك رفعهما الحاضرون الى ارجلها استعدادا للدورة التالية . ومرة اخرى تمكن الخصم من اسقاط مديت الى الأرض . واثناء العراك على الأرض تبادلوا المواقع عدة مرات .

وبعد ذلك جاء دور الجزء الثاني حيث يعطى كل من الخصمين سوطا من فروع الاشجار ليضربا بعضهما البعض كما يشاءان . وفي هذا ابلى مديت بلاء حسنا . لم يكن قادرا فقط على تحمل الالم الجسماني ، ولكنه كان أيضا ماهرا في توجيه ضرباته . وفي هذه المرة بدا ان تشجيع الجماعة كان الى جانبه هو . كانوا يتصايحون : « اجلده ايها الرجل الثور ، اره ان الرجولة ليست في الصلب (عظم المقعد) .. هكذا ايها الرجل . اجعله يركع للكسيح . وفجأة ولدهشة الجميع ، القى الخصم بالسوط وقبض يد مديت اليمنى ليوقف الجلد ، وتصايح الجميع . « أوقفوهم » وبذلك انفتح المجال للمرحلة الأخيرة التي يستخدم فيها الخصمان أيديهما بحرية في ضرب بعضهما البعض . كانت نوعا من أنواع الملاكمة ، سوى أنه من حق المتعاركين قبض الأيدي أو تركها مفتوحة عند ضرب الخصم على الوجه أو أى جزء من الجسم . وقد عوق صلب مديت حركته كثيرا في هذه المرحلة بينما اظهر خصمه قدرة فائقة على الحركة الرشيقة مما حول المعركة الى مناسبة للترفيه عن المشاهدين . وتحولت الجماعة من الحياد في تشجيع المتعاركين حسب جدارة كل منهما الى مجموعة متحمزة ، تشجع في حماسة خصم مديت .

وبدلا من أن توازى حركات خصمه ، كانت حركات مديت مدعاة للضحك الساخر . صاح أحدهم : « إنه يقفز وكأنه قرد أكثر منه إنسان » . « هذا غير صحيح » أجاب آخر . « إنه يقفز كالضبع أكثر منه كالقرد » .

وعندما سمع مديت تشبيهه بالضبع ، انصرف جاريا وهو يبكي . وظل بول متنازعا بين أن يتبع اخاه او يبقى ويعارك أولئك الذين استفزوه ، ثم ما لبث ان صرخ بعدد من كلمات السباب تجاه الجماهير -

- اللعنة على امهاتكم يا ابناء الكلاب .. انه افضل من اى واحد منكم ايها

الحيوانات . سوف تدفعون ثمن هذا أيتها الكلاب عديمة الرحمة .
قال عباراته وهو يجرى، خلف أخيه .

اتجه مديت نحو الأحرار بعيدا عن المعسكر . الا ان خبر معركته سرعان ما وصل الى الكبار في المعسكر الذين خرجوا للبحث عنه في الغابة ، منادين به باسمه واسم أخيه على التناوب . اجاب بول على النداء وتم إنقاذهما واعادتهما الى المعسكر .
سواء اكان بسبب الغضب او الشعور بالاهانة ، فقد مرض مديت بصورة شديدة . وتقرر ارسال الأخوين الى اهلهم حيث كان خبر الواقعة قد انتشر . وعندما استعاد مديت الصحة ، خاطبه ملينقديت قائلا : كيف تقبل الهزيمة وتجرى وانت تبكى ؟ هل انت اول من يصاب بالكساح في القبيلة ؟ ألم تسمع ابدا عن الرجل المدعو كور اللور الذى كانت له ساق من الخشب ولكنه كان من اشجع المحاربين في تاريخ القبيلة ؟ ألم تسمع عن مالوك كيركو الذى كانت احدى قدميه عرجاء وملتوية وقاصرة عن الوصول الى الارض مما جعله يعتمد على عصا مع قدمه السليمة ؟ لقد كان ايضا رجلا شجاعا ، مغنيا ومحبوبا عند الفتيات . من اين ورثت هذا الجبن ؟
ذهب مديت بعيدا عن والده وهو يجاهد للتحكم في نفسه . وبعد ان اطمأن الى انه منفرد تحت الأشجار خلف القرية ، انفجر باكيا مرة اخرى . لقد أصبح البكاء هو الرد على الأحداث المتتالية الناجمة عن عاهته الدائمة . وكلما راه الناس وهو يبكى حط ذلك من قدره في عالم الدينكا الفخور المتعصب .

كان بعض خصومه أقدر على اكتشاف لحظات ضعفه ووضع الملح على جراحه العاطفية . ويوم ابتعد عن القرية ليبنى من عتاب والده ، ظهر له احدهم خفية من خلف شجرة وفجأة بصوت غير متوقع قال أدول فى صوت يفتعل التقارب والعطف بصورة مخادعة : أصبح إنك يا ابن عمى قد أسقطت إلى الأرض عدة مرات وأنتك انسحبت من المعركة وجريت وأنت تبكى ؟ .

دون ان ينتظر ردا من مديت الذى ظل جالسا وراسه مطأطأ حزنا ، واصل أدول القول :-

كنت اظن ان اصحاب العاهات يعوضون انفسهم بطرق اخرى . باى طريقة تعوض نفسك ايها الكسيح ؟ .

وكانما ادخر قواه للحظة المحاسبة هذه ، وقف مديت غاضبا ودفع أدول الى الارض وجلس عليه وقد وضع ركبتيه على يدي أدول ليمنعه من الحركة وضغط بيديه على عنقه . وجاهد أدول عبثا ليحرر نفسه وهو لا يستطيع اصدار أى صوت وعنقه مخنوق . وكانما عقد العزم على قتل أدول ، واصل مديت الضغط على عنقه حتى جحظت عينا أدول وتناقصت مقاومته . وفجأة سمع مديت نداء بول له ليتوقف ، ثم شعر بأخيه يحاول ان يسحبه بعيدا عن أدول .

وكانما كان لأخيه الأصغر نفوذ سحرى عليه ، توقف مديت فورا ثم انتصب قائما مخلقا أدول على الارض ، جسدا بلا حياة

وصاح بول : إنه ميت ، لقد قتلته ، ماذا نفعل الآن ؟

لم يجب مديت إلا بقوله : إنه يستحق ذلك .

كانت لدى بول ثقة طبيعية في تقدير أخيه للأمور رغم أنه لم يجد ما يمكن أن يبرر قتل أدول . وهو كان يعلم على كل حال أن أدول يستنمر على من هو أضعف منه ويقدر على تسبب الاستفزاز للآخرين كما دلت على ذلك الواقعة السابقة التي بدأها أدول وكادت أن تؤدي إلى انقسام الأسرة . لذلك لم يرد بول حتى مجرد البحث في دوافع المعركة . كان همه الأول هو ما سيحدث بعد ذلك وما ينبغي عمله ، هل يسرعان لإخطار كبار القوم أم يحاولان ابتداء رواية تغطي ما حدث وتحمي أخاه مديت ؟ وبينما هو يفكر في الأمر ومديت لا يزال يلهث من الغضب بدأ أدول يتحرك ويتنفس ، صرخ بول بانفعال :

« إنه حي » ثم ركع إلى جوار ابن عمهما الذي عاود الحياة وأخذ يهزه بعنف منادياً :
« أدول ، أدول ، استيقظ ، هيا أصحو » .

فتح أدول عينيه ببطء وبدأ ينظر حوله وكأنه يسترجع ما حدث . ظل مديت واقفاً وهو ينظر بعيداً وكأنه لا يعبأ لعودة أدول إلى الحياة . وظهر أن أدول استعاد وعيه تماماً والم بما حدث . ولعله قد تذكر تصرفه المهين تجاه مديت وقرر بما أنه لم يؤذ بصورة واضحة ، فأحسن ما يمكن هو تقليل ما يقال عما حدث . وقف ثم ذهب إلى مديت ووضع يده اليمنى على كتفه وقال :

- يا ابن عمي ، اعف عني . اني مخطيء واعدك الا يحدث هذا مرة اخرى .

نظر إليه مديت وعلى وجهه ابتسامة صفح . وتصافحا بالأيدي وأخذا يضحكان بصورة شديدة ، وشاركهما بول بالضحك .

ولدهشة ورضاء الجميع ، أصبح أدول ومديت بعد ذلك أصدقاء مقربين ، رغم أن مديت ظل يعاني من التحيز الاجتماعي . ولم يكن ذلك صادراً عن سوء قصد . وفي الحقيقة ، كان أغلب الأمر انعكاساً طبيعياً لشعور الدينكا تجاه العاهة الجسمانية . سواء أكان الشخص أعمى أم كسيحاً أم مختل العقل أو يعاني من أي شذوذ آخر ، فإن المجتمع يجعله دائم الشعور بذلك القصور بصورة لاذعة ، رغم أنه يجد العناية كذلك . وكلما زادت السخرية على مديت زاد حقد بول على العرب لأنهم سببوا لأخيه تلك الإهانة ، وكان لا يزال يشعر بالذنب لكماله هو جسمانياً بالمقارنة إلى أخيه . وكلما شعر بالذنب تعمق شعوره بالكراهية للعرب وأصبح همه الشاغل .

كان الوقت وقت ندرة قبيل موسم الحصاد عندما أتى التجار العرب إلى بلاد الدينكا وقد حملوا الذرة على ثيرانهم لاستبدالها بالماشية والخراف والغنم . كان السلم النسبي قد استتب بين القبائل مما جعل التجارة تتم بلا عنف . إلا أن الشعور العدائي كان لا يزال سائداً بين الدينكا والعرب . صاحب مديت وبول وأدول والنتيها لاستبدال عجل بالذرة . وبينما كانوا يحاولون شق طريقهم في الزحام صاح التاجر الغربي للناس بالابتعاد .. ثم اختار مديت من بين الحضور وصاح فيه .

- أنت أيها الأعرج ، ارجع إلى الورا .
ورغم أن التاجر استخدم فقط الكلمة العربية الشائنة لوصف العاهة ، إلا أن مديت وأخاه وأدول استشاطوا غضباً . وبلا انذار ، أنهالوا على العربي ضرباً وركلاً وهو يصرخ

طلباً للعون . وخلال دقائق معدودة تصايح الدينكا « لقد انهار السوق » وهى عبارة تعنى انه لكل من اراد ان يأخذ ما يشاء .

وعندما انتهى الامر ، كان العرب قد فقدوا كل الذرة والحيوانات التى احضروها ، إلا انهم لم يؤذوا جسديا . وكان ملجؤهم الوحيد طلباً للعون هو الزعيم مليونديت الذى نجح فى إيجاد حيواناتهم وإرجاعها لهم . كما انه جمع عددا اضافيا من الماشية من القبيلة ودفعتها للعرب عوضا عن الذرة التى فقدوها .

تجاوز شعور بول بالاعتراض على العرب مجرد الغضب لفقد أخيه أشويل والاهانة التى أوقعها بمديت . لقد فتح التعليم عينيه لصور من عدم العدالة التى فرضتها الحكومة المركزية على الدينكا تحيزا للعرب . رغم ان الرق قد أصبح غير مشروع ، إلا ان العرب كانوا يحتلون موقعا متفوقا يجعلهم ينظرون الى الدينكا باحتقار كجنس دونهم فى الدرجة وانهم يستحقون بأن يوصفوا بأنهم عبيد رغم أنهم كانوا أحرارا فى واقع الحال . ونتيجة لذلك زاد وعى بول السياسى وأخذ يؤدى دور المرشد السياسى لأهله .

وكلما زاد تقدير بول لصفاته المميزة حسب المعايير الحديثة ، كلما وضع نفسه دون موقع أخيه الكسيح الأسمى . ولكن مديت كان فى الحقيقة شخصا عاجزا يستحق الشفقة والمساعدة ولا يليق اتخاذه نموذجا ومثلا أعلى للغير . كان بول يعلم ذلك ولكنه لم يرغب ان يتقبل الامر الواقع ، مما خلق صراعا وتوترا فى نفسه .

وربما زاد من تعاطف بول مع مديت أنه لم يكن لديه أخ أصغر . عندما حملت أوليل مرة أخرى وأكملت فترة الحمل ، ولدت طفلة ميتة . ومما زاد من وقع الصدمة أن أوليل فقدت أمها قبل ذلك بقليل . وبعد تلك المصيبة لم تقدر أوليل على الحمل مرة أخرى . تم استدعاء العرافين لتشخيص أسباب عقمها ، وعرضوا نظرياتهم ووصفوا تقديم القرابين من الحيوانات ولكن بلا جدوى . وقد قيل أن لعنة العرب التى سببت صعوبة ميلاد بول هى المسئولة عن عقم أوليل وتم تحديد طرق ازالة اللعنة ولكن بلا جدوى . وفى نهاية الأمر تقبل مليونديت وألويل مصيرهما فركزا حبهما وعاطفتهم تجاه بول وكأنهما يعوضان نفسيهما بذلك عن فقد أشويل وعاهة مديت ..

سمع بول أن أمه قد نظمت أغنية عن مصائبها ، ولكنه لم يعلم حقيقة محتوياتها حتى

غناها أحدهم عندما كان بول يشاهد رقصة للنساء .

يجىء العام وأدفن طفلا

يجىء العام وأدفن طفلا

لقد حلت علينا لعنة اليوم القديمة عندما جلست

بكوخ « أوليل » مولولة :

أوليل ، بنت الرجل الأسود

عند الفجر توارين الثرى طفلا

لقد أصبحت كلبا أسود فى أسرة الشيخ

تعايننى السواحر وهى تسخر بى :

« وذاك الأسود الكلب بلا الوان »

ايا قومى ، انا لم أكل الاطفال

ومن صنعت لروح الموت أهم طعامهم

اولئك لا يموتون
عشيرتنا غدت دوما من الهلكى
ومنذ بداية الخلق
تصب عيوننا أبدا دموع الموت
اطفل النحس ! لحكم الهك استسلم
انا لا بد ان امشى ! انا لا بد ان اذهب
الى برية الحيوان
اناس قبيلتى مهلا ! كفى لوما !
فإن الأم تبقى دارها أبدا لمن ولدت من الأطفال
أخى البيير ! أخى البيير
جلبت اليك سوء الحظ
ايا ملك ! ايا شيخى مالىنقديت
هوت فى القبر - قبر النحس -
أبقار مقدسة
ألا يالعة البوم القديمة !

بينما واصلت النساء الضرب على الكفوف والرقص مع ايقاع اللحن انسحب بول إلى
زريبة ماشية خالية وأخذ فى البكاء حزنا على الثقل المأساوى الذى تحمله أمه فى المجتمع ،
ولكن خففه عليه أنه على الأقل لم يرد شئ فى الأغنية عن مصيبة مديت أو اشارة الى أن
بول هو الأمل الوحيد لبقاء العشيرة .

الفصل الثامن

رغم أن مديت كان أصغر سناً بقليل من ابن عمه أدول ، إلا أنهما كانا في أواسط العقد الأول من عمرهما ، وبذلك أصبحا مؤهلين للتدشين كأعضاء في مجموعة أنداد واحدة . تم اختيار أكلول والد أدول كأب روحي لمجموعة الأنداد . وبطريقة ما ، كان مديت يرى في التدشين فرصة لتحرير نفسه من الوصمة الاجتماعية بالتحول بصورة من الصور من شخص كسيح إلى رجل من أسياد القوم ذوى الشأن - من صفة «نقول» إلى صفة « ادنيق » عند الدينكا - وبذلك يجد الاحترام . وهكذا ، رغم أنه كان بالكاد في السن التي تمكنه من احتمال عملية التدشين المؤلمة ، فقد تمكن من اقناع والده بأن يسمح له بقيادة مجموعة الأنداد إلى العملية . فهو على كل حال قد كان الابن الأكبر للزعيم . وبذلك هو المؤهل لقيادة مجموعته . وكان هذا يعنى أن يكون هو أول من يرقد على الأرض لتوضع عليه علامات التدشين .

كان الزعيم ملينقديت يشعر بالتنازع ، فمن جهة كان يريد أن يقود ابنه المجموعة وذلك حقه وواجبه بوصفه أكبر أبناء الزعيم سنا . ومن الجهة الأخرى ، فقد كان يدرك أن ابنه كسيح وقد تعرض لتجارب نفسية مؤلمة بسبب تلك العاهة مما جعل البكاء مثل الطفل حالة ملازمة له لدى الأزمات حتى عندما تقدم نحو سن الرشد . وهو ، بالإضافة لذلك ، قد كان أصغر سنا من أن يحتمل ألم التدشين . هل سيصبر على محنة الألم ؟ يالها من فضيحة لو أنه بكى عند إجراء العملية . وأخيرا قرر الزعيم ملينقديت إجراء الطقوس ولسان خاله يقول « حتى لو مات أثناء عملية التدشين ، من المناسب أن يقود ابني المجموعة »

سميت مجموعة انداد مديت باسم « ايتز » اى الصراع ، كناية عن الغارات المساوية التي يقوم بها العرب والتي أدت إلى فقدان الابن التوأم أشويل وعاهة مديت . وقد أظهر مديت قدرا مدهشا من الشجاعة عند اجراء الطقوس . فقد طلب السماح له بأخذ بعض الوقت اثناء العملية الدموية لينشد أناشيد الشجاعة والشرف امام عائلته وبقية المشجعين . وهكذا ، بعد أن وضعت علامات التدشين المؤلة على نصف جبينه ، سمح له بالوقوف والدم ينهال من وجهه ، وهو ينشد أبياتا نظمها هو بنفسه واستذكرها لهذه المناسبة :

ابن الشيخ الاكبر لاترهبه السكين
حتى لو سالت اوردتى كالخزان
لن اقبل عار بقائى طفلا
شوقى ان اصبح رجلا خلف الفتيات
حتى لو مت فلن يلحق عائلتى عار
لا لن يلحق عار بشيوخ الامة من مهد الخلق
استقبل تلك السكين بعين لاترمش
فاذا رمشت عينى اذبحنى
لامت ان عيرت قبيلنا ذا عز ابدى !

وعاد جسده مبللا بالدماء ورقد لاستقبال باقى علامات التدشين . وفجأة ظهر صوت امرأة وهي تنشد بصوت عال . لقد كانت أجاك ! دون علم مديت ولا أفراد أسرته ، فقد حضرت أجاك من قريتها لمشاهدة هذا الحدث الفريد . وفي صوت جميل يعكس جمالها هي ، غنت في انطلاق لايتيسر لدى الدينكا إلا في الغناء .

ابن الشيخ يسير هناك ليستلقى ثانية
رجلى رأس القوم صميم لايتردد
نرقبه فخرا إذ يستلقى بين القوم
واغنى للحرية كى امنح ودى سيد قلبى
ماعاد صغيرا يتخطى
رجلا قد صار

ماعدت فتاة تلزم بالصمت
انى امرأة تجرى خلف فتاها
حتى لو مت هو سيد قلبى
من غمرت قلبى بالعز وبالفرح شجاعته !

لقد كان ذلك أمرا خارقا ومعجزة دالة على القيادة المقدسة التي يملكها اسلاف مديت . لم يكن من غير المعهود أن تبدى فتاة السعادة لتدشين حبيبها ، ولكن أجاك كانت علي التحقيق مفرطة في تعبيرها عن سعادتها . ماذا يعنى كل هذا في الواقع العملي ؟ هل تقدم لها مديت طلبا للزواج ؟ وهل قبلت هي ؟ لابد ان يكون هذا هو معنى إعلانها . ولكن ماذا كان رد فعل الأسرة ؟ لم يكن احد يعلم .

وهكذا تمت عملية التدشين على أحسن ما يكون ، وقدم والد مديت الثيران للاحتفال ولعبت أجاك دور الفتاة المفضلة الحبيبة . ولكن لم يكن أحد يعلم مايعنى كل ذلك . هل ستزوجه مديت ؟ وهل تقبل هي الزواج منه ؟ لقد كان السؤال الأخير هو الذى يشغل

الناس أكثر وهم يشاهدون الطقوس والاحتفالات .

كانت مرحلة الاستشفاء هي أكبر مراحل الاحتفال بالنمبة للذين تم تدشينهم وهم يطعمون جيدا بالطعام المغذى ويتمتعون بحرية لاحدود لها وقد سكروا بالسعادة القصوى بسبب ترقيتهم من اولاد إلى اسياد . كانوا يغنون اغاني الشجاعة واحترام الذات وهم يحملون عددا من اعواد الذرة كناية عن روح التدشين ويستعرضون الشيطان الطويلة وهي السلاح الوحيد المسموح لهم بحمله في هذه المرحلة ، يشبعون من الطعام ويرقصون رقصة التدشين البطيئة الحركة وعموما يعيثون فسادا في أى منزل يشرفونه بأدائهم . إنها مرحلة يكاد الانسان ان يود البقاء بها ولا يتجاوزها لولأنه بعدها تأتي مرحلة الاحترام الأكبر وهي مرحلة الرجل السيد كامل السيادة .

تم الاحتفال بالتخريج لتلك المرحلة المتقدمة بليلة كاملة من الرقص والغناء انتهت بمطاردة وهمية من مجموعة الانداد الأكبر منهم للذين تم تدشينهم حديثا نحو النهر ليعبروه سباحة ويخرجوا على الضفة الأخرى وهم رجال قد دخلوا مرحلة « أدينو » أى مرحلة الأسياد الذين تجب لهم كل فروض الاحترام الواجبة للمحاربين الشباب . وفي ذلك الوقت يقوم الأقارب والمعجبون « باطلاق » المدشنيين وذلك بإهدائهم الحراب وثيران الذاتية أو أى شئ آخر يدل على قيمة النضج .

« أطلقت » أجاك مديت بإهدائه الصداقة ، وهي هدية خاصة تعبر عن مرحلة متقدمة من العلاقة العاطفية التي تنتهى في الغالب الأعم بالخطوبة الرسمية ثم الزواج . كان مديت في غاية الفخر بتلك الهدية وعبر عن قوله بأغنية وجهها الى أجاك :

الحلو الأسمر

الحلو الأسمر يامن ادهشت قبيلتنا

اتلقى ودك جائزة نادرة

جائزة نادرة ندره سن الفيل العملاق

ندره عسجد تيجان ملوك وملكات أوروبا

اسالك تحيل صداقتك خيوطا

يرقصها في فخر عجلي الأبرق

عجل المولود الأول للمالينقديت

اسالك تحيل صداقتك الى باقة أجراس .

منها يقرع عجلي الأبرق اجراس نحاس قبيلة جركل

كى يعلن مجد صداقتنا

صداقة بنت وابن النبلاء

أجاك ، لن اتركك بتاتا

حتى لو حملوك الى البدر

ساطير والحق بك

حتى لو حملوك الى الشمس

ساطير اليك لنحترق سويا

أجاك ،

هيا كى نوقى عهدا منذ طفولتنا قد صغناه

هيا نصبح رجلا وامراة أبدا متحدين

كانت الاغنية هي اعلان لنية مديت ان يتزوج من اجاك ، ولو قبلت هي فسيتم الاعلان الرسمي للخطوبة . ولكن لنفس السبب كانت الاغنية دعوة للمنافسين ليبرزوا للتحدي . وفعلا برز للتحدي نفس الصبى ذى العين الواحدة الذى تصارع معه مديت من قبل في معسكر الماشية . كان مديت يعرف الصبى باسم « ليث » اى الصقر ، وهو اسم يتناسب مع شهرته كمحارب . كان ليث الابن الاكبر لاحد النبلاء الاغنياء ولذلك كان على استعداد « لشراء » اجمل النساء لابنه ذى العين الواحدة . لكن والده لم يشأ ان ينافس ابنه ابن الزعيم ، اذ قد لا يقدر على النهوض بواجب ذلك المستوى في المنافسة . لذلك حاول والد ليث اثناء ابنه عن المنافسة ، ولكن بلا جدوى . واختار ليث ان يتحدى خصمه بأن يحاول استمالة الفتاة عن طريق التودد والمغازلة . تتم اجراءات الزواج عند الدينكا على مستويين : تجرى الاجراءات القانونية والاجتماعية عن طريق كبار القوم بينما يعتمد الحصول على موافقة الفتاة على التودد والمغازلة التى يقوم بها العريس بمعاونة ائداده واصدقائه واقاربه .

كان بول صبيا قد تجاوز العاشرة من العمر بقليل عندما دعاه اخوه مديت قرب نهاية عطلة المدرسية لان ينضم له واصدقائه في رحلة تودد وغزل لاجاك . وبما ان بول لم يتم تدشينه بعد ، لم يكن لدى الدقة سيداً مؤهلاً لمصادقة ومغازلة الفتيات في عرف الدينكا . ولكن بما انه كان متعلما مما رفع من قدره الاجتماعى ، فقد جازت معاملته كصبى اكبر سنا من عمره الحقيقى . كما ان بول كان حريصا على فرصة تسمح له بتجربة الغزل القبلى وهو قد بدأ يبتعد (بحكم تعليمه وسفره) عن ثقافة الدينكا .

تناول مديت وجماعته عشاء مبكرا وساروا لعدة ساعات ليصلوا الى قرية اجاك قرب وقت النوم . كانت اجاك قد علمت بمقدمهم مسبقا ودعت بدروها عددا من الفتيات الصديقات لمصاحبتهن مع الزوار . كان هذا متوقعا في مواقف المغازلة وخاصة عندما تكون العروس قابلة لعرض الزواج .

عندما وصلوا الى منزل اجاك وقفت المجموعة المكونة من ستة شبان ، الاخوين واربعة آخرين ، على البعد واقترب ائدهم من مجموعة الفتيات اللائى جلسن يتحدثن امام احد الاكواخ القريبة . كان من الواضح انهن كن يتوقعن حضورهم . بعد ان تنحنح ليلفت نظر المجموعة ، قال بول :

- هناك رجل يقف هنا ...

العبارة المعهودة في هذه المناسبة ، استوثقت احدى الفتيات من تلك الحقيقة ثم فرشت حصيرتين طويلتين لجلوس الضيوف . حضرت اجاك وحيث الزوار ، وحسب العرف ، تظاهرت بانها لا تعلم سبب حضورهم .

وعلق مديت مداعبا :

- انك لن تستطيعى مواجهة هذه المعركة منفردة . أرجو أن تكونى قد اعددت قواك . اجابت اجاك بقولها :

كانت عندى فكرة انك قد تحضر ولكنى لم اعلم ماذا اتوقع .

[يادى بول بالحديث قائلا :

- لا بد من المواجهة حتى لو كان الهجوم مفاجئا .. فليس لديك الخيار .

قال احد اصدقاء مديت :

- لكل ضيف غرض وحسب عادة اهلنا لا يطلب من الضيف الافصاح عن غرضه وهو

واقف او جالس خارج القرية . يجب الترحيب به اولا واستضافته .
كان يرمى الى الاستضافة داخل الكوخ لان ذلك يكون ادعى للمغازلة .
- ان الكلمات هي الكلمات لو قيلت في الهواء الطلق او في ظلام الكوخ .
بذلك اظهرت اجاك مظهر معارضة مفتعل للاقتراح الضمنى بادخال الزوار الى الكوخ .
تدخل صديق آخر لمديت فقال :

- يا اجاك ، نحن ضيوف ولا يجوز ان تتركينا في الخلاء . وانما يتحتم عليك ان
تقدمي حاجتنا لاصدقائك في القرية حتى لا يطرد ضيوفك .
واضاف بول في صورة استجلبت الضحك :

- من الافضل اذن ان تسرعى بالذهاب لادراكمهم قبل ان يناموا .
اجابت اجاك بقولها :

- مع كل هذا الاصرار لا املك الا ان انظر فيما يمكن عمله . ولكن لا تدهشوا اذا لم
تجدوا سوى فتاة واحدة مغلوبة على امرها .
فقال احد الرجال معلقا على ردها :

- اذا كانت عندك الثقة لتقاتلي منفردة فسوف نقبل تحديك .

غابت اجاك فترة بدت طويلة لدرجة ازعجت الجماعة الزائرة بأن خلا ما قد حدث في
الخطا . كانت القرية وقتها هادئة ومفترض ان الجميع نيام . ثم راوا شبحين مقبلين مما
سبب لهم السرور . لكنهم تساءلوا : الم تتمكن اجاك من ايجاد اكثر من فتاة واحدة
لترافقتها؟ دب الشعور بخيبة الأمل في عقولهم وقلوبهم من تلك الخاطرة . ولكن عاودهم
الشعور بالارتياح عندما اخبرتهم اجاك بأن الفتيات قد وافقن وتم اعداد كوخ خال في
أطراف القرية وجاءت هي وصديقتها لمصاحبتهم الى ذلك المكان . حملت الفتاتان
الحصيرتين وقادتا المجموعة نحو الكوخ الذي بدأ مهجوراً وقتها . إلا ان كل ذلك كان جزءا
من المغامرة الليلية . وعند الاقتراب من الكوخ سمعوا الضحك الخافت من الفتيات الاربع
الاخريات . وفجأة خيم الصمت على الفتيات عند سماعهن لاصوات اقتراب الضيوف .
كانت اجاك وصديقتها اول من دخل الكوخ وهن يحملن الحصيرتين لإعداد المجلس .
كانت هنالك نار صغيرة انارت الكوخ بصورة رومانسية خافتة . وعند دخول الجماعة الى
الكوخ استقبلهم جو من الجدية . ثم جلس الجميع استعدادا لليلة كاملة من حديث
التودد والمغازلة ، والذي بدأ بالتعارف وذلك بذكر اسم الشخص واسم الوالد والعشيرة
والجزء من القبيلة . ومع تقدم الليلة ، تواصل الحديث وهم مستلقون على الارض حيث
رقد كل شاب وشابة معا على الحصائر ، وأخذوا يلمسون ويداعبون بعضهم البعض في
حدود اللياقة . في تلك المرحلة أخذ الحديث صورة الفكاهة والبراعة اللغوية الشاعرية .
والغرض من ذلك هو خلق روابط بين عروس وعروسة المستقبل . ورغم ذلك لم يكن من
الممكن قول أى شيء بصورة مباشرة ، وتحتم إخفاء كل شيء في غلاف المداعبة الغزلية .
قال احد الرجال بصورة مسرحية :

- هل نتوقع وجود قطيع من الخراف في نفس الزريبة مع اسود ولا يحدث شيء من
الجروح .

فردت عليه إحدى الفتيات قائلة :

- وهل نتوقع الاسود ان تنجو دون رد العدوان من جانب اصحاب القطيع ؟

- فعلق أحد الرجال على قولها :
- ولكن كيف تمكنت الأسود من دخول الزريبة ابتداء .
ودعا تعليقه إحدى الفتيات أن تقول :
- ان روايات الدينكا مليئة باخبار الناس الذين تم استقبالهم واکرامهم ثم تحولوا الى اسود كاسرة تستحق الطرد كالوحوش .
- قال بول : لقد اوشك هذا الحديث على الخروج عن الطور . لماذا لا نستبدله بالحديث بقصص الاسود والثعالب .
- رات إحدى الفتيات الحكمة في حديثه فقالت مرافقة :
- هذا صحيح . لماذا نفكر في حملان عديمة الحيلة لا تملك الا ان تسقط ضحايا للأسود ؟ ماذا عن حيوانات قادرة على الدفاع عن انفسها بذكائها رغم ضعفها الجسماني .
- هذا ما قصدته . واصل بول الحديث .
- « في كل تلك القصص يخدع الثعلب الاسد ويورطه في مواقف تدعو للسخرية بحيث ينتهى الوحش الذى بدأ بالعدوان الى هزيمة مهينة . وفي غالب الحال لا يعرف الانسان هل يعجب بالثعلب ام يشفق على الاسد » .
- قال صوت نسائي :
- ولكن اذا لم يتم التفوق بالذكاء على الاسد ، ماذا يكون مصير الثعلب .. على الاقل ان الثعلب لا يهدد بان ياكل الاسد وانما فقط ليحمى نفسه . من هذا يظهر مع من يجب ان يكون التعاطف . .
- وواصل بول الهجوم بقوله :
- ولكن من مواصفات هذه الروايات ان خبث الثعلب يعود دائما ضده هو ، الا تكون حكمة الرواية دائما ان مخادعة الثعلب تنقلب في نهاية الامر ضد صاحبها ؟ وهنا .. صاحبت إحدى الفتيات :
- يا اجاك .. ماذا احضر رجلك معه ؟ كنت اظن انك قلت انه الاخ الأصفر الذى حضر لمراقبة أمور التودد والغزل . بينما يظهر مما يقول أنه معلم وليس مجرد تلميذ .
- وردت عليها اجاك قائلة :-
- لماذا تسالينى انا ؟ .. انه هنا . لماذا لا تسالينه هو ؟
- فقالت الفتاة لبول : قل لى ايها الرجل هل انت ولد حقا ام انت روح قد تقمصت هيئة ولد ؟
- اجاب بول : إنه أنا الذى يتحدث معك . إنى لأعلم عن الروح أو الولد أو الطفل الذى تتحدثين عنه .
- ضحك الجميع . فمن الواضح ان بول كان في طريقه الى النصر في معركة اللباقة ، وقررت إحدى الفتيات قبول التحدى فقالت :
- إذا طبقنا منطقك ، يجب ان احذرک بانك اذكى من اللازم ، واحذر ان ينقلب ذلك ضدك . .
- اجاب بول على هذا وهو يستمتع بمجرى الحديث :

- اه .. ولكن الخبث يتحول ضد الشخص بعد ان ينجح .. او يبدو وكأنه قد نجح
في تحقيق غايته . هل خلقت انا غايتي ؟ هل ابدو وكأنى قد نجحت ؟
ضحك الجميع مرة اخرى ، وهم مدركون تماما ما تعنيه تلك الغاية التى يرمى اليها
بول . وقال صوت فتاة يرتفع فوق الضحك :

- لا تخف فاننا لا اعرف هيتك ، ولكن بعد الاستماع لحديثك اقول لك انك لن تجد
اى مشقة في تحقيق تلك الغاية ..

رغم ان المقارنة بين بول ومديت لم تكن مقصودة ، الا انها خطرت ببال الجميع ، وربما
ببال مديت نفسه الذى خفف من توتر الموقف بأن بادر بالحديث مكملا لقول بول :
- لقد تساءلت دائما لماذا تحرص النساء على الدفاع الفيور على ما قصد الله ان تتم
المشاركة فيه ..

اجابت اجاك بقولها :-

ولكن لا تتوفر كل طعام للأكل فى جميع الأوقات . هناك أوقات يحرم فيها على
النساء تناول لبن البقر وانما ياخذن لبن الماعز . هناك مواسم لاكل السمك والفواكه
والخضراوات ومواسم أخرى توفر فيها الطبيعة انواعا اخرى من المأكولات . هناك
وقت الصيد ووقت ذبح الحيوانات الاليفة . لقد منح الله الرجال والنساء قواعد
سلوك لتنظيم هذه الاشياء . والله يعلم ما هو الافضل .
فقال مديت في اصرار على موقفه :

- ولكن الله هو الذى منح العيون لهذه الاشياء لتابعة بعضها بعضا ..

واجابت اجاك في اصرار مماثل :-

- الا انه لم يعط العيون ارجلا لتذهب بنفسها ولا بد ان يوجهها من يحملها .
ولتحقيق الفرض الذى من اجله خلقت ، لا بد من تدبيرها بحكمة . تماما كما
يستخدم صياد السمك الطعام ليجذب السمك الى السنارة دون ان يعطى لحما
شبيهه قبل الأوان ، على الرجال والنساء ان يتعلموا كبح رغبات بعضهم البعض
حتى يمكنهم تحقيق ما اراده الله لهم منذ بدا الخلق ، ..

وبذلك كانت لأجك الكلمة الاخيرة في الامر وسعد مديت لمغزى ما قالتة هي .
استمرت المحادثة طوال الليل دون توقف ، ورغم ان البعض قد اخذته اغفاء النوم ثم
عاود المشاركة ، لم يكن اى منهم قد نام لفترة طويلة حتى صباح ديك الصباح . أدرك
الجميع ان عليهم انهاء جلسة المغازلة وازالة كل اثار مغامرة الليلة من الكوخ وأنه على
الفتيات العودة في صمت الى اكواهن المعتادة قبل ان تستيقظ القرية . وعند لحظة
الفراق قالت الفتاة التى عبرت عن اعجابها ببول :

٣- دعنى ارى عن كذب هذا الاخ الاصفر الذى تحدث ببلاغة الليلة الماضية لاربط
بين وجهه وكلماته ، ..

وضحك الجميع .

- لا يوجد ادنى تعارض ، إنك صبى وسيم بنفس القدر الذى انت به فصيح .
فرد بول مختتما الحديث :

- ماذا استطيع ان اقول تجاه هذه الكلمات العذبة .
وهكذا افترقوا وهم يدركون أنهم سيقضون اغلب يومهم في حالة من النعاس

والخمول ، بسبب « اللوار » وهو التعب الناجم عن ليلة بلا نوم يقضيها الشخص في حديث الغزل .

وبينما ظل مديت وليث يتنافسان في الغزل كانت أجاك تظهر لهما معا أكبر مظاهر الأدب وحسن المعاملة ، رغم أنها كانت من الواضح قد فضلت مديت . حاول ليث في البداية إضعاف موقف خصمه بلفت النظر الى عاهته ، الا أنه لم يحقق الكثير من وراء ذلك وخصوصا لأنه نفسه كان أعور، وبذلك ليس أفضل حالا من الأعرج لدى قيم الجمال عند الدينكا . اخذ ليث يبحث عن نقطة ضعف أخرى حتى وجد نقطة زائدة الحساسية . ووصل الخبر في النهاية الى مديت عن طريق أجاك ، وقد حدث ذلك بصورة مثيرة وغير متوقعة .

قام مديت بزيارة أجاك عدة مرات ، ولكن على العكس من استجابتها السابقة ، أخذت تتفاداه بأن تعتذر بصورة مؤدبة بأنها « ثقيلة الجسم » ، وهي طريقة مؤدبة للقول بأنها تعاني من العادة الشهرية . وعندما ظهر من كثرة التكرار أن العذر مجرد ذريعة ، أصر مديت على طلب التوضيح . فوافقت أجاك على أن تلقاه ذات ليلة صافية مقمرة . كان كل منهما مشعا بحلى المغازلة . لبست أجاك أحزمة الخرز حول وسطها وأساور الفضة الملفوفة حول أذرعها وأقدامها بينما لبس مديت سوارا كبيرا من العاج على ذراعه اليسرى وقد لف شعره الكثيف بقطعة من القماش وغرز فيه ريشة نعام . ولكن رغم الزينة ، كان الجو متوترا .

وعندما جلسا على الحصيرة وبينهما بعد واضح ، كان من الصعب أن يتصور المرء أنهما كانا حبيبين منذ الطفولة . وأدرك مديت أن هناك أمراً جلاً .. فقال : أخبريني بالحقيقة هل أسأت اليك باى طريقة .

أجابت أجاك وهي تتفادى النظر الى عينيه .

- لا .. أبدا ..

- إذا لماذا تتصرفين بهذه الطريقة ؟ ..

ظلت أجاك صامته .

قال مديت باصرار :

- لا بد أن اعرف الحقيقة هذه الليلة . لن أبقى في الظلام الذى القى ظله على

حياتى . هل هو ليث ؟

ظلت أجاك صامته مما أوحى له بأن ليث هو السبب . استمر مديت في محاولة

استقصاء الأمر :

- هل تحبينه .

- لا .

- إذن لماذا تتصرفين تجاهى بهذه الطريقة ؟ هل توقفت عن حبى ؟

لم تأت الإجابة وظل مديت حائرا عن معرفة سبب التغير .

وكانما قرأت أجاك خواطره . فقطعت الصمت بسؤالها :

- ماذا حدث ليلة تصارعت مع ليث ؟

- اتعنين عندما كنا اطفالا ؟

- نعم .

- تقصدين ماذا حدث في المعركة نفسها؟
- لا ، اقصد بعد المعركة في وقت لاحق من تلك الليلة .
اجاب مديت بصورة دفاعية :

- لا اعرف عن ماذا تتحدثين ولا علاقة ذلك بما هو بيننا الان ؟
وعندما ادركت اجاك انها قد ازعجت بصورة حادة .. ربما لأنها أصبحت اقرب الى
الحقيقة مما يلزم . اوقفت الاستقصاء .. إلا أن حب الاستطلاع زاد عند مديت رغم انه
بدا وكأنه خائف من الموضوع .

سال مديت في اصرار .

- ان توضحى ما تقصدين

- لا اعتقد انى سافعل ذلك .

- ولماذا لا تفعلين ؟

- لانى لا ارى موجبا لذلك .

تذكر مديت الحديث الذى دار بينهما في الطفولة عندما كان الوضع عكس ما هو الان
وكانت اجاك هى التى اصرت على معرفة ما قالته امه هو عن صداقتهما . كاد ان يذكر لها
ذاك الموقف ولكنه صرف النظر عن ذلك وبدلا منه قال :

- ولكن لماذا يهكم هذا الامر في المقام الاول ؟

اجابت اجاك : أعتقد أنى قد غيرت رأيى ..

تقصدين أنك قد عدلت العزم ؟

قالت اجاك وقد بدأ صبرها في النفاد : هل تعتقد أنه حقاً من المجدى لو أنى كنت أكثر

صراحة مما أنا الان ؟؟

- احب ان اعرف الحقيقة .

- هل تعاني انت من مرض الصرع ؟

وهكذا اقلت اجاك القنبلة التى كانت تحاول يائسة ان تمسكها واستطردت قائلة :

- هل حقاً انتابك نوبة من الصرع ليلة المعركة وان ذلك هو السبب الذى من اجله
اخذوك الى منزلكم ؟

جاء دور مديت ان يظل صامتا . لم يكن ذلك لانه لم يكن عنده ما يقوله ، وانما لانه كان
يفور بالغضب . اراد ان يضربها ثم ينصرف . وكلما طال ترده زاد غضبه . ثم اخذ
يتحول امام عينيها . اخذ يمص شفثيه ويعبث بأصابعه ، وبعد ذلك فتح عينيها بصورة
واسعة ومرعية وقلبيها ثم اخذ ينظر بدون هدف . وفجأة توترت عضلاته واخذت تصدر
اصواتا وكأنها تتكسر بينما اخذ يمدد ويشد من اطرافه وكأنما يصارع نفسه ، ثم انطرح
الى الارض وهو يتأوه ويئن وقد سال اللعاب والزبد من فمه وجسده يصارع بلا هدف
واضح .

لم تستطع اجاك ان تتمالك نفسها اكثر من ذلك ، فصاحت في صوت مذعور ، وبسرعة
اجتمع الناس حول مديت المنكوب ، ولكن بمجرد ان أدركوا حقيقة ما حدث ، اخذ الكبار
في دفع النساء والاطفال بعيدا وشرعوا في مساعدته حتى يمنعه من ايداء نفسه . ودعا
الحال لمشاركة عدد من الرجال للتحكم فيه . وعندما انتهت النوبة ، ذهب مديت في نوم
عميق وتقرر ان يترك نائما حيث هو بدلا من حمله الى البيوت . وبقي أحدهم معه ليراقبه ..

عندما استيقظ مديت في منتصف الليل ، استرجع في بطنه ما حدث ثم اخذ حراجه وانصرف . حاول الناس إقناعه ان يمضي الليلة معهم لكنه ابي . كما رفض الاقتراح بأن يصاحبه شخصان او شخص واحد على الاقل . وبما ان الكبار كانوا يعلمون انه من غير المحتمل ان تعاوده النوبة قريبا ، لذلك لم يصروا عليه وتركوه يذهب وحيدا . لم يعد مديت إلى أهله ، وظل مكان اختفائه وما إذا كان حيا أو ميتا سرا محيرا للأسرة لسنوات عديدة .

[Faint, illegible handwritten text, likely bleed-through from the reverse side of the page.]

الجزء الثالث (النمو)

الفصل التاسع

بول بعيداً عن أهله في مدرسة «بوصير» المتوسطة عندما تلقى خطاباً من أحد
كان رفاقه الدينكا مثنائيق بمدرسة نيامليل، وكان بول قد عاد لتوه من لعبة كرة القدم
عندما وجد الخطاب الذي قال: «عزيزي بول، يحزنني أن أنقل إليك الخبر
المفجع باختفاء أخيك المحبوب مديت».

فسر بول، والذي كان وقتها في الرابعة عشرة من العمر، اختفاء أخيه بأنه قد
توفي، وشعر بالدم الحار يفمر كل جسده ويصعد إلى رأسه من اثر الصدمة. وبدأت
الدموع في التكوين وأراد أن يوقف القراءة ليبكي إلا أن نظره وقع على العبارة
التالية في الخطاب.

«لا يعلم احد أين ذهب مديت، كما هو معروف انه لا بد أن يكون قد شعر بالعار
من حالته لدرجة لم يتمكن معها من العيش في بلاد الدينكا. ولا يدري احد هل ذهب
مديت للعيش في مكان آخر أم انه قد انتحر. دعنا نرجو أن يكون مازال حيا وأنه
سيوجد».

أحس بول ببعض الراحة في الأمل باحتمال بقاء أخيه على قيد الحياة. ولكن أين هو
وكيف يمكن الوصول إليه؟ كان أول خاطر ورد إليه هو أن يعود إلى أهله للمعاونة في
البحث وقرر السعي للحصول على إذن مدير المدرسة لذلك الغرض. وبما أن الوقت كان
مساء، فقد تحتم عليه الانتظار حتى صباح اليوم التالي لمقابلة مدير المدرسة، اختلى بول
إلى نفسه ذلك المساء إذ لم يشعر بالرغبة في الطعام ولا في رفقة الآخرين. وبدلاً من ذلك،
انصرف إلى فراشه وأخذ يتفكر في مصيبة أخيه الأكبر وتوالت السنوات التي عرفه فيها
بالمروء على خاطره، ابتداءً بالليلة التي أغار عليهم فيها العرب واختطاف والدته وأخيه
التوأم ثم نجاة مديت المشنومة وإنقاذ والدته مع الفقد الدائم لأخيه اشويل. والآن فقد
مديت أيضاً. أين هما ياترى؟ وفي الصباح الباكر ذهب بول للبحث عن مدير المدرسة،

وهو الأب أركانجلو . وعندما طرق بول الباب قال المدير : ادخل . دون أن يرفع رأسه .
وقف بول أمامه لبعض الوقت قبل أن يلتفت إليه المدير . بدأ الأب أركانجلو أصغر من
سنى عمره التى ناهزت الخمسين ، وكان كثيف اللحية سمين الجسم . وعلى غير المعهود
من القساوسة الكاثوليك ، فقد كان الأب يرتدى سروالا عاديا وقميصا بدلا من حلة
الكهنوت .

قال الأب أركانجلو معتذرا :

- اه ، الياس . معذرة ، فقد استغرقتنى الاوراق . لماذا حدث ، تبدو عليك آثار
الضيق والانزعاج ، هل اساء اليك احدهم ؟

كان بول محبوبا في المدرسة ومن المقربين إلى المدير ، لذلك كان رد الفعل أكثر من مجرد
التعاطف المهود تجاه تلميذ في حاجة للعناية . اجاب بول بصورة مقتضبة :
- ايها الاب ، اود الذهاب إلى اهلى .

وبما أن الأب أركانجلو كان يعتقد أن بول سعيد في المدرسة ولأنهم كانوا سعداء به ،
فقد كثر قول بول في دهشة :

- إلى اهلك ؟ ما الذى حدث ياإلياس ؟ هل اساءك اى شخص ؟ .

اجاب الياس : لا ايها الاب ولكننى اود العودة إلى اهلى للمساعدة في البحث عن
اخى .

أحس الأب أركانجلو بالراحة إذ ظهر أن الأمر اقل خطورة بكثير مما كان يخشاه .
وشرع إلياس في شرح الأنباء التى تلقاها لتوه عن فقد مديت ثم اضاف الخلفية لمصيبة
اخيه . واثناء ماكان يفعل ذلك ، اندفع إلياس في التعبير عن شعور الكراهية تجاه العرب
إنى اكرههم لما فعلوه باخى ، قال إلياس ذلك وهو يكاد ينفجر بالبكاء . انفعل الأب
أركانجلو للرواية ، أم تراه كان سعيدا للبيئة التى وجدها لدعم العداوة بين المجتمع
العربى المسلم في الشمال والمجتمع الأفريقى في الجنوب ؟ إلا أنه شعر بضرورة الوعظ من
منظور المحبة المسيحية .

- يؤسفنى ان اسمع هذا ياإلياس . علينا كمسيحيين ان نعفو دائما عنم يؤذينا .
إنى أقدر ان ذلك ليس بالأمر السهل ولكن علينا المحاولة . وعلى كل حال ، فإن الحقد
لايجلب لك إلا الالم والمعاناة .

أحس الأب أركانجلو بالراحة لوعظه بمحبة قوم يحتقرهم في الحقيقة .

كانت الحرب الاهلية بين الشمال العربى المسلم والجنوب الأفريقى الوثنى الذى يعتقد
بروحانية الكون قد عاودت الاشتعال فأصبحت على أشدها . تعاون المبشرون المسيحيون
مع الإداريين الإنجليز في إدخال المسيحية إلى جنوب البلاد . وقد وقع عليهم اللوم بإذكاء
سياسة الانفصال التى عزلت جزأى البلاد عن بعضهما البعض ، فشجعت الاسلام
والثقافة العربية في الشمال بينما احتفظت بالاحوال البدائية في الجنوب أو تركته ينمو في
اتجاه متوقع على ان يلعب التعليم المسيحى فيه دور « التمدين » . وبعد الاستقلال حاولت
الحكومات المركزية المتعاقبة إزالة النفوذ المسيحى في الجنوب واستبداله بالإسلام
والثقافة العربية ، إلا أنها جميعها قد فشلت بصورة مزرية في تحقيق تلك الاهداف .
ونتيجة لكل ذلك فقد لازمت البلاد حالة دائمة من عدم الاستقرار السياسى .

بعد سنتين فقط من الاستقلال قرر الفريق عبد الرحيم عبدون أن الحكم المدنى قد
فشل في حل مشكلة الجنوب ، فاستولى هو على مقاليد الحكم وصعد الحرب على أمل فرض

حل عسكري على الجنوبيين . وخلال سنوات قليلة ، تجاوز الفريق عبد الرحيم التنظيم الصارم والتقييد للنشاط التبشيري في الجنوب فذهب الى الطرد الكامل لكل المبشرين الاجانب . كما انه فرض مبادئ الاسلمة والتعريب كمنهج لتحقيق الوحدة الوطنية . من سخرية الاقدار أن الأب أركانجلو ورفاقه الكاثوليك قد نجوا من الطرد على اعتبار أنهم معلمون وليسوا مبشرين ، وذلك رغم أنهم قد واصلوا حملاتهم من أجل المسيحية في الجنوب .

ورغم ضراوتها ، فقد فشلت دكتاتورية الفريق عبدون في فرض الحل العسكري في الجنوب . ومع ازدياد تصاعد الحرب ، زادت السياسة القمعية ليس في الجنوب فحسب ، بل في كل البلاد . وأخيرا أصبح الموقف لا يطاق فتمت الاطاحة بنظام الفريق عبدون بواسطة انتفاضة شعبية بمعاونة فريق من الضباط الثوريين الشباب . وخلال السنة الانتقالية الواحدة عقدت الحكومة مؤتمر المائدة المستديرة وحاولت إيجاد حل سلمي للصراع ولكن بلا جدوى . وأثناء تلك الفترة تم إجراء الانتخابات وإعادة الحكم الديمقراطي إلى البلاد . إلا أن الحكومة الطائفية التي أتت إلى الحكم عن طريق الانتخاب واصلت سياسات الاسلمة والتعريب في الجنوب الذي قاوم بعنف . وتصاعد العداء المتبادل مع انهيار الجهود الرامية إلى إيجاد حل سلمي لحالة الحرب ومعاودة القمع ضد الكنيسة المسيحية في الجنوب وإصرار الجنوبيين على استخدام كل وسائل المقاومة ، السلمية منها وغير السلمية .

إلا أن الأب أركانجلو لم يكن معنيا بتاريخ البلاد وإنه كان يهيمه أمر ذلك الشاب الذي يقف أمامه . نصح إلياس بعدم الذهاب إلى أهله بقوله :
- لا يمكنك عمل شيء أكثر مما يعمله كبار الأسرة . تذكر أن التعليم هو أكبر مساعدة يمكنك تقديمها لأسرتك وأهلك في المدى البعيد وأنت الآن الممثل لأخويك المفقودين . وبمشيئة الله ، فقد يكون تعليمك هو مصدر خلاصهما . لديك أنت المدخل لعالم أوسع مما يجده كبار القوم من الأهل ، ومن يدري ، فقد يقودك هذا إلى حيث يوجد أخواك .

بدأ إلياس يقدر منطق مدير المدرسة وأن تعليمه قد لا يفيد أهله فحسب وإنما يعين أيضا على إيجاد أخويه المفقودين .

قال له الأب أركانجلو بروح مرحة :

- هيا ، اطلق محياك . المهم هو أن نصلي من أجل سلامة أخويك حيثما يكونان . وعرض عمل صلاة قداس ذلك المساء من أجل أخوي إلياس .

وعندما حان الوقت ، ذهب إلياس ، الذي تم تعميده بعد سنوات من تلقي تعاليم المسيحية ، ذهب إلى الكنيسة وهو ملء بروح العزاء والامتنان . وعندما دخل الكنيسة ، غمس أصابع يده اليمنى في الماء المقدس الموضوع بجوار الباب ، وركع وهو يؤشر بعلامة الصليب ، ثم نهض ومشى إلى الصف الأمامي حيث ركع مرة أخرى وعيناه مركزتان على رسم السيد المسيح خلف حاجز المذبح في الكنيسة .

وبدأ إلياس في الصلاة حتى قبل أن يبدأ القداس بصورة رسمية : « يا الله ، إنني أعلم بأنني قد اذنبت من قبل ، ولكنني أعدك بأن أكون صالحا في المستقبل وأن أبقى أبدا مخلصا لك إذا أنت وعدتني بأن يبقى أخى مديت سالما حيثما كان . » وقد ركز

دعاه على مديت لان اشويل قد غاب منذ وقت طويل ، بل أن إلياس لم يعرفه على الإطلاق .

ظهر الأب أركانجلو في حلة كهنوتية بيضاء يتبعه ولدان في أردية بيضاء . انفعل إلياس كثيرا تقديرا منه لان يجد اخواه كل تلك العناية الروحية . قال الأب أركانجلو القداس باللغة اللاتينية بينما كانت مشاركة جمهور المصلين باللغة اللاتينية ولغة الدينكا . وقد توحدت الصلاة والانشاد والغناء في إعطاء إلياس دلالات روحية عميقة ، بل ونشوة كبيرة .

بعد أن اعترف إلياس بذنوبه وشارك في تناول العشاء الرباني ، جلس وأغلق عينيه في تأمل عميق وقد استفرقتة هيبة الشعور بالروح القدس والحضور الرباني . ثم شعر بذبذبة مدهشة تبعها صوت أجراس الموسيقى في رأسه .. وأخيرا خاطبه صوت سماوي بالقول : « لقد سمعت صلواتك . ليس هناك ما يوجب الخوف ، فأخوك حيان وعلى أحسن حال . حافظ على عقيدتك في قدرة الله وسيكون كل شيء على ما يرام . » همس إلياس بقوله « لك الشكر يا ربى ، لك الشكر ولك الشكر . لن أخيب املك . » انتهى القداس ونهض جمهور المصلين لمغادرة الكنيسة عندما لاحظ إلياس جلبه عند الباب . سمع إلياس صوتا يصرخ بالقول : « الا تستخون من الحضور لمضايقة المؤمنين في كنيستهم . إنى أوكد لكم بانكم ستدفعون ثمن هذا بالعذاب في الجحيم . »

قال صوت أمر صادر من رجل في حلة رسمية قدر إلياس أنه رئيس الجماعة :
- خذوه بعيدا

حمل الرجل ورقة يقرأ منها أسماء تلاميذ وردت التقارير بأنهم قادوا مظاهرة ضد الحكومة لسياساتها المعادية للمسيحية في الجنوب . هذا بالإضافة إلى أنهم قد قاموا بتوزيع منشورات ربما تكون قد طبعت في مطبعة المدرسة ، مما يورط سلطات المدرسة في الأمر .

وعندما ظهر إلياس ، لاحظ أن أحدهم قد همس في أذن الضابط الذي استدار نحو إلياس موجها جنوده :
« خذوا هذا أيضا . »

كاد منظر الجنود ، الذين يعتبرهم الجنوبيون كجيش الاحتلال من الشمال ، كاد منظرهم أن يدفع إلياس في ثورة من الغضب ، لكنه تذكر وعده لله بأن يخضع لإرادته ، وأن المحبة ، حتى للأعداء ، هي طرف من ذلك الوعد . لذلك سلم إلياس نفسه للضابط في طاعة وصمت .

وفي مقر سلطات الأمن ، تم استجواب الصبيان حول نشاطاتهم المعادية للحكومة وعن مدى التورط التبشيري في ذلك . ولسبب ما قرر الضابط ، واسمه النقيب على أحمد الجاك ، قرر استجواب إلياس على انفراد .

سأل الضابط : « هل شاركت في توزيع المنشورات ؟ »

أجاب إلياس في أمانة ورباطة جأش « نعم »

- لماذا ؟

- لأن سياسة الحكومة تتدخل في حريتي الدينية

قال الضابط في سخرية متعمدة ، تعنى دين التبشير؟
اجاب إلياس وهو يحتفظ بهدونه ووقاره : « انا مسيحي » .
- إنك اصغر من ان تفهم حتى مجرد معنى الكلمة .
- رغم ذلك فانا مسيحي .

سأله الضابط ، لماذا لا ترغب في ان تكون مسلما .
فضل إلياس الصمت .

- اخبرنى ، لماذا لا تود ان تكون مسلما ؟

كرر الضابط سؤاله في اصرار .

تضايق إلياس وبدأ يفقد صبره ، لكنه تذكر وعده لله قبل فوات الأوان . اضاف
الضابط قوله : - احسب ان المبشرين قد سمموا عقلك ضد الإسلام .
فقد إلياس القدرة على كبح جماح نفسه فانفجر بصوت عال وهو يبكى :
- لا اعرف اى شىء عن الاسلام ولكنى اعرف بعض الشىء عن العرب وهم مسلمون .
إنى اكرههم ، إنى اكرههم .

فوجيء الضابط بذلك ووجد ان هناك شيئا ما في أمر هذا الشاب يدعو الى
الاحترام . وفي حقيقة الأمر ، كانت أسئلته تهدف الى انشاء علاقة شخصية أكثر من
اى شىء آخر . لهذا السبب اختار الضابط ان يستجوب إلياس على انفراد . وشعر
بالحزن لأنه استفز شعور العداة عند إلياس . وزادت شجاعة وأمانة الشاب من
إعجاب على به ، فوضع يده حوله وقال :

- يا ابنى ، اقدر شعورك .

صاح إلياس في وجهه :

إنك لا تقدر . إنك تعتقد انى اكره العرب لانى هنا . إنك لا تعلم ما فعلوه
باسرتى .

وفجأة فهم النقيب على ان أسرة الصبى قد عانت في وقت ما ، هل كان ذلك خلال
الحرب الأهلية أم قبل ذلك ؟
- اخبرنى يا ابنى عن الأمر

قال على ذلك في تعاطف جذب إلياس اليه وبذر بذور ثقته في الرجل .
بدأ إلياس في رواية غزوة العرب التى أفقدته أحد أخويه وأدت إلى عجز الآخر الذى
اختفى حديثا وكان ذلك هو سبب وجودهم للصلاة في الكنيسة . انفعل على مع الرواية ،
ولم يكن عنده ما يقوله لتهدئة الصبى سوى الادعاء المتفائل بأن اخاه مديت سيوجد في
غالب الحال . « أما أشويل ، فيجب ان تثق في انه حى وأنه سيجتمع يوما ما مع
اسرتك » .

سر إلياس من تفاؤل على ، فقد كان ذلك هو ما يحتاج له . كما ان عليا لم يكن مخادعا
إذ انه ، بصورة ما ، قد أحس بمشكلة إلياس بصورة صادقة . واصل النقيب :
الحديث بقوله :

- ولكن عليك ان تتذكر ان واجبك الأول نحو نفسك ونحو اهلك هو ان تأخذ تعليمك
بماخذ الجد . فمن خلال التعليم الجيد تزداد فرصك في الحياة وبذلك تزداد فرص
بحثك عن اخويك » .

رفع ذلك مع روح إلياس بل وشعر بالامتنان تجاه على الذي اعتبره شخصا خيرا اكثر منه ضابطا عربيا من النوع المعهود . اراد على أن يطلق سراح إلياس لكنه لم يشأ ان يميز بينه وبين بقية التلاميذ ، فأطلقهم جميعا بعد أن حذرهم .

عمل إلياس جاهدا في الإعداد للامتحانات النهائية متذكرا نصيحة على الذي لم يكتف بذلك النصح العابر بل عقد العزم على مواصلة علاقته بالصبي وتقديم التشجيع والعون له باستمرار . وقد أدرك على الضرر الذي يلحق بإلياس بسبب علاقته الوثيقة برئيس سلطات الامن في المنطقة . لذلك ظل يراقب إلياس عن كثب ولكن مع اتخاذ الحيطة والحذر اللازمين ، فكان يرسل خادمه بالهدايا البسيطة لإلياس ، وبعض المال من وقت لآخر ، ويدعوه إلى منزله حيث يسدى إليه النصح .

ورغم هذه التحوطات ، فقد سرت الشائعات في المدرسة عن العلاقة بين إلياس وضابط الامن . وذات يوم علم إلياس أن الاب أركانجلو يرغب في مقابله .

شرح الاب أركانجلو في الحديث بقوله :

- يا ابني ، يبدو أن بعض التطورات قد طرأت منذ نقاشنا لمسألة اسرتك .

كانت الإشارة أغمض من أن يدركها إلياس كما ظهر من صمته .

- حسبما أنكر ، فقد كان هدفي وقتها هو دفعك إلى عدم الشعور بالمرارة تجاه العرب وأن تحاول العفو عنهم رغم الأشياء الفظيعة التي قاموا بها تجاهك وتجاه اسرتك . والآن أرى أن عفوك قد ذهب إلى ابعد مما كان متوقعا . لقد سمعت أنك على صلة بالنقيب على . هل هذا صحيح ؟

أجاب إلياس في اقتضاب :

- نعم

- ولماذا تفعل ذلك ، إذا جاز لي السؤال ؟

أوضح إلياس بقوله :

- لقد كان النقيب على في غاية الإحسان إلى منذ واقعة الكنيسة . لم يتغير شعوري تجاه العرب ، إلا أن النقيب على يبدو مختلفا ، فهو رجل شفوق ومتفهم وكريم .

قال القسيس معلقا :

- آه ، لا يا بني لائم لا . يجب أن تعلم عن أساليب الشيطان الخفية . وهذا يعني أنه سيقدم لك المغريات والخداع ليصرفك عن كلمة الله ويدعوك إلى اتباع طريق الضلال . حتى لو نسيت مصيبة اسرتك شخصيا وتوقفت عن تحميل عموم العرب المسئولية عن ذلك ، ألا ترى أنه أداة الاضطهاد والقهر ؟ ألم يتم القبض على الشباب المسيحي بموجب أوامره هو ، ووقع التعذيب على بعضهم بسبب دفاعهم عن المسيحية ؟ اليس من الواضح أنه أداة للشيطان ؟ تنبه يا بني ولا تسقط ضحية للخداع والإغراء المادي .

وفجأة انهمرت الدموع من عيني إلياس . ورغم أنه لم يدرك تماما حقيقة الخطأ الذي ارتكبه ، إلا أنه شعر بالقوة الخارقة لكلمات مدير المدرسة الذي يتقبل إلياس تفوقه الروحي وسلطته عليه بلا أدنى شك . وعندما تفكر في مدى الخطأ الذي لا بد أن يكون هو الدافع لان يخاطبه الاب بهذه الطريقة ، انفجر بالبكاء والعويل . نهض الاب أركانجلو

روضع يديه حول إلياس وقال :

- لا تبك يا بنى ، إن الله رحيم وسوف يعفو عنك ويحميك . ولكن عليك الصلاة لله
والثقة في محبته وبركته .

ثم اشار بعلامة الصليب وبارك إلياس ثم همهم بكلمات الصلاة باللغة اللاتينية وقال
مواسيا .

« اذهب الآن في سلام الله . عد إلى استذكارك والإعداد للامتحان . »

وعندما غادر إلياس مكتب مدير المدرسة ، غمره شعور بالارتباك . فمع أنه يقدر كلمات
الاب أركانجلو ومباركته له ، إلا أنه لم يقدر على حمل نفسه على التصديق بأن النقيب على
هو أداة الشيطان . أم لعله كذلك ؟ فقد بدا له أنه بحكم العمر والعلم وبركة الله ، لا شك
أن الاب أركانجلو يعلم أكثر منه هو . إلا أنه قد أصبح يحب النقيب على ويعتقد أنه رجل
خير .

فكر إلياس كثيرا في هذه المشكلة المزعجة وتجنب مقابلة على أو الاتصال به ، ثم ركز
على دراسته فكانت النتيجة متسقة مع اجتهاده حيث كان ترتيبه الثالث من ثلاثين طالباً
وتم قبوله بمدرسة رمبيك الثانوية .

لم يدرك على أن إلياس قد قرر تجنب مقابله لأنه أراد من جانبه هو أن يترك الصبى
لشأنه حتى يركز على دراسته . وعندما انتهى الامتحان أرسل على في طلب الياس بفرض
تهنئته لكنه اعتذر عن الحضور . وعندما تكرر ذلك عدة مرات ، تشكك على في الامر وصمم
على مقابلة إلياس، وفكر في طريقة يضمن بها حضوره . أرسل على مذكرة قصيرة إلى إلياس
تقول « لدى رسالة هامة لوالدك أود مناقشتها معك قبل إرسالها له . إن الامر في غاية
الاهمية . هلا التقينا بأسرع فرصة ممكنة . »

واستجاب إلياس كما هو متوقع منه ، إذ لا يمكنه تجاهل أمر يجمع بين والده وسلطات
الامن . ما هي الرسالة ؟ يا ترى هل تعنيه هو أم لعلها تعنى أخويه المفقودين ؟ فذهب
إلياس إلى على فوراً .

لم يتمالك على من إبداء شعوره عندما رأى إلياس يدخل منزله ..

- إلياس يا بنى ، أين كنت ؟ لقد بدا القلق يراودنى عليك حقا .

رغم أن إلياس قد حضر بشعور بالترقب والعزم على الحذر من هذا الشيطان الماكر ، إلا
أن الصدق والحرارة التي تحدث بها على غيرت من حاله ، ومع ذلك ، فقد فضحت إجابته
ما كان على يخشاه ، إذ أن الياس لم يتمكن من إعطاء اجابة مباشرة .
فقال بصورة مريبة : لقد كنت مشغولاً بالامتحان .

- وماذا عن بعد الامتحان عندما أرسلت في طلبك أول مرة ؟

ظل إلياس صامتا وقد شعر بالرغبة في إخبار على بالحقيقة ولكن كيف يمكنه أن يفعل
ذلك ؟ ماذا يستطيع أن يقول دون أن يجرح شعور الرجل ؟ كيف يتسنى للشخص أن
يحضر إلى منزل الآخر ويخبره بأنه حاول تفاديه لأنه يعتقد أنه أداة الشيطان ؟
حاول إلياس تغيير مجرى الحديث بقوله :

- ما هي الرسالة التي قلت أنك تود إرسالها إلى والدي ؟

- سنأتى إلى ذلك قريباً ، أود أن أعلم أولاً ما هي المشكلة . يبدو أنك تخفى أمراً ، ما هو
يا إلياس ؟

ورغم ان السؤال كان مباشرا بصورة لا يمكن تفاديها الا انه كان من المستحيل عليه ان يخبره بالحقيقة كما يعلمها هو .. حاول إلياس تجنب الامر مرة أخرى بقوله :
- لاشيء ..

- اخبرنى يا إلياس

قال على في اصرار وهو يشعر بغريزة الابوة تحفزه إلى أن يحاول التعرف على المشكلة
على يعاون في حلها .

- هل اساء اليك احد بالمدرسة .

- لا لم يحدث ذلك اطلاقا .

- حسنا إذن بما أنك على ما يبدو توجه شعورك العدائى تجاهى دعنى اعيد صياغة
سؤالى : هل اسات انا اليك باى صورة من الصور .

وحتى في حالة الاضطراب التى كانت تعتريه بدا من المستحيل لالياس أن يكون هذا
الرجل الظاهر التعاطف نحوه والشديد الحرص على مصلحته ، أن يكون أداة الشيطان في
صورة خفية . فشرع إلياس فى البكاء من معاناة التوتر والتناقض فى شعوره ثم قال
والدموع تنهمر على وجهه : « ماعدت أميز بين الحق والباطل فمن ناحية قد حذرت من أنك
أداة القهر والظلم ضد أهلنا وعدو المسيحيين ووكيل الشيطان ، ومن ناحية أخرى عندما
أكون معك أرى شخصا رحيما شفوفا لا أصدق أنه الرجل الشرير الذى حذرت منه .
ياعمى على ، ماذا أفعل ؟ من أصدق ؟ »

كانت المرة الأولى التى وصف بها النقيب على بعبارة «عمى» وقد فعل ذلك عمدا وبينما
واصل البكاء أحاطه على بذراعيه وهون عليه وهو يقول :

- لا ضرر يا إلياس ستظهر لك الحقيقة فى نهاية الأمر لاتعبأ بما يقول الناس فقط وجه
قلبك تجاه الله وسوف يكشف لك الله الحقيقة .

صمم على وقتها على عدم الغضب من الاتهامات التى وجهت إليه ولم يسأل حتى عن
هوية الذين حذروا إلياس كما أنه لم يكن ليدافع عن نفسه ضد تلك الاتهامات . إن أفضل
رد هو بذل الشفقة والحب والدعم لالياس وسيتبع كل شيء من الأرض المشتركة للرباط
الانسانى وبموجب تلك الخواطر ، أخذ على منديلا من جيبيه وناوله إلى إلياس قائلا :
- خذ هذا وامسح دموعك وتوقف عن البكاء انى فى غاية السرور لانك اخبرتنى
بالحقيقة لقد بدا الشك يساورنى ان ذلك هو الموقف ، ولكن وقد اقررت انت بذلك
شخصيا فليس هناك ادنى مشكلة . سوف نصفى الجو ولدى التحقيق ، فقد صفى
الله الجو فعلا بأن جعلك تتحدث بهذه الصراحة .

بتلك الكلمات أنهى النقيب على أى شك يكون قد بقى فى نفس إلياس تجاه قيمة الرجل
الأخلاقية وهى كلمات محببة لالياس إذ يمكن أن تصدر عن شخص من الدينكا أيضاً معبرة
عن قيم دينهم التقليدى . وشعر إلياس بروابط تجمع بينه وبين على بأكثر مما شعر به أبدا تجاه
الأب أركانجلو ولأول مرة ، لم يظهر له على كأحد العرب سواء أكان ذلك فى لون جلده أم فى
سلوكه .

الفصل العاشر

وكانما اطلع النقيب علىّ على خواطر إلياس فقد حكى له قصة فى غاية المناسبة لما حدث ، حيث قال فى صوت جاد :

دعنى أخبرك بشيء قد يصعب عليك تصديقه ، لكنه مناسب للموقف الراهن . فأنا نفسى من أهل دينكاوى ، فجدى من الدينكا وكان اسمه أجاك حوله العرب فيما بعد إلى الجاك وهو الاسم الذى نستخدمه الآن . اختطف تاجر الرقيق جدى وهو ولد صغير ثم عامله وكأنه ابنه هو ، ولذلك تدين جدى بالاسلام وتم تعريبه وإستيعابه فى ثقافة المجتمع العربى المسلم فى الشمال . وتزوج ابنة أحد التجار الأثرياء وبذلك دخل اطفاله عرقيا وثقافيا إلى المجتمع العربى . ومع مضى الزمن ، أصبح العنصر الزنجى فى حكم التاريخ بالنسبة لاسرتنا . اتصور انك تعتبرنى عربياً ، وأنا أقبل ذلك وفخور به .

ولكن عودتى إلى الجنوب ايقظت فى نفسى وعيا قويا باصولى الافريقية وقد نبهنى ذلك كثيرا إلى انه بخلاف توفيق جدى فى ان يرعاه وينشله عربى خير ، فقد كان حظ الرقيق السود الآخرين غير ذلك . وهكذا ، وحتى فى الشمال ، فرغم ان الرقيق السابق قد اتخذ الاسلام والثقافة العربية ، فان حالهم لا يرضى احدا . ومنذ حضورى إلى الجنوب ، فقد تعمق شعورى بالمهانة التى مازال أهلنا من ذوى الاصول الرقيق يتعرضون لها فى الشمال وقد جعلنى هذا اكثر حساسية لاحوال اخواننا فى الجنوب . انا جندى ، وعلى اداء واجبات محددة وطاعة اوامر معينة ، ولكنى ايضا اشعر بالتضامن القوى مع اهلنا فى الجنوب ويتسامى ذلك التضامن على واجباتى فى بعض الاحيان . وكثيرا ما احاول التوفيق بين هذين النوعين من الالتزام .

وهكذا ترى يا إلياس انى رغم تفهمى التام للشعور الذى يحفز الناس الى التفكير فى بالطريقة التى ذكرتها انت قبل قليل ، إلا انى املك وعيا واضحا بحقيقة نفسى . انى مرتاح الضمير كما انى اثق ان الله سيكشف حقيقة هويتنا الجماعية إن طال الزمن او قصر وحتى لو حاول الناس اخفاءها بالأكاذيب المختلفة .
ومرة أخرى شعر الياس بأن عليا يتحدث وكأنه من الدينكا من حيث المعتقدات الدينية والاخلاقية . لعله قد ورث عن جده ما هو اقرب إلى الدينكا منه إلى العرب أو الاسلام .
وشعر إلياس بالسعادة لانه قد افصح عن الحقيقة لعل وأنهما قد اصطلحا مرة أخرى .
واصل على الحديث بقوله :

- والآن دعنى اخبرك عن الرسالة التى اود كتابتها لوالدك . لا شك انك تقدر تماما اهتمامى الشديد بمستقبلك . وقد شعرت ومنذ فترة من الوقت بان فرصتك فى المستقبل ستتحسن بدرجة كبيرة لو انك واصلت دراستك فى الشمال حيث تتعلم اللغة العربية وتتواءم مع الثقافة القومية .

وقد خطر لعل أيضا ان تجربة الدراسة والحياة فى الشمال ربما تلتف من غلواء عداة إلياس للعرب ، لكنه لم يذكر ذلك الاعتبار رغم أن ما قاله له إلياس قبل قليل قد زاد من أهمية هذا الجانب من الأمر . واختتم على حديثه بالسؤال :

- « ما قولك فى اقتراحي هذا » ؟

كان إلياس وقتها فى حالة طيبة ، ورغم جهله بما تعنيه الدراسة فى الشمال ، فقد قبل منطلق على بلا تردد ، فأمن قائلا :

- اذا كنت ترى بان التجربة ستكون مفيدة ، وبانى سوف اقبل فى المدرسة هناك ويكون ادائى بالمستوى المطلوب ، فماذا يبقى لى سوى القبول ؟ والسؤال هو كيف نمضى فى التنفيذ ؟

رد عليه على بقوله :

- دع ذلك لى انا . ارجو ان تتقبل النصح الذى اسديه لك الان بنفس الروح التى اتحدث بها انا . لعلمى بعقلية سلطات المدرسة ، وقد تكلمت انت بتأكيد ذلك قبل قليل ، فانى اعلم بانهم سيعارضون ذهابك إلى الشمال . سيخبرونك بأن أهل الشمال يختلفون عنك فى العنصر والدين واللغة والثقافة وبانك ستكون شقيا هناك . ولعلمهم يقولون ما هو اسوا من ذلك . وعلى اى حال ، ومهما كان فيما يقولون من الصحة ، فلا ينبغى ان يصرفك ذلك عن الحصول على مميزات قومية . لذلك اقترح عليك انه ، بدلا من تعريض نفسك لضغوط زائدة ، لا تخبرهم بشيء من خططك . سوف ادبر الامر بطريقتى الخاصة ، واذا تم التوفيق ، فسوف نسمع بالنتيجة أثناء وجودك عند اهلك خلال العطلة الصيفية .

وبعد اتفاهما على ذلك ، عاد إلياس إلى المدرسة وقد ارتفعت روحه المعنوية كثيرا بسبب اقتراح على .

كتب على تقريراً أمنياً يطلب فيه من السلطات التدخل بالتوصية بنقل إلياس إلى مدرسة حنتوب الثانوية فى الشمال . قال على فى تقريره :

« ان إلياس ولد نجيب ، فهو طيب المعشر وذكى وحصيف بالنسبة لسنة . ونتيجة لبعض الأحداث المؤسفة التى حدثت له ، فانه يحمل شعورا بالضعف ضد

العرب . واذا لم يتم احتواء هذا الشعور بطريقة بناءة ، فربما يحطم ذلك مستقبل الصبي او يجعله خطرا . انى اعتقد بان احسن وسيلة لاحتواء هذا الاتجاه الخطر الكامن فى الفتى هو تعريضه لأفضل الدوائر التعليمية فى الشمال . يجب اطلاقه على الجانب الآخر واعانته للتسامى على تحيزاته والتي لها اسبابها المعقولة فى تقديرى .»

عاد إلياس فى تلك الاثناء لقضاء عطلة فى القرية . وعند وصوله حيته الأسرة ، رجالا ونساء وأطفالا - بأنفعال شديد وقد بكى بعضهم إذ أن حضوره قد ذكرهم بغياب مديت . إلا أن دموعهم كانت دموع الفرح وليس الحزن . وأنب والده مليونديت النساء على بكائهن بينما اخفى عاطفته هو كما ينبغي للرجل من الدينكا . طالما أن بول ، الذى يستخدم هذا الاسم الاصلى عندما يكون بين أهله ، بخير فان البكاء عليه طالع شؤم . واذا كان البكاء على مديت ، فذلك أسوأ لأنه يفترض أنه قد مات .

وجد خطاب النقيب على أنصاغية لدى السلطات وبذلك تم قبول إلياس بمدرسة حنتوب الثانوية . كتب على أيضا إلى الزعيم مليونديت وقرا إلياس الخطاب لوالده : « مع انى لا اعرفك ، إلا ان ابنتك قد جمع بيننا . انى شديد الولع به واعتقد جازما بان له دورا فى قيادة البلاد فى المستقبل . وانا واثق بان فرصته سوف تتحسن اذا تلقى بعض تعليمه فى الشمال حتى يتصل بعموم البلاد . كما انى ارى انه من الافضل لزعامتك أنت ان يتلقى اطفالك تعليمهم فى الشمال والجنوب معا . » سر مليونديت لذلك ، فرغم اعتزازه بجنس الدينكا ، فقد كان يدرك أن للعرب اليد العليا فى البلاد ولذلك يكون من الخير لولده أن يتعلم أساليبهم ويكون قريبا منهم . احتفل مليونديت بعودة ولده وقبوله فى المدرسة الثانوية بتقديم وليمة ذبح لها ثور وأعدت لها الجمعة (المريسة) والطعام بكميات وافرة . وحتى الطبول أخرجت للمناسبة وتم الرقص والغناء . إلا أن بول سرعان ما أدرك أنه رغم مظهر الاحتفال ، فقد جمع الحزن لاختفاء مديت بين أطراف الأسرة ، وأيقظ نفس الحدث حالة التوتر والعداء بين أسرته والده وعمه اكلول ، حيث ظهر توتر جديد بين الأسرتين قبيل عودة بول . عند سماعها بأختفاء مديت والملابسات التى تم فيها ذلك ، قيل أن أوليل قد ردت بصورة سيئة إلى نياندينق أخت أجاك ، حيث قالت :

- اليس هذا ما حدثت ولدى منه ؟ لقد أخبرت مديت بان يبتعد عن السلالة عديمة الرحمة . وبعد ان ضللته ثم قذفت به كقطعة من الخشب فى سهول قريتها ، فما قيمة تلك العلاقة الحمقاء التى تابعتها هى بشهوانية .

وأثناء بكائها ، توالى سيل كلمات الحسرة والحزن « ياللمصيبة ، ان يموت ولدى كالضبع فى الخلاء . سيلاحق موت حبيبي مديت الساحرات اللانى جلبنه عليه مهما طال الزمن . »

بلغت شكوى ولعنات أوليل مسامع نياندينق التى ردت على الشائعات بصورة لاذعة « من الأفضل أن الله قد حسم الامر من أجل أختى . لقد أخبرت بان تبتعد من مصائب تلك السلالة لكنها لم تستجب لنصحي . والآن قد فرض الله ارادته ، لماذا يذاف البعض بكلماتهم جزافا على امل إلقاء اللوم على الآخرين ؟ هل كانت أختى هى

التي اخذت التوامين إلى خارج الكوخ ليلا ليختطفهم العرب أم هي اختى التي
اصابت مديت بمرض الصرع ؟ .

وعلى عكس اقتتال النساء بسبب الاطفال ، فقد ذهب زوجها إلى التخفيف من شأن
تلك الاهانات المتبادلة وصرفها على أنها مجرد شائعات أو أنها من الامور المعهودة عن
النساء والتي لاينبغى للرجال أن يتورطوا فيها .

وكما فهم إلياس من والده ، فإن تصرف أجاك نفسها هو الذى أعاد التعاضد والوثام
للأسرة بعد الواقعة الأخيرة . عندما علمت أجاك بأختفاء مديت ، خلعت عنها كل الحل
وامتنعت عن الطعام لأيام . وحتى عندما تم اقناعها بأنها اضرابها عن الطعام ، ظلت في
حالة حزن وانعزال عن المجتمع . كما أنها طلبت من أهلها إعادة ماشية ليث لأنها قررت
عدم الزواج منه أو من أى شخص آخر ، وأعلنت عن تصميمها على الزواج من مديت إذا
عاد ، وأنها ستبقى في انتظاره مهما طال الزمن . ولما حاولت أسرته اقناعها بالعدول عن
ذلك ، هددت بأنها ستهرب وتذهب إلى أسرة ملينقديت لتنتظر عودته مالم تصل أسرته
إلى اتفاق مع أسرة مديت .

وهكذا أصبح اختفاء مديت مشكلة حقيقية بالنسبة لأسرة أجاك . وعندما أعيتهم
الحيلة ، لجأ أهل أجاك إلى التشاور مع الزعيم ملينقديت .

- لقد اتيناك ليس لمجرد أن ابنتنا تشعر بالالتزام تجاه ابنك ، وانما أيضاً لأنك أبو
كل الناس بحكم أنك الزعيم . ان الفتاة تهدد بالهرب لتقديم نفسها لابنك رغم
غيابه ، وترغب في الانتظار هنا لحين عودته يوماً ما . وإذا لم يعد ، فهي تنوى
اكرام اسمه بالبقاء زوجة له حتى تشيخ وتموت . وقد جئنا طلباً للنصح ، فماذا
نفعل ؟ » .

ورغم أنه تأثر للأمر ، إلا أن ملينقديت لم ير كيف يمكن تزويج فتاة من ولد لايدرى ما
إذا كان حياً ولايعلم عن مكان تواجده إذا كان على قيد الحياة ولا حتى عن احتمال عودته
إلى بلاد الدينكا أبداً .

أجاب الزعيم ملينقديت أسرة أجاك بقوله :

- لقد احسنتم الحديث ، وهذا هو معنى المعاشية في بلد واحد . لم افهم ما حدث
عندما علمت به . لقد كنت دائماً حسن الظن بأجاك . وقد أزعجنى حقاً انها اعرضت
عن ابني لمرض ابتلاه الله به بلا ذنب يمكن للعراف الكشف عنه . ان هذا النوع من

السلوك هو الذى يغضب الأسلاف ، ولا ينسى أسلافنا الاهانة أبداً .

إلا ان أجاك قد تصرفت الآن بمستوى السمعة الطيبة التي استحقتها من قبل .
فهى على كل حال قد غضت الطرف عن عاهة مديت واطهرت تعاطفاً نبيلاً . وانى في
غاية السعادة إذ ان ارواح أسلافها قد أعادت توجيهها إلى الطريق الذى كادت أن
تضل عنه . ولكن علينا اقناع أجاك بقبول الحقيقة . لم يعد مديت معنا والله وحده
هو الذى يعلم أين هو الآن .

ثم وأصل الزعيم ملينقديت الحديث وكأن فكرة قد خطرت له لتوما :

- ولاهلنا عادة معروفة باسم « لا أوت » تستخدم في مثل هذه المناسبة . إذا علمنا أو
افترضنا ان مديت قد مات ، فإنه يكون لأخيه الحى ان يدخل كوخ أرملته ويولد منها

اطفالا باسم زوجها المتوفى . إننا نرجو الا يكون مديت ميتا ، ولكن الغيبة الطويلة بمثابة الموت . لننتظر ونرى ما يكون . إذا لم يعد مديت ، يمكن اتباع ذلك العرف . سأحدث إلى بول عند عودته من المدرسة . إن نهج المتعلمين مخالف لنهجنا . ولكن هذه هي عادات أسلافنا التي ابدعوها لإعانتنا فى أوقات الحاجة . وبول هو جزء من الموقف الذى يواجهنا الآن ، وأعتقد أنه سيتفهم حاجتنا رغم أنه لا يزال طفلا . »

وعندما سمع بول لرواية والده لما حدث ، لم يصدق ما سمع . فقد سعد لاهتمام أجاك التى كان يرتاح لها والتى أزعجه حقا موقفها من إصابة مديت بمرض الصرع لأن ذلك السلوك لم يكن متنسقا مع شخصيتها . إلا أنه لم يكن يتصور مطلقاً أن يدخل هو كوخ أخيه لينجب الأطفال مع أجاك فى مكان أخيه الغائب والمفترض أنه ميت . وقد تفاجأ بول بذلك الطلب تماماً .

شرع والده فى الحديث بقوله :

- يابنى ، إنى أعلم أنك متعلم وانك ، باعتبارك من ابناء المبشرين ، لك أراؤك الخاصة عن الحياة وما بعد الموت وربما يخبرك المبشرون بان الناس تبعث من الموت ليحكم الله فى أمرها ، فيذهب من عاش حياة خيرة الى بيت الله ويذهب من عاش حياة شريرة الى بيت النار ، الا ان هذا ليس هو علم أسلافنا . فحسب معتقداتنا ، عندما يموت الناس ويدفنون ، تاكل اجسادهم أفة الأرض ، ويمضى الموتى فى صورة من الصور لمواصلة حياتهم فى عالم الموتى المجهول . ومن يخلفون اطفالا وراءهم يصبحون هم الاسلاف الذين يراقبون ويحمون أحفادهم من الشر رغم بعدهم عنهم . ويعاقب الاسلاف الاحفاد الذين يخالفون كلمتهم كما يجزون من يتبع كلمتهم . فما يسميه المبشرون بيت الله وبيت النار موجود هنا فى هذا العالم فى تقديرنا نحن حيث ينعم الناس بأحدهم او يعاقبون بالآخر بمقتضى ما يفعلون ويتركون . واسلافنا هم القضاة بالتعاون مع الله وأرواح العشييرة .

وكل شخص متوفى هو احد الاسلاف أو ينبغى أن يمنح الفرصة ليكون احد الاسلاف . هذه هى حكمة العادة المعروفة باسم « لا أوت » ، وذلك لكى يوالى من توفى وخلف وراءه زوجة قادرة على الانجاب ، يوالى انجاب الأطفال الذين يرفعون راسه فى هذا العالم . ولنفس السبب ، إذا توفى رجل قبل الزواج ، حتى ولو كان طفلا ، يجب ان تزوج امرأة باسمه وتنجب الأطفال الذين يرفعون راسه ، هذا واجب يفرضه الاسلاف ، وإذا لم نوف به ، فقد يسبب لنا ذلك المرض وربما الموت .

وهكذا ، يابنى ، لو كان مديت حيا إم ميتا ، وحتى لو كان حيا ولكنه بعيد عنا ، علينا واجب احياء اسمه بيننا من خلال أطفال يولدون لزوجة باسمه هو . وفى هذه الحالة الراهنة ، فان أجاك هى الفتاة التى عرفها هو منذ الطفولة ، وصاحبها وخطبها لنفسه ، فهى زوجته ، وانت ايضا تعرفها جيدا . لذلك اعتقد ان أداء الواجب فى هذه الحالة هو إنجاز لواجب الأخوة . إنى أعلم أنك لا تزال طفلا ، لكنك قد اصبحت رجلا أيضا . وعلى كل حال ، فاننا لا نتحدث عن اكمال الزواج غدا واحضار أجاك الى اهلنا فورا . لديك عدد من السنين لمواصلة النمو . فما نحتاج له الآن هو اعلان الالتزام ، فماذا تقول يابنى ؟ »

وصعق إلياس بول لدرجة أنه كان سينهار باكيا لو كان أصغر سنا . ولكن ، كما قال والده ، فهو يوشك أن يصبح رجلا ، وباعتباره رجلا عرضت عليه عروس أخيه ، فكيف يجوز له البكاء . وبدلا من ذلك ، تذكر زيارة التودد والغزل التي كانت مع أجاك وكيف استمتع هو بلعبة البراعة والذكاء مع الفتيات وكأنه ند لمديت وباقي أفراد الفريق . هل هي إرادة الله أن يتولى هو أداء هذا الواجب ؟

ثم عادت إليه الأسباب المعارضة للاقتراح . وبعد فترة مطولة من الصمت والتفكير ، أجاب والده بالاقترار بأنه متنازع في اتجاهات مختلفة :

إن الواجب الأخلاقي الذي شرحتة لي ليس عادة الأسلاف فحسب ، وإنما هو أيضا ما أود تحقيقه لمصلحة أخ أشعرز نحوه بود وحب لاحدود له .. وأتألم كثيرا لاختلافه . لكني يا أبى لا أقدر على الدخول لكوخه وانجاب الاطفال مع أجاك نيابة عن مديت . فهناك أولا فارق السن بينى وبين مديت وبينى وبين أجاك أيضا . الا ان العقبة الحقيقية هي شعورى الأخلاقي تجاه مسألة الاستحواذ على زوجة أخى أو حتى أرملة . لعل موقفى يعود إلى تأثير المبشرين على ، ولكنى أشعر بأن في الأمر أكثر من ذلك ، ولا يتأثر موقفى بموت مديت أو حياته . فلو كان حيا ، فانى أكون قد ارتكبت الزنا مع زوجة أخى . ولو علمنا بموته ، فقد يختلف الأمر نوعا ما ، ولكنى أيضا سأشعر بأن موته سيكون على فراشى مع أجاك كلما اجتمعنا بحيث يستحيل على ان أنسى اننا معا بسبب ما جرى بينها وبين مديت .. لقد أحسنت أجاك التصرف منذ اختفاء مديت وقد محا ذلك أى خطأ تكون قد ارتكبته قبل ذلك ، ولكننا بدخولى عليها سنوالى إعادة الفاجعة باستمرار . فبالرغم من نوايانا ، أشعر بأنى وهى ستكون على طرفى نقيض . هذا بالإضافة إلى أنى يا أبى لأزال تلميذاً ومستقبلى أمامى . فأنا لا أستطيع أن أتولى مسؤوليات الأسرة بعد .

استمع ملينقديت إلى ابنه في تعاطف وهو يومية براسه موافقا من حين لآخر . راقب إلياس بول رد فعل والده عن كذب وشعر بالتشجيع وهو يتحدث . وعند النهاية ، كان واثقا من أنه قد تمكن من إقناع والده بصحة وجهة نظره .

تنحنح ملينقديت وتلفت حوله كأنه يبحث عن مصدر للإلهام . وبعد أن تنحنح مرة أخرى بصورة تكاد تكون مفتعلة ، قال :

- لقد تحدثت يا بنى بكلمات قاهرة . دعنا نعيد التفكير في الأمر . وكالعادة دائما ، اعود أنا إلى تقاليد أسلافنا واجد مخرجا آخر من الورطة . لعل أجاك تتصرف بهذه الطريقة خوفاً من لعنة أسلافنا بسبب ما فعلت . ويحق بالشخص أن يخاف لأن أسلافنا «شريرون» لأنهم لا يصفحون أبداً عن إهانة . ولكنى سأطلب منهم العفو عن أجاك وأن يباركوها ويردوا لها حرية العذراء بان تتزوج بمن تشاء . إنى موثق ان ابن رجل نبيل آخر سوف يطلق ماشيته من أجلها ويتزوجها . لنترك الأمر في الوقت الحاضر . وفي الوقت المناسب ، بعث ملينقديت في طلب أهل أجاك وافادهم بخلاصة ما توصل إليه هو وبول في الأمر :

- إن الفتاة شابة وجميلة ومن أسرة نبيلة ، ولا أرى أى مشكلة فيما يتعلق بمستقبلها في الزواج . ولا أخالنى في حاجة لأن أقول لكم بانى لا أربغ في ارجاع أبقار الخطوبة . احضروا أجاك إلى في الشهر القادم وسوف انثر عليها الماء المقدس

وامسح عليها الرماد المقدس من حريق روث ماشيتنا ، واطلق حبل الزواج من حول عنقها . بعد ذلك يمكننا إجراء طقوس الكفارة بين عشيرتنا لإزالة أى اثر للضغينة بيننا وإعادة علاقة الود وحسن المعشر . فعلى كل حال ، علائق الزواج قائمة بيننا ، إذ ان ابنتكم نياندينق زوجة كبرى وام لرجل مكتمل الرجولة فى هذه الأسرة . فلنبارك علاقتنا ونحافظ على وحدتنا وانسجامنا مع بعضنا البعض .

لم تمض أيام على اجتماع ملينقديت بأسرة أجاك عندما رأى رجلا مقبلا تجاه مجلسه عند شجرة المحكمة . وبعد أن ركز حرابه على شجرة قريبة ، اقترب الرجل وحيا الزعيم أولا ثم واصل تحية بقية البارزين من الحضور ثم اختتم بأن رفع يديه فى تحية جماعية لبقية الجمهور من الحاضرين . وكانت على وجهه علامات حزن عميق . وبعد دقائق ، أفصح الرجل عن أمره .

- ايها الزعيم ، لقد اتيت من أسرة والدة نياندينق وحين علموا انى فى طريقى الى هنا طلبوا منى ان اتوقف عندكم لأفيدكم ان أجاك قد توفيت فجأة . وتوقف الرسول وكأنه يراقب رد الفعل عند ملينقديت . هل ماتت أجاك ؟

كرر ملينقديت القول وعيناه مفتوحتان وكأنه ينازع الرجل فى قوله المفجع ليحمله على انكار ما قال .

وأكد الرجل القول : نعم أيها الزعيم .

واتكأ ملينقديت على مؤخرة مقعده دون أن ينطق بكلمة وكأنه قد صعق .

وشرح الرجل بعد ذلك ملابسات الوفاة . بعد أيام قلائل من إفادتها بنتائج المباحثات مع الزعيم ، أسرت أجاك لأخيها بأنها تتوقع الموت خلال أيام وأنه عليهم عدم التدخل لمنع الموت لأن ذلك هو مصيرها ، وأنها لا تلوم أحدا على موتها إذ أنه من عملها هى . وإذا رفع أحد مجرد عصا فى الثأر لموتها فان روحها سوف تسعى للانتقام فبان موتها يتم باختيارها فى معالجة أمر عجزت عن معالجته . بنى طريقة أخرى .

سأل ملينقديت :

- وكيف قتلت نفسها ؟

- يقال انها فعلت ذلك بان انتهكت حرمة شرب لبن البقر خلال فترة العادة الشهرية . بل ويقال انها شربت لبن أبقار الروح دينقديت المقدسة المخلوط بعصارة نبات سام لا يعلم أحد كنهه . وكان أخوها قد أخذ يراقبها عن كثب وأوصى النساء بمراقبتها خوفا من ان تشنق نفسها ، إلا انهم اخطاوا التقدير . وذات ليلة ذهبت إلى أخيها واخبرته بان الشيء الذى حدثه عنه سيحدث تلك الليلة وطلبت منه الايفاء برغباتها . وظل أخوها مستيقظا طوال الليل يراقب الكوخ اعتقادا منه انها ستذهب الى مكان ما لشنق نفسها ، إلا انها لم تغادر الكوخ . وصباح اليوم التالى وجدوا أجاك جثة هامة .

وعندما بلغ خبر وفاة أجاك نياندينق ، أخذت تقذف بنفسها من مكان لآخر وهي تنوح بسيل من كلمات الحزن الذى تتفطر له القلوب مع التلويح اللاذع ضد أسرة زوجها والتي كانت تعتبرها هي المسئولة عن فاجعة أختها . وشعرت الأسرة بأن الوقت قد حان لبدء التعاطف والعمو بدلا عن الرد وتبادل الاتهامات ، وحزن الجميع أبلغ الحزن لوفاة أجاك . وتدرجيا عادت الأمور الى مجراها الطبيعى . ومع مضى الوقت ، بدا وكأن نياندينق نفسها قد نسيت تصرفها الذى ظهر ان الآخرين قد عفوا عنه وإن لم يكونوا قد نسوه تماما . ومع أن بول قد حرص على إبداء التعاطف مع نياندينق بغية التسامى على الخلافات فى الأسرة ، إلا أنه ، وفى قرارة نفسه ، كان يشعر بالمرارة مما بدا له من قسوتها تجاه أسرته هو ، وبخاصة تجاه مديت . وردت نياندينق بالمثل ، حيث أبدت الود الشديد تجاه بول ، وهى تجامله بمناداته بلقب الزعيم ، إلا ان الجميع كانوا يشعرون أن حقيقة شعورها تجاه ابن الويل هو عكس ذلك ، ليس بسبب مديت وأجاك وإنما بسبب سمعة بول الشخصية . فقد كانت تشعر بالغيرة والحسد من أن ابنها هى ، أدول ، مجرد شاب عادى من الدينكا فى معسكر الأبقار ، بلا مستقبل فى العالم الحديث ، بينما كان مستقبل بول يزداد فى البريق كل حين .

وقد بالغ الناس فى وصف إنجازات بول التعليمية ، حيث قيل أنه قد فرغ من استيعاب كل ما يمكن تعلمه فى الجنوب لذلك سيرسل إلى الشمال . كما فسر خطاب النقيب على بفرص بول فى القيادة على أنه تأكيد جازم بأنه سيكون زعيما قوميا . وشعر بول بالحرج من كل ذلك ، لكن لم يكن فى وسعه عمل أى شىء فى المعارضة بخلاف إنكار تلك الروايات كلما لقيه .

وحان الأوان لسفره إلى حنتوب ، وازداد شعوره بالقلق لاقتراب موعد سفره للمدرسة فى الشمال . وذات صباح باكر جلس بول إلى جانب والده تحت الشجرة قبل أن يتجمع الناس وانتهز الفرصة للتعبير عن مخاوفه .

إنى يا والدى أتخوف نوعا ما من زهابى للشمال . فأولا ان هذا يباليغ من تصاعد توقعات أهلى لمستقبلى . ثانيا ، فرغم أعجابى وأرتياحى للنقيب على ، فانى لا أزال أشعر بالغبن تجاه العرب وشعورهم نحو أهلنا . ولا أعلم كيف أكون بالقرب الشديد من القوم الذين أنزلوا تلك المصيبة بأسرتى . فأنا لا أرغب حتى فى مجرد التظاهر بعدم كراهية العرب ، ولكن اذا أطلعتهم على حقيقة شعورى تجاههم ، فلا أرى كيف يتسنى لى العيش وسطهم . لذلك أتسائل عما اذا كنت أحسن صنعا بزهابى إلى الشمال . جمع ملينقديت أطراف ثوبه بين فخذه كما يفعل عادة عندما يرغب فى الحديث ، وأشار باصبعه تجاه بول ثم قال :

دعنى أخبرك يا ابنى . ان العداة المستحکم الذى تسمع عنه ليس بالأمر الهين وهو يقتضى قلبا كبيرا . صحيح أنه بمقتضى عرف أهلنا لا ينبغى لك ان تشارك فى الطعام من تناصبه العداة . إلا ان لأهلنا أيضا حكمة تقول بان تأكل من طعام عدوك لتكتسب القوة التى تمكّنك من ضربه . والحكمة بين هذا القول وذاك . لقد ذهب أخواك ، نعلم ان اشويل فى بلاد العرب اذا كان على قيد الحياة . واما بالنسبة لمديت ، فان من يغادر بلاد الدينكا يذهب أيضا إلى بلاد العرب . فاذا كان

حيا فسيكون هناك . اذهب يا بنى واكتسب المعرفة بالاشياء والقوة التى ربما تقودك يوما إلى طريق اخويك . فاذا كان أسلافنا يرعون شئوننا ، فسوف تجدهما يوما ما ، وإن طال العهد . وأما الكلمات التى تهب بها الرياح فى هذه القبيلة ، فلا تنزعج لها لأنها ستذهب مع الريح . ولماذا تستحى من أمال قومك ؟ الست أنت ابن زعيمهم ، وإذا أبقى الله على حياتك ، ألن تكون قائدهم فى يوم من الأيام ، سواء اكان ذلك هنا وسط القبيلة أم فى مكان آخر من البلاد ؟ لا تشغل بالك بهذه الهموم الطفيفة ؟ .

أراحته كلمات ملينقديت كثيرا وأحس إلياس بأن الذهاب للشمال ليس مجرد تطلع انانى وإنما هو جزء من واجبه تجاه أسرته وتجاه قبيلته . وشعر بأنه أهل للتحدى . الا ان ذلك لم يذهب بانزعاجه من البيئة الغربية التى يوشك على الدخول فيها . وأثناء سفره بالقطار ، أخذ يتفكر كيف سيكون العرب الذين سيعيش بينهم . فهو يعلم حقيقة شعوره تجاه العرب ، ولكن هناك اشخاص مثل النقيب على والذى ثبت أنه رجل كريم وانسانى ، رغم أنه رمز للاضطهاد فى الجنوب . لذلك ذكر إلياس نفسه بضرورة عدم التعميم الزائد فى أحكامه .

وخلال سفره إلى الشمال وردت الأنباء بأن جابر المنير والذى سبق أن استولى على السلطة بالقوة العسكرية ووعدهم بحل « مشكلة الجنوب » ، قد تمكن من التفاوض مع الثوار الجنوبيين والوصول إلى اتفاقية سلام أنهت الحرب الاهلية التى استمرت منذ الاستقلال . منحت الاتفاقية الحكم الذاتى الاقليمى للجنوب . ورغم أنها لم تقبل من جميع الاطراف . إلا أنها نجحت فى تحقيق السلام وقدر من الوحدة الوطنية فى كل البلاد . من المؤكد أن الأحوال قد تحسنت بين الشمال والجنوب ، وبين الدينكا والعرب .

الفصل الحادى عشر

رحلة القطار التى استغرقت عدة أيام عبر إلياس مساحات شاسعة ذات تضاريس **خلال** متنوعة، تمثل نطاق السافانا الغنى بالأعشاب الطويلة والغابات ذات الأشجار الضخمة وتحتها الأعشاب الكثيفة، تتخللها قرى على سهول ذات أرض صلبة لا تنبت عليها إلا أشجار السنط والأعشاب القصيرة. واصل القطار زحفه من محطة إلى محطة عبر القرى والغابات وسهول الأعشاب الكثيفة التى ترعى فيها قطعان الدينكا من الماشية والخراف والماعز ومعها الرعاة طوال القامة وهم عرايا الأجساد أو عليهم القليل من الثياب. ومن وقت لآخر يظهر رجل واقف على ساق واحدة وقد اتكأ على عود حربته بيده اليمنى، ويبدو طويلا بصورة مبالغ فيها بالمقارنة إلى انبساط الأرض من حوله. وبينما واصل القطار تدحرجه نحو الشمال، بدأت بقع من التلال والأراضى المرتفعة فى كسر رتابة السهول المسطحة. كذلك بدأت الأعشاب القصيرة شبه الصحراوية حتى جاءت مرحلة البساط الأخضر لأرض الجزيرة المروية على ضفاف النيل الأزرق ثم وصل القطار إلى وادى مدنى حيث تقبع مدرسة حنتوب على الجانب الآخر من النهر.

فى أول أيام المدرسة، تم تقديم إلياس إلى مدير المدرسة وأسمه مصطفى مختار، وهو رجل متين البنية فى أوائل الأربعينات من العمر ويتمتع بمزاج فكه وإن كان خفيا نوعا ما، وبمجرد أن دخل إلياس إلى مكتب مدير المدرسة بصحبة عبد الرحمن موسى التلميذ المفوض (رئيس الفصل) علق مصطفى وهو يصفح إلياس:

- إنك أكثر منى عروبة من حيث اللون.

وضحك إلياس وعبد الرحمن على ذلك التعليق . وكان ذلك حقا حيث إن مصطفى ،
الذى يصفه الشماليون أمثاله بأنه « أزرق » اللون ، كان أسود اللون وزنجى الملامح كما
يمكن لأى أفريقي أن يكون . ولكن بمقتضى الأشياء فى السودان ، كان مصطفى عربيا .
وقدر إلياس أن يرد بتعليق مشابه حول أمر العرق واللون فقال :

- من ناحية أمى ، وفى مكان ما فى جيل جدة جدتى ، يوجد دم عربى مركز .
فهم مصطفى مختار مرمى الإشارة وأراد الخروج على المقارنة فقال :

- حسنا يا بنى ، إنك تبدأ مغامرة مثيرة . لقد فرق الاستعمار بين جزاى بلادنا
وحرص على التفريق بيننا من ناحية العرق والدين والثقافة . وعلينا العمل جاهدين
لكسر الحواجز بيننا . إن حضورك هو خطوة عظيمة وبالغة الدلالة . لن يكون الأمر
هينا عليك ، لا فى قاعة الدرس ولا وسط زملائك خارج القاعة ، ولكن عليك المجاهدة
لتحقيق حلم راعيك المخلص النقيب على .

امتعض إلياس من الإشارة للنقيب على بأنه الراعى المخلص لإلياس ، لكنه أراد أن
يأخذ الأشياء بصورة إيجابية فقال :

- سابدل غاية جهدى .

واصل مدير المدرسة حديثه قائلا :

- بالنظر الى قامتك الجسدية ، فقد حصلت المدرسة على صيد ثمين للأغراض
الرياضية .

ابتسم إلياس وهو يرى أن مقدراته الرياضية قد أخذت موقع الأهمية الأولى فى تقييم
مؤهلاته . أنهى مدير المدرسة المقابلة بقوله :

- إذا واجهتك أى مشكلة ، فلا تتحرج فى الحضور إلى .

وسرعان ما أثبتت حنتوب صحة نبوءة المدير حيث كانت مصدر تحد وتكوين لشخصية
إلياس . كان إلياس متخلفا كثيرا فى اللغة العربية واحتاج فى ذلك لإشراف وتدريب
خصوصيين ليحقق الحد الأدنى للمرحلة الثانوية . كما كانت معرفته بالدين الإسلامى
غائبة تماما . ورغم أنه لم يتحتم عليه المشاركة فى دراسة الدين الإسلامى ، إلا أنه اختار
أن يدرس الإسلام وتاريخ العرب باللغة العربية .

ومع أن درجاته فى اللغة العربية والدراسات الإسلامية قد خفضت من مستواه العام ،
إلا أن أداءه فى باقى المواد كان جيدا . وكانت مشكلته الرئيسية هى التواؤم الثقافى حيث
أحس ، فى أغلب الاحوال ، بالعزلة لعجزه عن التعبير عن نفسه باللغة العربية ، فكان
يشعر بالحرج فى تصرفاته وبأنه أجنبى فى بيئة غريبة . وأكثر ما أثار الحيرة فى نفسه هو
التناقض بين عزته العرقية بل وشعوره بالتفوق بأنه من الدينكا ، ومعرفته ان عملية
التعريب التى كان يتعرض لها هى فى جوهرها عملية ترفيع ثقافى له ، ولم يكن ذلك بالأمر
الهمين ، ولكن لذكائه وحساسيته وعزته ، فقد أمكنه التواؤم بسهولة نسبية . وقد جعله
ذلك ، بالإضافة الى قدراته الرياضية ، محبوبا فى مجتمع المدرسة .

وما كان لادائه الرياضى أن يكون بذلك التميز لولا السمعة الشائعة بارتباط جنسه
بالقدرات الجسمانية . وقد أكد تلك الافتراضات العرقية مقدراته الرياضية فى كل أنواع
الرياضة تقريبا . فبالإضافة لكرة القدم وهى أكثر الألعاب شيوعا ، كان يلعب كرة السلة
والكرة الطائرة وتنس الطاولة ، كما كان يمارس الجرى والقفز العالى والقفز الطويل وقذف
الرمح والسباحة . وفى عموم الحال ، كان يملا كل موقع يحتاج للملاء . وكان يدرك أن

هناك نوعا من التمييز العنصرى في برونه الرياضى وكان ذلك ظاهرا في مناداته اثناء التشجيع « إلیاس ، إلیاس ، بول بول .. العبد ، العبد » . وادرك إلیاس ان الإشارة له بأنه العبد لم يقصد منها الإهانة إطلاقا من وجهة نظر السودانيين الشماليين . وعلى العكس من ذلك ، فقد كان لقباً يعبر عن المحبة والإعجاب على الرغم من جذوره العنصرية . فقرر ان يكون متفهماً والا يرفض إعجاب زملائه الذى حول الإهانة إلى إعجاب وتقدير .

ومع كل ذلك ، فقد كان إلیاس مستوحشا في حنتوب ، وكثيرا ما انسحب خلسة للمشى على ضفاف النيل الأزرق وأخذ يتذكر اهله وأصدقاءه الذين خلفهم وراءه في الجنوب . فكان يغنى اغانى الدينكا لنفسه وأحيانا يتحدث بصوت مرتفع ويضحك على نفسه وهو يتساءل ما إذا كان قد أصابه الجنون من شدة الوحشة . ورغم ذلك ، أدرك إلیاس انه رغم حنينه إلى اهله ، فقد أخذت عاداته وثقافته في التحول منذ حضوره إلى الشمال . وكان واعيا بصورة واضحة بعملية التعريب الواقعة عليه رغم انه لم يكن عربيا بحال من الأحوال . وعلى العكس من ذلك ، فكلما ازداد أخذه بالأساليب العربية تأكدت عزته وفخره بأنه من الدينكا . وكأنما كان قبوله للأساليب العربية هو مصدر لتوثيق عزته الداخلية والتي تذهب جذورها عميقا في نسبه وأصله الثقافى من الدينكا . إلا ان الأمور كانت من التعقيد بدرجة أعجزته هو عن تصنيف هويته العرقية في مواجهة الشعور بالخضوع للتفوق العربى .

وذات صباح وبعد تناول وجبة الافطار وجد إلیاس معتصم محمود في انتظاره وعليه حالة من الانزعاج حيث قال له :

- لقد حضر رسول للبحث عنك وقال ان مدير المدرسة يرغب في مقابلتك .

وأضاف في حب استطلاع المعهود :

- هل تعلم السبب الذى يرغب في لقياك من أجله ؟

أجاب إلیاس في عدم اهتمام يشوبه التوتر :

- ليست لدى أدنى فكرة عن الأمر

ثم أسرع مبتعدا في طريقه الى مكتب المدير .

ولدى دخوله المكتب ، حياه المدير بقوله :

- أه إلیاس ، ادخل . لقد أرسلت لأخبرك بالأخبار الطيبة .

وشعر إلیاس بالراحة لذلك . وأصل المدير الحديث بقوله :

- لعلك تعلم أو لا تعلم ، فعندنا سياسة في هذه المدرسة بعدم السماح للطلاب الذين لم يدفعوا كل مصروفاتهم المدرسية ، بما في ذلك المتأخرات ، عند نهاية الفصل الثانى ، بعدم السماح لهم بالاستمرار الى الفصل الثالث والذى تبدأ فيه مقررات الشهادة السودانية . ولكننا نستثنى من ذلك الطلاب الفقراء الذين يتلقون اعانات من مجالسهم البلدية أو الريفية أو من مصادر أخرى موثوق بها . تقديرا لظروفك كطالب جنوبى ، فقد كتبت لصديقك النقيب على ، والذى تمت ترقيته الى مقدم ، للسؤال عن طريقة دفعك للمصروفات . وقد تلقيت لتوى ردا منه ومعه شيك ليس فقط بالمتأخرات وانما أيضا بباقي المصروفات حتى نهاية فترتك بهذه المدرسة . انك

سعيد الحظ حقا ان يكون هذا المسلم الطيب هو راعيك المخلص . بالمناسبة ، كيف التقيت به ؟

شعر إلياس بالارتباك إذ أنه لم يسأل مطلقا عن المصروفات المدرسية . كيف جاز لمدير المدرسة أن يفترض أنه أفقر من أن يقدر على دفع المصروفات ؟ فسأله بهدوء وهو يجاهد للتحكم في نفسه :

- هل يمكنني السؤال عن قدر المصروفات المدرسية ؟

- اتعنى أنك لا تعرف ؟ يا للعجب !

- لم يخطرني احد ابدا !

واصل مدير المدرسة الحديث فقال :

- إنها خمسة عشر جنيهاً للعام . أتصور أنها تعادل قيمة بقرة في اصطلاح الدينكا .

قال الياس في اعتراض سريع :

- الا تعتقد يا سيدي ان والدي قادر على دفع تلك البقرة ؟

يا بني لا تتفاخر

قال المدير ذلك في صدق ثم أضاف القول :

«كن شاكرأ ، كن شاكرأ» وهو يكرر القول للتأكيد لو كنت مكانك ، لكتبت بالشكر للمقدم على . وعلاوة على ذلك وتقديراً لكرمه ، عليك بالاجتهاد للاستفادة من وجودك بالمدرسة . وبالمناسبة هل فكرت في الانضمام إلى الإسلام ، دين نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ؟ ألا ترى القدوة الحسنة للمسلم في سلوك المقدم على .

أصبح إلياس وقتها يغلى من الغضب وقد امتلأ ذهنه بالهيجان الذي أفقذه القدرة على التفكير السليم . وفكر في الخروج غاضباً من المكتب ، إلا أن ذلك لم يكن ليجدى في شيء ، بل لعله يزيد من الأذى . وفكر أيضاً في ضرب المدير ، ولكن كيف يقدر الآخر الدوافع التي تحفزه إلى التصرف بتلك الطريقة الخرقاء ، وبدلاً عن ذلك احتفظ إلياس بهدونه الخارجي مما أوحى للمدير بأنه بسبيل من تحقيق أهدافه فواصل الحديث :

- هل رأيت بناتي ؟

دهش الياس لذلك القول إذ أنه في غاية الغرابة أن يتحدث مسلم عن نساته بهذه الطريقة المباشرة . كان الياس قد سمع كثيراً عن جمال بنات المدير من أم مصرية تبدو كأنها أخت لبناتها أكثر منها أما لهن ، رغم أنها تجاوزت الأربعين من العمر . كن سمرات في لون النحاس ، طوال الأعناق هيفاوات الأعواد وكأنهن نماذج لرسوم الجمال الفرعوني العتيق .

أجاب الياس بقوله :

- لم اتشرف بلبياهن ولكني سمعت كثيراً من الاطراء لهن .

واصل مدير المدرسة الحديث وعلى وجهه ابتسامه عابثة :

- لا .. لو كنت مسلماً لما كان هناك مانع بينك وبينهن ولسعدت أنا بمنحك من تختار منهن . فبالنسبة لنا نحن المسلمين ، فإن الذي يهم هو الدين ، ولدرجة معينة هناك اعتبار اللغة والثقافة . وبفضل المقدم على ، فإنك الآن في مدرسة تضمن لك

العنصرين الأخيرين وتعرفك بالعنصر الأول . وكل ما تحتاج له هو أن تقول : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » وبذلك تصبح مسلماً فوراً وبذلك لا تقل درجة عن أى مسلم آخر .

قرر إلياس أن لا داعى للنقاش إذ ان ذلك سيؤدى حتما الى الشجار . وبدلا عن ذلك ابتسم بطريقة تخفى تعالى الرجل الاكبر والأكثر حكمة .

وشعر المدير بالتحدى في رد فعل الياس ، فاتخذ حجة اخرى :

- اتعلم ان الاسلام هو دين الاغلبية في ذلك البلد ..

- نعم ياسيدى ، اعلم ذلك .

- فماذا اذن ؟ الا تؤمن بالديمقراطية ؟ لماذا تضع نفسك في موضع الضعف بالانتماء

الى الاقلية ؟ فعلى كل حال ، لو كنت تحلم بالزعامة فى هذه الأمة ، فهل يمكن ان تحقق

طموحك وانت مسيحي ؟ انك يابنى في العمر الذى يمكنك من ان تكون حكيما . انى

اتحدث اليك بهذه الطريقة لانى اود ان تكون مسلما عن قناعة وبلا إكراه . ان

الاسلام هو دين التسامح والاقناع وليس دين الاكراه .

سخر إلياس من ذلك القول ، فقد علمه المبشرون المسيحيون ان الاسلام هو حقا دين

العنف وأنه يصنف غير المسلمين بانهم اعداء يجب اخضاعهم الى الدين الاسلامى بحد

السيف . ألم ينشر محمد رسالته بقوة السيف ؟ وعلى النقيض من ذلك ، فان المسيحية

هى دين المحبة الذى يقتضى من معتقيه ادارة الخد الآخر في مواجهة الاعتداء العنيف .

إلا ان الياس لم يقدر على قول ذلك لمدير المدرسة واحتفظ بافكاره لنفسه .

- تفكر في هذا يابنى ، وإذا اقتنعت بفضائل الاسلام فساكون انا اسعد الناس

بذلك . انى اعتقد انك ولد نجيب ذو مستقبل طيب . اعن ربك على اعانتك لتحقيق

ذلك .

- شكراً لك ياسيدى : قال الياس ذلك وهو يشعر بأنه أعزل تجاه عصبية المدير الساذجة .

ولم يدر هل يشعر بالغضب أم العطف تجاه الرجل وكل مايمثله بالنسبة له .

كان معتصم في تشوق لمعرفة غرض المدير من طلب الياس . وعندما سمع الرواية ،

قال :

- لا بد انه يرتاح لك كثيرا ، فمن غير المعهود عنده ان يكون بهذه الصراحة . اما بالنسبة

لعرضه احدى بناته لك فانى اعرف الكثيرين ممن يقفزون لانتهاز الفرصة . لاتكن احمق

وانقذ روحك وخذ احدى بناته في أن واحد . ماذا فعلت المسيحية من اجلك على كل حال ؟

كان الياس وقتها يعرف معتصم لدرجة تعصمه عن الشعور بالغضب لتلك الاهانات .

وقدر الياس انه حسن النية ، او انه على الاقل لا يقصد شرا او اساءة له .

ولكن لم يكن كل من في جنتوب يرغب في تحويل الياس الى الاسلام . وعلى العكس من

ذلك ، فقد دعم زملاؤه اليساريون شعوره المضاد للاسلام وشجعوه في ذلك ضد خصومهم

السياسيين وهم الاخوان المسلمون . كانت هناك جماعتان سياسيتان في المدرسة : الجبهة

الديمقراطية الى اليسار والاخوان المسلمون الى اليمين . كما كان هناك المستقلون الذين

لايعنون بهذا او ذاك ، وكان معتصم من المستقلين ، وفي الغالب يوصف المستقلون بأنهم

عديمو المبادئ ، سوى أنهم حريصون على الدرس ، وهو امر غير محترم وسط زملائهم

الطلاب .

اتصل به السكرتير العام للجبهة الديمقراطية خلال ايامه الاولى بالمدرسة وقال له :
- اذا لم تؤيدنا فإنك بذلك تؤيد منافسينا الاخوان المسلمين وفي دولتهم الاسلامية
سينحط قدرك بان تكون من « أهل الكتاب » . وهم مواطنون من الدرجة الثانية ،
هذا اذا لم تعتبر من اهل الحرب الذين يكون المسلمون معهم في حالة حرب . لا ارى
اى فرصة للشك في الاختيار السليم بالنسبة لك .

- كانت ميول إلياس اليسارية هي طلب المساواة بقدر ماكانت عداا للاسلام والذي نجم
عن تطبيعه المسيحي . ولأنه كان يفضل النقاش باللغة الانجليزية التي كان يجيدها اكثر
من خصومه مما يقلل من جدواهم ويسعد رفاقه اليساريين .

كانت حجة الياس تقول: كيف تزعمون ان محمداً هو خاتم الانبياء في الوقت الذي لم
يزد هو عن تلميع مبادئ اليهودية والمسيحية ، التي التقطها في اسفاره التجارية بين
المسيحيين واليهود ؟ وكيف تبررون ان هذا الرجل الذي يمثل عندكم قمة الورع
الاسلامى ، قد كون ارباحه المذهلة من التجارة لراعينه خديجة التي تزوجها فيما بعد رغم
الفارق الكبير في السن بينهما ؟ وكيف تفسرون تناقض مبادئه في امر الزواج اذ سمع
للمسلمين بزواج اربع زوجات كحد اقصى بينما تزوج هو اثنتى عشرة زوجة ؟ وقد احتار
إلياس من ادعاء المسلمين أن القرآن هو كلام الله الذي أملاه حرفيا على محمد . فعلى كل
حال ، لاتعدو أجزاء من القرآن أن تكون نصوصا مراجعة من التوراة والانجيل .
كما كانت للمسلمين حججهم أيضا : « اليس من التجديف على الله القول بان لله
ولدا ؟ واذا كان المسيح هو ابن الله كما يدعى المسيحيون ، فكيف يمكن القول بانه
قد صلب ؟ فحتى باعتباره نبيا كما يعترف به المسلمون ، فمن المنظور الاسلامى لم
يشأ الله له ان يضحى به . وبدلا عن ذلك ، فقد توهم خصومه انهم قد صلبوه بينما
انقذه الله ورفعته اليه في السماء » .

وهكذا تواصل النقاش بلا نهاية ، فكان ساخنا احيانا وهادئا احيانا اخرى ، بينما كان
إلياس دائما هو محور الاهتمام مما أسعد رفاقه اليساريين .

كان الياس يقضى عطلته الصيفية عند أهله دائما . وبما أنه قد ترقى في المكانة
الاجتماعية ، اذ ان التعليم الثانوى في ذلك الوقت كان من الانجازات الكبرى ، فقد أخذ
الياس الجلوس في المقعد الامامى جوار السائق . ويعتبر ذلك الموقع بمثابة الدرجة الاولى ،
حيث يجلس عامة الناس القرفصاء على الجوالات وأوعية البضاعة في مؤخرة الشاحنة ، في
رحلة شاقة قلما تنتهى بلا شجار بين المسافرين .

وذات يوم كان إلياس والسائق مستغرقين في الحديث عندما سمعا قرعا عاليا على
سقف العربة . وعندما توقف السائق ، أطل عليه مساعد السائق الذى يجلس على
السقف ، ليقول :

- ان العبيد يتشاجرون ..

وقفز الياس الذى كان يجلس في الطرف الآخر من المقعد الامامى ، قفز الى خارج
العربة بصورة تلقائية وقد استفزته العبارة المهينة اذ ان اغلب المسافرين كانوا من
الدينكا ومعهم بعض الأعراب .

وقال إلياس للمسافرين في صوت معاتب يجمع بين التضامن معهم والحرص :

- ماشانكم ايها الناس ، الا تدركون خطورة الشجار على عربية متحركة ؟ مع هذا الازدحام ، الا ترون ان احدكم قد يدفع به الى الارض ؟ ..
صعق المسافرون ، اذ كانوا يفترضون ان الرجل الجالس في مقدمة العربة مع الاعراب هو عربى ايضا ، فاذا به يخاطبهم في لغتهم بطلاقة تامة .
وفجأة تحول الشجار الى ضحك ، وسأله أحد الكبار - اين تعلمت ان تتحدث بلغة الدينكا بهذه الجودة ؟ « كاد إلياس أن يجيبه بأنه من الدينكا ، ولكنه غير رايه وقال - في بلاد الدينكا » .

علق الرجل الكبير مبتسما : - اقسام انه يتحدث وكأنه من الدينكا .
وادرک إلياس أن أهله يتصورون أن كل شخص متعلم ، وخصوصا إذا كان يشعر بالاسترخاء في الدوائر العربية ويشارك في الثقافة العربية ، انه ولاشك عربى ايضا . ورد إلياس ذلك الى الجهل والتدنى الاجتماعى معا . وتقديرا منه لعدم جدوى النقاش حول ذلك الأمر ، قفز إلياس مرة أخرى إلى داخل العربة بعد أن صوب نظرة حادة الى مساعد السائق وهو يقول : الا تعلم ان استخدام هذه الكلمات المستهتره قد يؤدي بك الى السجن ؟ «

علق مساعد السائق بلهجة معتذرة ، وقد شعر بالتواضع والخطر امام إنذار إلياس الجاسم في تسامح ، علق بقوله - إننا جميعا عبيد الله ، ولكن معذرة ، لم اقصد إهانة احد بما قلت « .

سكت إلياس على ذلك وتواصلت الرحلة . وعندما وصل إلياس الى قرية داك - جور حكى لوالده عن كرم المقدم على ، واراد أن يرد إليه ما دفع من أجله الا أن والده خالفه الرأى وقال

- يابنى ، انه من دواعى الرضا أن تعطى اكثر من أن تتلقى ، ولكنه من المهين للمرء ان ترد اليه هديته . لا ترد عليه بدفع المال ، وسنفكر في هدية مناسبة عندما يحين وقت عودتك « .

كان ترقى إلياس من الناحية الاجتماعية والثقافية ظاهرا ، وقد أخذ يرتدى الجلباب الطويل الابيض في المنزل ، مما أوحى بتطبعه بالثقافة العربية والتي تعتبر عموما من مظاهر الصعود إلى أعلى الهرم الاجتماعى على المستوى القومى . كما أخذ إلياس يقوم بدور المترجم في القضايا والاجتماعات التي تشتمل على العرب ، وفي أغلب الأحوال كان أدائه يحظى بعبارات الثناء والاعجاب من العرب . وقال أحد الاعراب ذات يوم للمينقديت في غرور ساذج :

- لم يعد ابنك من الدينكا وانما اصبح عربيا « .

وتجاوز ملينقديت الاهانة غير المتعمدة بطريقة كريمة حين قال :

- نعم لقد اصبح من ابناء السودان .

كان إلياس في عطلة العام الدراسى الثالث من حنتوب عندما تلقى الانباء المثيرة من المدرسة . كان قد عاد لتوه من نزهته المعتادة على ضفاف النهر ذات عصر معتدل الطقس عندما ناوله والده مظروفا يحتوى على رسالة من مدير المدرسة . نزع إلياس المظروف في لهفة وأخذ يقرأ : « ايها الزعيم العزيز انى اكتب لك بشأن ابنك إلياس بول . كما تعلم ، فان إلياس صبى نجيب ، حسن الخلق ، طيب المعشر ويتمتع بحب وتقدير

معلميه وزملائه الطلاب . ولكن لابد لي من اخطارك باننا في غاية الانزعاج لمستقبله . رغم انه قد حقق تقدما ملحوظا في اللغة العربية والدراسات الاسلامية ، الا انه لا يزال متخلفا في هاتين المادتين ومن غير المتوقع ان يتمكن من اللحاق بزملائه عندما يحين وقت امتحان الشهادة السودانية . ونخشى ان تكون النتيجة هي عدم تحقيقه للمستوى الذى يؤهله لدخول الجامعة . هذا ، بينما لو ادى الامتحان في الجنوب ، فإنه سيتفوق على الطلاب الجنوبيين في هذه المواد وتشرق درجاته بصورة اكبر . انى اقترح هذا بكثير من التردد ، ولكنى افعل ذلك لمصلحته هو اذ من الخير له ان يعود مرة اخرى للدراسة في الجنوب .

وقد اطلعت المقدم على امر بوصفه الراعى المخلص لالياس ، وهو يوافقنى الراى رغم انه يرغب كثيرا في ان ينجح الياس في الشمال . وبناء على ثقتنا في انكم سترون حكمة قرارنا ، فقد مضينا قدماً في تنفيذ تحويله إلى مدرسة في الجنوب . اود ان اؤكد لكم ان هذا الاجراء يسبب لنا اشد الالم ، ان اننا جميعا مولعون بالياس ، ونتطلع الى ان نراه يصعد سلم القيادة في هذا البلد .

اصابت الصدمة الياس اذ انه لم يدر بخلده ان ادائه المدرسى كان بذلك المستوى من الضعف . لماذا لم يخبره احد بان ادائه غير مُرضٍ ؟ وكيف يتواطأ مدير المدرسة ، وقد أصبح موضع تقديره بل وثقتي ، يتواطأ بنقاش الامر مع المقدم على من وراء ظهره هو ، ويكتب لوالده دون ان يشير مجرد اشارة مباشرة للأمر معه هو ؟ وشعر إلياس بالخيانة ، وأنه ليس هناك من يمكنه ان يثق به في ذلك الشمال الشائك . وعقد العزم على عدم العودة للمدرسة في الجنوب ولا لجنوب . ولكن ماذا تراه فاعلاً ؟ كان عليه الإجابة على السؤال بنفسه إذ لا يملك أحد مساعده . وذات عصر وهو يتمشى على ضفاف النهر ، خطرت له فكرة الانضمام الى الجيش . فعلى كل حال ، ورغم تعليمه ، فهو يأتى من ثقافة عسكرية . فكر في « جماعات الانداد » التى ينشأ فيها الشباب ويتدربون ليصبحوا محاربين . كان سعيدا انه قد اعفى من محنة التدشين ، ولكن الا تتحقق له نفس العزة ونفس المبادئ التنظيمية من خلال التدريب العسكرى ؟ الا يمنحه الجيش مخرجا من ورطته التعليمية ؟ إذا كان الامر كذلك ، فسيحتاج للحصول على الشهادة المدرسية السودانية ، ولذلك الغرض يمكنه الاستفادة من عاطفة المقدم على الأبوية تجاهه . لقد كان يعلم تماما ماينبغى عليه ان يقول ، ولكن هل يكون ذلك اكثر جدوى لو جاء منه هو ام من والده . وقرر ان يكون الحديث منهما معا .

قال في خطابه : « عزيزى المقدم على . لقد اعنتنى كثيرا لدرجة انى لا اعرف كيف اشكرك . دع عنك ان اطلب منك خدمة اخرى ، . ثم واصل الخطاب في تلخيص وقائع الموقف ثم اضاف « لقد خلصت الى ان الالتحاق بالجيش هو احسن البدائل المتوفرة لدى ، بل هو اجتنابى الاول . انى في حاجة لمساعدتك للالتحاق بالجيش ، وحاجتى اليك الآن اكثر من حاجتى اليك في اى وقت مضى . يتحتم على النجاح في الشهادة المدرسية وقد عقدت العزم على الحصول على النجاح كطالب منفرد وليس عن طريق إحدى المدارس . ارجوك ان تساعدنى ..

اما خطاب والده ، الذى كتبه إلياس ايضا بالطبع اذ ان والده كان اميا ، فقد كان مصاحبا للهدايا المختلفة التى ارسلها والده تعبيرا عن الشكر والامتنان للمعاونة التى

اسداها المقدم على لالياس . اشتملت الهدايا على وعاء من العسل وآخر من السمن وعدد من الاطعمة المنتجة محليا والاعمال الفنية اليدوية التى يقدرها العرب من أهل المدن كثيرا . وأضاف الخطاب - أعلم ان ابني يطلب منك خدمات اخرى . ليس لدى ما اضيفه الى خطاب ابني في ذلك الخصوص سوى أن أقول أنه قد أصبح ابنك انت كما هو ابني انا ..

وبعد أيام من زهاب الخطابين الى المقدم على ، حيث حملهما باليد احد المسافرين الى الخرطوم ، تلقى إلياس زيارة مفاجئة من خاله البيير الذى كان مقدمه مصدر سعادة خاصة لالياس ولوالدته الويل . اجلس البيير وقدم له الماء للشرب بينما بدأ الاعداد لانواع الضيافة الأخرى . كان البيير يزور الياس كلما عاد من المدرسة وكذلك قرب موعد سفره ، وذلك لتقديم مباركة الخال المعهودة - ولكن ماهو غرض تلك الزيارة ياترى ؟ وبعد أن تجاذب البيير اطراف الحديث مع الاقارب والضيوف الآخرين ، طلب ان يختلى بابن اخته : فذهبا للجلوس تحت شجرة .

- ياابن اختى ، لقد سمعت شيئا ازعجنى كثيرا ، فقررت ان احضر لاتعرف منك مباشرة على حقيقة الامر ..

لم يتمكن إلياس من التعرف على الشيء الذى يمكن ان يزعم خاله لهذه الدرجة . على كل حال لم يتصور أن يكون ذلك شيئا قد فعله هو . وظهر القلق وحب الاستطلاع على وجهه العابس .

- لقد سمعت انك تود الالتحاق بالجيش ، فهل هذا صحيح ؟

ارتاح الياس لأن يكون ذلك هو السبب الوحيد لانزعاج خاله ، فأجاب بالايجاب . تحدث البيير بلهجة السلطة الاخلاقية لمن هو أكبر سنا فقال :

- استمع لى جيدا يابول . حسب اعراف اهلنا الدينكا ، فان الزعامة تنقسم الى قسمين . هناك الذين يؤدون مهام الحرب من التخطيط واداء الطقوس قبل الهجوم او لمواجهة الهجوم . ولا اعنى من يقاتلون فعلا اذ ان الجميع يقاتلون عندما تواجه الحرب اهلينا ، ماعدا الزعماء وكبار السن (الذين لايقومون بالقتال) . ولكن هناك نوع آخر من الزعامة وهو الاكثر اهمية لاهلنا ، الا وهى الزعامة فى السلم ، زعامة الكلمة المقدسة ، وقد خص الله اهلنا بهذا النوع من الزعامة منذ بدأ الخلق الأول . اولئك هم الزعماء الذين نطلق عليهم لقب « زعماء اللحم » ونصفهم بهذه الصفة لأن سلطتهم الروحية تجرى فى دمائهم . عندما تنهار الامور وعندما ينشأ العراك او الشجار بين افراد المجتمع وعندما تقوم الحرب بين طوائف اهلهم او يكونون فى حالة حرب مع الآخرين ، فان « زعماء اللحم » هم الذين يتدخلون لاحلال السلام . اولئك هم الزعماء الذين تقدر كلماتهم على اصلاح العلائق بين الناس عندما يلحقها الوهن والفساد .

من كلا طرفى أسرتك ، من ناحية والدك ومن ناحية امك ، فقد كان اسلافك هم زعماء السلم وليس زعماء الحرب . ولا يعنى هذا ان افراد عشيرتنا لا يذهبون الى الحرب ، فنحن نقاتل . ولدى التحقيق ، فنحن مشهود لنا باننا مقاتلون .

ولكن زعيم العشيرة لا يذهب الى الحرب ، ولا ينبغي له حتى مشاهدة الدم عندما تذبح البهائم في الغداء ، دع عنك مشاهدة الناس وهي تتحارب ويقتل بعضها بعضا . إن دور الزعيم هو البقاء في منزله والصلاة من أجل السلم أو من أجل النصر لمن هو على حق والهزيمة للمعتدى . لا ينبغي للزعيم التسامح عن العدوان ، وعليه مناهضة العدوان بواسطة قواه الروحية . عليه أن يرسم خطا على الأرض ويضع حرا به المقدسة على ذلك الخط ويدعو الله والأرواح أن تعاقب من يعبر الخط .

بول ، يا ابن اختي ، ليس للزعيم ملينقديت ابن آخر ليتولى تلك الزعامة . أنت هو الابن . كيف يجوز لك ان تاخذ السلاح وتقاتل ؟ من الذي يبقى ليقا تل بقوة الكلمة ؟ لا ، انى أرفض هذا .

تأثر إلياس لكلمات خاله ، وبخاصة لثقته بقدرة إلياس على القيادة ، إلا انه كان واثقا أيضا ان ذلك الحديث هو صوت الماضى إذ ان نوع الزعامة التى يتحدث عنها اليبير فى سبيلها الى الانقراض بسرعة . إن نوع الزعامة التى تجد أدنى حظ من الجدوى فى العالم المعاصر هى الزعامة المدعومة بقوة السلاح . لم يتورع إلياس عن مخاطبة خاله بكل الصراحة اللازمة .

« يا خالى ، لقد لمست كلماتك قلبى ، ولكن يتحتم على أن اخبرك بان عالمنا يتغير ، وأن ما كان حقا بالنسبة لمجتمعنا بالأمس لم يعد كذلك اليوم . مع ان الزعماء لا يزالون فى خدمة اهلهم من خلال كلمات الحكمة ، فان السلطة الحقيقية التى تدير شئون البلاد اليوم هى سلطة الحكومة التى تعتمد ، فى نهاية الامر ، على الشرطة والجيش . حتى السياسيون الذين يسعون الى السلطة عن طريق الانتخاب لا يقدرّون على فعل شيء عندما يعارضهم أولئك الذين يحملون السلاح ويقررون الاستيلاء على السلطة . ان الرجل الذى اسمه منير يحكم هذا البلد اليوم ليس لانه مدعوم بسلطة روحية وليس بسبب قوة كلماته وانما لمجرد السلاح الذى يحمله هو وجنوده . اعتقد انه قد ان الأوان لان ندعم قوة كلماتنا بقوة السلاح . لهذا السبب قررت انا الانضمام الى الجيش ..

اجاب اليبير بقوله :

« انى اسمع ماتقول يا بول ، ولكنى سمعت والدى يقول بانك ستكون زعيما لقومنا فى يوم من الأيام . ولم يكن والدى من الذين يلقون بالقول جزافا . كانت كلمات والدى عزيزة ولم يتحدث فى ثرثرة فارغة . كل ما يتنبا به والدى يتحقق تماما كما رآه هو وان طال الزمن . لقد كان شديد الولع بك كما تعلم ، الا ان ذلك ليس هو لب الموضوع . فحقيقة الامر انه قد رأى شيئا عنك أنت وعن مستقبل اهلنا . وانتظر انا أن تتحقق نبوءته . لا اعتقد ان والدى قد رأى زعامتك المدعومة بقوة السلاح ، اذ كان ممن يعتقدون فى قوة الكلمة المدعومة بارادة الله .. مع تقدير إلياس لمنطق خاله ، إلا انه لم يراوده الشك أن ذلك المنطق انما يعبر عن قيم نظام خلفه الزمان ولم يعد له مكان أو قيمة كبيرة فى عالم الدولة القومية الحديثة . ورغم قوة قناعته الأخلاقية ، فقد كان اليبير هو الذى اختتم الحديث فى محاولة توفيقية :

- لنضع الأمر الآن .. ان والدى يراقب احوالك ، واذا كان لما قاله اى قيمة فى عالم اليوم ، فسيجد طريقا ما لتحقيقه فى الواقع . التحق بالجيش وتحصل على قوة السلاح ، وسوف تصاحبك قوة الكلمة ايضا حيثما ذهبت وسترى يوما حق ما اقول لك .

اجاب العقيد على ، وقد ترقى الى تلك الدرجة ونقل الى الرئاسة بالخرطوم ، اجاب بأنه يفضل أن يكمل إلياس تعليمه المنتظم ، ولكنه ينزل على رغبته ويضمن له القبول بالكلية الحربية اذا تحصل على الشهادة المدرسية وكانت تلك هى رغبته الحقيقية . وقرر إلياس الجلوس للامتحان خلال سنة واحدة . عرض العقيد على أن يقيم إلياس معه فى منزله بأمر درمان ، حيث يتمكن من الاستذكار فى هدوء نسبي ويجد العون من الدروس الخصوصية ، قبل إلياس العرض وسافر إلى الشمال فوراً .

توأم إلياس بسرعة مع أهل على حيث كانت زوجته خديجة تعامل إلياس معاملة الابن وكان هو بالنسبة لبناتها الأربع ، وتتفاوت أعمارهن بين السادسة والسادسة عشرة ، كان بالنسبة لهن بمثابة الأخ الأكبر ، بخاصة لأنه لم يكن لهن أخ . ورغم ذلك ، حرص إلياس على الاحتفاظ بمسافة مناسبة بينه وبين نساء الأسرة ، وذلك مراعاة منه لشعور أصحاب الثقافة الإسلامية من ناحية ولتجنب أى إغراء او حتى سوء فهم قد ينشأ حول الأمر من ناحية أخرى .

وقد زاد تقديره لضرورة الحذر ما حدث ذات يوم عندما مرت نادية ، وعمرها ست عشرة سنة ، مرت بالقرب من حجرته ورائته عرضا وهو فى ثيابه الداخلية . وبصورة غريزية ، توقفت نادية وأخذت تنظر اليه ، والتقت نظراتهما . وكأنها عاجزة عن الحراك ، ظلت نادية واقفة وهى تشع بابتسامة خجولة توحى بالرغبة القوية . وابتسم إلياس أيضا وهو يشعر بالارتباك . ولم يكن فى الأمر مشكلة لولا أن لاحظت خديجة الطريقة التى وقفت بها نادية وهى تنظر الى داخل حجرة إلياس . وكأنها مدفوعة بحماية غريزة الامومة ، صاحت خديجة فى صوت عال سمعه الاثنان :

- نادية ..

اعادتهما الى وعيها الطريقة التى نادت بها خديجه . وانزعج إلياس لأن يساء فهم تلك المغالزة البريئة من جانب نادية وليس من جانبه هو ، أن يساء فهمها فى اطار المجتمع المسلم الذى يعزل بين الرجال والنساء بصورة صارمة . وأراد إلياس أن يهدىء الخواطر حول الأمر ، الا أنه فضل الا يثير الأمر بنفسه خشية أن يبعث ذلك على الاعتقاد بأنه يحس بوخز الضمير .

وذات يوم ، بينما كان إلياس والعقيد على يتناولان شاي الصباح ، بدأ على فى الحديث بلهجة صارمة بعثت الخوف فى نفس إلياس للوهلة الأولى :

- ياإلياس ، اود ان اخبرك بشىء أرجو الا تسيء فهمه . كنت اتحدث وخديجة حول أمر البنات . إن نادية قد كبرت ، بل يمكن القول بانها قد اصبحت سيدة شابة . وكما تعلم ، فلدى الشباب حب الاستطلاع الشديد وشهوة الحياة . ولتفادى اى احتمال للمغامرة ، فان الثقافة الإسلامية تضع الضوابط الصارمة للقاء الرجال بالنساء ، والاولاد بالبنات . لا احتاج لأن اقول لك بانى انا وخديجة نعتبرك كابن لنا واخ بالنسبة لبناتنا . ليس لدى ما يوجب التشكك فى

شعورك نحوهم أيضا ، ولكن خطر لي ، بوصفي اكبر سنا منك ، ان اؤكد لك مخاطر احتكاك البنات الشابات بمن هو ليس بالأخ الكامل بالنسبة لهن . في المجتمع المسلم يجب التفريق حتى بين البنت وابناء عمها او خالها لإمكان الزواج بينهما ، دع عنك التفريق بين البنت ومن لايمت لها بصلة القرابة . لذلك ، فان ثقتنا التامة فيك هي التي تجعلنا لا نضع اى حواجز بينك وبين البنات . اود ان اقول هذا لك حتى تعلم بواقع الحال ..

انزعج إلياس ، في بداية الامر ، لان يكون لدى على ما يحمله على التشكك في سلوكه ، لكنه قدر تماما الاسباب التي ذكرها على وكذلك سعد لاجلاء على للجو بعد الحادثة المتعلقة بناادية . اراد ان يعلق على تلك الحادثة لكنه خشى ان يسبب ما يقول الحرج وربما يثير الشك . لذلك اكتفى بالقول :
- ياعمى على ، انى اقدر حديثك لي حول هذا الامر واحب ان انتهز هذه الفرصة لاعبر عن امتناني وتقديرى للطريقة التي تقبلنى بها وسط اسرتك . بعون الله ، لن اخون هذه الثقة .

وهكذا ، منذ ذلك اليوم ، حرص إلياس على الاحتفاظ بمسافة كافية بينه وبين البنات دون ان يخلق جفوة في علاقته بهن كفرد من افراد الأسرة . ورغم فشله عن مواصلة الدراسة في حنتوب ، فقد تمكن إلياس من المعرفة باللغة العربية والاسلام لدرجة يصعب معها التعرف على انه جنوبى من غير معرفة شخصية بخلفيته الاجتماعية . وكان ذلك عنصرا هاما من عناصر هويته بين اهل العقيد على . ففى مرة من المرات خلال شهر رمضان سألت حليلة ، ذات التسع سنوات ، في براءة تامة لماذا لا يصوم إلياس الذى اجاب بان السبب هو انه غير مسلم .
- ولماذا ؟

تساءلت حليلة وهي لاترى اى فرق بين إلياس ومن حولها من الناس . حاول إلياس الشرح لكنه لم يكن مقنعا ، فحفزه ذلك لان يثير الامر مع العقيد على :
وقد حرص إلياس ان يعرف وبصورة خاصة ما اذا كان العقيد على يشعر بخيبة الامل في ان الصبى الذى اعانه كثيرا لم يغير دينه ليتناسب مع دين رب نعمته .
تساءل إلياس بصورة عرضية :

- احب ان أعرف رأيك حول اختلافاتنا الدينية
- في الماضى ، ربما حفرتك لان تكون مسلما ، واعتقد انى قد قلت لك ذلك عند لقائنا الاول . اما الان ، فمن وجهة نظرى ، اعتقد اننا جميعا بشر في نظر الله . مايهم هو قيمة الشخص ، ومن هذه الناحية لا اشك اننا في قيمتك انت شخصا ولا في قيمة اهلك عموما . لقد تعرفت على الناس في الجنوب بصورة جيدة . اذا كان الاسلام يعنى بالسلوك الاخلاقى للشخص تجاه الناس الاخرين ، فلا اعتقد ان اهل الجنوب في حاجة الى دين غير دينهم الحالى . ولكن اذا تحدثت الى اخى محمد ، فانى اثق بانك ستسمع قولنا مختلفا .

كان الشيخ محمد احمد الجاك اكبر سنا بصورة واضحة من اخيه على ، وكان في الماضى من تجار الماشية في غرب السودان وقد اشيع عنه انه تعامل في البشر الذين يختطفون خلال الغارات بين القبائل ، دع عنك التعامل في القطعان

المنهوبة . ومن وجهة نظر الشيخ محمد (على الأقل فيما سمع الياس عنه من على وأسرته) فإن العالم منقسم إلى قسمين : عالم المؤمنين وهم المسلمون ، وعالم بقية البشر وهم انصار الشيطان، وبذلك يصبحون صيدا حلالا في غارات طلب الرقيق والنهب والاختضاع . ولم تردعه عن ذلك حتى اليد القوية للحكومة . سواء اكانت حكومة الاستعمار ام العهود الوطنية .

انقضت سنة الياس في منزل العقيد على بسرعة وهو منكب على دروسه ولا ينضم الى اجتماع الاسرة الا لى الضرورة . وقد نجح العقيد على ايضا في الترتيب لأن يأخذ الياس امتحان اللغة العربية الخاص بالجنوبيين وذلك كطالب منفرد .

وعند وقت الامتحان ، شعر الياس بانه على اهبة الاستعداد وان لم يكن مفرطا في الثقة . وكل ما اراد هو النجاح بالقدر الذى يؤهله لدخول الكلية الحربية ، لكنه حقق اكثر من ذلك اذ تحصل على درجات تؤهله لدخول الجامعة . وبما ان رغبته في الكلية الحربية كانت مؤكدة فقد تم قبوله فيها بكل حماس . وقد جعل لبسه الزى الرسمى وقبضه لراتب فورى ، جعل ذلك دخول الكلية الحربية الترقية المهنية التى احتاج لها الياس بعد الفشل في حنتوب . وقد استمتع بوضعه كطالب حربى وتطلع الى وضعه كضابط . وكان ذكيا ونموذجا طيبا للتمازج الثقافى وذلك ما يحتاج له السودان الجديد .

احسن الياس الاداء في الكلية الحربية حيث ناسبته حياة الانضباط والرفقة العسكرية . وعند التخرج كان العقيد على يشعر بفخر خاص عندما راي للياس يتقدم وهو منتصب القامة ليتلقى في فخر وثقة بالنفس الجائزة كاجد افضل الضباط المتخرجين . كما انه القى بكلمة في لغة عربية تكاد تكون خالية من الخلل ، وقد تخللتها من حين لآخر كلمات باللغة العربية كما يتحدث بها الجنوبيون ، وكانه بذلك يؤكد التحول الذى حققه بين الثقافتين .

قال الياس في خطبة :

- بينما تم تدريبنا واعدادنا على رد العدوان الخارجى ، نود أن نرى السلام والوحدة بسودان فى الجبهة الداخلىة . « دشمان بين أخوان بعد دا مافى » (لا قتال بين الاخوان بعد الآن) وكان ذلك تحويلا طريفاً لأية قرآنية فحواها إننا قد جعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا .

الفصل الثاني عشر

كانت السنوات التالية شديدة التأثير بالنسبة لإلياس . فلدى عودته إلى الخرطوم لمزاولة مهامه بعد أجازة قصيرة قضاها بين أهله ، علم أنه قد تم تسجيله لعام أكاديمي بأكاديمية منير التي أنشئت حديثاً لتقديم التدريب الشامل في الإدارة القومية لموظفي الحكومة من المدنيين والعسكريين على جميع المستويات . خلال عام من الدراسة المكثفة ، يكتشف الطلاب من الشباب والمتقدمين من المسؤولين وحتى من هم في مستوى القيادة الرفيع ، يكتشفون أن علمهم بشئون الحكم والسياسة الدولية لا يعدو أن يكون إماماً بأولويات الأمور . ويتنوع خليط الطلاب من أصحاب المهن والعلوم المختلفة ، منهم الاقتصاديون وعلماء الدين وعلماء الطبيعة وضباط الجيش والدبلوماسيون . كذلك تشتمل هيئة التدريس على تنوع مشابه من المعلمين الدائمين بالاكاديمية والمحاضرين الزائرين . يجاهد الطلاب في الحصول على الدبلوم الذي تمنحه الاكاديمية عند نهاية العام ، يحفزهم الى ذلك ادراكهم بقيمة ما يدرسونه .

وقد قوى إلياس امتياز أدائه في الكلية الحربية وشحذ همته المدخل العريض للعلوم وطريقة تطبيقها الاكاديمية ، مما جعل سنته تلك تجربة في غاية الافادة . وقد امتاز إلياس في أدائه الا ان بعض زملائه وجدوا أن مساهماته تبعث فيهم الخليط من المشاعر حيث إنه كان سريع البديهة ولكنه يميل الى الناحية الاستعراضية في أن معا .

كان عاماً عامراً بالنسبة لإلياس وقد مر بسرعة كبيرة . فبخلاف زيارات عطلة نهاية الاسبوع من حين لآخر للعقيد على وبعض الاصدقاء الآخرين ، كرس الياس كل وقته للدرس والتحصيل ، وكان بعض أصدقائه بالاكاديمية يداعبونه بوصفه « كُتَّاب » ، أي عديم الاهتمام بأي شيء سوى الاستذكار .

وعندما أوشك العام على الانقضاء ، زار الفرقة العميد عوض محمد نمر ، وهو يرتدى حلة مدنية . وكان الغرض من الزيارة هو مناقشة تقييم الطلاب لفرقتهم الدراسية وللأكاديمية بصورة عامة . وكما هو متوقع ، فقد أسهب الجميع في الاطراء ، الا ان الياس لم يكن مرتاحا لذلك . هل كان الطلاب يتوددون لرجل كان في موقع التفضل عليهم بمنحهم الدبلوم ؟ ورفع الياس يده طالبا الفرصة للحديث .

- بالطبع انا أوافق زملائي فيما قالوه عن امتياز هذه المؤسسة . فهي ليست مصدرا هائلا للمعرفة فحسب ، بل ويمكنها ان تساهم في اعداد المواطن ليلعب دورا ايجابيا في بناء هذه الامة . ولكن لدى سؤالان لا أوجههما نحو الاكاديمية وانما نحو الحكومة . اولاً ، لماذا يقتصر هذا المدخل الممتاز الى المعرفة على مؤسسة واحدة ؟ صحيح ان طلاب الاكاديمية ياتون من خلفيات مهنية مختلفة ومن دوائر الحكومة وانه من المتوقع ان يعودوا الى مواقعهم لتطبيق ما تعلموه هنا . ولكن مهما كانت الاعداد التي تقبل هنا ، فهي لا تزيد عن القطرة في المحيط ، وستظل جدواهم محدودة . ان حقيقة ما نفعله هنا هو تدريب القلة المختارة لتكون صفوة سطحية لا مكان لها في عالم الواقع خارج هذه المؤسسة ، وليس ذلك لعجزهم عن العطاء وانما لان ما يتعلمونه لا يتناسب مع من سيعملون معهم .

ومع ذلك ، فان النظر الى المعرفة كنظام شامل ومتداخل هو انعكاس للعالم الحقيقي ، سواء اكان ذلك من حيث الاداء الفعلي للحكومة او الحياة بصورة عامة . ان منهج الاكاديمية هو منهج يمكن تطبيقه في كل مؤسسات التعليم تقريبا ، من المدارس الاولية وحتى الجامعات . لماذا ننتظر حتى هذه المرحلة المتقدمة من العمر ، ثم نقصر هذا المنهج على مؤسسة واحدة اسمها اكااديمية منير . فان دل ذلك على شيء ، فانما يدل نجاح هذه الاكاديمية على فشل نظامنا التعليمي ، على الصعيدين الاكاديمي والمهني . لعل هذه عبرة وإشارة يسوقها المسئولون عن الاكاديمية الى القائمين على امر البلاد .

وسؤالى الثانى اكثر حساسية ولكنى اقول به بروح الولاء والتفانى لهذا البلد . انى اتساءل لماذا سميت هذه الاكاديمية باكااديمية منير ؟ مع كل الاحترام والتقدير للسيد رئيس الجمهورية ، فانى اعتقد ان التسمية توحي بانها مكان لخلق الولاء السياسى . فمع ان المدخل السياسى جزء معقول من المقررات الدراسية ، الا ان غسل الدماغ لاغراض سياسية لا مكان له فى الاكاديمية . لو جاز لى اختيار التسمية ، لسميتها اكااديمية السودان للدراسات القومية والاستراتيجية . ربما تفكر ادارة المؤسسة فى تقديم اقتراح للحكومة باتخاذ اسم يعكس محتوى الاكاديمية بدلا عن اسم ذى دلالات سياسية او اديولوجية .

قدم إلياس حجة متماسكة ، وكان واضحا من انتباه المستمعين ان ما يقوله يجد قبولا حسنا عندهم حتى نهاية الحديث حين ظهر انه قد دخل منطقة خطيرة . فالنظام السياسى القائم قد كان فى حكم الديكتاتورية . فيما ان النقد الذى قدمه الياس موجه ضد قائد البلاد ، فمهما كانت قيمة ما يقول ، فلا يمكن قبوله حسنا ، دع عنك الاقرار بذلك علنا . وظهر الحرج على العميد نمر . ربما يوافق إلياس فيما يقول ، لكنه لا يقدر على ان يغض الطرف عن أى نقد للحكومة ، وبخاصة اذا كان ذلك يوشك ان يلحق بقمة السلطة .

ومن ناحية أخرى فإن تأنيب ضابط شاب على حصافته لم يكن بالأمر الهين . وبدا على العميد نمر الارتباك والتردد وهو يردد على ما قاله إلياس بالثناء على اعترافه بالإطار الأوسع للعلوم التي تقدمها الأكاديمية ، لكنه واصل الحديث ليبدأ بين نفسه وأى نقد للحكومة فقال :
لا أعتقد أنه من المنطق والعدل أن ننتقد الحكومة على عمل الشيء الصحيح في مكان واحد وعدم تطبيق ذلك في كل مكان على الفور . إن الأكاديمية حديثة التكوين وقد بدأنا الآن فقط في رؤية ثمار تجربتنا ، فكيف يمكن القول بأنه يتحتم علينا أن نعلم أن الفكرة ستنتج بهذه الدرجة ونقدر ضرورة تطبيقها في كل مكان ؟ فعلى كل حال هذا هو مضمون المعرفة . عليك أن تجرب وتتعلم من التجربة ثم تجد بعد ذلك الطرق إلى تطبيق الدروس التي تعلمتها . لم يتسع الزمن لنعلم ما تعلمنا دع عنك أن نطبق الدرس في مكان آخر .

وكانما زادت جرأته بسبب قوة منطقته ، تصاعد غضب العميد نمر على إلياس وهو يواصل الحديث :

أما بالنسبة لانتقاداتك للتسمية فهذا أمر من أمور السياسة العليا لا مجال فيه لإظهار النظرة الأتانية . هل أنا في حاجة إلى تذكيرك أنك تتجاهل وبسذاجة حكمة كل الحكومة القومية . إنني أجد أن آراءك في ذلك ضرب من الوقاحة .

وبدلاً من أن يسلم إلياس بقول العميد ، فقد قرر التصدي لتفنيده ما قاله إذ شعر بالحافز السياسي لأن يعبر عن آرائه بوضوح وصراحة : رفع يده وهو يكاد ينتصب إلى قدميه وهو يقول بصوت مرتفع :

- معذرة يا سيدي ولكن على أن اعترض على معاملتك لملاحظاتي . إذا كانت هذه الطريقة التي تعامل بها القيادة شبابنا المتعلم فيجوز لي أن أقول أن هناك أساساً لما يشاع في الطرقات العامة من أن الثورة هي نظام ديكتاتوري . إنني أرجو مخلصاً أن ما رايناه الآن لا يعدو أن يكون موقفاً شخصياً لا يعكس رأى قيادتنا القومية وإلا فإن هذه البلاد في ورطة حقيقية . وبصراحة فإني لا أعبأ لما يحدث لي لأنني أت من مكان يربى فيه الشباب على التعبير عن وجهة نظرهم كرجال .

فاجأ غضب إلياس العميد نمر الذي أدرك أن تعليقه كان لاذعاً لكنه لم يتوقع مثل هذا الرد من أحد الطلاب . ومن الغريب أن غضب إلياس قد كان له أثر مهديء على العميد الذي تحدث بهدوء مغاير للحديث السابق :

- إذا جاز لي أن أقول كلمة أخيرة فإن أحد الدروس التي نامل أن نعلمها لطلاب هذه المؤسسة هو قيمة الحديث ومعرفة ما يقال ومتى يقال . أخي إلياس ، إن هذا هو كل ما أحتاج لأن أقوله لك في الوقت الحاضر . أرجو لكم كل توفيق عندما تعودون إلى مؤسساتكم . السلام عليكم .

ومع هذه الكلمات نهض العميد نمر وخرج من القاعة . ظل إلياس يشتعل من الغضب وهو لا يزال في حالة ارتباك . لم يكن في مقدوره أن يقول أي شيء في تهنئة الموقف من غير أن يمتن كرامته فانسحب في صمت للتفكير في الأمر . شعر أولئك الزملاء الذين كانوا يغارون من ظهوره شعوراً بأنه قد وجد ما يستحق ، وقد أخبره أحد زملائه الجنوبيين فيما بعد أنه أثناء مغادرتهم للقاعة سمع هو أحدهم يقول « لقد أوقعها العبد على نفسه » وأخبره ذلك الزميل بأنه قد شعر بالغضب الشديد ليس على من قال تلك العبارة فحسب إنما على إلياس أيضاً لما يبدو وكأنه على ثقة عمياء في العرب .

- لا أدري يا أخي ما هو الذي تراه في هؤلاء الناس مما يجعلك تنق فيهم . أقول لك أنى أوشكت على البكاء عندما سمعت ذلك الصوت وتذكرت معاملتك لهم .

ظل إلياس صامتاً وهو يتلقى ذلك القول إذ قدر أن زميله الجنوبي يخاطبه من القلب وبكل إخلاص . غير أن إلياس شعر بعدم الاحترام والدهشة لأن شخصاً غاضباً بهذه الدرجة لم يهتم بمعرفة هوية من قال ذلك وبمواجهته بصورة مباشرة ورأى إلياس بأنه شخصياً لم يكن ليستكت على تلك الإساءة التي أراد زميله الجنوبي بنقلها له أن يجعله يشعر بالإهانة ويصبح معادياً سياسياً للعرب .

فكر إلياس في الذهاب لمقابلة العميد نمر لمحاولة توضيح مقصده وإصلاح ذات البين إلا أن عزته منعه من عمل ذلك . لقد أفصح عن قناعته وهو لا يزال مؤمناً بما قال ولكن لعله قد أفرط في سوء الأدب مع الرجل . ولم يملك إلياس إلا أن يتساءل عن النتائج المحتملة لما حدث .

ولكن مضى الوقت ولم يحدث شيء وبدأ إلياس يستجمع توازنه ، لعلها كانت حادثة منسية .

وعندما ظهرت قائمة الطلاب المتخرجين لم يرد اسم إلياس فيها فأدرك ان السبب لا بد أن يكون هو ما حدث بينه وبين العميد نمر . ذهب إلياس فوراً إلى مكتب العميد طالباً موعداً لمقابلته ولكنه أفيد بأن العميد كان ، وإنه سيظل ، مشغولاً طوال اليوم ووعد السكرتير بأنه سيخاطبه فيما بعد بموعد للمقابلة . وظل إلياس منتظراً لأيام ، كما لم تجد طلباته الاستجابة . ووقتها أدرك أن هناك خللاً خطيراً .

قرر إلياس استشارة علي ، وقد كان وقتها في درجة اللواء ، وقد وعده بأن يتصل بالعميد نمر وطلب من إلياس الحضور الى مكتبه صباح اليوم التالي . وعندما وصل إلياس الى المكتب ، حياه اللواء علي ثم تناول الهاتف وهو يقول .

« دعنى أرى ما شان هؤلاء الناس »

وسأل علي عندما أجابه السكرتير : هل العميد موجود ، هذا هو اللواء علي . كان علي مرموقاً في الدوائر العسكرية حيث كان اسمه مفتاحاً للتعاون .

- « الو » ، أجاب العميد نمر في صوت عميق ، وتبادل الرجلان عبارات التحية المعهودة . وقد ظهر من الصمت الطويل وتحول الابتسامة بوجه علي الى نظرة عابسة ، ظهر ان التفسير الذى اعطاه اياه العميد نمر كان طويلاً وغير مقنع في أن معا .

- وهكذا ترى ان عليه الانتظار حتى يجيب الرئيس ؟

طرح على ذلك السؤال الذى كشف لإلياس عن حجم المشكلة . وكانت الإجابة بالإيجاب ..

- حسناً ، شكراً لك أيها العميد ومع السلامة .

استدار علي الى إلياس بوجه حزين وقال :

- لعلك قد استنتجت جلية الأمر ، فهو لم يفصح عن الكثير ولكنه قال ان هناك بعض المسائل المتعلقة بتخرجك لا تزال في موضع نظر رئيس الجمهورية .. وانه لا يقدر على الشرح أكثر من ذلك . إلا انه يتوقع ان يعلن الرئيس رايه في الأمر قريباً ، لذلك يقترح هو ان تنتظر .

سأل إلياس :

- اى امر يمكن ان يستوجب قرار رئيس الجمهورية ؟

فوضح علي بقوله :

- إنك تعلم حال هذا البلد . إن ما قلته لى كاف لأن يبني عليه شخص ما اتهاماً كاملاً ضدك . على كل حال ، دعنى أتحدث مع نائب رئيس الجمهورية ، الفريق خالد عبد المجيد . إنه رجل متفهم ، هل تعرفه ؟

أجاب إلياس : نعم ، فقد التقيت به لأول مرة عندما حضر إلى الأكاديمية لإلقاء محاضرة عن الاستراتيجية ، وأعتقد أنى قد أخبرتك بأنه كان يدرسنا فى الكلية الحربية مادة الدبلوماسية والاستخبارات العسكرية . إنه رجل حصيف .

كان الفريق خالد عبد المجيد يشغل منصب وزير الدفاع بجانب كونه نائباً لرئيس الجمهورية ، وقد كان معروفاً بالشجاعة الفائقة والأمانة ، وهو رجل أصغر سناً مما توخى به رتبته العسكرية وموقعه فى الحكومة ، وكان أول دفعته فى الكلية الحربية وتلقى الدراسة فى الأكاديميات العسكرية بالخارج ، وقد تلقى عدداً من الترقيات الاستثنائية حملته وبسرعة إلى القمة . وهو رجل يجمع بين التأهيل العسكرى والولاء لضباطه وجنوده . كما أنه كان رجلاً مهذباً يبدو مؤمناً بأنه على القيادة احترام من يقودون بقدر ما يجدون هم من احترام .

وفى حالته هو شخصياً يدعم كل شق من المعادلة الشق الآخر حيث يجد هو أعلى الاحترام للاحترام الذى يحمله هو لمن هو تحت أمرته .

وكما هو الحال مع الطلاب الأذكى ، فقد شعر الفريق خالد بود ودعم خاصين تجاه إلياس ، إذ استمتع دائماً بمشاركته فى المحاضرات . لذلك ، عندما عرض عليه على قضية إلياس وطلب منه مقابلة الضابط الشاب ، تم تحديد الموعد فوراً . وسعد إلياس بالمقابلة الحارة التى لقيه بها الفريق وأدرك أن حالته لا يمكن أن تكون مئوساً منها للدرجة التى ظهرت بادية الأمر .

وبعد فترة قصيرة للتحية ، دخل خالد لأصل الموضوع إذ قدر أن إلياس قد حضر لمقابلته فى مشكلة خطيرة . فتح الفريق الموضوع بقوله :

- انى سعيد بلقائك ولكنى أعلم أنك قد حضرت لغرض ما ، فما هو ؟
عرض إلياس تفاصيل المسألة بينما ظل خالد يستمع فى انتباه عميق وبلا مقاطعة ، وعندما فرغ إلياس لم يزد خالد على القول :

- لا شك أنك تقدر بانى لا أملك أن أقول شيئاً قبل أن أتحصل على المعلومات الكاملة عن الموقف . وبمجرد أن أعرف ما يجرى ، سأتصل بك . ولكن تبنى بأسى لتحقق العدالة إذا كان هناك أى ظلم . ومن الناحية الأخرى ، إذا أظهرت الوقائع أن هناك تفسيراً آخر لما حدث لا تعلمه أنت ، فسوف أفيدك بذلك .

انتظر إلياس لفترة أسبوع بدأ وكأنه شهر كامل ، وكلما مضى يوم وساعة تناقصت آمال إلياس الذى تساءل عما إذا كان عليه معاودة الفريق خالد ولكنه صرف النظر عن ذلك . فلو يبادر إلياس مرة أخرى ، فإن ذلك يدل على قلق مفرط فحسب وإنما على نقص فى ثقته فى الفريق أيضاً . وعلى كل حال ، فإذا كان عند الفريق خبر خير لسمع منه إلياس على التحقيق .

كاد الياس أن يرضى بسوء طالعهِ عندما بلغته رسالة من سكرتير العميد نمر تفيدهُ بأن العميد يرغب في مقابلته . وعندما وصل إلى المكتب ، وجد العميد في مزاج ودي مفتعل بصورة واضحة .

وقف العميد محيياً بصوت عال .
- اهلا .. اهلا .

وصافح الياس الذي جلس بعد ذلك عبر منضدة مكتب العميد . بدأ العميد بالقول :
- اعتذر عن عدم تمكني من مقابلتك قبل الآن ، إلا اني كنت في غاية المشغولية .
اظنك قد اسأت فهم عجزى عن الرد على تساؤلاتك بأنه نوع من التشاغل والانصراف عن امرك .

شرع الياس في الحديث بقوله :
في الحقيقة .

- ولكن العميد قاطعه قائلاً : لا ، لا داعي للشرح ، فاني اقدر تماماً ان اني كنت ساستخلص نفس الشيء في ظروف مشابهة . على كل حال ، لا تنزعج للامر .
وابتسم العميد نمر بحرارة أكبر وهو يعلن وكأنه قد حل لتوه معضلة عويصة :
ساكون صريحاً معك يا إلياس كل الصراحة ، وارجو ان تقدر انت موقفي . بعد لقائنا الذي تحدثت ان فيه عن الاكاديمية وواجب الحكومة ان تطبق نفس الفكرة في المؤسسات التعليمية الأخرى ، حدث ما كنت أخشاه ان التقط بعضهم قولك ورفعوه الى رئيس الجمهورية . ومن العدل له ان اذكر أنه قد استدعاني لمناقشة الأمر . وكان همه الاول ليس هو ان هناك شيئاً ضاراً او حتى خطأ فيما قلت ، وانما كان همه النظر في كيفية تعاوننا معك للبحث اكثر حول افكارك وامكانية تطويرها لتكون سياسة الحكومة . لهذا السبب نصح رئيس الجمهورية بتأجيل موعد تخرجك الى موعد لاحق .

وبعد ان تحدثت ان مع نائب رئيس الجمهورية ، يبدو انه قد ذهب لنقاش الامر مع رئيس الجمهورية واتفقا على خطة أخرى . سيتم تخرجك والحاكك بمكتب نائب رئيس الجمهورية ، وهو مكتب وزير الدفاع برئاسة القوات المسلحة . وهو يرغب في ان تتعاون انت عن كذب مع شعبة الاستخبارات العسكرية حيث يأمل في العمل معك على صياغة وتنمية الافكار التي عجزت عنها هنا .

ويسعدني كثيراً ان أخطرك الآن بانك لم تتخرج فحسب ، وانما كنت من احسن الطلاب في دفعتك . تهانى الحارة لك ..

غمز إلياس الشعور بالامتنان والتقدير لمن حركوا عجلة العدالة لدرجة أعجزته عن التعبير . فقد علم ان الفريق خالد كان هو المحرك الاساسى وان لم يفعل العميد نمر شيئاً . وأدرك الياس ان السودان هو بلد المساواة العميقة الجذور وان أى قائد لا يمكن ان يتجاهل أى فرد ، مهما كان صغير الشأن ، إذ ان يومه في الرد على التجاهل قد يجيء . لذلك ، وبجانب عمله في تنفيذ تعليمات رؤسائه الذين يحرص على عدم معاداتهم ، فقد أراد العميد نمر ان يصلح علاقته بالياس ، خصوصاً لأنه قد اقترب الآن من مركز السلطة السياسية .

ورغم ان أسماء المتخرجين قد سبق نشرها ، الا ان التعديل في حالة إلياس قد تم قبل

وقت كاف لإلحاقه بزملائه وحضوره حفل التخرية معهم . وقد حضر المناسبة الرئيس منير الذى قدم الجوائز لأفضل الطلاب . وعند تلقى إلياس لجائزته ، علق الرئيس مداعبا :

- كان يجب منحك جائزة التقدم الى مركز اصابة الهدف بعد ان كدت ان تخطئه . وكما توقع إلياس ، فقد استمتع كثيرا بمهمته مع خالد عبد المجيد . فمن خلال مكتب نائب رئيس الجمهورية ، تحصل إلياس على رؤية عميقة لطريقة عمل نظام الحكم ، ولم تكن مصادره فى ذلك مجرد الاوراق التى تمر على مكتبه ، وانما اشتملت ايضا على الناس الذين حرصوا على تقديم المعلومات كجزء من محاولاتهم الخفية احيانا والمفضوحة احيانا اخرى فى التأثير على القرارات على مستوى نائب رئيس الجمهورية .

وخلال صلاته بالاستخبارات العسكرية تفهم إلياس ايضا الوضع الجغرافى السياسى للبلاد والمصادر المحتملة لعدم الاستقرار من خارج الحدود مع جيران البلاد الثمانية . استمرت الحدود الاثيوبية كمشكلة ومصدر تدفق غزير للاجئين ، كما كانت يوغندا وزائير مناطق تازم ومصادر للاجئين . اما الفتنة فى تشاد فقد فاضت عبر الحدود السودانية بينما تارجح ميزان القوى فى ذلك البلد من جهة الى اخرى . وكانت هناك ايضا ليبيا على الحدود الشمالية الغربية ، وهى تتربص بكل فرصة لتتدخل فى الامور . وقد سبق ان غزت قوى المعارضة البلاد من ليبيا قبل سنوات قلائل ، وذلك بتهريب اعداد كبيرة من السلاح والذخائر وترجيلها خفية الى المدن . وبعد ان وضعوا انفسهم فى مواقع استراتيجية فى كل انحاء العاصمة المثلثة ، انتظروا ساعة الصفر لشن هجوم شرس تمكن النظام الحاكم من رده ولكن بتكلفة باهظة فى العتاد والانفس . ومع ان المصالحة التى تمت بعد ذلك مع قوى المعارضة قد حسنت من الموقف الامنى فى تلك الجبهة ، الا ان العداء ظل مستحكما وحادا بين الزعيم الليبى والرئيس جابر المنير .

ومع كل مصادر المشاكل المحيطة بوجوده وبحدوده الدولية الطويلة التى يستحيل التحكم فيها ، فقد بدا السودان وكأنه جزيرة تحيط بها المياه الصاخبة التى تهدد بانتهاك كل حد من حدودها . الا ان الجبهة المصرية كانت هادئة نسبيا ، وقد جمع بين البلدين تعاون قريب سماه البعض تكاملا بينما وصفه آخرون بانه توحيد كامل . وحتى من تلك الناحية ، فقد حفز دعم السودان لاتفاقية كامب ديفيد بين مصر واسرائيل ، حفز ذلك بعض المشتطين فى العالم العربى الى التباعد بينهم وبين السودان الفقير والمحتاج لدعمهم المادى ، وبخاصة فى المجال الحيوى للطاقة . وقد ذهب بعضهم لدرجة النظر بعين الرضا الى أى ضعف داخلى قد يؤدى الى سقوط النظام الحاكم فى السودان .

وقد كانت البلاد حقا فى حالة ضعف داخلى . فقد بدأت اتفاقية الصلح التى منحت الجنوب الحكم الذاتى الاقليمى وانتهت الحرب الاهلية التى دامت سبع عشرة سنة ، بدأت الاتفاقية فى التهاك عندما تناحر الزعماء الإقليميون فيما بينهم وسقطوا صيدا سهلا للاستغلال على المستوى القومى . وبينما حافظت اتفاقية السلام على توازنها الدقيق ، اخذت اقاليم اخرى فى الشمال فى تأكيد ذاتيتها المحلية

والمطالبة باستقلال اقليمي شبيه بالذى حصل عليه الجنوب عن طريق الحرب . وقد ابرزت الاقاليم الغربية ، ودارفور بخاصة ، ابرزت تحديا قويا ضد مركزية السلطة . وعلاوة على ذلك ، فقد تصاعدت الحروب القبلية ، وتكررت الصدمات العنيفة بين القبائل العربية وغير العربية في الغرب والجنوب الغربي ، حيث فقد المئات من الناس حياتهم ، ونهبت الالاف من الماشية والقطعان الاخرى ، كما اختطفت النساء والاطفال وتعرضوا لعدد من انواع المهانة والاذلال .

مضى الوقت سريعا وقد تابعت الانباء على الرئاسة بوقوع الواحد تلو الآخر من احداث عدم الاستقرار الذى تمر به البلاد . وبالنسبة لالياس ، ورغم مأساة الاحداث اليومية ، فقد كان هناك جانب ايجابى في الطريقة التى اتسعت بها رؤيته لتشمل البلاد كلها . وكان ذلك لدرجة نبهته الى الابعاد القومية للمشاكل التى كان يفترض فيما مضى انها خاصة بالجنوب . فقد اخذ يفهم أكثر كيف ان ما عانى منه الجنوب قد اثر على الغرب والشرق وربما اجزاء من الشمال أيضا . تلك هى أعراض بلوغ الأمة لسن الرشد واكتشافها لنفسها . وشعر الياس بأنه يتعلم الكثير عن بلد اختار ان يدافع عنها ، حتى بحياته لو دعا الحال .

بدات كراهيته للعرب تلين . فما كان يكرهه ليس العرب كجنس وانما هو تحيزاتهم وعدم عدالتهم ضد غير العرب ، وبخاصة أهل الجنوب والغرب . وحتى في ذلك المجال ، فقد أدرك أن هناك استثناءات ، اذ اكتشف أفرادا من الشماليين هم نماذج ممتازة للبشر بكل المقاييس . كيف يصنف اشخاصا مثل على والفريق خالد اذا واصل هو كراهيته المطلقة لكل العرب وتحيزاتهم وعدم عدالتهم . بل ولاحظ الياس أن هناك نمطا منتظما للفضيلة بين ذوى الكفاءة ، بينما ينتعش وينمو على ثمار التحيز والظلم الجماعى من تتملكهم حالة عميقة من انعدام الثقة في النفس والعجز الذاتى وكأنهم يجدون في ذلك التحيز والظلم مصلحتهم الانانية الخاصة . وفضل الياس أن يصاحب ويلتصق بالأفراد الفضلاء الذين رأى فيهم فرص الزعامة والمسئولية عن تشكيل مصير الأمة .

كان الياس يتفكر في تلك المسائل عندما وضع على مكتبه ملف يحمل الانباء المفجعة لمعارك قبلية جديدة بين الرزيقات من جنوبى دارفور والدينكا من شمالى بحر الغزال . اكتفت التقارير من دارفور بالافادة بفقد الأرواح ونهب الماشية من الجانبين . وازافت بأن قوات الأمن قد أعادت حالة الأمن وتمكنت من التحكم في الموقف . الا أن التقارير من بحر الغزال كانت أكثر تفصيلا حيث قالت أن المعارك قد نجمت عن تصعيد لاحداث صغرى بين أفراد من الدينكا والعرب . أساء أحد العرب الى الدينكا بأن وصفهم بأنهم عبيد فضربوه حتى مات . وكننتيجة لذلك ، تربص العرب ببعض شباب الدينكا وعذبوهم ثم قتلوهم . وبعد ذلك بتروا أذرعهم واستخدموها في ضرب طبولهم . وعندما رد الدينكا الهجوم ، واجهتهم قوات من الأمن المخلوطة بما يسمى « العرب المرحلين » ، وهم مليشيات من القبائل العربية المسلحة ، وقد اطلقت تلك القوات النار وقتلت العديد من الناس . وعندما هرب الدينكا ، سمحت قوات الأمن للقبائل العربية بأن تأخذ قطعانهم .

طلب من الياس اعداد تقرير للوزير وإضافة ما يراه من تعليق . وكانت المهمة صعبة بطبيعة الحال اذ ان الأمر يتعلق بصراع بين أهله هو والعرب . الا ان

الياس وجد في ذلك أيضا فرصة لظهار رؤيته القومية العريضة وليطمئن امثال الفريق خالد ان استثمارهم فيه كان خدمة للامة كلها . صمم الياس ان يحتفظ باتزانه وموضوعيته في تحليل المعلومات المتوفرة لديه من التقارير المحددة المعروضة عليه ومن مصادر اخرى .

كتب الياس في مذكرته عن الموقف :

- ما يطالع المرء من اختلاف طريقة رواية الاحداث من اقليمي بحر الغزال ودارفور هو ان الصراعات القبلية تضع عبئا ثقيلا على قوات أمننا في تلك المناطق . فمن المفترض ان يكون الجيش قوميا ووظيفتنا هي الدفاع عن الوطن ضد التهديد الخارجي . علينا الدفاع عن كل بوصة من أرض بلادنا وعن حياة كل سوداني ضد العدوان الخارجي . الا ان الجنود معرضون للضعف البشري ولا يتسامون دائما عن المشاكل المحلية . بل على العكس من ذلك ، فكثيرا ما يجندون من نفس المجتمعات المحلية المتناحرة والتي يطالبهم واجبهم بالتسامي عن عداوتها المتبادلة . فعندما تكون الامة مقسمة الى قبائل واجناس او ديانات متعددة ومشبكة في حروب داخلية ، فان القوات العسكرية تواجه بخيار صعب . فمن ناحية ، عليهم ان يكونوا فوق الخلافات وان يقاتلوا لحفظ الامن والنظام بصورة محايدة . ومن الناحية الاخرى ، فهم يشاركون في مشاعر وولاءات مجتمعاتهم التي لا يملكون فككا منها . ينجح الكثيرون في الصعود الى مستوى التحدى بالمحافظة على كيان الجيش ، ولكنى اتصور ان عددا مشابها يهبط دون ذلك المستوى النموذجي . ان اكبر التحديات التي ستظل تواجه قادة هذه الامة لبعض الوقت هي ، في اعتقادي ، كيفية التسامي عن عوامل الفرقة والعمل لمصلحة الشعب السوداني ككل . دون تحيز على اساس القبيلة او الجنس او الدين . ومجال الاختبار لهذا النوع من القيادة في الوقت الراهن هو الجيش لانه إحدى المؤسسات التي تفخر بقومية فلسفتها وتكوينها وطريقة ادائها .

بعبارة اخرى ، على ما يبدو لي ، فمع ان الجيش قومي ، فإن تحدى الانقسامات الداخلية من حيث القبيلة والجنس او الدين تظهر وكأنها امر مسلم به لدرجة انه لا يواجه بصراحة او وعي في الكلية الحربية او على مستوى التدريب في موقع العمل . إنني اعتقد انه في بلد شاسع ومتنوع مثل السودان ، فيه العديد من القبائل المحاربة التي تركز القيم العسكرية في شبابها منذ الصغر ، لابد من اعطاء هذا البعد اهتماما خاصا في اعداد جيشنا لمواجهة التهديد الداخلي لأمننا ووحدتنا وبناء قوميتنا »

وبعد يومين من تقديم تقريره ، استدعى الوزير إلياس الذي شعر بضربات قلبه : هل تورط في مشكلة جديدة بسبب الآراء التي عبر عنها .

ومع ذلك ، فلقد أحس بالثقة من أنه قد عبر عن قناعته التامة ، إلا أنه تساءل : هل تم نقاش هذا التقرير في الكلية الحربية أيضاً وهل سيجد النقد لآرائه ؟ إلا أنه شعر بالراحة الفورية من الترحيب الحار الذي لقيه به الوزير عندما دخل عليه في مكتبه :

قال له خالد وهو يشير إلى أحد المقعدين أمام منضدة مكتبه الفاخر : تعال واجلس .

- لقد قرأت تقريرك . من المؤكد انك قدمت تعليقا جريئا حول ردنا على هذه المعضلة المزمنة في امر الحروب القبلية ، وعلى عموم الحال فاني اتفق مع تحليلك ولكن كيفية معالجة المشكلة على مستوى وضع المناهج للكلية الحربية او التدريب الميداني للضباط والجنود امر آخر . وقد دعوتك لان قراءة تقريرك قد اوحى الى بفكرة رايت ان اعرضها عليك لارى مدى استعدادك لها :

انت رجل شاب ، وبحكم ادائك حتى الان فلك مستقبل جيد في قيادة هذا البلد ، لا اقول هذا بسبيل الاطراء الفارغ وانما لا واجهك بتحديد ، لقد خطر لي انه ربما ينبغي ان تخدم انت في مواقف تعرضك للمشاكل التي احسنت وصفها وتعينك على توسيع فهمك لتلك المشاكل وتطوير منهج لمعالجتها بطريقة خلاقة ومفيدة في ان معاً ، لذلك اُتُرح عليك مهمة في دارفور تقضى الجمع بين واجباتك العسكرية ومسئولياتك في البحث والاستخبارات . أريد أن تراقب عن كثب كيف تتعامل قوات أمننا مع الصراعات المحلية وكيف تتداخل تلك المشاكل مع مسائل الحدود التي تواجه الأمة . هل ترغب في ذلك ؟

أجاب إلياس بدهشة ممزوجة بالسعادة . لأقصى درجة ياسيدى . يبدو ذلك العمل في غاية التشويق لي .
علق الوزير بقوله :

- حسناً إذن ، عليك متابعة مهامك بصورة عادية على أن تطلعني على ملاحظاتك وتحليلاتك عن هذا الأمر بصفة خاصة وذلك عن طريق تقارير توجه إلى شخصياً من وقت لآخر . إنى أقدر أن مهامك المعتادة قد تقضى جهداً لا يسمح لك بأداء هذه المهمة الأخرى ولكن لا تنزعج لذلك . فأى وقت تتمكن من تخصيصه لهذا الجانب سيكون كافياً ، ولكن تذكر أن هذه المهمة خاصة وهي جديدة تماماً ولا داعي لأن أقول لك بضرورة الكتمان والتحوط في أداء هذه المهمة .

- إنك في غاية اللطف ياسيدى ، وإنى شديد التقدير للثقة التي تضعها في شخصي .
أجاب الوزير بقوله :

- إنك جدير بذلك ، وبالمناسبة ، عندما تذهب أقترح أن تسافر إلى الغرب براً لأن ذلك سيعطيك فرصة للاسترخاء والتأمل كما يمكنك بطريقة عملية من التعرف على طبيعة البلاد التي ستعمل فيها .

قال إلياس موافقاً « حسناً ياسيدى » وقد قرر بحصافة أن يحتفظ بأمر تكليفه الجديد سرّاً لنفسه . إذا أراد الوزير أن يقول شيئاً لشخص ما فذلك أمر يعنيه هو . وفي الوقت المناسب ظهرت قائمة التنقلات ، وكما توقع إلياس ، فقد تم نقله إلى الفاشر .

الجزء الرابع

(الخدمة)

الفصل الثالث عشر

وخلال أيام من استلامه لمهمته ، ركب إلياس القطار متجهاً إلى نبالا حيث يواصل رحلته في الشاحنات العسكرية . وبمعاونة أصدقائه وزملائه ، أخذ إلياس أمتعته وشق طريقه وسط الزحام في محطة القطار متجهاً إلى مركبات الدرجة الأولى . وهناك أخذوا يبحثون عن اسمه بين قوائم الركاب المعلقة على الأبواب . كان قد حجز لنفسك مكاناً في إحدى المقصورات يشاركه فيها ثلاثة ركاب آخرون .

وبين الركاب في مقصورته كان هناك رجل يبدو في أواخر العشرينات من العمر ، داكن السحنة وقد ارتدى حلة صيفية . وقد ظهر لـإلياس منذ الوهلة الأولى أن الرجل كان متشوقاً للحديث معه . وما كادا يجلسان حتى ابتدر الرجل الحديث باللغة العربية بلكنة كشفت أنها لم تكن لسان أمه ، واستنتج إلياس أن يكون الرجل من إحدى القبائل غير العربية في غرب السودان .

تسائل رفيق السفر :

- أين تذهب أنت ؟

- الفاشر

- هل تزور أقاربك هناك أم أنت ذاهب للعمل ..

- اني ذاهب للعمل في موقع جديد .

- موقع جديد ؟

كرر الرجل العبارة ثم تسائل :

- وأين كنت من قبل ؟

- كنت في الرئاسة حيث وضعت بعد تخرجي من الكلية الحربية . ليس ذلك بالقول الدقيق الصحة ، إذ اني قد ذهبت أولاً الى أكاديمية منير .

في أنك من الجنوب ؟

باللياس بالايجاب .

مصدق القول بانك يمكن أن تكون من الغرب .

وهل أنت من الغرب ؟ ..

- نعم على التأكيد بالمناسبة ، أنا اسمي عثمان جار النبي وأنا تاجر .

- اسمي الياس بول ملك . من أى جزء من دارفور أنت ؟

- من الفاشر و أتاجر بين الفاشر والابيض وأمدرمان ..

وسأله الياس :

- وما هى تجارتك ؟

- انى أبيع كل ما يخطر ببالك ، وقد أشتري ذلك أيضا .

رد عثمان وهو يضحك بصوت خافت .

وكان فى الطريقة التى ضحك بها ما يوحي بأن فى تجارته شيئا مريباً نوعاً ما . ويبدو

أن نفس الخاطرة قد راودت كل من فى المقصورة : هل يعمل عثمان فى تجارة غير

مشروعة ، ربما فى العاج او بضائع اخرى ممنوعة ؟ ولكن يبدو أن عثمان قد اطلع على

خواطرم ، فأضاف :

- بحق ، فانى أتاجر فى الصمغ العربى . الماشية . الفول والجلود . كما ترى . فذلك

جمع من الاشياء . ولكن اغلب عملى فى الماشية والصمغ العربى . وإن كان الزحف

الصحراوى قد اثر على انتاج الصمغ .

أخذ المسافرين الأخران يتحدثان مع بعضهما البعض . تاركين إلياس و عثمان وحدهما

بعض الوقت . وعندما انضمما اليهما ، قدم الأخران نفسيهما . فكان أحدهما مدير مدرسة

متوسطة فى الدلنج بينما كان الآخر يعمل مهندسا مع شركة شفرول للبتروى فى المجلد .

وكلا الموقعين فى جنوب كردفان . ومع تنوع اعمالهم . كان لكل منهم ما يشارك به فى

الحديث مع تقدم المساء .

وكانه قد وزن الجماعة وقدر انه يستطيع الاسترخاء بينهم . أخرج عثمان زجاجة من

الوسكى من نوع « جوى واكر لابل » واقترح أن الوقت قد أن لتناول بعض الشراب قبل

أن يناديهم الفراشون الى عربة الطعام للعشاء . ورفع الزجاجة وكأنه يعرض على رفاقه ما

يقدمه لهم ، علق عثمان بقوله :

- هل تصدقون أن الرجل الذى ترون صورته على هذه الزجاجة قد ولد خلال اعوام

١٨٨٠ - ١٨٩٠ ولا يزال صحيحا ومعافى لانه يشرب هذا المشروب ؟ .

وتسأل مدير المدرسة فى سذاجة :

- بالله العظيم

- لقد تمكنت من خداعك .

علق عثمان مداعبا بصورة استهوت الآخرين الذين أدركوا الدعابة فى اعلان

الوسكى .

- سأتناول الجرعة الاولى ليس لانى انانى ، وأنا حقا انانى ، وانما لأثبت لكم أن المشروب

غير سام .

وضحك رفاقه بينما تجرع هو الجرعة الاولى بمتعة ظاهرة ومعها أصدر صوت « آيه »

ثم اضاف :

- لا عجب ان ربنا قد حرمها ، فهي في غاية الامتاع . اعتقد ان عندي كوبين .
قال عثمان ذلك وهو يبحث في حقيقته وينتظر الرد من الآخرين . فرد عليه المهندس .
- سأشاركك انا مع جزيل الشكر .

صب له عثمان في الكوب ثم صب في كوب آخر وناوله الى مدير المدرسة الذي قال في
تأدب :

- لازم يعنى (هل لابد من ذلك) ؟ .

- هيا يا استاذ ، لا تكن غامضا وإلا حصلت على مشروب من نوع « هيق » بدلا من نوع
« جوني واكر » ، وبذلك كان عثمان يستدعي عبارة إعلان كانت معلقة في وسط الخرطوم
باللغة الانجليزية وتقول : « نونت بي فيق ، أسك فور هيق (وهي تعنى لا تكن غامضا وأسأل
عن نوع هيق) .

أدرك المهندس النكتة فضحك . وبعد أن شرح النكتة لمدير المدرسة . أضاف عثمان
قائلا :

- يا استاذ ، امامنا طريق طويل وأؤكد لك ان هذا المشروب سيجعله أقصر . هذا
بالاضافة الى اننا نحتاج للمعلمين في الجحيم أيضا .
وضحك الجميع بينما استسلم المدير قائلا -

- مادمت تصر على أن أشرب

- انى أصر بكل تأكيد .

اضاف عثمان بالرد المتوقع وهو يصب المشروب .

وجاء دور إلياس حين أعلن عثمان وهو يصب له ويناوله الكوب .
- وأخيرا وليس آخريا أخى الضابط . لقد جاء دورك في النهاية بحكم السن وليس بحكم
الوظيفة .

قال الياس :

- لك الشكر ولكنى لا أشرب ، ولكن ليس لأن الرب قد حرم ذلك .
- لعلك لا تشرب لاعتبارات اللياقة

علق عثمان باعتراض خفى . أدرك الياس سبب حساسية عثمان فرد عليه بقوله :
- لقد أخذت نصيبي في الطفولة اذ اننا نشرب المريسة (الجعة) بحرية تامة . ولكن كلما
كبرت بي السن قل ميلى للشراب . ولكنى أؤكد لك بأنى لا أعترض على استمتاع الناس
بأنفسهم .

تجرع عثمان الخمر وهو يتنفس بعمق ويبدو وكأنه يتعمد اطلاق نفسه وباستعجال .
ولم يكن ذلك بصورة مزعجة وانما كان طرفا من الشخصية المنبسطة التى اظهرها من
قبل .

قال عثمان في مزاجه الجديد :

- حسنا أيها الضابط ، لا أدري ما اذا كنت انا اهلا للوصف بالاعتدال ، ولكنى قد ضقت
ذراعا بهؤلاء الرجال الذين يدعون القداسة . ويأتون الى الغرب للوعظ ضد الخمر ، بينما
يرتكبون جرائم اشد فظاعة ضد الانسانية . وكأنهم يظنون أن في مقدورهم خداع الله
تعالى بأنهم أبرياء ، بل وفضلاء ، لأنهم لا يشربون الخمر . انى أؤكد لك أنهم من
الاشياء التى تدفعنى الى الشرب .

قال إلياس وكأنه يدعو عثمان الى التبسط معه :
- حسنا ، كما ذكرت أنا بدلا من تحريم المريسة ، فمن وجهة نظرنا ، ان الله والاسلاف يتوقعون ان نكرمهم بها في المناسبات الخاصة ، وفي جميع الاحوال دائما ما يجدون نصيبهم من الخمر المسكوب في اى احتفال بشرب المريسة . عليك أولا صب بعض الخمر على الارض قبل ان تشرب أنت .
علق عثمان بقوله :

- هذا هو الدين الذى اجده جديرا بولائى . ماذا تسمى دين قومك ؟

قال إلياس موضحاً : ليس له اسم معين ، إنه جزء من منهج متكامل للحياة ويلمس كل أنحاء لمعيشة تقريباً . إن السؤال عن اسم ديننا مثل سؤال الناس عن اسم ثقافتهم . إن الثقافة هي الناس وكذلك معتقداتهم وممارساتهم الدينية .
قال عثمان :

- يبدو هذا مقنعاً مادام لم يأت من يدعى أنه المتحدث باسم الله ليخبرنى بما ينبغى أن تكون عليه الثقافة بدلا عما هي عليه فعلا . فغالبا بينما يظهر أولئك الناس وكأنهم المتحدثون باسم الله ، انما يمتصون دماء الابرياء ويقتلونهم بالاستغلال .
ثم استدار عثمان تجاه الجماعة كلها وواصل الحديث « أسألكم باسم الله ، هل يمكن لاي منكم ايها الرجال الشرفاء ان يخبرنى من اين يكسب رزقهم أولئك الاشخاص المتعاضمون الذين تقود أسرهم الطوائف الدينية ؟ دعونا نعود الى التاريخ : هل يمكنكم ان تخبرونى عن مصدر كسب آبائهم وجدودهم ؟ انى اقول لكم أنهم قد سخروا الجماهير الفقيرة الجاهلة لفلانة الارض من أجلهم من خلال الاعتقاد الخرافى بأنهم سيباركونهم ويضمنون لهم الجنة بعد الموت . هذا اذا لم يستخرجوا المساهمات من الفقراء الذين لا يقدرون على دفعها ، ولكنها تكسب لتجعل من أسيادهم مليونيرات قبل ان تعرف لغتنا ذلك الرقم في الحساب . فكما تعلمون لا توجد عندنا الكلمة لهذا الرقم ، ولا حتى في اللغة العربية ، وانما نستخدم الكلمة الانجليزية لذلك » .

ظهر ان رفاق عثمان يستمتعون بطرافته وإن كانوا يدركون انه قد بدا يسكر .
اتجه عثمان تجاه مدير المدرسة مخاطبا اياه بلقب « شيخ » وهو لقب ذو دلالات روحية توقيرية :

- ايها الشيخ ، اجبنى فأنت رجل علم والعلم يجلب الحكمة التى يخفيها الله . من الذى ينبغى أن يذهب الى الجحيم ، الرجل الذى يشرب الخمر وقد يسكر لكنه لا يؤذى احدا أم أولئك الذين يستغلون الجماهير الجاهلة ويجعلونهم عبيدا لهم .

اجاب مدير المدرسة في تفاد مهذب : انى أفهم ما تعنى

- كان ينبغى أن أعلم بأنك أكثر تهذيباً من أن تعطينى إجابة صريحة « قال عثمان ذلك فى دعابة قدرها الجميع ، بما فيها المدير ، فضحكوا .

ثم استدار تجاه الياس وقال :

- أخى الضابط .

ثم توقف وتساءل : هلا أعدت لى اسمك مرة أخرى »

- الياس

- نعم بالطبع ، أنت أحسن اسلاما منى ، مع انك جنوبى . دعنى احصل على رأيك فى هذا الامر .

افاده الياس بقوله :

- ولكنى لست مسلما وانما انا مسيحي .

فعلق عثمان بقوله :

- بالله ؟ وماذا يفعل مسيحي باسم مسلم ؟

قال إلياس موضحاً : ولكن إلياس اسم مسيحي ايضا .

. لقد علمت منذ أن رأيتك أنك شخص ذكى . تصور ، احتفاظك بعقيدتك المسيحية وباسم يجعل الاغلبية المسلمة تعتقد أنك مسلم . إن هذا فى غاية البراعة .

- لم يكن الأمر مقصوداً بهذه الصورة . قال ذلك إلياس بينما ضحك هو والآخرين .

- دع عنك ما إذا كان الأمر مقصوداً ، إن النتيجة هى التى تهتم .. وذلك بحق فى غاية البراعة .

وفى ذلك الوقت ، بدأ عثمان وكأنه قد نسى سؤاله الاساسى . وبدلاً عن السؤال ، وكأنه قد استقصى الأمر ، اقترح عثمان أنه قد أن اوان الطعام .

- انا دائماً اكل عندما اشرب . يقولون أن الخمر يحب اللحم وعندما لا يجد لحماً فى الامعاء ، فانه يشرع فى اكل الامعاء نفسها . ووقتها تؤدى الخمر حقاً الى الجحيم . ووافقوا جميعاً على الاكل ، ولكن بدلاً من الذهاب الى عربة الطعام ، قرروا طلب احضار طعامهم الى المقصورة . ومرة اخرى كان عثمان هو الذى نهض للتفاوض مع الفراشين وعاد منتصراً .

- صحيح أن المال لا يشتري كل شيء لكنه يحقق الكثير .

كان الفراش فى غاية التعاون إذ احضر طعامهم ثم قام بنظافة المقصورة بعد أن فرغوا من الاكل . ووقتها عدل مدير المدرسة والمهندس من مقعديهما استعداداً للنوم . وسرعان ما كشف شخيرهما عن نومهما العميق .

فكر الياس ايضا فى النوم عندما فتح عثمان معه موضوعاً جديداً حين قال :

- أخى ...

ثم أدرك أنه قد نسى الاسم مرة أخرى فأعانه الياس بقوله : إلياس .

- أخى إلياس . إنك موال للنظام الحاكم . لا بد أن تكون كذلك ، فأنت فى نهاية الأمر ضابط

فى الجيش . لذلك لا بد أن تكون موالياً للنظام . اليس هذا صحيحاً ؟

لم يجب الياس بكلمات ، وانما بابتسامة توحى بالسعة المهذبة ، ولكن لم ينصرف

عثمان عن الأمر بهذه السهولة فكرر القول .

- هل أنا على صواب ؟

إلا انه لم ينتظر الاجابة هذه المرة فواصل الحديث :

- حسناً ، دعنى أخبرك بحقيقة الامر : أنا لا ابالى بما يحدث لى ، واعتقد بضرورة قول

الحق . وإذا قتلنى قول الحق فسيفى اطفالى ليفخروا باسمى .

وكانه بذلك قد اثبت مؤهلاته . واصل عثمان الحديث :

- ان الناس لا يعدلون فى أمر منير هذا . فمن يشيد به ومن يدينه ، كلاهما محق وغير

محق . للرجل فضائله ونقاط ضعفه . هل يمكن أن تنكر الفضيلة الكبرى التي أظهرها بمنح الجنوب الحكم الذاتي؟ أقسم بالطلاق بأن التسوية مع الجنوب هي أكبر منجزاته .

ولكن خطاه هو الاعتقاد بأن الجنوب هو الجزء الوحيد من البلاد الذي يستحق الحكم الاقليمي . وما السبب الذي قدمه لذلك؟ لقد قال بأن الجنوب يتميز عرقيا وثقافيا عن الشمال . أقسم بالله أن الرجل يعتقد بأن باقى أنحاء القطر ، الغرب والشرق والشمال ، كلها عربية . ما هو مدى جهل الشخص في هذا البلد؟ إنك لا تحتاج لدراسة التاريخ والجغرافيا لتدرك أن الشمال كله ليس يعربى . أعنى القول ، مثلا هنا في دارفور ، كم من القبائل عربية؟

وذهب يعدد القبائل العربية على أصابع يده .

- البقارة (رعاة البقر) وتضم الهبانية والتعايشة والرزيقات وبنى هلبه . ومعهم اخوانهم رعاة الابل وهم مهاريا وفروعهم الاربيقات والجلاب . ولكن ماذا عن الناس الذين تسمى باسمهم الاقليم ، الفور ، وهم اهل؟ لسنا يعرب . وخذ الاعداد ، قاهلنا كثير العدد بحق . وكم هي فروع الفور؟

واستخدم يديه في العد مرة اخرى :

- هناك الداجو والبرقيت والمساليب والتاما والزغاوى . كذلك عندنا قبائلنا من الفرتيت وهم ليسوا يعرب . لا تظن أن الفرتيت يوجدون فقط في مديرية بحر الغزال من الجنوب . اعتقد أنك من بحر الغزال ، اليس كذلك؟ اجابه إلياس :

- نعم أنا من بحر الغزال .

- لا أعرف لماذا خطر ذلك ببالي ، لعله لأنك من الدينكا ، هل أنا على صواب؟ - أنك على صواب فانا من الدينكا . كيف عرفت ذلك؟ قال عثمان مشيرا الى راسه:

« ألم أقل لك بأن لى كليتين » . يعنى أنه ذكى ، وضحك الرجلان . « من هو بخلاف الدينكا الذى يكون فى مثل طول قامتك؟ »

- حسنا ، هناك النوير والشلك والقبائل النيلية الاخرى .. بالطبع . وحقيقة الامر ان فى دارفور ايضا قوما طوال القامة لكننى قد ابتعدت عن موضوعى الاساسى . ما هو موضوع حديثنا؟

- كنت تتحدث عن قبائل دارفور العربية منها وغير العربية قال إلياس مذكرا :

- كنت تعدد قبائل الفور والفرتيت كقبائل غير عربية فى المنطقة .

- نعم ، شكرا لك . على أن اعترف أن النسيان هو أحد شرور الخمر . على كل حال ، دعنا نعود الى موضوع اهل دارفور . فحقيقة الامر أنه حتى القبائل التى توصف بأنها عربية هى فى واقع الحال غير خالصة الدماء العربية ، بل هم خليط من الدماء العربية وغير العربية .

- أنا كثير الاسفار فى هذا البلد وقد رايت اهل الشرق ، القبائل المعروفة باسم البجة مثل الهدندوه . لا يختلف أولئك الناس عن الاثيوبيين ، وهم يتحدثون بلغاتهم الخاصة . أما

بالنسبة للغة العربية ، فهم يتحدثونها كلغة أجنبية وبمستوى ضعيف للغاية . وإذا اتينا الى المناطق الداخلية ، فللداقلة أيضا لغاتهم الخاصة ، وبالطبع فان النوبة في اقاصي الشمال يفخرون أشد الفخر بجنسهم ولغتهم غير العربيين حتى يومنا هذا .
- فكيف يجوز اذن لأى شخص أن يقول بأن هذا البلد منقسم عرقيا وثقافيا بين الجنوب الإفريقي والشمال العربي ؟ ان هذا محض افتراء .

توقف عثمان عن الشرب ، بل وأصبح في غاية الوعي والتوقد السياسى . وكان الياس مهتما بما يقوله عثمان حتى عندما كان مخمورا بعض الشيء . والآن وقد أصبح أكثر وضوحا ، فإن قوة كلماته كانت تزداد كلما ازدادت قوة حجته .

واصل عثمان الحديث قائلا : إن الحكام بالخرطوم يجهلون البلد الذى يحكمون . انهم يتعاملون مع انفسهم ويتوهمون أنهم هم اهل هذا البلد بينما يبقون منعزلين في مواقعهم المكيفة الهواء هناك في العاصمة المثثة . بل هم ينسون أن دارفور كانت مستقلة حتى عام ١٩١٦ بينما أخضع البريطانيون باقى القطر ، أو الشمال على الأقل . بالطبع ، فقد اتخذنا الاسلام وبعض عناصر الثقافة العربية ، ولكننا طوعنا ذلك لظروفنا المحلية . لم ندع مطلقا بأننا عرب . ما الذى يدعوهم الى الاعتقاد بأننا سنكون أفضل بادعاء العروبة ؟ ما أريد قوله في حقيقة الأمر هو أن الظروف التى برزت منح الحكم الذاتى للجنوب تنطبق على الغرب والشرق أيضا . وتتضمن هذه الظروف عدم عدالة التوزيع للسلطة والموارد القومية بين الوسط والأقاليم . وبالنسبة للكثيرين منا في الغرب ، يشتمل ذلك أيضا على التدليس بعرض قيمنا على العالم بوصفها بأنها عربية .

تذكر أننا هنا في الغرب ، في دارفور وكردفان ، قد ضغطنا على النظام ليمدد الحكم الذاتى للجنوب لينطبق على مناطق أخرى في الشمال وبخاصة في الغرب . أوكد لك أن أهلنا كانوا على استعداد لحمل السلاح والنضال مثلما ناضل الجنوب . إلا أن منير ليس بالأحمق ، فاستجاب بمنح الاستقلال الأقليمى لباقي أنحاء الشمال . لذلك يستحق منير الاطراء .

أصبح إلياس متأثرا بحصافة وعى عثمان السياسى . لا يمكن أن يكون مجرد التاجر البسيط الذى يزعم ، فمن هو حقا ؟ وما هو موقفه السياسى من المسائل الحرجة التى تواجه البلاد ؟

اطلع عثمان على خواطر -إلياس وقرر مواصلة الحديث فقال :
- دعنى أخبرك بقصور منير . لا يزال يعتقد بأن الشمال مختلف عن الجنوب وبأن الغرب جزء من الشمال . فماذا تراه يفعل ؟ انه يمنح الشمال نظاما للحكم الأقليمى أضعف بكثير مما منح الجنوب . وعلاوة على ذلك ، يحتفظ لنفسه بسلطة تعيين حكام اقاليم الشمال . حتى أنه حاول فرض ارادته على أهل دارفور . ولكن قومنا وقفوا بصلافة مرة أخرى وكانوا على استعداد للقتال والموت من أجل حقوقهم .

ومرة أخرى أيضا ، أظهر منير الذكاء وتنازل في الوقت المناسب . وفي الحقيقة ، فقد تنازل في مسألتين : أولا ، قبل مطالبة دارفور بأن تكون اقليما منفصلا بدلا من جمعها مع كردفان حيث نكون خاضعين لارادة الاغلبية وأسيادها في الخرطوم . وعندما أراد أن يعين رجلا من كردفان ليكون حاكما لنا ، وقفنا بصلافة حتى نزل عند رغبتنا بتعيين أحد أهلنا ليكون قائدا . تلك هى الطريقة التى عين بها حامد الدرقاوى ، حاكمنا الحالى .

واسمه ، واعتقد انه اسم جده ، مشتق من درقة أو درع ، وهو درعنا ضد سلطات الخرطوم .

رغم أن الوقت قد بلغ الساعات الأولى من الصباح ، إلا أن إلياس كان مستغرقا في الحديث ، وشعر بأنه ما كان ليتمنى تقديمه للأقليم أفضل مما وجد في حديث عثمان . كما بدا أن عثمان أيضا كان سعيدا بفرصة تعريف ضابط بحقيقة الأحوال ، وخصوصا أنه ضابط جنوبي على وشك أن يتولى مهام وظيفته في الأقليم .

- دعنى أخبرك يا أخى ...

- الياس

- أخى الياس . مع أن أهلنا قد حققوا بعض الانتصارات ضد السلطات في الخرطوم ، فإن نضالنا بعيد عن الانتهاء . وفي الحقيقة ، فقد بدأ لحيته . أقول لك بكل أمانة أن أكبر عقبة تواجه أهلنا في الجنوب والغرب هو انعدام الوحدة . اننا مقسمون بواسطة الحكام الأذكياء من الخرطوم ، وهم يستغلون الإسلام والثقافة العربية لخلق الحواجز بين الناس . هذا هو قصور زعمائنا .

لم تتجاوز رؤياهم الاسوار التي نصبها أعداؤنا ببراعة وذكاء للتفريق بيننا .

لكن في غاية الصراحة معك يا أخى . إن الكثيرين منا في الغرب يرونكم في الجنوب كعبيد ، بل وكفار . ولكن انظر الى أنا ، هل هناك فرق بين لوني ولونك ؟ وإذا حكم الناس على تقاطيع وجوهنا ، هل يفرقون بينى وبينك الى جنسين مختلفين ؟ أعنى أن هذا البلد في غاية الارتباك في الحقيقة . والمسئول عن ذلك هو هؤلاء الناس القابعون في الخرطوم بعزلتهم التامة عن السودان الحقيقى ، ومع ذلك يتلاعبون بحياتنا بصور عرقية وثقافية ودينية يجهلوننا تماما وهى على التحقيق لا تعكس الواقع . ويسمح لهم قادتنا في الجنوب والغرب بهذه الإهانة لكرامة وعزة أهلنا .

لم يعد الياس يرى عثمان كمخمور عابث بل كزعيم له رؤية قومية صحيحة .

سأل إلياس في جدية :

- ماذا ترانا فاعلين لتصحيح هذا الخطأ ، أم لعلك ترغب في تسميته بأنه شيء أخطر من ذلك ، سوء الفهم الشنيع لحقيقة البلاد ؟

تفهم عثمان السؤال وأراد الاجابة بنفس المستوى من الجدية فقال :

- يا أخى ..

- الياس

- انى في غاية الاسف لنسيانى لاسمك باستمرار . لعلى غير قادر أن أقرر هل أنت مسيحي أم مسلم . على كل حال ، أود أن أكون صادقا معك . هناك شيء فيك يجعلنى أثق بك . لعلى أكون مخطئا تماما ولدى وصولنا الفاشر ، فقد اكتشف أنى قد ارتكبت أكبر غلطة في حياتى . ولكن دعنى أخبرك بالحقيقة كما أراها .

إذا لم نتحد نحن المستضعفين في هذه البلاد ونعتبر أقليات مع اننا الاغلبية ، إذا لم نتحد ونغير النظام بحيث نتحصل على حقوقنا كأبناء وبنات البلاد الحقيقيين فسنبقى عبيدا للعرب أو لمن يسمون أنفسهم العرب . لقد عرف قومنا المعاناة والإهانة لكرامتهم وعزتهم الانسانية . عندما نتحد ونحرر أنفسنا من القيود ، سوف نخلق السودان الذى لا تفرض فيه القبيلة أو الجنس أو الدين وضع مواطنة من الدرجة الثانية على أى مواطن .

هل تصدق القول بأن السودان بلد واحد ، وأن الخرطوم هي عاصمة كل السودانين .
وعندما يفر أهلنا من الفقر الذي يعانون منه ويذهبون الى الخرطوم بحثا عن فرص العمل ،
يجمعون ويحشرون في ميادين كرة القدم مثل الماشية ثم يحملون على الشاحنات لتنقلهم
عائدين الى أريافهم وكأنهم أجانب غير مرغوب فيهم ؟ وماذا تقول الحكومة في تبرير هذه
الكشآت ، كما يسمون هذه الحملات على المواطنين الأبرياء ؟ انهم يبررون ذلك بأنه
ضرورى لأمن أهل المدن . أنى أقول لك أن هذه الأمة تجلس على قبلة زمنية وأن وقت
الانفجار ليس بالبعيد .

قال إلياس في صوت متعب : إنى أوافقك تماما .

وسكت كلاهما وكأنهما قد استقصيا الموضوع ، فمن المؤكد أن الأمور واضحة لهما
تمام الوضوح . وعلى كل حال ، فقد كانا متعبين لدرجة لا تمكنهما من مواصلة البحث
أكثر من ذلك . وهكذا ففى الثالثة صباحا ، والقطار يغادر كوستى ، قررا محاولة الحصول
على بعض النوم قبل وصول القطار الى المحطة التالية حيث ستوقظهما الجلبة في غالب
الحال .

استغرقت الرحلة الى نيا لا عدة ايام عبر مناطق متنوعة لدرجة كبيرة ، حيث تبدل إقليم
الشمال بمناطق السافانا الجنوبية الغربية . كان موسم الأمطار قد بدأ ، ورغم أنه لم يؤثر
كثيراً على المناطق الصحراوية المحيطة بالخرطوم ، إلا أن النباتات فى تلك المناطق قد
بدأت فى الاخضرار . مر القطار على كوستى ثم أم روابه وبعد ذلك اتجه جنوباً إلى أبوزيد
فبابنوسه حتى انتهى إلى نيا لا . كانت رحلة طويلة عبر العديد من المحطات المزدهمة
بأصوات الباعة الذين يحاولون البيع لركاب القطار نوى القدرة على الشراء .

يدفع الباعة بكل أنواع البضائع ، من أنواع الطعام الى الأعمال اليدوية ، يدفعون بها
من خلال نوافذ القطار وهم يتصايحون بمختلف عبارات العرض فى حديث أو غناء باللغة
العربية واللهجات المحلية . وعادة ما يتجول قوم فى جلابيب وعمامات بيضاء ويحملون
السبع فى أيديهم وهم عميان أو يتصنعون العمى ويتلون آيات القرآن التى تحض على عمل
الخير والاحسان للفقراء وجزاء الله المحسنين . يتجول هؤلاء الشحاذون « النبلاء » فى
أثناء القطار بصحبة الأطفال الذين يحملون الأوعية ليضع الناس هباتهم فيها .
ومن حين لآخر يقذف بعض الافراد بقطع النقود المعدنية ، والورقية فى أحيان أندر ،
فى داخل الأوعية ، ولكن من الواضح أن أغلب المسافرين قد سمعوا النداء من قبل
فيتجاهلونه فى هدوء .

وهناك نوع آخر من الشحاذين الذين لا يمكن تجاهلهم ، ويتحتم على الشخص أن
يعطى أو يمنع بصورة صريحة ، أولئك هم العميان بحق أو الكسحاء وغيرهم ممن تظهر
عليهم علامات الحاجة الحقيقية ، والذين يسألون بأنفسهم أو من خلال وكيل . وبينما يعطيهم
"بعض يعتذر آخرون بعبارة « الله يعطينا ويعطيكم » وتكفى هذه العبارة لانصراف الشحاذ .

لم تكن المرة الأولى التى يستقل فيها إلياس ذلك القطار ، ولكنه لم يكن يركز من قبل
فيما يجرى من حوله ، وهذه المرة واصل إلياس التفكير فيما قاله عثمان ، ولأول مرة تسأل
عما يشاع من أن الجنوب هو أفقر أنحاء البلاد بينما لا يتذكر أبدا رؤية هذه الدلائل للفقر
والشقاء فى الجنوب كما يراها الآن فى الشمال . ومع أن الجنوب أقل « حداثة » أو

« تطورا ، من الشمال ، فكيف يفسر المرء هذه الظاهرة الشاذة ، حيث نجد في الجزء الاغنى من البلاد أولئك الناس الذين يظهرون أكثر عوزا مما نجد في الجنوب ؟ ومع تقدم القطار الى الغرب ، حيث فارقه مدير المدرسة والمهندس ، أصبح إلياس وعثمان صديقين حميمين ، فقد ارتاحا لبعضهما البعض كثيراً ، وعندما وصلا إلى نبالا ، قال عثمان :

أخى إلياس ، وأنا لست بحاكم دارفور بحال من الأحوال ، إلا انى استمتع ببعض النفوذ في هذا الاقليم . اود ان اقول لك بانى سعيد بأنك تبدأ تجربتك الميدانية هنا . وجد إلياس مدينة الفاشر مختلفة بدرجة ظاهرة عن المدن التى راها من قبل في الجنوب والشمال معا . فمن بعض الجوانب كانت شبيهة بأغلب مدن الشمال حيث كان المعمار في غالب الحال عديم التميز لكنه عمل وقد انعكست معالم البيئة الثقافية ومظاهر الفقر في اكواخ القش والصفيح والورق المقوى . تتجول الجمال والجياد والحمير في كل انحاء المكان وتزاحم العربات التى تجرها الحيوانات في الطريق مع السيارات والراجلة من الناس . ولكن أكثر ما لفت نظر إلياس هو الملامح العرقية والثقافية للمدينة ، وبخاصة العنصر غير العربى فى بيئة كان يفترض انها شمالية ومن ثمة لا بد أن تكون عربية . ظهر ذلك في عدة وجوه من الملامح الجسدية الى نمط الزى والملبس الذى كان أقل عربية واسلاما مما يتصور هو ، الى اللغة التى تتفاوت من اللغة العربية بلهجة اعجمية قوية الى لغات محلية غير عربية . لم تكن الفاشر بحال من الأحوال ما يتوقع الجنوبى للمدينة العربية التقليدية . بهذا المستوى ، يمكن لمدينة واو او مدينة ديم الزبير في منطقة بحر الغزال أن تكونا مدينتين « شماليتين » وهكذا تكشف لإلياس خلال ساعاته الأولى في المدينة صحة ما قاله عثمان في القطار .

ولكن كان للفاشر أيضا صفة مميزة كرمز لماضيها الغريب . يذكر قصر السلطان على دينار ، آخر سلاطين دارفور ، والذي أصبح الآن متحفا ، يذكر بأن هذا الجزء من البلاد قد ظل دولة مستقلة تتحدى الاستعمار البريطانى حتى تم اخضاعها في آخر الامر عام ١٩١٦ . ولم يكن ذلك محض تاريخ غابر ، إذا بقى أثره في عقول زعماء الفور ولدى الحكومة المركزية . إذا جاز لاي اقليم ان يتطلع للانفصال ، فلماذا لا يكون ذلك للاقليم الذى كان دولة مستقلة ذات حضارة لا تزال آثارها ظاهرة للعيان وموضعا للاعزاز والتقدير ؟

بعد أكثر من شهر بقليل لوجود إلياس في الفاشر ، تلقى دعوة من عثمان « لحضور عشاء خاص وغير رسمى وذلك لتقديمك لبعض الأصدقاء » . ارتدى إلياس حلة غير رسمية واختار أن يأخذه الى مكان العشاء سائق عسكرى لانه لا يعرف المكان ، على أن يقود السيارة بنفسه في العودة . وعندما أعطى إلياس العنوان وسأله إذا كان يعرف الطريق الى هناك أجابه السائق بسرعة .

- من من سكان الفاشر لا يعرف منزل عثمان جار النبى . وبمجرد دخول إلياس من بوابة المنزل ، لفتت نظره مظاهر البذخ التفاخرى ، فناء فخم على رقعة شاسعة من الأرض محاطة بسور عال ، وداخل الأسوار حديقة مزينة بصورة جميلة ، وفي وسطها موضع للجلوس وضعت عليه مقاعد ستة في شكل دائرى . كان إلياس أول الحضور واحتضنه عثمان بحرارة وكأنه صديق قديم وقال موضحا :

- كما ذكرت في مذكرتي ، هذا اجتماع غير رسمي مع بعض الأصدقاء . ستشعر بالراحة وسطهم فهم من الإخوان .
ما كادا يجلسان حتى انفتحت البوابة وصاحب ذلك صوت يقول :
- السلام عليكم .

نهض عثمان لتحية رجل في اواسط الاربعينات من العمر ، قصير القامة ومستدير لدرجة ما . قال عثمان :

- اخي الياس ، اقدم لك اخي الاكبر قاسم .
رد عليه إلياس بقوله :

- اذن فرئيس مجلس الشعب الاقليمي هو اخوك .
قال قاسم :

- لقد سمعت الكثير عنك من اخي .
تسأل الياس بصورة مرحة قائلا :

- اه ؟
واضاف قاسم مستعجلا :

- اؤكد لك ان كل ما سمعت عنك في صالحك .
علق الياس بقوله :

- لا شك ان عثمان قصد المفاجأة ، ولكن من العدل له ان اذكر بأنه سبق ان قال انه يتمتع ببعض النفوذ .

- لا تعتقد أيها الضابط ان لآخي كل ذلك النفوذ على ، فعليه ان يثابر أكثر من الآخرين ليحظى بتأييدي .

حضر آخران وتم تقديمهما كأعضاء في مجلس الشعب الاقليمي ، ثم جاء آخر كان من الواضح من عباته وعمامته انه من الاعيان التقليديين وقدمه عثمان بقوله :
- اقدم لك أحد كبار سلاطين الفور ، الشيخ ابراهيم الدرقاوي ، ابن عم حاكمنا حامد الدرقاوي .

صافح الشيخ إلياس وهو يقول :

- أنا هو الذي يتشرف باللقاء ، فنادرا ما نلتقى بأخوتنا من الجنوب .
وبعد دقائق قليلة سمع صوت طرق على البوابة المفتوحة ودخل رجل طويل القامة يرتدي جلبابا وعمامة ، وتمت دورة أخرى من التحايا « السلام عليكم » .

نهض عثمان وأسرع تجاه الباب لملاقاة القادم وهو يعلم أنه ، ولا شك ، هو السيد حامد الدرقاوي ، حاكم الاقليم .

أحضر خادم المشروبات : بعض المشروبات الباردة وزجاجة ويسكي « جوني واكر » وإناء من مكعبات الثلج .

أعلن عثمان بقوله :

- ان أول واجباتي هو أداء أحد الطقوس التي علمني اياها الاخ الياس خلال رحلتنا بالقطار . يقدم للأسلاف قدرا معتدلا من الشراب قبل ان نمتع انفسنا ..
وإثناء الحديث ، صب عثمان بعض المشروب على الأرض .

وضحك الجميع مما أوحى بأنه قد حكى لهم من قبل عن ذلك العرف .
ويأتى بعد الاسلاف مباشرة دور شخصين ، هما السلطان وحاكم الاقليم .
اعتقد أنهما قد اختارا فصل السلطات بينهما ، يمثل أحدهما الاسلاف الذين سبق
تكريمهم بينما يمثل الآخر نحن معشر البشر العاديين ولذلك يكون أول من يتناول من هذا
السائل الخبيث الممتع .

وقوبلت كلمات عثمان بهدير من الضحك .

- يا صاحب المعالي ، اليك « بلاك جونى واكر » من اسكتلندا ، الذى ولد فى أعوام ١٨٨٠
وما زال يتمتع بكامل الصحة .

قال عثمان وهو يتناول كوباً من الويسكى لحامد الدراقوى .
وتم بعد ذلك تقديم الشراب الذى اختاره كل منهم . وكما ظهر من الحديث السابق ،
فقد امتنع السلطان عن شرب الخمر وذلك لأسباب صحية وليس لاعتبارات دينية أو
اجتماعية ، إلا أن إلياس أحس بأن الحجة كانت واهية نوعاً ما . طلب البقية مشروباً من
الخمر .

تذكر عثمان موقف إلياس من الخمر خلال الرحلة ، فقدم له مشروباً من المياه
المعدنية ، إلا أن الحاكم اعترض على ذلك بطريقة مميزة :

- إذا كان دينك لا يحرم عليك الشرب أو لديك ضده حساسية شديدة ، فانى أدعوك
وبإلحاح أن تشارك إخوانك فى مباركة الاسلاف .

وجد إلياس نفسه فى ورطة . فمع أنه لا يتناول الخمر بخلاف الوهم الشائع عن
الجنوبيين ، فإنه لا يود أن يظهر بطبيعة مفرطة فى الترفع الصفوى بل يريد أن يبدى
مشاعر التضامن مع مضيفيه من الغرب . لذلك قبل عرض الخمر عليه وقال وهو يمسك
بالمشروب الرمزي فى شئ من المجاملة .

- أرى الآن كيف حققت الفوز الساحق فى انتخابات حاكم الاقليم .

وظهر من الضحك الذى لقيه عبارته ان الجماعة قد بدأت لقاءها فى أحسن احوال
التفاعل الاجتماعى .

قدر عثمان فى حكمة أن أحسن ما يمكن هو الحديث على مستوى اجتماعى من غير
افراط فى الحديث عن السياسة . وحتى عندما أقحم قاسم لمحة جادة فى الحديث ، لم
يفسد ذلك انفتاح وصراحة المجلس .

دعا قاسم للانتباه بقوله :

- أخوتى ، لا أود أن أفسد عليكم هذه المناسبة الاجتماعية بالخطب ، ولكننا جميعاً
شديدو المشاغل ولا نجد العديد من الفرص للقاء والحديث الودى عن المسائل الجادة .
كما تتصورون ، فقد أخبرنى عثمان بالكثير عن أخينا إلياس ، ومن التوفيق الكبير أنهما
التقيا فى القطار . وحسب علمى ، فإن هذا اللقاء يعد بالفرص الطيبة للصدقة وتبادل
الآراء بيننا وأخينا الجنوبي إلياس بول . لنرفع كؤوسنا للتحية والترحاب بالياس وسط
إخوانه وأخواته فى دارفور .

قالوا وهم يرفعون كؤوسهم ويشربون نخب الصداقة :

- مرحباً بأخينا إلياس .

بدأ الحاكم فى التصفيق وسرعان ما تبعه فى ذلك البقية بعد أن وضعوا كؤوسهم
جانبا .

قال الياس :

- يبدو انه من المحتم على أن أقول شيئا ..

فأضاف عثمان القول :

- بكل سرور

بينما استدار الجميع تجاه الياس الذى شرع فى الحديث :

- اشكركم جميعا على صداقتكم ، فقد زادت قناعتى بأن هذه المهمة ستكون هامة بالنسبة لى . لقد منحنى الاخ عثمان تقديمًا مفيدًا خلال رحلة القطار .

انى هنا حقا للتعلم وكل ما تقدرؤن على تعليمى اياه سيجد عندى كل التقدير وربما امكننى الاستفادة منه لمصلحة بلادنا .

ولقى إلياس تصفيقا عفويا كان مخلصا بقدر ما كان عاليا .

وتدخل عثمان بقوله :

- ايها السادة ، انى لم أقصد أن تكون هذه مناسبة للخطب الرسمية ، وانما قصدت فقط

ان أقدمكم الى بعضكم البعض . والآن اعتقد ان موعد العشاء قد حان .

واعترض حامد الدرقاوى بقوله :

- ولكن ليس قبل أن يتحدث الحاكم . لقد كانت الكلمات التى قيلت جميلة وذات مغزى ،

وحكما بما سمعت وشاهدت هذا المساء ، فبيننا أخ حقيقى . انى سعيد بمبادرة عثمان ،

وكمساهمة منى فى المناسبة ، أود ان احكى لكم نادرتين .

حكى لى الاولى صديق جنوبى حيث قال انه عاد الى الوطن بعد غياب دام عدة سنوات

بالخارج واستقل سيارة تاكسى من المطار الى الفندق . سأل السائق الذى استنتج من

سحنته ولهجته أنه من دارفور : كيف الاحوال فى الخرطوم .

اجابه السائق : ليست على ما يرام . اعتقد انه قد أن الاوان لامثالك وامثالى أن نتولى

مقاليد الامور فى هذا البلد .

« ولاحكى لكم رواية أخرى حكاها لى صديق جنوبى حديثا . كان خارجا من مكاتب

الاتحاد الاشتراكى عندما اقترب منه جمع من الناس من دارفور وقالوا : « لقد كنا نبحث

عنك ولم نجدك لعدة أيام . اننا فى حاجة للمساعدة لاننا نبحث عن العمل » .

طلب منهم الصديق الجنوبى الذهاب الى مكتب حاكم دارفور لعله يقدر على

مساعدتهم . ومضى بعض الوقت قبل أن يدرك أنهم كانوا يعتقدون بأنه هو حاكم دارفور .

ينبغى أن نعلم من هاتين الواقعتين أننا بحق شعب واحد وأن وقتنا مقبل ، بل لعله قد

وصل ولا نعلم نحن ذلك .

ومرة أخرى قوبلت كلماته بالتصفيق الحاد .

وعلق عثمان فى تصميم :

- والآن لا بد لى من تقديم العشاء لكم قبل أن اتهم بالاستغلال السياسى .

وقضوا باقى الامسية فى حديث خفيف الظل لكنه لم يستمر كثيرا إذ سرعان ما

انصرفوا بعد تناول العشاء .

لم يقل إلياس أى شيء عن أمسيته مع اعيان دارفور لزملائه برئاسة القوات المسلحة ،

الا أن الفاشر كانت محدودة وشعر إلياس بأن قائده على الأقل قد سمع عن الأمر . ومن

الناحية الأخرى ، فقد رأى إلياس أنه إذا لم يطرأ الأمر بصورة طبيعية ، لم يكن هناك داع لإثارة

الموضوع مع أى منهم . فلو فعل غير ذلك لكان الأمر وكأنه قد جعل من مسألة خاصة مهمة فى

الاستخبارات ، بل لكان الأمر وكأنه يبلغ عن مضيغته ، وفي ذلك خيانة لعلاقة شخصية .
تتكون مهام إلياس في غالب الحال من دوريات في المنطقة ، وعلى الحدود الليبية
والتشادية بصورة خاصة حيث ظل الموقف الأمني متوترا وضعيفا . لم يحدث شيء مثير ،
إلا أن الجميع كانوا يقدرين أن يظهر القوة على الصعيدين الداخلي والخارجي كان
ضروريا لحفظ الأمن والنظام في المنطقة . وقد كانت السلطات الإقليمية أيضا حريصة على
أمن واستقرار المنطقة .

وبعد عدة أشهر من مناسبة العشاء بمنزل عثمان ، استلم إلياس مذكرة من حاكم
الإقليم يدعوه فيها لمشاركة من تناولوا العشاء بمنزل عثمان ، بالإضافة إلى أشخاص
آخرين ، في رحلة للنزهة بقرية الحاكم على بعد ستين ميلا تقريبا من الفاشر . وسعد
إلياس بفرصة الاطلاع القريب على الأحوال في قرية للفور بعيدا عن مظاهر الرسمية
العسكرية . وبما أن الرحلة تستغرق عدة ساعات ، فقد استوجب ذلك البداية المبكرة
صباح أحد أيام الجمع .

لبس إلياس بدلة صيفية بينما ارتدى رفاقه الجلابيب ، وهي الزي المعتاد لعطلات
نهاية الأسبوع في شمال السودان . سارت الجماعة في عربتي جيب على طرق وعرة غير
مرصوفة وملتوية خلال الشجيرات المتناثرة عبر المنطقة الصحراوية . وقد ظهرت دلائل
الصحراء المحيطة بهم وأثار الجفاف الذي وقع بالمنطقة في الآونة الأخيرة ، ظهر ذلك على
البيئة المقفرة التي انتشرت فيها هياكل وبقايا الجمال والحياد والخراف والماعز على طول
الطريق .

وعند منتصف الفترة الصباحية ، وقد ارتفعت حرارة الشمس المرتفعة إلى كبد السماء
وظهر السراب المرتجف ، برزت في الأفق قرية شامخة ، وقد امتدت أشجارها وأكواخها
نحو السماء مما جعلها تبدو وكأنها قلاع وحدائق ملوكية أكثر منها بقايا بيئة تحتضر .
وأشار الدراقوى في اعتزاز نحو القرية وهو يقول : « تلك هي قريتي المعروفة باسم « ظليل
شادر » نسبة إلى جمع الأشجار التي ترونها هناك » .

ولدى اقترابهم من القرية ، ظهر أن ما بدا لدى الوهلة الأولى وكأنه جمع أشجار ظليلة
هو في الحقيقة عدد من أشجار السنط الشائعة المبعثرة حول المساكن القليلة الموزعة على
مساحة قطرها حوالي الميل تقريبا وبينها مزارع الأسرة . وعندما تقدمت العربتان نحو
القرية ، تم ذبح ثور ووضع عبر الطريق الذي يتوقع مرورهم به ، وقف الشيخ إبراهيم
الدراقوى ، السلطان وابن عم الحاكم ، وقف على الجانب الآخر من حيوان الضحية . نزل
الضيوف من العربتين وذهبوا ، يتقدمهم الحاكم ، تجاه الثور المذبوح . قفز الحاكم
الدراقوى فوق جثة الثور وتبعه رفاقه في ذلك . وتذكر إلياس مناسبات في الجنوب يتم فيها
أداء طقوس شبيهة بذلك بعد غيبة طويلة من الأهل . من الواضح أن تلك عادة سابقة
للاسلام في المنطقة .

وبعد أن قفزوا فوق الثور ، حياهم الشيخ إبراهيم ثم وصلوا لتحية الجموع التي
كانت تتجمهر باطراد . تتكون منازل عائلة الدراقوى من مجموعة من « التكلة » (ومفردها
« التكل » وهو كوخ دائري) والكرانق (ومفردها كرنق وشكله مستطيل) « والكرنق » ،
مثله مثل « التكل » ، يتكون من جدران من الطين وسقف من القش . كانت هناك أيضا
« راكوبة » أو سقيفة مستطيلة وقد بنيت من أعواد قصب الذرة من ثلاثة جوانب ، وترك
الجانب الرابع مفتوحا تماما ، وفيها وضعت كراسي من القنب من داخل الجدران الثلاثة

وفرشت الأبسطة من « البروش » براقه الألوان في وسط المكان .
واصل الناس الظهور من جميع أنحاء القرية ، والنساء يزغردن في تحية الضيوف
الكرام . وواحدا تلو الآخر ، تزايدت الجموع حتى بدا وكان القرية قد اجتمعت عن بكرة
أبيها ، رجالا ونساء واطفالا . لبس بعض الرجال الجلابيب والجيب الناصعة البياض ،
وقد لفوا العمامم بأناقة وإتقان حول رؤوسهم ، بينما ارتدى آخرون قمصانا أقصر ، وهي
معروفة باسم « عراقى » وتحت « السروال » الذى يمتد الى أسفل القدمين ، وقد القوا
الشالات على اكتافهم . وارتدت جماعة أخرى البدل الصيفية الأوربية المظهر . كذلك
تنوعت أزياء النساء بدرجة كبيرة ، من آخر الموضات من الثياب الملفوفة حول الوجه في
احتشام ، تاركة فتحات صغيرة للعينين ، الى ملابس براقه الألوان ملفوفة حول الوسط
وقد تركت الصدر عاريا بخلاف الحلى من المعادن والخرز . لقد كان خليطا من مظاهر
الثروة والأناقة من جهة والفقر والاحتشام من جهة أخرى . الا ان كل ما ظهر من اختلاف
كان سطحيًا فقط وغير حقيقى ، اذ ان معظم أهل القرية كانوا يتشاركون في الثروة بصورة
تمنع التفاوت الكبير فيما يعيشون فيه من منازل وما يأكلون من طعام وما يتمتعون به من
ثقافة .

واكثر ما لفت نظر إلياس أنه ، بخلاف الأثر العربى الإسلامى على ملابسهم ، فإن
أولئك القوم يشبهون الى حد بعيد الناس الذين رأهم في مختلف أنحاء الجنوب . حتى أن
نكهة القرية تذكره بما ألف في الجنوب أكثر منها بأجزاء عرفها في الشمال . وبصفة
خاصة ، وجد إلياس أن انفتاح المجتمع ، الأكواخ مكشوفة بدلا من أن تكون مغلقة ،
والرجال والنساء مختلطون بدلا من الانعزال عن بعضهم البعض ، وعدم الاهتمام للفقر ،
وجد أن كل ذلك من الخصائص التى يشارك فيها أهله الدينكا هؤلاء الرفاق من
السودانيين من دارفور .

حتى أن البيئة السريعة التدهور كانت من المظاهر المشتركة ، رغم التفاوت في درجة
التدهور . فقد سمع إلياس أهله يتحدثون عن الانهار التى كانت تحتفظ بمياهها لأغلب
موسم الجفاف وهى الآن تجف قبل دورتها الطبيعية . ويتحدث أهله عن الاحجام الكبيرة
التي كانت للأشجار ، وهى الآن تنكمش فى الحجم وتموت قبل الأوان . كما أنهم
يدركون أن أعداد الحيوانات الوحشية تتناقص وأن التنوع الكبير في الطيور والحيوانات
مثل الزراف والجاموس التى كانت تنوع غداءهم من وقت لآخر قد ظهر اختفاؤها في
السنوات الأخيرة . حتى أن الأزعاج الذى كانت تسببه الأفيال وفرس البحر أو الحيوانات
المفترسة قد أخذ في الأضمحلال ، وذلك بشارة لسلامة البشر الجسدية ولكنه من الدلائل
المفجعة لما يحدث للبيئة .

وهكذا ، ما كاد الضيوف يجلسون حتى تناول الحديث موضوع الأمطار المتناقصة
والجفاف المتزايد . حاول الزعماء من الفاشر أن يشرحوا لأهل القرية ظاهرة الزحف
الصحراوى ، وهو أمر قد راقبوه يتزايد خلال السنين الطويلة ليأكل أرضهم الغالية .
ولم يفهم الشرح بشيء ، بل على العكس من ذلك ، فقد أكد لهم أنهم ضحايا لقوى أكبر
منهم . وكانت دلائل الجفاف والمجاعة التى اجتاحت المنطقة ظاهرة على الحيوانات ،
بخاصة الجياد والحمير التى وقفت في قيظ شمس الظهرية وهى تضطرب بنفس الحياة
العزيز .

ومهما كان خطر العطش والجاعة في المنطقة ، فما كان لذلك أن يؤثر على كمية ولا نوعية كرم الضيافة الذي تبذله القرية . وكما هي العادة ، فقد قدمت المياه والمشروبات الباردة للضيوف أولا لتطفيء من عطش المسافرين . وبدأ الحديث خفيف الظل . وقد جلس اعيان القرية لمؤانسة الضيوف .

غير أن بعض الواجبات العائلية كانت تقتضى الاجابة . همس الشيخ ابراهيم للحاكم بأن أمه قد جاءت لتحية الضيوف ، فأفسح لها المجال فوراً . نهض الجميع عندما تم تقديم الحاجة عائشة وهي ترتدى ثوباً طويلاً يغطي رأسها دون أن يحجب وجهها ، وكانت الحاجة عائشة متوسطة القامة مستقيمة الوجه . حيث الجميع في صوت ناعم لكنه قوى في ثقة تناسب السيدة التي تقف خلف الرجل الذي يعتبره أهل دارفور بمثابة درعهم الواقى . لم يملك إلياس الا أن يتذكر قرينته والنساء البسيطات ، شبه العاريات في غالب الحال ، وهن في الحقيقة سيدات عظيمات يقفن خلف رجال عظام ، وقد دفعوا جميعاً إلى فراغ الذات المنسية ، بل ما هو أنكر من ذلك الا وهو انعدام الذات . تشجع إلياس لأن التجربة تقع على نطاق القطر ، ولكنه شعر بالقتوط أيضاً لنفس السبب .

بدأ ضرب الطبول بينما تقدم اليوم ليصبح مناسبة عطلة واحتفال للقرية . بالإضافة للشور الذي ذبح ليكون لحمه للجميع ، تم ذبح خروف أيضاً وشرع في إعداد كل أنواع الاطعمة .

تابع الشيخ ابراهيم الخروج والدخول وهو ينظم أمور الضيافة والترفيه عن الضيوف . وذات مرة وقف امام ابن عمه ليقول :

- لدينا مشروباتكم الحديثة ، إذا رغبتم في ذلك ، كما قامت نساؤنا بأعداد المشروبات الوطنية لإعطائكم الخيار . فبجانب الويسكى من المدينة ، عندنا « كوشيف » و « دوما » و « عسلية » بالإضافة « للمريسة » العادية بالطبع . فما هو طلبك ؟ اجابه الحاكم الدرقاوى :

- احضرها جميعها ودع ضيوفنا يختارون ما يروق لهم . وهكذا احضرت زجاجات الويسكى مع أوعية المشروبات المحلية . وبدأت الاحتفالات بينما أخذت جمهرة الحضور تثرثر في سعادة . وسواء اكان الامر باختياره هو ام لاعتبارات اجتماعية ، فقد علا صوت الحاكم فوق أصوات الجميع وهو يقول :

اريد أن اوضح شيئاً لكم جميعاً : يقول لكم من يزعمون بأنهم أصوليون اسلاميون (الاخوان المسلمون) أن أولئك الذين تسمح تقاليدهم بتعاطى الخمر منكم بسبيل من التضامن الاجتماعى بأنهم يسلكون سلوكاً مشيناً . إن هذا الاخ من الجنوب لا يشرب الخمر في العادة ، لكنه اختار اليوم أن يشرب بعض الخمر المحلى ليس فقط لكى يتذوق ما تنتجون ، ولكن أيضاً ليعبر عن التمازج الاجتماعى والتضامن معكم . اخبرونى بالحقيقة كما تمليها عليكم ضمائرکم ، أى الاثنين هو الاخ الحقيقى : الاخوان المسلمون الذين يحتقرون ما تشربون عادة كجزء من غذائكم المعتاد ام الاخ من الجنوب الذى يتشوق لأن يحيا حياتكم ويضع نفسه في جانبكم ؟

كانت الاجابة واضحة من صيغة السؤال ، إلا ان الرد بصوت جماعى كان من دواعى الغبطة والسرور : - اخونا من الجنوب .

واستدار الحاكم الدرقاوي تجاه إلياس ثم قال :

- إليك الاجابة عن الاختلافات المزعومة بين الشمال والجنوب والوحدة المفترضة في الشمال على أسس عربية اسلامية . وتذكر أن هؤلاء القوم ليسوا بالسياسيين ، وإنما يعبرون عما توحى به لهم عقولهم وقلوبهم .

وابتسم إلياس وهو متأثر بصورة واضحة . وحرص الجميع على غياب الرسميات ، فلم يكن الا الاسترخاء والمتعة . وبعد احتساء عدة أقداح أو كئوس حسب مقتضى الخمر التي اختار المرء أن يشرب ، ذهبت الجماعة الى موقع الرقص حيث شاركوا في اللهو . كانت الفتيات في مقتبل العمر يقذفن برؤوسهن الى الوراء ويدفعن بصدروهن الى الامام بينما ينحنى زملاؤهن من الشباب نحوهم وهم يضربون الارض بأرجلهم بعنف ويقفزون ويهتزون ويتميلون .

وتجلى عثمان في استعراض شخصيته المنبسطة ، وهو ينثر مئات الجنيهات على رؤوس أجمل الفتيات أثناء الرقص . ولم تظهر الغيرة على أحد ان أدرك الجميع أن الأمر لا يتجاوز الاستمتاع بالجمال والاشباع البريء . ولا يمكن للرجال والنساء اللعب بهذه الطريقة عادة في أنحاء العالم الاسلامي . وهكذا ، كانت المناسبة من وجهة نظر إلياس مظهرا آخر من مظاهر التشابه مع الجنوب ، وقد انه قد حظى بفرصة نادرة للغاية بأن يكون جزءا من الدائرة الخاصة للفور .

ومع المشروبات تم تقديم طبق « المرارة » الشهى عند أهل المنطقة وهو عبارة عن قطع من الكبد والرئة النيئة المغسولة بالماء الحار وقد وضعت عليها الكثير من البهارات . كان الطبق مثيرا للتقرز لدى حس التذوق عند الدينكا ، الا ان إلياس أخذ قطعتين تادبا وعلق تعليقا مهذبا . وبعد ذلك أحضرت « الشية » - اللحم المشوى بطريقة معينة وقد أعجب ذلك الطبق إلياس . ومع الشرب وتناول الطعام والرقص تواصل الحديث المرح بلا قيود . وكان مدهشا أن ترى الحاكم يداعب ويضحك مع الناس وكأنه زعيم وسط أقرانه ، وذلك من مظاهر الممارسة الفعلية للديمقراطية الحقيقية . وبدلا من أن تقلل من هيئته ، فقد أفصحت العفوية في سلوك الحاكم عن لمسة انسانية وبراعة في الوصول الى أدنى مستويات الهرم الاجتماعي .

ثم جاء دور الوجبة الرئيسية وقد وضعت الأواني على الصواني الضخمة وغطيت بالأطباق الكبيرة من السعف الزاهى الألوان التي اشتهرت بها دارفور في كافة أنحاء القطر . وتتابع وصول الصواني حتى امتلأ المكان في وسط « الراكوبة » . وكان عدد الذين يتوجب اطعامهم كبيرا أيضا ، وقد جلس بعضهم مع الحاكم وضيوفه في « الراكوبة » بينما جلس آخرون في « الكرنق » ووجدت البقية أماكنها في ظلال الأشجار بالخارج . وعندما حان أوان الأكل ، رفع الشيخ ابراهيم الدرقاوي أغطية الأطباق ليرى ما تحتها حتى يتمكن من تحديد طريقة التوزيع . وكان غرض الاختيار هو تفادي التكرار أكثر منه للتمييز بين الناس في تناول الطعام . وعندما اكتمل توزيع الطعام بالطريقة المناسبة ، نهض الحاكم وأعلن :

- تفضلوا يا أخوانا واجلسوا الى الطعام .

نهض الجميع وخرجوا من « الراكوبة » ليصب لهم الماء من « الأباريق » لغسيل الأيدي ، ثم عادوا وجلسوا في دائرة كبيرة على الحصير وقد وضعت أواني الطعام في وسط الدائرة . وأثناء الأكل ، توالى حضور وذهاب الأواني وهي تفسح المجال لأواني أخرى .

وكان من الواضح انهم يراعون قواعد دقيقة لكنها قوية في الادب ، اذ يحاول كل واحد تفادي المزاحمة على أطباق الطعام ويتناول لقيمات صغيرة ويمضغها بطريقة تجمع بين الوقار والأدب واحترام الطعام . وبدأ الناس في النهوض قبل أن يتركوا أثراً واضحاً على الكميات الموضوعة أمامهم .

صاح الحاكم في احتجاج :

- بدرى ، بدرى .. (لقد أسرعت بالتوقف عن الطعام ..)

بينما نهض الشخص تلو الآخر وهو يزعم بأنه قد شبع . ووالى الحاكم دعوة الضيوف لتناول المزيد من الطعام بقوله : زويدا يا اخوانا .

وكان الرد من الذين ينهضون هو قولهم « الحمد لله » وهم يخرجون الى حامل « الابريق » بالخارج لغسل أيديهم مرة أخرى ، ولكن هذه المرة بشدة أكثر مع استخدام الصابون لإزالة آثار رائحة الطعام .

وتبع « الحلو » (الحلوى) بعد قليل ، ثم الشاي الذي يقدم في أكواب صغيرة ضيقة الوسط ومزينة بلون ذهبي من أطرافها العليا .

ولا تكتمل وجبة قبل تناول « القهوة » المقدمة في أنية من الفخار اسمها « الجبنة » وقد حليت بأطواق الخرز الملفوفة حولها ، وتقدم في اكواب صغيرة « فناجين » تفوح منها رائحة البهارات القوية النكهة .

وأصبح الوقت عصراً متأخراً . وبحكم طبيعة الطريق ، فقد كان من الحكمة ان يعود الراكب الى الفاشر قبل غروب الشمس . ومع التعبير عن الشكر بعبارة « عامرين باذن الله » ، ودعت الجماعة الشيخ ابراهيم وباقي أفراد القرية وركبوا عربتهم وعادوا إلى الفاشر ، وهم يتابعون مرجمهم أثناء الطريق .

شعر إلياس بغاية الامتنان لحفاوة وحرارة الاستقبال الذي وجدته عند زعماء دارفور . بما انهم لم يكونوا يعرفونه من قبل ، وكان هناك ضباط آخرون غيره في المنطقة ، بما فيهم ضباط رفيعو الرتب في رئاسة القوات المسلحة بالفاشر ، فان التفسير الوحيد لتلك الحفاوة والترحاب هو انه جنوبي وانهم يتعاطفون معه كإفريقي وغير عربي . ولا بد لذلك من التأثير الواضح على نظرتة السياسية .

وتساءل إلياس الى اين ينتهي كل ذلك ياترى . ومع انه يقدر وجهة النظر وربما يتعاطف معها ، إلا أنه يعبر عن التزام شخصي بالاتجاه نحو الوحدة من خلال احترام التعددية . لكنه قدر أنه من دواعى وظيفته أن يطلع هو على هذا المظهر العام من مظاهر الموقف القومى العام .

الفصل الرابع عشر

- كان ذلك بسبب ما يبدو من تصاعد السياسة العرقية ، فقد توجس زملاء إلياس ،
ربما بخاصة كبار الضباط ، من العلاقة الوثيقة بين إلياس وزعماء دارفور . فبعد أيام من
رحلة النزهة إلى قرية الحاكم ، دعاه قائده ، العميد عبد الباقي محمود ، إلى مكتبه .
شرع القائد في الحديث وعلى وجهه ابتسامة ودودة في مخادعة ، فقال :
- أخى إلياس ، قد علمت بأنك قد ذهبت مع الحاكم إلى قريته في عطلة نهاية الاسبوع
الماضية .
- نعم ياسيدى .
- كذلك سمعت أنك قد التقيت به وأعيانا آخرين على العشاء قبل عدة اشهر؟
ورد إلياس بالإيجاب .
تساءل القائد بصورة مهذبة نوعاً ما : إنى أكره أن أتطفل على الشئون الخاصة لضباطى ،
ولكن ألا تعتقد أنه من الضروري أن تخطرني أنت بصورة مباشرة عن مثل هذه العلاقة الوثيقة
بزعماء المنطقة ؟
- لقد فكرت في ذلك ياسيدى ، ولكنى رأيت انه بالاضافة الى ان الامر شخصى ، فقد لا
يكون مناسباً في حق أولئك الزعماء ان أبلغ عن شئونهم الخاصة بهذه الطريقة .
قال إلياس ذلك في محاولة لإجابة السؤال بأكبر درجة ممكنة من الصدق .

علق القائد بقوله :

- إنى أقدر اهتمامك بخصوصية شئونهم الخاصة .. أم لعله شعور بالولاء منك تجاههم .
ولكن الا تعتقد انك مدين بالولاء لنا ايضا ؟ بل على التحقيق ، الا ترى واجبك بالولاء في
الدرجة الاولى هو تجاه الجيش وليس تجاه اصدقائك ؟

حاول الياس الشرح بقوله :

- ياسيدى ، ما كنت اعتقد ان في الامر تنافسا بين هذا الولاء وذاك ، وانما فكرت ان الامر
غير هام بالنسبة للجيش .

- ولكنك قلت يا اخ الياس انك فكرت في اطلاقى على الامر في البداية ، ثم صرفت النظر عن
ذلك لانه سيكون من غير العدالة والادب مع اولئك الافراد . اليس في ذلك تنافس بين هذا
الولاء وذاك ، وأنتك قد قررت أن تعطيمهم الأسبقية على الجيش ؟

- ياسيدى ، حياتى فى المجالين منفصلة تماما عن بعضها البعض ، وأن قبولى لدعوات من
هؤلاء القوم لا يؤثر على واجباتى بحال من الأحوال . وما زلت لأرى أى علاقة بين هذين
الأمرين .

وقرر إلياس ان دوره في الهجوم قد اتى ، الا يقولون ان الهجوم هو خير وسائل
الدفاع ؟ وقد شعر إلياس بالغضب إذ انه من الواضح ان القائد كان يتجسس عليه ،
فسأل :

- وعلى كل حال ، كيف علمت بالامر ؟ من الذى أخبرك به ؟

- الحاكم الدرقاوى .

- الدرقاوى .

كرر إلياس الرد لنفسه بهدوء وتساءل عن السبب الذى جعل الدرقاوى يقرر انه من
الضرورى ابلاغ القائد بالامر . ولوهلة ، أحس إلياس بشعور بالخيانة ، لكنه سرعان ما
قرر انه لابد ان يكون هناك سبب معقول لتصرف الحاكم .
واصل العميد عبدالباقي الحديث بعد فترة قصيرة من الصمت .

- وعلى كل حال ، فقد رايت أن اشركك في افكارى يا اخ إلياس لأن الأمر من تلك المواقف
الدقيقة التى تختلف فيها الآراء والمشاعر بسهولة . وفي نهاية الأمر ، فان تقديرى أنت هو
العنصر الحاسم . ولكنى أريد أن تعلم أن واجباتنا كجيش قومى تقتضى الحساسية . لابد
أن نحاول الابتعاد عن اولئك الذين قد يسعون لخدمة اغراضهم الخاصة عن طريقنا .
إنى لا أقول أن هؤلاء القوم بصفة خاصة لهم تلك الاغراض ؛ ولكنك ولاشك توافقنى أن
هذا الاقليم في غاية التنوع . ومع أن الحاكم الدرقاوى قد تم انتخابه ، فانه ينتمى إلى
قطاع من القطاعات التى قد تصطدم بنا في يوم من الأيام . أرجو أن ترى ما أهدف إليه .
انى ادعوك فقط لاخذ ذلك في الاعتبار .

- اشركك ياسيدى .

تحدث إلياس بصوت مخلص ، وهو سعيد بأن المسألة قد انتهت إلى حالة من التصالح
والانسجام . وهنا صرفه القائد .

احتفظ إلياس بمذكرة يومية لمناشطه منذ وصوله إلى دارفور ، وقد سبق أن كتب عدة
خطابات للفريق خالد بث من خلالها المعلومات التى رأى انه من المفيد اطلاعه عليها . فقد

كتب ، مثلا ، عن لقائه بعثمان وعن اجتماعه بالحاكم والشخصيات البارزة الأخرى في دارفور . وبالطبع ، أبلغ الياس عما قدر انه مناسب وحرص على استبعاد الاشياء التي شعر بانها قد تكون مسيئة للوزير . فمن الواضح انه لم يكن يقدر على ابلاغ آراء قادة دارفور عن الموقف العرقي في البلاد والحاجة الى موقف موحد بين الجنوب والغرب . ذلك سر بينه وبين قادة دارفور . كذلك كتب إلياس للوزير عن زيارة عطلة نهاية الاسبوع مع الحاكم ورد الفعل الذي وجدته من القائد ، فقد قدر انه من الراجح ان يبلغ القائد عن الامر الى رؤسائه في الخرطوم ، ورأى انه من الحكمة ان يضع روايته هو في المضابط الرسمية . الا انه اكتفى بابلاغ الوقائع فقط ، ولم يطلب رأيا أو عملا من الوزير .

ومضى العام سريعا وإلياس يجمع بين اعبائه المعتادة والصداقات الشخصية ليس مع زعماء دارفور فحسب ، وإنما مع الناس العاديين . وقد اثبت عثمان جار النبي بصورة خاصة انه صديق مخلص وذو علاقات واسعة في كل طبقات المجتمع . وكلما احتاج إلياس إلى تفسير للامور أو رغب في إنماء رؤية خاصة في التكوين العرقي والقبلي المعقد في المنطقة ، فقد كان يلجأ إلى عثمان في ذلك ، ولم يخيب عثمان امله ابدا . كما انه قد وثق في إلياس لدرجة أنه كان يعبر في حرية وصراحة عن رأيه في التحيز العرقي في سلوك قوات الأمن بقيادة العميد عبد الباقي محمود . وقد أبلغ إلياس أيضا عن المعلومات التي تحصل عليها من عثمان ، لكنه صاغها بصورة لا تضر بأي شخص .

وذات يوم تلقى إلياس نشرة دورية من العميد عبد الباقي تبليغه عن اجتماع بين الضباط وقائد قوات الشرطة لإطلاعهم على الموقف الامنى في الاقليم . تم الاجتماع في غرفة المؤتمرات حيث جلس الحضور في شكل « حدوة حصان » . كان كل الحضور من الضباط ، وجميعهم ، فيما عدا إلياس ، من الشمال مما يعرف بالقبائل العربية من منطقة البحر (أواسط نهر النيل في شمال السودان) وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث العابر عندما دخل عليهم العميد عبد الباقي بصحبة قائد قوات الشرطة ، العميد يحيى عبدالعال ومعه ضابط شاب يحمل أوراقا ، ولعله السكرتير أو المساعد الشخصي لقائد الشرطة . وقف الضباط في حالة انتباه وادوا التحية العسكرية ، ورد عليهم القائد التحية ثم اشار إليهم العميد عبد الباقي بالجلوس .

قدم العميد عبد الباقي العميد يحيى في اقتضاب وسرعان ما شرع الأخير في تحليل الموقف الذي يشكل تهديدا خطيرا ليس لأمن واستقرار الإقليم فحسب وإنما لأمن واستقرار كل القطر .. واصل العميد يحيى الحديث بتقديم سلسلة من الاتهامات المدعومة ، كما قال ، بالوثائق التي تثبت ان الدينكا من بحر الغزال يعدون لهجوم للانتقام من عرب الرزيقات عندما يتحرك الرزيقات في هجرتهم الموسمية الى « بحر العرب » . كما قال ان البيئات توحى ايضا ان بعض الوحدات العسكرية من القيادة الجنوبية وقوات شرطة بحر الغزال متورطة في الامر لدرجة انها قد تكون القائمة على تدريب الافراد من الدينكا . ويقال إن الدينكا انفسهم يبيعون ماشيتهم من أجل الحصول على السلاح . ويزعم ان بعض السلاح يأتيهم من مصادر رسمية .

واصل العميد يحيى الحديث . وإذا لم يكن هذا سينا بالقدر الكافي . فلدينا معلومات تفيد بأن

بعض العناصر من القبائل غير العربية في هذا الإقليم على صلة بالدينكا وتتعاون معهم ضد العرب . وبالتحديد هناك زعم أن بعض الأفراد من الفور يمررون المعلومات عن تحركات القبائل البدوية في دارفور، والرزيقات بصفة خاصة، بما في ذلك الطرق التي يحتمل أن يتخذوها في العام المقبل . ويزعم أيضاً أن بعض الفور يساعدون الدينكا للحصول على الأسلحة النارية من ليبيا . وعلى ما يبدو ، فإن هؤلاء الأفراد يقايضون السلاح بالماشية ، وكل العملية مربحة لهم اقتصادياً ، ولكن يظهر أن الدوافع أكثر من العائد المالى ، وفي الحقيقة ، فإن هذه التجارة تنبعث من اعتبارات السياسة العرقية هنا في دارفور وعلى نطاق القطر كله . لهذا السبب فإن الأمر يتجاوز بصورة واضحة اختصاص الشرطة ويقتضى تعاوننا مع القوات المسلحة .

وصفق إلياس لما سمع ، فلو كان صحيحاً ، فإن الموقف في غاية الخطورة على التحقيق . ولم يملك إلياس إلا أن يتذكر الحديث الذي سمعه عن الحاجة للتضامن بين الجنوبيين وغير العرب الذين يعيشون في دارفور . ولكن كان هناك اختلاف جذرى ، على الأقل من حيث الدرجة والمقدار ، بين أى شىء سمعه هو شخصياً وما يزعمه رئيس الشرطة الآن . فكل ما قاله العميد يحيى يمكن ان ينطبق وبسهولة على أصدقاء إلياس ، وعثمان بخاصة . ورغم ذلك ففى كل محادثات إلياس مع عثمان وآخرين ، لم تصدر أى إشارة ، دع عنك النقاش الصريح ، لدلائل تعاون عسكري بين الفور والدينكا ضد الرزيقات . هل كان ذلك لأن أصدقاءه لم يثقوا فيه بعد بالقدر الكافى ليجعلوه موضع سرهم ؟ أم لعلهم قد عرضوا عليه الأمر . لكنه فات عليه لفرط سذاجته ؟ أم لعله من الممكن أن أحدهم قد اختلق خطة بارعة لتوريط الفور والدينكا في مؤامرة كبرى تبرر اتخاذ اجراءات منعية ؟ كان إلياس أكثر ميلاً إلى تصديق هذا الاحتمال الاخير ، لكنه فضل الاحتفاظ بذهن مفتوح .

واصل العميد يحيى الحديث بقوله :

- والآن نأتى لما أعتقد أنه الموضوع الأكثر صعوبة من وجهة نظر سلطات الشرطة . ان هذه المسألة أكثر صعوبة مما يمكن معالجته بسهولة وذلك ليس فقط لان الأشخاص المتورطين يعملون على مستوى الاقليمين ، مع احتمال انتشار المتعاونين معهم في انحاء اخرى من البلاد وبالخارج ، وإنما أيضاً لأن الاشخاص المتورطين هنا في دارفور يمتدون إلى أعلى مواقع السلطة الاقليمية .

ووقتها فهم إلياس ان أصدقاءه ، عثمان وأخاه قاسم وربما الحاكم نفسه ، جميعاً متورطون في الأمر . ورغم ان إلياس لم يصدق ، إلا ان العميد يحيى ظهر مقنعاً بما يقول . ماذا تراه يصدق ؟

واصل العميد يحيى الحديث بقوله :

- لن أصل إلى درجة ذكر الأسماء في هذه المرحلة ، ولكنى أعتقد انكم تقدرين تماماً على تصور الصعوبات التى أتحدث عنها . ماذا ترانا فاعلين ؟ بهذا السؤال اختتم الحديث وأنتظر ردىكم .

كان العميد عبد الباقي اول من بادر بالرد فقال بأنه يعتقد ان مصلحة الأمة تفوق كل الاعتبارات الاخرى . لا يعلو أى شخص فوق القانون ، ثم اضاف التحذير بعدم الافصاح عما دار في ذلك الاجتماع الى أى شخص آخر .

تحدث احد الضباط فقال :

- يبدو لي ان أدق نواحي المسألة كما قدمها لنا العميد هي خطورة وإلحاح الموقف ، فقد تنجم عن العجز عن التصرف الحاسم والتسريع أضرار أكبر بكثير مما ينبغي ان يكون .
وذهب ضابط آخر إلى أبعد من ذلك بقوله :

- ايها العميد ، إنك تبدو وكأنك تعلم بالتحديد هوية أولئك الاشخاص ، على الأقل في هذا الاقليم . فما هي الصعوبة في القبض عليهم ؟

وضحك الحضور :

سأل العميد وهو ينظر تجاه عبدالباقي :

- هل أجيب على هذا السؤال ؟

وعلق العميد عبدالباقي :

- حسنا ، اعتقد ان الاجابة مضمنة فيما قلته من قبل ، لكن ربما من الأفضل ان نستمع اولاً إلى المزيد من التعليقات ثم نعود لناخذ ردي .

وعلق آخر بصورة شبه هزلية :

- أرجو ان يكون احدهم قد أطلع الرزيقات عن الخطر الذي ينتظرهم .
وتبع تعليقه ضحك ساخر .

وتساءل إلياس في نفسه هل يتحدث أم يظل صامتا ، ولكن من الواضح من وجوه كل الحاضرين في الغرفة أنهم يتوقعون منه ان يقول شيئا . وقرر ان صمته قد يفسر بأنه يخفى شيئا ، ولكنه قدر أنه لو تحدث على الإطلاق ، فعليه ان يقول شيئا مفيدا . وقرر ان يقول ذلك حتى لو لم يرض قاداته وزملاؤه عما يقول .

- سيدي ، من الواضح ان الموقف الذي تصف في غاية الخطورة ، ومن المؤكد ان تكون التبعات في غاية الشدة ، سواء اتخذت إجراءات منعية أم تطور الموقف إلى نتائج المنطقية . لقد استمعت لحديثك جيدا وسمعتك تستخدم كلمات مثل « يبدو » و« يحتمل » و« يزعم » وما إلى ذلك من عبارات . إنك توافقني ان هذه الكلمات غير جازمة ولا توحى بالبيئة القاطعة . لا أود ان أظن في صحة تقييمك العام للموقف ، وخصوصا لأن الخطر كبير لدرجة تقتضى اتخاذ أقصى الاحتياطات . ولكن وبالتحديد لأن الاتهامات في غاية الخطورة ، ولأن واجبنا هو عدم التعرض لحياة الأفراد بهذه الشدة ، فيبدو لي أن الحاجة لدقة المعلومات تصبح أمرا حيويا . فمثلا هناك تلميح إلى احتمال القبض على بعض الاشخاص . فإذا لم يتم القبض عليهم بموجب سلطات استثنائية ، وهو أمر خاضع للضوابط القانونية ، فاني لا أرى كيف يمكن اتخاذ إجراء ضدهم على أساس بيانات ظرفية واحتمالية لهذه الدرجة بدون المغامرة بحدوث آثار أسوأ وأشد خطرا .

وتبع الصمت ذلك القول ، فكان من الصعب معرفة ما إذا كان إلياس قد نجح في إقناع أى شخص أم أنه قد أكد ما كانوا يشكون فيه ، لاعتبار أنه من الدينكا ولأنه صديق معروف للاشخاص المتورطين في المؤامرة المزعومة . وبعد فترة صمت ملحوظ ، أجاب العميد يحيى في أدب مخادع .

- أخى الضابط ، إنى أؤكد لك اننا حريصون على عدم إلحاق الجرم الجنائي بأشخاص أبرياء .

وقاطعه الياس بقوله :

- إنى لم أقل ذلك ، كل ما أقول هو أن التصرف على اساس بيئة غير كافية للتدخل فى حياة اناس أبرياء ، وخصوصا من ذوى النفوذ للدرجة التى توحى بها أنت ، فإن ذلك يثير مخاطر الظلم ويهدد الامن العام . إن هذا لا يعنى بأنى أعتقد بأنك حريص على انتهاك حقوق اشخاص أبرياء .

بدا العميد يحيى متمالكاً لأعصابه وهو يتحدث : على كل حال ، دعنى أطمئنك بأن قصدنا من وضع الأمر أمام هذه المجموعة هو التشاور والوصول إلى أفضل السبل لخدمة المصلحة القومية .

والآن ، دعنى أرد على بعض الأسئلة التى اثرت . أولا ، أمر اعتقال من نشك فيهم . ما قاله الاخ هنا حق . لا بد من التأسيس الصحيح جدا لآى قبض وعلينا اتخاذ التحولات اللازمة ضد أى ردود فعل أو آثار محتملة . هل يتم هذا القبض والاعتقال . ومتى يكون ذلك هو السؤال الهام والجدير بالبحث الجاد . أما عن التعليق حول أخطار الرزيقات ، فأنا لا أعرف الإجابة ، ولكنى سأدهش إذا لم يكن لهم شبكة استخباراتهم الخاصة والتى من الراجح ان تكون واسعة الاطلاع . وفى الحقيقة ، هذا سبب اضافى لخطورة التأخير الزائد فى العمل .

دعنى أضيف تعليقا عاما . إن السبب وراء إحضارنا لهذا الأمر لعناية القوات المسلحة والشرطة معا هو ليس مناقشة ما ينبغى عمله حول المسائل الأكبر فحسب ، وإنما لتسهيل عملنا من أجل أمن المنطقة . إن العلم بما يجرى سرا من الوسائل الناجعة لضمان عدم بروزه إلى السطح . لذلك ، لا تعتقدوا بأننا سنظل مكتوفى الأيدى فى انتظار انفجار القنبلة الزمنية . من المؤكد أننا لن نفعل ذلك .
وأضاف العميد عبدالباقى القول :

- أعتقد أن الاخ قد وضع أصبعه على مفتاح المسألة . ينبغى أن يفتح ما سمعناه اليوم اعيننا إلى ما يدور فى هذا الإقليم وفى الإقليم الجنوبى . إن هذا فى حد ذاته جانب هام من جوانب المسألة . أما عن المسائل الأكبر ، كما يصفها الاخ يحيى ، فإن واجبنا هو إبلاغ الامر الى سلطات الامن القومى بالخرطوم وانتظار تعليماتهم أو ارشاداتهم . فإذا لم يكن لآى شخص آخر اضافة لما قيل ، اقترح ان تكون هذه هى الخلاصة الرئيسية لاجتماعنا .
إن جهاز الامن القومى الذى يرفع إليه التقرير هو الذى يترأسه اللواء إدريس عبدالجبار ، والذى يشاع عنه أنه منافس للفريق خالد مما يسبب التوتر بين المؤسستين اللتين يقودانهما . ورغم أن وزارة الدفاع تعنى أكثر بالتهديدات الخارجية للامن بينما يعنى جهاز الامن القومى بالتهديدات الداخلية فلاشك فى تداخل وظيفتهما مما يوجب التعاون الكامل بينهما .

وكان إلياس شخصيا متنازعا من عدة جهات ، فهو يعلم أن الموقف الذى ناقشوه يعنى أصدقاء شخصيين له هو ، ولذلك ينشأ السؤال عما إذا كان عليه أن يقول أى شىء لهم . وقرر أنه لا يجوز له ذلك لأن المعلومات كانت سرية بصورة قاطعة . وماذا عن إبلاغ الامر للفريق خالد ؟ فهو يعلم ان التقرير الرسمى سيذهب إلى جهاز الامن القومى ، وربما تذهب نسخة منه إلى وزارة الدفاع ، ولكنه شعر أيضا بواجب إبلاغ الفريق خالد بصورة شخصية ومباشرة . واقنع نفسه أن ذلك لا يشكل افشاء للأسرار الرسمية وان تقريره

هو ، على كل حال ، قد ينجح في إضفاء بعض الوزن والاعتدال الذي قد يفيد أصدقاءه بصورة من الصور .

وهكذا كتب إلياس تقريراً أعاد فيه رواية الوقائع كما قدمها العميد يحيى ثم أضاف تحليلاًلقى بعض الضوء على الإطار السياسى والقبرى والاقليمى الواسع والمتداخل الذى ينبغى ان ترى من خلال تلك الوقائع . وبصورة لبقة ، كان الياس يشير الى المواقف الفرقية الخفية التى قيل له عن وجودها والتى اعتقد ان التقارير المقدمة قد دغمتها بصورة مقصودة أو غير مقصودة . فقال إلياس :

- فى تقديرى أن هؤلاء القوم يطلقون الكثير من الدخان من نار وأهية ، وتنطلق عربات إطفاء وصفارات إنذارها على أشدها ، لتطفىء الحريق . لعل ذلك لا يضر شيئاً فى حالات الإنذار غير المؤسس عموماً ، ولكن فى الحالة الخطيرة للأمن القومى ، فان الرد الزائد عن الحاجة قد يهدد ، فى تقديرى ، الأمن الفردى والأمن القومى .

كان الياس يعلم ان تقريره هو وتقرير سلطات الامن يذهبان الى الخرطوم فى نفس الوقت ، وظل الجميع فى انتظار الرد من العاصمة . وتحولت الأيام الى أسابيع والأسابيع الى شهور ، واعتقد إلياس أن الخرطوم كانت أكثر حكمة من السلطات الاقليمية وأن الامر قد سمح له بأن يموت موتاً طبيعياً .

وفجأة ، ذات يوم ، دعا العميد عبدالباقي الضباط لاجتماع فوق العادة ، وشعر الجميع غريزياً بأن الاجتماع يتعلق بالموقف الأمنى ، فأسرعوا الى قاعة الاجتماعات فى ترقب كبير .

دخل العميد عبدالباقي وجلس فى صمت لدقائق وقد تركزت عليه العيون ، وكأنه بذلك يريد أن يزيد من توترهم ويعمق لديهم الشعور بخطورة الأمر الذى سيفصح عنه بعد قليل . وأخيراً قال :

- ايها الإخوة ، كما تتوقعون ، فعندى لكم اخبار خطيرة . لا ينبغى ان تدهشوا للأمر لانكم ولا شك تذكرون اجتماعنا الاخير مع العميد يحيى عبدالعال . لقد ردت الخرطوم . صدر لنا الأمر بأن نكون على أهبة الاستعداد اعتباراً من اليوم لأن إجراءات صارمة سوف تتخذ . سيتم القبض خلال الايام القليلة القادمة على شخصيات هامة فى هذا الاقليم وفى بحر الغزال وفى الخرطوم وأنحاء أخرى أيضاً . وعلينا التحوط ضد أى اضطرابات قد تنتج عن هذه الاعتقالات .

وتابع العميد الحديث بتوزيع المهام ، لم يحصل إلياس على أية مهمة . تساءل فى نفسه هل يسأل عن السبب لكنه صرف النظر عن ذلك . وعندما انتهى الاجتماع وأخذ الضباط فى الانصراف ، دعا العميد عبدالباقي ليبقى :

- الاخ إلياس ، تلاحظ أنى لم أوكل لك أى مهمة .
ثم قال وهو يأخذ صحيفة من الورق من الملف ويناولها لإلياس .
- اقرأ هذا .

قرأ إلياس :
- إلى العميد عبدالباقي محمود ، لقائد منطقة دارفور . عليك الإعداد للسفر الفورى للضباط إلياس بول مالك بالطائرة للخرطوم إذ ان خدماته مطلوبة عاجلاً بالرئاسة . لك التحية . رئيس هيئة الأركان .

قرا إلياس البرقية دون أن يتفوه بكلمة .
- ستكون طائرة من طراز هيركيوليز جاهزة لك في تمام الساعة من صباح الغد . يمكنك
الانصراف عن المكتب في أى وقت اليوم لجمع حوائجك . لك التوفيق .
- لك الشكر ياسيدى .

تمكن إلياس من قول ذلك وهما يفترقان ، إذ كان مندهشا لدرجة لم تمكنه من ان يقول
اكتر من ذلك .

قرر إلياس السفر دون ان يودع اصدقاءه في دارفور ، لأنه قدر ان ذلك هو أحسن
وسيلة لابلاغهم بشعوره عن الظروف التى صاحبت رحيله .
لم يتمكن أى شخص في رئاسة القوات المسلحة من ان يشرح لإلياس السبب وراء
استدعائه المفاجيء . حتى أن العميد على نفسه لم يعلم أى شيء ، وقد حضه إلياس على
عدم عمل أى شيء وأن يتركه هو ليكتشف الامر لنفسه . ولم يكن حتى رئيس هيئة الاركان
الذى وقع برقية الاستدعاء ، لم يكن لديه أى تفسير للأمر . وكل ما قاله ردا على
استفسار إلياس هو :
لقد نفذت تعليمات الوزير .

وبعد اللقاء مع رئيس هيئة الاركان ، قرر إلياس أنه مادام الأمر صادرا من الفريق
خالد ، فعليه توقع التفسير منه هو . لذلك سجل طلبا لموعد لمقابلة الوزير وانتظر . ظل
الياس منتظرا بالخرطوم لأربعة أيام عندما سمع فجأة خطاب اللواء ادريس عبدالجبار إلى
الامة حول الموقف الأمنى . قال اللواء ادريس :

- لقد ظللنا نراقب تطورات الموقف الخطير خلال الشهرين الماضيين ، ونحن ننتظر أن
يعود الاشخاص المعنيون الى صوابهم وينهوا تأمرهم . ولكن بكل أسف ، فيبدو أنهم قد
أساءوا فهم صمتنا واعتبروه ضعفا . فقد تابعوا التآمر في داخل حدود كل إقليم وعبر
حدود الاقاليم لدرجة أنهم قد مددوا شباكهم الى خارج حدود البلاد .

مواطنى الاعزاء ، إخوتى وأخواتى ، بقلوب يملؤها الحزن نشعر بأن واجبنا هو اتخاذ
الخطوات الحاسمة والصارمة لإنهاء هذه الخيانة الخبيثة قبل أن تلتهم الامة . لقد قررنا
القاء القبض على عدد من الافراد في دارفور وبحر الغزال وبينهم شخصيات بارزة للغاية .
وفي الوقت المناسب سوف نقدمهم للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى . لقد كانت فلسفتنا
وممارستنا هي إخطار شعب هذا الوطن بكل نواحي الموقف الأمنى وبأى إجراءات قد
نتخذها نيابة عنهم ، وسوف نواصل هذا العمل . وفقنا الله لما فيه خير البلاد .

وسرعان ما علم إلياس أن من بين من تم اعتقالهم رئيس مجلس الشعب الاقليمى
بدارفور ورجل أعمال بارز في الفاشر ومحافظ مديرية بحر الغزال وسياسى جنوبى بارز
بالخرطوم وعشرات الاشخاص من الغرب والجنوب . ولم يراود الياس أدنى شك أن
عثمان هو رجل الاعمال وأن أخاه ، رئيس مجلس الشعب الاقليمى ، من ضمن من تم
القبض عليهم .

وكانما تحول النهار الى ليل ، حل الظلام مكان الضوء ، لم يتمكن إلياس من فهم ما
حدث . وفجأة ، أصبح الوجود في السودان في ذلك الوقت وكأنه كابوس مزعج ، الا أنه لم
يكن نائما وانما كان متيقظا ويعيش الكابوس في الواقع المحسوس . وأخيرا بلغه الخبر
بأن وزير الدفاع ، الفريق خالد ، سيقابله . وعندما دخل المكتب وأدى التحية العسكرية ،
نهض الوزير ودار حول منضدة المكتب ليضم الضابط الشاب اليه ، ثم سأل إلياس :

- متى حضرت ؟

- منذ حوالي أربعة أيام خلت .

- أربعة أيام ؟

كرر الوزير القول في دهشة .

- لقد بلغنى طلبك المقابلة بالامس فقط . لقد أردت أن أراك بمجرد عودتك .
أشار الى الياس بالجلوس على أحد المقاعد أمام منضدة المكتب ثم قال :
- حصل خير .

وهي عبارة توحى بأنه « لا بأس فيما حدث » ، الا أن الياس كان يأمل أن تعنى
العبرة أكثر من مجرد المصطلح السائد ، وأن يكون كل شيء على ما يرام حقا .
كان من الواضح أن الفريق قد طلب ملف الياس لأنه فتحه وقلب صفحاته اثناء
تبادلها عبارات التحية .

- أتصور أنه لاداعي لأن أسألك أنت عن أحوالك لأنك في غالب الحال ترغب أن تعلم عما
يحدث .

ابتسم الياس بالموافقة وهو ينظر نحو الوزير في انتباه شديد . أخذ الوزير بعض
التقارير من الملف وناولها لالياس وهو يقول .
- اقرا هذه أولا وبعد ذلك سنتحدث .

قرأ إلياس عدة خطابات من العميد عبد الباقي عن سلوكه هو ، وقد ابلغت تلك التقارير
عن وجبة العشاء والنزهة مع الحاكم والاعيان الآخرين ، وعن الصداقة العامة التي
نشأت بين قادة دارفور والضابط الشاب من الجنوب . وكذلك عن الاسباب وراء تلك
العلاقة . ومع استخلاص أن العلاقة كانت ولاشك منبعثة من بواعث عرقية ، حلت
التقارير الآثار المترتبة على ذلك نحو أمن المنطقة وصحة موقف الجيش في دارفور . واصل
العميد عبد الباقي الحديث ليقول بأنه لا سبيل له للعلم بالمعلومات السرية التي ينقلها
الضابط الشاب الى اصدقائه وما قد يعنيه ذلك للمحافظة على السلام والامن في الاقليم .
وهناك البعد الجنوبي . بحكم أن مشاكل المنطقة كثيرا ما تعبر حدود الاقليم في علاقة
الدينكا بالعرب ، وبحكم الابعاد العرقية لعلاقة الشاب بقيادة قبائل الفور ، فاننا نخشى أن
يكون الهدف الاكبر أو النتيجة هي تهديد مصالح العرب ولمصلحة خصومهم ، الدينكا .
وانتهى التقرير الاخير بالقول . « ان القرار متروك لكم أنتم في القيادة العامة ، خصوصا
واننا نملك ما يحملنا على الاعتقاد بأن الشاب من صنائع نائب رئيس الجمهورية الذي
نعلم أنه يرسل له تقارير دورية . ولكن حسب تقديرنا الرسمي ، فان وجود هذا الضابط
الشباب هنا يشكل عنصر نشاز لمهامنا على أحسن تقدير ، وفي أسوأ الاحوال يشكل تهديدا
للامن . يحفزنى الشعور بالواجب والولاء للوطن للتوصية بنقله الفوري من هذا الاقليم
والله على ما أقول شهيد » .

فرغ إلياس من قراءة الخطابات واستدار تجاه نائب رئيس الجمهورية وهو لا يجد ما
يقول إطلاقا .

قطع الفريق الصمت بقوله :

- لا حاجة لك بأن تقول أى شيء ، فأنا أعلم بتفاصيل ما يجرى وحقيقة الموقف . وما أريد
لك أن تعلم هو أنى قد وافقت على عودتك لتقديري للصعوبات . بل والخطر الذى تتعرض
له . لقد كتبت تعليقاتى الخاصة على هذه الخطابات وهى موجودة بالملفات . أمل أن تتمكن

من تخمين ما تحويه تعليقاتى . انا بالطبع لا أملك الاطلاع على المستقبل ، ونحن دائما ما نركب المخاطر فيما نفعل . ولكنى أعتقد أنه مع وجود هذه التعليقات منى فى ملفاتك ، فإن مستقبلك المهنى لن يتأثر بهذه الملاحظات المثيرة للسخرية .

ثم تحول الى صورة ايجابية اكثر لما يتصوره من خطط لالياس وقال : والآن ، دعنى اخبرك بأفكارى حول الموقف . سأتجاوز موقعى الرسمى واخاطبك كأخ أصغر .»

وخفض نظره فى تخرج وهو يتخذ معه صفة شخصية «أعتقد أنى أملك أن أقول بأنى الآن أعرفك معرفة طيبة . من المؤكد أنى أحمل لك الاعجاب الكبير بل والمحبة منذ أن رأيتك لأول مرة فى قاعة الدرس .. انك شاب له مستقبل ، ولا أريدك أن تسقط فريسة لجنون الاضطهاد السياسى الذى يبدو وكأنه يفرض هذا النظام . كيف يمكن للمرء تفسير هذا الرد المفرط والمثير للسخرية بخلاف أنه محض جنون ؟

على كل حال ، فإن ما قررته أنا ، والذى أرجو أن يتفق مع مصالحك وطموحك ، هو ارسالك فى بعثة دراسية الى الولايات المتحدة الامريكية لدراسة ومواصلة البحث حول امر القيادة فى بلد متنوع عرقيا وثقافيا مثل بلدنا هذا . من الواضح ان الجيش من حقائق الحياة الهامة فى تطور البلاد النامية ، ولا يستثنى السودان من هذه القاعدة . وفى حدسى ، رغم أننا قد نمر الآن بمرحلة يتحول فيها البندول من جهة الى أخرى حول دور القوات المسلحة ، فإنها ستظل هامة وحاسمة . وإذا كان للجيش أن يلعب دوره البناء فعليه أن يحسن من نوعية قيادته . نحن بالطبع لا نقدر على تعليم الجميع ، ولا نستطيع اعداد كل ضابط للقيادة . ولكن علينا أن نبدأ من نقطة ما ، وأنا أضع ثقتى فىك أنت . لم يصدق إلياس ما يسمع ، فما ظهر وكأنه طريق الهلاك قد تحول فجأة الى بوابة الفرصة الذهبية ، فقال :

- ليست لدى الكلمات الكافية لشكرك يا سيدى وكل أملى هو أن أثبت جدارتى بثقتك .
واصل الوزير الحديث بقوله - لقد كتبت الى مسشارنا العسكرى فى واشنطن ليجد جامعة تعتبر تعليمك العسكرى والدبلوم الذى حصلت عليه من الاكاديمية وخبرتك العملية ، تعتبر كل ذلك فى تقرير قبولك للدراسات فوق الجامعية . أعطنى المستندات اللازمة لإرسالها الى الملحق العسكرى وسننتظر رده . وفى هذه الاثناء ، اقترح أن تذهب فى عطلة .

أبلغ إلياس هذه التطورات الايجابية الى العميد على الذى رد بخليط من المشاعر . فهد وافق على الطريقة التى عالج بها الفريق الموقف ، بل وسر غاية السرور لاحتمال الدراسة بالولايات المتحدة . لكنه كان حزينا لمهزلة دارفور برمتها ، فقال بشعور مأساوى .
- انى فقط لا أدرى ماذا يحدث لهذا البلد .

وبعد صمت كئيب ، سأل على إلياس عما ينوى أن يفعل خلال عطلته .
- أرجو أن أتمكن من الذهاب إلى اهل .

رد عليه على بصورة قاطعة :

- لا تفعل ذلك ، فلا داعى للمغامرة بما يبدو فى غاية الوضوح . الا ترى أنهم قد شرعوا فى مطاردة كل من يقدر على الصاق التهم به ؟ كيف تنجو من المشاكل فى منطقة غالبا ما يعتقدون بأنها منطقة مواجهة وصراع .
احتج إلياس بقوله :

- ولكن اذا تحققت هذه البعثة الدراسية للخارج وسافرت فيها ، فلن أتمكن من مشاهدة اسرتى لعدد من السنوات .

ورد على الحجة بقوله :

- وماذا في ذلك ؟ إن الأمر لا يستحق المغامرة يا بنى . ابق هنا حيث يوجد على الأقل الناس القادرون على منع هذا الجنون من تجاوز حدود معينة .

وافق إلياس باعتبار أنه سينفق أغلب وقته في الأطلاع بمكتبة جامعة الخرطوم استعدادا لفرته الدراسية بالخارج . وبعد ظهر أحد الأيام اتاه صديق برسالة مفادها أن الحاكم الدرقاوى يبحث عنه وأنه يرغب كثيرا في مقابلته بمنزل ضيافة اقليم دارفور والكائن بالخرطوم بحرى ، وذلك في عصر أو مساء اليوم التالى . سعد إلياس كثيرا لفرصة مقابلته للحاكم مرة أخرى ، لما كان يشعر به من مشاعر الاحترام العميق والود تجاه الرجل الذى كان يراه نموذجا للقائد الشعبى . فقد رأى إلياس في الحاكم القدرة على معاملة الآخرين كأنداد له ووجد فيه خصال التواضع واحترام شعور الغير مع الحزم والوقار وجاذبية الشخصية القيادية .

وجد إلياس الحاكم والسلطان ابراهيم الدرقاوى جالسين خارج المنزل على ضفاف النيل الازرق ، وكان معهما شخص ثالث لم يعرفه إلياس لكنه ظهر وكأنه من الفور . قدر إلياس ان الحاكم والسلطان قد حضرا لتقصى امر الاعتقالات الحديثة لبعض اهلهم . وعلى المنضدة امامهم كانت زجاجة من الويسكى واناة للثلج وعدة زجاجات من المياه المعدنية ، وبعضها فارغ . وبحكم الاكواب نصف الفارغة الموضوعة امام كل منهم ، فقد كان من الواضح أن الثلاثة كانوا قد شربوا بعض الخمر .

وأول ما لفت نظر إلياس أنه رغم قوله السلام عليكم بصوت عال وحماس كبير ، فقد وجد ردا باردا للغاية . وعندما فتح ذراعيه لمعانقة الحاكم بالتحية ، صعقه أن يرى الحاكم يمد يده ببرود ليصافحه بدلا من معانقته كما هو العهد بين الاصدقاء . صافح إلياس الحاكم ثم مد يده لتحية السلطان ابراهيم وقد وعى الدرس المهين من معاملة الحاكم له فلم يحاول معانقة السلطان .

ولما لم يبادر أى منهما بتقديم الرجل الثالث له ، فقد مد إلياس يده قائلا : اسمى إلياس بول .

قال الرجل وهو يصافح إلياس : وأنا عبدالله جاموس . بالطبع رد إلياس وهو يربط بسرعة بين الرجل والعضو البارز في مجلس الشعب القومى .. لم يقابل إلياس الرجل من قبل ، إلا أن عبدالله جاموس يعتبر ، عند غالبية الناس ، أفصح وأقدر نواب الغرب في المجلس القومى . ووقتها علم إلياس السبب في عدم تقديم الرجل له ، إذ كان ينبغي عليه ، بالطبع ، أن يعرف العضو المحترم .

إلا أن إلياس كان لا يزال يشعر بالضيق من موقف الدرقاوى وابن عمه ، وتسائل : لماذا طلبوا مقابلته إذا كان غاية ما يقدرون عليه هو اظهار كل ذلك التباعد بعد الصداقة الوثيقة التى تمتعوا بها في دارفور . وعلى التحقيق ، فقد شعر إلياس بالتنازع حول بقائه معهم ، وكان الخيار بين أن يدير ظهره وينصرف عنهم أو يبقى ويحاول أن يعرف بأسرع فرصة ممكنة سبب تصرفهما . وبما أنهما قد بادرا بطلب مقابلته ، فقد أراد أن يعلم باعثهما على ذلك .

- ماذا حدث ، هل هناك مشكلة .

سأل إلياس ، ثم تذكر أمر الاعتقالات الحديثة وقدر أنها المشكلة فقال :
- انى أسف ، فقد كان ينبغى أن أبدأ بالتعبير . بالمواساة . ولكن ماذا أستطيع أن أقول
سوى انى فى غاية الأسف لما حدث .

قرر إلياس أنهما ولاشك يتصرفان بتلك الطريقة بسبب الحزن لما حدث . وكان عبدالله
جاموس ، وليس أى منهما ، هو الذى عرض عليه بعض الشراب .

- هل ترغب فى كأس من الويسكى ؟

- لا ، شكرا لك .

ظل الحاكم الدرقاوى يتفكر فى كلمات الياس فى المواساة ثم قال فى سخرية واضحة .
من الذى قال انه ما كان ينبغى لكلمة « أسف » أن تزحف الى لغات الشعوب
المتمدنية ؟

أحس إلياس بلسعة التعليق لكنه لم يفهم مدلوله تماما ، فقال .

- لا أملك أن أفعل أكثر من ذلك .

واصل حامد الدرقاوى الهجوم فأضاف :

- ما يعنيه المثل هو أنه لولا كلمة « أسف » لحرص الناس على التصرف الصحيح منذ
الوهلة الأولى بدلا من الاعتماد على الاعتذار وطلب المغفرة .

فكر الياس لنفسه أن هناك علة ما ألمت بالحاكم . هل هو بخير أم أن صدمة الهجوم
السياسى قد أخلت بعقله ، وفضل إلياس عدم الرد على الحاكم تأدبا . وعلى كل حال ، فإن
الأمر لا يعنيه بشيء على الأقل حسب علمه هو . ولكن يبدو أن الحاكم الدرقاوى قد قرر أن
ما أراد مناقشته مع الياس لا يمكن إخفاؤه خلف عبارات المجاملة والأدب ، ففتح
الموضوع بصورة مباشرة :

- يا أخ إلياس ، كلنا الجالسون هنا أكبر منك سنا ، وقد شاهدنا الكثير فى العالم وهو
كاف ليجعل الرجل يتشكك فى نوايا الناس ومقاصدهم . ولكننا قادة لأهلنا ولا يجوز لنا أن
نتشكك فى نوايا الناس ومقاصدهم . اننا نأخذ الناس بجدية ونعاملهم بمقتضى رأينا
فيهم ، سواء أكانوا من الأقارب أم غرباء عنا ، وسواء أكانوا أصدقاء أم أعداء . ومن
خلال التجربة فى التعامل مع الناس ، ينمى الشخص طريقة صحيحة بدرجة معقولة فى
الحكم على الناس . وبالطبع قد يخطئ الشخص فى تقييمه للناس ، فكما يقولون ، فإن
الكمال لله وحده . وقد يحدث أن يثق المرء فى شخص ما لدرجة معاملته معاملة الأخ ثم
يتحول ذلك الشخص الى عدو لدود . والسؤال الذى أرغب فى أن أسألك إياه هو .
ثم توقف الدرقاوى للتفكير برهة ثم واصل الحديث فقال .

- فى الحقيقة عندى عدد من الأسئلة . أولا ، هل حدث هذا لك أبدا ؟

أجاب الياس :

- لا أذكر شيئا من ذلك فى الوقت الحاضر .

اذن فسؤالى الثانى هو :

- ماذا يكون رد فعلك اذا حدث هذا لك ؟

أجاب إلياس :

- بكل صراحة ، فإن السؤال افتراضى لدرجة تجعلنى أقول بأنى لا أعرف ماذا يكون رد
الفعل عندى .

- وتدخل السلطان ليقول :
 - انك رجل سعيد الحظ .
 وضحك الأخران . ضحكة ساخرة ، فقرر الياش أن يأخذ بزمام المبادرة فقال :
 اخبراني ، فاني في حيرة من أمرى ، ماذا يحدث هنا ؟ يبدو انى غافل عن شىء هام .
 تسأل الحاكم الدرقاوى :
 - هل هى يا ترى غفلة متعمدة ؟
 قال الياش وهو ينهض وأفقا :
 - فى هذا ما يكفى أيها الحاكم . لن أجلس هنا لأستمع الى زعماء يتحدثون بطريقة صبيانية ، السلام عليكم .
 وبينما سار إلياس مبتعدا ، سمع صوت عبدالله جاموس يقول :
 - عيب عليكم يا جماعة ، كيف تتصرفون بهذه الطريقة ؟
 وجرى جاموس وراء الياش وهو يقول :
 - قف يا أخى ، لا يمكن أن تنصرف بهذه الطريقة عليك أن تقدر اننا فى غاية الانزعاج لما حدث . ولكن ليس هناك داع لإدانتك أنت قبل اعطائك فرصة لتوضيح وجهة نظرك . تعال ودعنا نناقش هذا الامر حتى النهاية .
 اجاب الياش جاموس بقوله :
 - أوضح وجهة نظرى حول ماذا ؟
 - هذا ما ينبغى أن نتحدث عنه .. أرجوك أن تعود . لم يسبق لنا اللقاء من قبل وهذا أول طلب أطلبه منك . بالله عليك أن تعود .
 ووافق الياش على مضمض . وعندما اجتمعوا مرة أخرى كان جاموس هو أول المتحدثين :
 - أيها السادة ، اننا نتعامل مع موقف فى غاية الخطورة والدقة . ولا ينبغى لنا ان نتناوله بطريقة عاطفية . فبدلا من الفمز واللمز الذى يبدو كإهانة ، عليكم إطلاع إلياس على ما تعلمون وسماع ما يود أن يقول .
 كان الدرقاوى قد دفع نفسه الى حالة من الغضب الظاهر الذى لا يسهل الخروج منه ، فقال :
 - اسمع يا أخ جاموس . اننا نتحدث عن حرية وربما حياة أناس أبرياء . فى هذه اللحظة هناك العديد من اخواننا الذين يعانون خلف قضبان السجن . ولماذا ؟ ماذا فعلوا ليستحقوا ذلك ؟
 واحتج جاموس بقوله : حسنا ، تحدث عن الأمر لأخيها هنا . ماذا تعرف حقا عما فعل بخلاف ما قيل لك ؟ هذه فرصة نادرة ، فنادرا ما يعرف المرء الشخص المعنى بالدرجة الكافية ليسأله عما حدث ويتوصل الى معرفة الحقيقة . والحمد لله فأنت تعرف الأخ الياش بالقدر الكافى . بالله عليكم ، دعونا نتصرف كإخوة حتى نجد البيئة الدامغة التى تثبت العكس .
 وتدرجيا ، بدأ غضب الحاكم الدرقاوى فى الانحسار وعاد الهدوء الى صوته وهو يقول :
 - دعنى أحاول الاستجابة لدعوة أخيها للحوار الودى . يا أخ الياش ، لقد استدعيناك لاننا بصراحة لم نتمكن من إقناع أنفسنا بأن الرجل الذى اتخذناه أخا لنا يمكن أن

يتصرف بتلك الطريقة تجاهنا . لقد بحثنا عقولنا وقلوبنا عسى أن نجد الخطأ الذي يستوجب تلك العقوبة . ماذا أعطوك لتخون أناسا أبرياء اتخذوك كواحد منهم . كان الغضب هوردا الفعل الاول عند إلياس ، لكنه تمالك نفسه وقرر العفو عنهم عندما أدرك أنهم يتوهمون انه هو المسئول عن اعتقال اهلهم وتمكن إلياس من أن يقول في صوت هادى نوعا ما :

— هل تحاولون أيها السادة اخبارى بأنكم تشكون بأنى قد ساهمت في الاعتقالات التى تمت ؟

وعندما لم يجد الاجابة ، الح إلياس في السؤال :

— هيا ، اخبرونى هل تشكون بأنى قد خنت صداقتنا ؟

وظلوا صامتين وظهر عليهم قدر من الارتباك وكانهم لا يعرفون ماذا يقولون . ومرة اخرى ، كان جاموس هو الذى تجاوز المازق فقال : لماذا لا تخبرا إلياس بكل الرواية ؟ اجاب السلطان ابراهيم بقوله :

— حسناً إذا . . . انت تعرف كل شيء فلماذا لا تخبره ؟

وافق جاموس وقال :

— سأحاول جهدى . حسب فهمى للموقف ، يا اخ إلياس ، فبعد سفرك المفاجىء من الفاشر ، سأل اخواننا عنك فأخبروهم بأشياء أثارت تشككهم فيك . وقد أكد ودعم العميد يحيى رئيس الشرطة الكثير مما قاله العميد عبدالباقى قائد الجيش في المنطقة . وعندما أعلنت أوامر الاعتقال ، عاد العميد عبدالباقى الى اخواننا وأوحى لهم بأن ما سبق أن قاله عنك قد تحقق . وبصراحة ، لا أقدر أنا على رواية ما قاله بالضبط مما أدى بأهلنا الى تلك الخلاصة ، ولكن لم يكن هناك أدنى مجال للشك بأنك لم تهدد سلامة الرزيقات تحيزا للدينكا فحسب وانما أوشيت بالفور أيضا للحكومة المركزية ، وكل ذلك من أجل طموحك الشخصى .

قال إلياس :

— يا الله ، إن هذا لا يصدق . وأنتم يا من أعتبرهم اصدقاء واخوة لى صدقتم ما قيل لكم بدون أن تعطوا أى فرصة للشك في الأمر ؟ انى أرى الآن انكم بينما خدعتمونى لاعتقد بتحالفى معكم ضدهم ، كنتم أنتم على طول المدى متحالفين كشماليين ، وكنت أنا هو الغريب . ان ما يجرى بينكم وبينهم لا يبدو أن يكون خلافا وسط أفراد العائلة الواحدة ، بينما ما يجرى بينى وبينكم جميعا هو الصراع الخاد بين الغرباء . انى أشكركم على تلقينى درسا أرجو أن أقدر على الاستفادة منه .

قال جاموس في محاولة لتهدئة الموقف :

— هون عليك يا اخ إلياس ولا تكن غير معقول فلو افترضنا بأننا قد خدعنا بالظروف وأخطانا الحكم عليك ، فهل يكفي هذا لتقفز أنت الى طرف النقيض وتخطىء في الحكم علينا ؟

فأجابه إلياس :

— الا ترى أنك لا تزال تقول « لو افترضنا » ، وهذا يعنى أنك لا تزال تصدق ما قيل لك . الا ترون أيها القوم ما أنتم فاعلون ؟ أنكم تتهموننى بالخيانة ، وهى احط الاعمال في تقاليدى الاخلاقية . انى أرى الآن بأنى لا أعرف الفور بالقدر الكافى لفهم اخلاقهم ، فلو شككت أنا بأن أحدهم قد قام بما تظنون بأنى قد فعلت تجاهكم أنتم ، فلن أفكر حتى في

مجرد الحديث معهم ، دع عنك أن ادعوهم الى منزلي واعرض عليهم الشرب .
قال جاموس :

- لا تلم الاخوان على ذلك ، فانا الذى اقترحت هذا اللقاء . فإذا كانت فكرة خاطئة ، فانا
وهدى الملموم . ولكنى لا اعتقد انها فكرة سيئة . وفي الحقيقة ، فانا واثق بانها كانت
التصرف الصحيح .

اجاب الياس في حدة :

- نعم هي كذلك بالقدر الذى علمتنى به اقدار الرجال واين هو موقعى الصحيح .
وتسائل ابراهيم الدرقاوى وقد بدأ يتأثر برد الفعل عند الياس فقال :
- هل تقول لنا بأن في الامور سوء فهم ؟

فاجابه الياس :

- انى لا اتحدث عن سوء الفهم ، فان ذلك هو حكمكم انتم وليس حكمى انا . انما
اتحدث انا عن الوقائع كما أعرفها وهى ما حدث عندما كنت في دارفور وموقفكم الراهن
تجاهى . بالله انكم لمن اخون من عرفت من الناس ابدا ، إذ توهموننى بأننا اخوة بينما
تتآمرون مع اعدائى من وراء ظهري . وأنا افهم الان لماذا اخطرت انت العميد عبدالباقى
باجتماعاتى معكم .

سال الحاكم الدرقاوى :

- ماذا تعنى ؟

فاجاب الياس :

- كنت قد قررت الاحتفاظ بلقاءاتنا الاجتماعية كأمر خاص لا احتاج لاخبارهم به .
وعندما احتج العميد عبدالباقى على عدم اخطارى له بالأمر ، لم اكتف باخباره بأنى اعتقد
بأن الامر لا يعنيه فحسب ، وانما سألته عن الطريقة التى سمع بها ، فقال ان الحاكم
الدرقاوى هو الذى اخبره . والآن اعلم بأنك انت العميل السرى للقائد .
غضب الحاكم الدرقاوى بدوره ، لكنه شعر بالواجب بأن يشرح لالياس ما حدث
فقال :

- اخبرنى الرجل بصورة مباشرة بأنه قد سمع باننا قد ذهبنا الى قريتى في عطلة نهاية
الاسبوع . وكل ما فعلت هنا هو تأكيد صحة ما حدث ، واضفت باننا اردنا تقديم هذا
الضابط الشاب الجنوبي للحياة في دارفور . هذا هو كل ما حدث . كيف تجرؤ أنت على
وصفى بأنى العميل السرى للقائد ؟

تدخل عبدالله جاموس بقوله :

- لا داعى للإساءة يا الياس . ان السلطان على حق ، فقد بدأت معالم الاشياء في
الظهور . دعونا نستجلى الامر بدون انفعال . ايها الاخوة ، الاترون أن هؤلاء الاعراب لا
يجمعون عن شيء في سبيل خلق الفتنة والصراع بين الإخوان ؟

جلس الحاكم الدرقاوى وقد دفن رأسه بين راحتيه ، فقد بدأ يشعر بخليط من الغضب
والحرج والخجل من الطريقة التى استفلوا بها .

فرد الياس ان يكون اكثر اصلاحا فقال :

- بصراحة ، انى لا اكاد اقدر على التفكير السليم من شدة الغضب ، ولكنى سأحاول
الاستجابة لدعوتك لاستجلاء الموقف ، فحتى تجربة دارفور هذه ، لم أعرف انا حقاً درجة

الخبث والشر التي يهبط اليها البشر . فقد رأيت الناس يتشاجرون ويتعاركون بل ويقتل بعضهم بعضا . ولكنى لم أشاهد أبدا هذا المستوى من السعى لتحطيم الناس بطريقة خبيثة وجبانة بقدر ما شاهدت في دارفور . إذا أردتم الوقائع ، فسوف أذكرها لكم وأترك لكم استخلاص ما ترونه منها . على الأقل ، سأخبركم بما أعلمه أنا ، ولا أقول إلا الحق والله شاهد على ما أقول .

وبعد أن تحررت من قيود السرية بسبب الطريقة التي انتهك بها رؤساؤه في دارفور كل قواعد السلوك الاخلاقي والمهني السليم ، قرر الياس أن يحكى تفاصيل تسلسل الاحداث ، بما في ذلك استدعاؤه الى الخرطوم بصورة مفاجئة وكل ما اطلع عليه في القيادة العامة للقوات المسلحة عن التقارير السرية التي كتبها رؤساؤه عن علاقته بالفور . اختتم إلياس الرواية بقوله :

- لا يمكن أن تتصوروا درجة امتعاضى على الطريقة التي اضطررت بها على المغادرة . وقد قدرت أن أغادر بدون الاتصال بأى منكم لأنى قدرت أن تلك هى أحسن الوسائل لاشعاركم بحقيقة ما حدث ، والان تم تحريف كل شيء واستغلاله لتحقيق الغرض المعاكس تماما . أقسم بالله بانى لن أترك هذا الامر هكذا ، وسوف اصل الى جذوره ولو قضى ذلك على حياتى ، دع عنك مستقبلى .

ونصح عبدالله جاموس بقوله :

- أنك يا أخى بهذه الطريقة انما تسقط في الفخ . لا تكن أحمق ، لان ذلك هو بالتحديد ما يودون أن تفعل . علينا تمالك أعصابنا ، وثق تماما بأننا لن نفصح سرنا . فلنحول هذا الدرس القاسى الى شيء مفيد .

علق ابراهيم الدرقاوى فقال :

- ان عبدالله على حق . وانى سعيد للغاية لاصراره على حديثنا معك . وبكل صراحة ، فقد اعترضت أنا على المقابلة لأنى لم أر أى خير في النقاش بعدما حملنا على الاعتقاد بصحته . ونعلم الان الملابس المحيطة بهذه الاحداث المثيرة للغضب ، وهذا هو ما يهم فعلا . ان اهلنا ابرياء والحقيقة باقية . فحتى لو حاولوا اخفائها بالدخان ، فسوف ينجلي كل ذلك الدخان وتتكشف الحقيقة ، مهما طال الزمن . استمع الى النصيح ودعنا نتمالك أعصابنا ، فاننا سنخسر الكثير اذا خرجنا عن طورنا .

سمع صوتاً يقول عند بوابة المنزل : السلام عليكم معلناً وصول المزيد من الناس . ففى البيئة الاجتماعية السودانية ، يكفى مرور الحاكم بمحنة سياسية لحضور الزوار للتعبير عن مواساتهم الشخصية . وبحكم تأخر الوقت ، فلا بد أن يكون أولئك الناس من خاصة الحاكم .

أجاب الحاكم ورفاقه من الفور :

- وعليكم السلام ..

بينما ظل إلياس صامتا .

ثم قال الياس : ينبغى أن انصرف .

أجابه جاموس : لا تنصرف بعد ، فينبغى ان يلقاك بعض هؤلاء الاخوة .

لكن الياس لم يشأ أن يكرر للمرة الثانية التعرض للأذى الذى ألحقته به قوات الأمن ، فمرة واحدة تكفى للامسية . فقال في اصرار :

- انى أسف ، ولكن لا بد من انصرافى .

- وكانما اطلع أحد القادمين الجدد على خلفية انصراف الياس فقال :
- ارجو الا نكون قد تطفلنا على جمعكم ؟
 - اجاب الحاكم : لا ، أبدا .. تفضلوا بالجلوس .
- وعندما دعا الحاكم الضيوف الجدد للجلوس ، قال عبدالله جاموس للحاكم
والسلطان :
- دعونا نخرج لوداع اخينا .
- وتبعوا الياس ، وعندما وصلوا الى البوابة ، توقف عبدالله جاموس ليقول : عبارات
ختامية موجزة :
- اننا نعلم الآن حقيقة ما حدث ، وانى أقدر أن هذا الامر الحق الكثير من الضرر بالثقة
والتضامن الذى يسود بينكم . لم أكن أعرف الاخ الياس من قبل ، لكننى سمعت عنه
الكثير . وما شاهدت هذا المساء يؤكد السمعة الممتازة التى سبقته . اعتقد انه علينا
الاعتذار له وطلب العفو واستعادة الاخوة والتضامن بيننا .
 - ثم استدار جاموس نحو حامد الدرقاوى وقال :
 - ايها الحاكم ، هيا ، خذ بيد اخيك واعتذر .
 - تحدث الحاكم الدرقاوى بكل صدق واخلاص .
 - اخى الياس ، انى لأستجيب . لدعوة الاخ عبدالله فحسب ، وإنما اتبع توجيه ضميرى
ومشاعرى القلبية . فأرجوك أن تعفو عنا لإتباعنا للتضليل ، ونحن الآن نعرف الحقيقة .
وصدقنا حين نقول أن مشاعرنا تجاهك لم تعد الى ما كانت عليه فحسب ، بل زادت عمقا .
وتعانق الرجلان .. وقال السلطان ابراهيم :
 - بطبيعة الحال ، فان حامد يتحدث نيابة عنا جميعا . ليكن هذا درسا للمستقبل بالنسبة
لنا جميعا .
 - ثم عانق الياس كذلك . بينما قال عبدالله وهو يعانق الياس أيضا :
 - مع السلامة يا أخى . أمامنا معارك أشرس ، فيجب الا تصرفنا الخلافات الداخلية .
اتجه إلياس إلى مكان سكن الضباط ليتفكر فى أحداث الامسية ويختار أحسن السبل
لمعالجة الموقف . ومع أنه احتفظ بذهن مفتوح تجاه الأمر ، إلا أنه شعر بأن اصدقاءه
الفور ربما كانوا على حق بأنه من الافضل عدم اثاره ضوضاء حول الموضوع . وعلى كل
حال ، ألم يتعلم من تقاليد الدينكا أن الحق ينتصر دائما فى النهاية وان الحقيقة تتكشف
مهما طال الزمن ؟

الفصل الخامس عشر

كان ذلك بسبب مواجهته لأصدقائه الفور أم بسبب الموقف العام ، فقد قض إلياس **سواء** ليلته يتقلب في الفراش في عالم الأحلام المزعجة . أخذته أحلامه عائداً إلى طفولته الباكرة في أرض الدينكا ، ثم عبرت به مراحل المؤسسات التعليمية في الجنوب والشمال ، إلى تدريبه العسكري والتجارب العملية في الخرطوم ودارفور . وعندما استيقظ صباح اليوم التالي ، بقيت إحدى الرؤى واضحة في ذهنه . فقط ظهر جده لوالدته منشول وقال :

- يا ابن ابنتي . لقد سمعت أنك على وشك الذهاب إلى بلد غريب ، ويقولون ربما تنقضي أعوام قبل عودتك . اني اطلب منك ان تعود الى وطنك وتزور أحياءك قبل ان تغادر بلدك . سيحزن أهلك اذا ذهبت بدون زيارتهم . إن رؤية طفل المرء كالطعام ، قدمها وستكون قد أقيمت أود قومك ، وامنعها وستكون قد أهلكتهم جوعاً .
ذهب إلياس إلى العميد على صباح اليوم التالي وشرح له رؤياه وقراره ان يذهب في زيارة أهله . « لا أملك أن أتجاهل رغبة أسلافي ، وعلى الذهاب مهما كانت المخاطر » .
وعلق على بقوله :

- حسناً ، ماذا أملك ان أقول ؟ من الواضح اني لا أستطيع ان أنصحك بتجاهل رغبة أسلافك . كل ما أستطيع ان أقول هو ان تأخذ حذرك وكان الله في عونك .
وبمجرد وصول إلياس إلى أهله ، وجد ان المشاكل التي شهدتها لأول مرة في دارفور قد ظهرت أثارها في قرية داك - جور وانعكست على قومه الدينكا ماثيانق . وكان والده هو أول من أخبره عن حالة عدم الأمن السائدة في المنطقة ، فقال :

- يابنى ، اننا سعداء برؤيتك ، ولكن ماكان ينبغى حضورك فى هذا الوقت بالذات . لقد انطلق العرب بلا حدود ، ولا أدرى ما الذى أعتراهم فيتصورون أشياء ثم يتصرفون بمقتضى تصوراتهم فيسببون الأذى للآخرين وحتى لأنفسهم .

ثم أوضح مالىنقديت بعد ذلك أنه بمجرد سماع الأنباء من الخرطوم عن الحملة المعادية للعرب فى دارفور وبحر الغزال ، فقد حضر لمقابلته قائد قوات الأمن المحلية وشرح له الموقف فقال :

- لاتزال منطقتنا هادئة ، ولكن علينا مراقبة الموقف واتخاذ اجراءات منعية بمجرد اكتشاف أى شىء وذلك لحماية منطقتنا من العناصر المخربة .
قال مالىنقديت لابنه :

- لم أضررا فيما قال ، لكنه سرعان ماأخذ يعتقل الناس هنا وهناك ويستجوب آخرين وكأنه يشك فى الجميع . فهو لايسمح حتى للشرطة بأداء عملها فى حفظ الأمن ، وقد أستولى على كل مقاليد الأمور . ولن أستغرب اذا كان يعتقد بأنى أنا أيضا أحد الزعماء المارقين .

سأل الياس :

- ماهو اسم الضابط القائد ؟

فقال والده :

- أنه ضابط شاب اسمه على عثمان . ويبدو كأنه لايكاد يكون فى السن التى تسمح له بأن يكون جنديا ، دع عنك قائدا لقوات الأمن . وبدلا من التعاون مع الزعماء أحاط نفسه بمجموعة من الوشاة الذين يفريهم بالفتات للحصول على معلومات باطلة ضد الايرياء . وكننتيجة لاستهتاره هذا ، فأنى أخشى ان الكثيرين من شبابنا قد دفعوا الى التمرد والخروج على السلطة . وقد تم تعذيب عدد من الناس حتى الموت ، كما أعترف على عثمان نفسه بأنه قد قتل بالرصاص شابا من اكيو دينكا جاء الى هذه المنطقة بماشيته بحثا عن المرعى . والآن ، بمجرد أن يرى الناس رجلا قد تم اعتقاله وأخذه بواسطة الجيش بدلا من الشرطة ، فانهم يتوقعون له أن يعذب ، اذا لم يقتل .

لقد اعتقلوا ابن عمك أدول وعذوبه حتى ذهبنا أنا وانفجرت غضبا ، وكان ذلك لمجرد ان الوشاة قد زعموا بأن ادول هو زعيم الحملة المعادية للعرب وسط الشباب المحاربين فى القبيلة . والآن ، وبسبب الطريقة التى عاملوه بها ، فقد ذهب ادول الى الغابة وشرع حقا فى خلق ثورة محلية . لم يعد لنا أى تحكم ولا نفوذ على مايجرى فى الغابة .

كما أنهم قد أعتقلوا خالك اليبير لمجرد أنه قدم وليمة شارك فيها « الشباب المحاربون » . وقد فسر الضابط ذلك بأنه تجمع للتخطيط للهجوم على عرب الرزيقات . وعندما رأى خالك الأصفر ماريال الطريقة المهينة التى عامل بها العرب الابن الأكبر لوالده ، غضب وانضم الى فريق انداده فى الغابة . وقد نجحت فيما بعد فى اطلاق سراح اليبير ولكن سبق السيف العزل ووقع الضرر فعلا . وفى الحقيقة ، فان العديد من الشباب يدفعون الآن للثورة بسبب سلوك هذا الضابط الشاب ولما يسمعون عن التوتر والصراع بين العرب والدينكا .

قرر إلياس القيام بزيارة ودية لهذا الضابط الذى أثار سلوكه الكثير من الجدل فوجده شابا فاتح لون البشرة ، فى أوائل العشرينات من العمر ، ووديا فى التعامل . وقد أستقبل

على عثمان إلياس بحرارة واحترام . ورغم ان إلياس لم يعرف عليا لانه كان اصغر منه بعدد من السنين ، إلا ان عليا كان قد سمع عن سمعة إلياس كضابط جنوبي واعد تخرج في اوائل دفعته . ولم يكن يعلم بان الياس من قرية داك - جور ، كما انه ، على ما يبدو ، لم يكن يعلم بان إلياس قد تتبع تطورات الموقف الامنى المتدهور في دارفور وبحر الغزال . ومع ان الياس قد قدم لعلى عثمان معلومات من دارفور والخرطوم ، إلا انه حرص على عدم تقديم التفاصيل التي تثير التشكك أو الحذر لدى الضابط الشاب . وفي عموم الحال ، فقد كان لقاء وديا ، وإن كان على عثمان متوترا ومتوجسا نوعا ما على ما يبدو ، وربما كان ذلك لتوقعه بأن يكون إلياس غير راضٍ عما كانوا يفعلون بأهله .

كان الياس هو الذى قدم موضوع الموقف الامنى بقوله :

- لقد سمعت بعض الاشياء عن الموقف الامنى المتدهور . وبالطبع ، فمع ان بعض هذه الاشياء قد بلغنى من والدى وهو رجل مسئول في المنطقة ، إلا ان أغلبها قد بلغنى من الشائعات التي لا يقبلها المرء بلا تحر واستيثاق من صحتها . لذلك رأيت أنه من الواجب ان اسمع روايتك أنت عما يحدث وأرى ما اذا كان بوسعى المساعدة في تحسين حالة أمن المنطقة .

- شكرا لك يا أخ الياس على عرضك الوطنى البناء ..

قال على ذلك بروح من التعالى الساذج ، وكأنه هو الضابط الاعلى درجة ثم اضاف قائلا :

- حسب تقديرى لتطورات الموقف ، فانى أرى ان الأسر القيادية ، وهى ايضا الأكثر نضجا سياسيا ، إنما تحاول أن تجمع بين السلطات الحكومية وزعامة التمرد المتصاعد . يمكن أن يتطور هذا الى موقف خطير لأن الزعماء قد لا يكونون حازمين بالقدر الكاف ضد قادة التمرد . أنا أعلم بأنك ابن الزعيم وأن من أتحدث عنهم قد يمتون لك بضلة القرابة بطريقة أو أخرى . فاذا كان بمقدورك المساعدة في هذا الأمر ، فسأكون أنا في غاية الامتنان .

علق الياس بقوله :

- بصراحة ، ففى تقديرى الشخصى ، على سلطات الامن أن تتعاون مع القادة المشروعيين للمجتمع لانهم أيضا يحرصون على الامن والاستقرار . ربما كان بين أفراد أسرهم الكبيرة ، أو حتى أقرب الاقربين من له غرض شخصى فى التمرد . ولكنهم اذا هدوا أمن المنطقة لاسباب لا يراها الزعماء مقنعة ، فانى لا أعتقد أن الزعماء سيتعاونون معهم . ويعنى هذا شيئين : أولا ، على المرء أن يتعاون مع الزعماء . وثانيا ، على المرء بذل الجهد لحرمان المتمردين من المبرر الاخلاقى الذى قد يكسبهم تعاطف الزعماء وعامة الجمهور في المنطقة .

رد الضابط بقوله :

- انى لا أختلف مع هذا القول ، بل في الحقيقة فانى أوافقك تماما .

فقال الياس بشعور من الرضا :

- حسنا إذا ، في هذه الحالة ، فانى أرغب في مناقشة والدى وبقى زعماء القبيلة حول كيفية التحرك على جبهتين :- تركيز تعاونهم معك مع التأكد من أنك لن تعطى المتمردين أى مبرر أخلاقى مقبول لدى عامة الشعب .

- هذا طيب

قال على عثمان ذلك بشيء من التشكك لكنه ظهر مقتنعا نوعا ما . ثم أضاف وكأنه يغير موضوع الحديث :

- دعنى اعطيك نموذجا لما أعنيه من تعاون الزعماء مع المتمردين . ان هؤلاء المتمردين المزعومين ليسوا فى الحقيقة قوة نظامية ، بل هم جماعة من المجرمين الذين يتجولون فى المنطقة لارهاب الناس ونهب الطعام والمال منهم . ينضم اليهم بعض الشباب خوفا منهم اذ يواجهون بالاختيار بين ان يكونوا مع المتمردين أو ضدهم وذلك فى الوقت الذى تكون فيه تبعات معارضة المتمردين فى أشد القسوة والعنف . وقد لا يعنى ذلك الموت ، لكنه يعنى ان يفقد المرء كل ما يملك . وهناك من الزعماء القبليين من يعمل على تسهيل الاتصال بين قادة التمرد والمحاربين الشباب ، من رجال القبيلة . فى هذه اللحظة يبحث رجالى عن رجل يقدم الدعم للمتمردين . فقبل يومين مثلا ، قضى المتمردون ليلتهم فى منزل ذلك الرجل الذى ذبح ثورا لضيافتهم . اذا لم نعاقب مثل هذا السلوك فان مصداقية واحترام قوات الأمن سيذهب من صدور الناس .

نهض الياس وهو يقول :

- سأذهب للحديث مع والدى وباقى الزعماء وسأتصل بك قريبا .

- حسنا

أجاب على عثمان ، وتصافح الرجلان ثم افترقا . وعندما عاد الياس الى قرية داك - جور ، وجد خاله البيير فى محكمة والده . كان البيير قد سمع بوصول ابن أخته فأسرع لمقابلته ، وبما انه رغب فى الحديث مع الياس ، فقد انتحيا جانبا بعيدا عن الناس . شرع البيير فى الحديث بقوله :

- يا ابن أختى ، لم أتمكن من النوم منذ أن سمعت بحضورك . اذا كان بمقدور الناس ارسال رسائل من خلال الاحلام ، لبعثت اليك باعتراضى على حضورك . لقد أصابت العالم لوثة من الجنون . انك تعيش بين العرب ولكن يبدو أنك لا تفهمهم . فهم لا يقسون علينا فحسب بل هم يحسدوننا أيضا . فعندما يرون أن رجلا أسود قد تعلم مثلك ، فانهم يعلمون بأنك أمل الخلاص لاهلك وهم لا يودون ذلك . لذلك سيبدلون غاية جهدهم لخلق المشاكل لك .

لم يملك الياس الا أن يتذكر ما حدث له فى دارفور ، فلو كانت تلك التجربة معيارا للامور ، لكان البيير محقا بصورة مذهلة .

واصل البيير الحديث فقال :

- ان الامور سيئة يا ابن أختى ، اذ يجمع الناس السلاح النارى والمؤن . ان ما اراه من تفاهم جمع السلاح فى هذه المنطقة يوحى بأنه ستكون هناك حرب ، ومن المستحيل تفاديها . ويقع علينا جميعا الضغط لنتنضم الى هذا الجانب أو ذاك . وكيف يتشكك المرء فى الجانب الذى ينتمى اليه ؟ فنحن من الدينكا وانما هم العرب الذين يودون أن يعودوا

بنا إلى أيام كانوا يصطادوننا كالحوانات ويحملوننا بعيداً بعيداً لهم . أن شبابنا محقون فى مقاتلتهم لرد العدوان وأنه واجبنا نحن كبار القوم أن نعاونهم بكل الوسائل المتاحة لنا .

استغرق الياس فى تحليل خاله للموقف السياسى من وجهة نظر الدينكا . ورغم شعوره بأن

هناك قدرأ من التبسيط الزائد ، فعلى العموم ، لفت نظر إلياس مستوى وعى أليير وغضبه .
توقف بمنزلى قبل أيام قلائل جماعة من هؤلاء المحاربين الشباب الذين يسمونهم رجال
الغابة ، ففقت بنبح ثور لهم وأعددت كمية من الطعام تكفيهم لعدد من الأيام .
لم يكد إلياس يصدق ما يسمع ، فسأل :
- تقول أن هؤلاء المتمردين قد قضاوا الليلة بمنزلك وأنتك نبحت ثوراً لهم .

اجاب اليبير بقوله :

- نعم ، وكان معهم ابن عمك ادول وماريال ابن والدى .
- يا الهى ! (صاح الياس فى دهشة) يا خالى ، انك لا تعلم مقدار المشكلة التى ورطت
نفسك فيها .

ثم واصل الحديث ليشرح لأليير بأن الجنود يبحثون عنه وربما يكونون فى قرينته فى تلك
اللحظة .

وعلق اليبير بقوله : انك ترى أننا معشر الدينكا نستحق المعاملة التى نجدها من
العرب . تصور أن أحدهم يشى بشخص لمجرد أنه قدم الطعام لابناء البلد الذين يحاربون
من أجل كرامة أهلهم ! كيف يتوقع العرب منا ان ندير ظهورنا على أبنائنا ؟
الا أن الياس لم يكن حريصا على سماع الاسباب ، فالذى يهم هو أن خاله فى ورطة
حقيقية .

قال إلياس : تعال معى ، علينا الذهاب فوراً .

- إلى أين ؟

- إلى الضابط برئاسة الامن

أوحت غريزة اليبير بعدم الذهاب ، فتردد ، لكنه أيضا كان يثق فى حكمة ابن اخته .

قال الياس باصرار .

- لا مجال للتفكير . ربما يكونون فى طريقهم اليك هنا هذه اللحظة ، واذا وجدوك قبل ان
تقدم نفسك اليهم فقد يفوت الاوان على الدفاع عنك . هيا لنذهب .
دهش على عثمان لعودة الياس بهذه السرعة ، ودهش أكثر لرؤية اليبير الذى كان رجاله
يبحثون عنه ، لكنه لم يعلم العلاقة بين الرجلين .
أبلغه الياس بقوله :

- لقد احضرت اليك الرجل الذى تبحثون عنه . انه خالى .

فاجاب على :

- لم اكن أعلم ذلك .

قال على غاضباً وهو يخاطب أليير :

- هل أخبرك ابن أختك بأننا نبحت عنك هذه اللحظة ؟

ثم أكمل وهو يزداد غضباً أثناء الحديث :

- وعلى كل حال فما هى روايتك ؟

مع أن إلياس وأليير لم يتفقا على رواية معينة ، فقد وجد إلياس أن ما قاله أليير كان مقنعاً
أكثر مما توقع هو . قال أليير للضابط :

- حضر المتمردون إلى منزلى وهم يحملون السلاح وأمرونى بتقديم الضيافة لهم . ومع
وجود أقارب لى بينهم ممن أشعر بالواجب الأخلاقى بتقديم الطعام لهم على كل حال ، فقد

كان الخيار الحقيقي الذى واجهنى هو اما ان اكرمهم جميعا او اطردهم باعتبار انهم متمردون . وحقيقة الامر انى لم املك سوى الرماح بينما كانوا هم يحملون الاسلحة النارية . واذا منعت منهم الطعام ، فحتى أقاربي منهم كانوا سيعتبروننى عدوا لهم . وقد قدمت لهم الضيافة على أمل ان تقدر السلطات ضعف موقفى . وسمعت بوصول ابن اختى بمجرد انصرافهم عنى ، فقررت ان اذهب لابلاغه هو ووالده بما حدث . فبحكم انه هو شخصيا ضابط فى الجيش ، فقد قدرت انه وانت فى موقع واحد . واقترح ابن اختى ان نحضر معا لابلاغك بالامر شخصيا ، وما نحن قد حضرنا .

كان رد على ان قال :

- هل تحاول ان تخدعنى ؟ .

فقال اليبير :

- ما علاقة الخداع بالحقيقة ؟ لقد اخبرتك بالحقيقة كما اعرفها انا . وعلى كل ، ألم احضر اليك لانك أرسلت فى طلبى ؟ ألم ابادر انا من عند نفسى بابلاغ الامر ؟ - هل اظهرت لهم اى مقاومة على الاطلاق أم قررت التعاون معهم منذ الوهلة الاولى . - هذا ما أحاول أن أوضحه لك . لم يعد أولئك القوم من أهلنا وقد كونوا مجتمعهم الخاص فى الغابة . لم يعودوا يعرفون آباءهم ولا اخوانهم . كيف أقدر على معارضتهم وأنا خالى اليدين ثم أتوقع اى تعاطف منهم ؟ .

قال على :

- انك رجل سعيد الحظ حقا بحضور ابن أختك فى هذا الوقت بالذات . اذا لم يحضرك هو ووجدك رجالى بمنزلك لتم احضارك الى هنا فى الاغلال .

علق إلياس بقوله :

- ليس الامر بالحظ وانما هو ان الله يعلم الحقيقة ويحمى الاخيار .

قال على :

- ايا كان الحال ، فتقديرا لابن أختك وهو أخى فى السلاح ، فسوف أسمح لك بالذهاب . ولكن لدى شرط واحد : عليك الانضمام لنا وافادتنا بنشاطات المتمردين فى منطقتك .

كان الياس هو الذى رد على عرض على بقوله :

- لا ، إن هذا لا يكون لعدة أسباب . ان خالى من كبار القوم الذين يتمتعون بالاحترام والتقدير فى المجتمع . يجب ان تعلم ان وشاتك ، مهما كانوا مفيدى لك ، لا يتمتعون بأى قدر من المركز الاجتماعى فى المنطقة . وعلى التحقيق ، فهم محتقرون فى نظر الجماعة . وسيعرض خالى لخطر الاذى الجسمانى الاكيد لانه بارز بدرجة لاتمكنه من التحول إلى عميل سرى لسلطات الامن دون ان يلفت النظر الى ذلك . هذا بالاضافة إلى ان خطى ، كما ناقشتها معك من قبل ، هى توثيق عرى التعاون بين الزعامة القائمة وسلطات الامن . سيتماون خالى معكم على هذا الأساس وليس كمخبر لك .

وافق على بقوله :

- أرى صحة ماتقول ، ولكن فى هذه الحالة عليك ان ترحل لتسكن بالقرب منا هنا او بقرية الزعيم ملينقديت وذلك حتى لا يستخدم المتمردون منزلك كقاعدة لتقديم الدعم لهم . فهذه هى المرة الثانية التى تتهم أنت فيها بتقديم العون لهم .

اجاب الياص :

- اعتقد ان اقتراحك جيد . وإن كان سيسبب بعض المشقة ، فلا اعتقد ان خالى سيمانع من الاقتراب منكم للحماية . لقد أصبح الريف منطقة خطيرة .
قبل ألبير ذلك الاقتراح بقوله :

- لقد أصبحت انا شخصيا أتوجس خيفة من تكرر حالات الاتهام واحتمال المشاكل مع سلطات الامن .

اجتهد إلياس خلال الايام والاسبوع التالية لتنمية علائق الفهم المتبادل والتعاون بين والده وسلطات الامن . واقترح الدعوة لاجتماع عام ليناقدش الناس الموقف الامنى العام ويتعرفوا على المشكلة . أصر على أن يلتقى إلياس بالناس على انفراد بلا خوف أو تردد ، وقبل إلياس الاقتراح . وخلال الاجتماع ، كانت هناك ادانة دامغة للوشاة من الدينكا كمصدر لعدم الثقة والتوتر والصراع بين سلطات الامن وعامة الشعب فى المنطقة . وقد قال عدد من الناس أن الموقف سيتحسن كثيرا لو أمكن إقناع سلطات الامن بالتعاون مع الزعماء الشرعيين فقط وتفادى حملة الشائعات ومن ينصبون انفسهم وشاة ومخبرين عن احوال الناس من منطلق المصلحة الشخصية لهم هم .

بعد أن تحدث عدد من الناس ، اتخذ أكول ، الاخ غير الشقيق للزعيم ملينقديت ، اتخذ طريقه للحديث فى نفاذ صبر واضح . وعندما وجد الفرصة للحديث قال فى غضب :

- انى أخبرك يابول بألا تدفع بأهل والدك الى تعرية انفسهم لضباغ هذا البلد التى لاتميز بين الصالح والطالح . كيف تثق أنت فى العرب ؟ ستنصرف خلال ايام قلائل وسيبقى الناس تحت رحمة سلطات الامن ووشاتهم . ستنصب لهم الفخاخ وسيعذبون بسبب الكذب الذى يخلقه من يعيشون على لحم ودم الناس الابرياء . وسيحصل الوشاة على جوائزهم ويواصلون عملهم فى اختلاق المزيد من الاكاذيب وهم امنون على انفسهم . ولن يقدر حتى والدك على انقاذ الابرياء . وبصورة ما ، يبدو انه حتى الله والاسلاف قد ابعدوا انفسهم عن هذا العالم . فى الماضى ، كانت قوى خفية تصعق أمثال اولئك الوشاة وتقتلهم . كان ذلك عندما كانت الارواح ترعى احوال البشر . لكن الارواح قد ارتبكت الآن بسبب هذا التداخل الذى حدث بين الاجناس واللغات . فى الماضى رفض ابن أحد زعماء الدينكا أن يتعلم اللغة العربية وعندما سئل عن السبب اجاب : « بمجرد أن تتعلم اللغة العربية سوف تتحول الى شخص خبيث » . وهو قد قصد مثل الاشياء التى تحدث هنا الان ، حيث يتعلم الناس بعض الكلمات العربية ثم يسرعون لرواية الاكاذيب عن الاخرين . ان لغة الدينكا لاتصلح لذلك لأنها لغة تخاف الله . ان من يتعلمون اللغة العربية لكى يفذوا انفسهم على حساب الاخرين لا يعرفون الله . انى أناشذكم بهذه الطريقة لانى لا ابالى . فاذا قتلونى فليفعلوا ، لانى قد رزقت الابناء الذين اخلفهم ورأى . أما بالنسبة لك يابول ، فاذا أردت مساعدة اهلك حقا ، فعليك أن تفعل ذلك من هنا . عليك إسماع الحقيقة لأولئك الناس هناك ، واذا كانوا يهتمون حقا لكل اهل السودان ، فعليهم أن يفعلوا شيئا .

انى أشك فيما اذا كان منير حقا يعلم بما يجرى هنا . إلا ان منير قد فاجأنا دائما بتصرفاته المتقلبة . فى البداية ، لم نفهم من اين أتى الله بعربى من الشجاعة بحيث يقول لاهله بالتوقف عن قتل الرجل الاسود . والان يبدو انهم يتحدون مرة أخرى ضد

الجنوب .. اذا كان منير يهتم حقا بالعمل الطيب الذى بدأه فى هذا البلد ، فإذن أخبره
وأخبر قومه فى الخرطوم بما يحدث هنا وسنرى ما هم فاعلون . وفى الوقت الحاضر ، عليكم
يا أهل أبى بالصمت وأن تظلوا صامتين .

قوبلت كلمات أكلول بالتصفيق الحاد ، وكان كلماته قد ألفت بالصمت على الجماعة ، لم
ترتفع يد واحدة بطلب الفرصة للحديث .

فى بداية الأمر ، حاول إلياس الاتصال بالقادة المحليين للتمرد لاقتناعهم بأن أغلب
المشاكل الحديثة قد نجمت عن سوء الفهم والأقاييل المختلفة ، وأنه سيعيد التفهم
والتعاون الكاملين بين الشعب وسلطات الأمن . عارض على الفكرة فى البداية بحجة أن
الاتصال بالتمرديين يشكل جريمة يعاقب عليها القانون ، إلا أن إلياس تمكن من إقناعه
بأن ذلك العمل يخدم المصلحة العامة ولا يمكن أن تعترض عليه السلطات المركزية . ولكن
رغم جهوده المضنية ، فقد عجز إلياس عن إعادة قادة التمرد المحليين الى المجتمع لأنهم
قالوا بأنهم لم يعودوا قادرين على الثقة بالعرب . فلم يجد إلياس بدا من أن يحاول أن
يوثق عرى التعاون بين سلطات الأمن والقادة التقليديين للمجتمع ، وأن يخلق من ذلك
سدا بين أتباع أولئك القادة والتمرديين .

وأثناء زهابهما الى الاجتماع الذى يتم فيه الاتفاق النهائى للتعاون بين المجتمع
وسلطات الأمن ، احتج على عثمان لالياس على ما قاله عنه أكلول خلال الاجتماع السابق .
ودهش الياس عندما علم أن على عثمان قد أرسل عملاءه لحضور الاجتماع رغم التزامه
باحترام حرية التعبير وخصوصية الاجتماع .
واعترض على بقوله :

- كان على أن أفعل ذلك ..

فرد الياس :

- انى أختلف معك تماما وان كنت أتفهم الاسباب التى دعيتك الى ذلك .
- وبكل صراحة ، لولا احترامى لك ، لكان عمك فى ورطة حقيقية . لحديثه بتلك الطريقة غير
المسئولة فى مكان عام . ويمكنك أن ترى فى سلوكه الاسباب التى تدعونى الى تغطية
الاجتماع والحرص على معرفة ما يدور فيه . إنى أعفو عنه من أجل خاطر أنت ، ولكنى
أرجو أن تطلب منه ومن بقية الاعضاء البارزين فى عائلتك بالتوقف عن لعب دور مزدوج
وأن يصدقوا فى تعاونهم معنا . واذا لم يفعلوا ذلك ، فسوف نضطر الى الافتراض بأنهم
يتعاونون مع العدو ونعاملهم بما يقتضى ذلك .

وأدرك إلياس أن لاجدوى من مناقشة على فى الأمر ، فاكتفى بتقدير الاحترام الذى أظهره
له على وذلك بعدم التصرف ضد أكلول .

وخلال الاجتماع العام ، عبر الناس عن رأيهم بأن عودة الياس قد أعانت على انقاذهم
من موقف شديد الخطر . وظل الياس متفائلا ولكن فى حذر ، وان ظلت المشاكل عويصة
ومستغصية الحل . وعندما حكى الياس لعمه وكبار القوم الآخرين ما قاله على عن الدور
المزدوج وعن ضرورة التعاون التام مع سلطات الأمن ، قال أكلول :

- هل يتوقع العرب حقا أن نتعاون معهم ضد أطفالنا الذين يقاومون استرقاق أهلهم ؟ هل
يمكن أن يفكروا فى احترامنا اذا كانوا يعتقدون بأننا سنهبط الى هذا الدرك المنحط ؟
- وضحك كبار القوم بطريقة أوحى بأن أكلول قد عبر عن خواطر يوافقونه فيها جميعا .

وعندما حان وقت رحيل الياص ، قام خاله اليبير باداء الطقوس المعتادة لمباركة السفر .
وبعد ان فرغ ، اخذه الياص جانبا وقال له :
- يا خالى .. اتعلم بانى لم اكن لاحضر فى هذه الزيارة لولا جدى منشول ؟ .
وظهرت الحيرة على اليبير فشرح الياص بقوله :

- لقد اتانى فى النوم ودعانى باصرار لاحضر وارى اهلى قبل زهابى الى بلاد غريبة . لقد
نصحنى عدد من الناس ، بما فيهم كبار موظفى الدولة ، بعدم الحضور خوفا من مثل
المشاكل التى وجدت هنا فعلا . ولكننى لم اقتنع بنصحهم وذلك بسبب كلمات جدى
منشول .

اجاب اليبير بقوله :

- يا ابن اختى ، لقد اخبرتك بأن والدى حدثنى بأنك طفل مقدس وصاحب رسالة فى هذه
الحياة . وهذا هو الفرق بين الناس العاديين والقادة المقدسين . لقد رأى والدى ورأيت
انت شيئا لم يره اصداؤك ولم أراه انا ايضا . لقد اخبرتك بانى لو اطلعت على المستقبل
وامكننى ان ارسل الرسائل خلال الاحلام لنصحتك بعدم الحضور تماما كما نصحك
اصداؤك فى الخرطوم لكن والدى علم بالرسالة المقدسة التى من أجلها صلى عليك
وسبب لنفسه الموت المبكر لينقذك . لقد تمكنت أنت الآن من انقاذ حياة العديد من الناس
الذين كانوا سيسقطون فريسة للجيش وكلامهم فى سلطات الامن . انى سعيد بانك
اخبرتني عن هذا الحلم . عندما أعود لمنزلى ، سوف أقدم القربان لوالدى لاشكره على
كلماته . ان الاسلاف يرفعوننا حقا .

الفصل السادس عشر

إلياس العميد على صباح الجمعة التالية لعودته إلى الخرطوم ليحكى له عما وجد في زار الجنوب وليتحصل على أبناء مايدور في القيادة العامة . وصل إلياس إلى منزل على حوالي الحادية عشرة صباحاً فوجد أن بعض أقارب علي الذين كانوا في زيارة له على وشك المغادرة . فتم أول لقاء لإلياس بأخيه علي ، الشيخ محمد أحمد الجاك وأسرته ، كان محمد يكبر عليا بعدة سنوات ، إلا أن رحلات شبابه حيث كان تاجراً في الغرب له مغامرات في أعماق الجنوب حين كان يفرزو طلباً للرفيق والماشية ، خلف كل ذلك أثره عليه فجعله يبدو أكبر سناً مما هو في الحقيقة ، كان محمد يرتدي جلباباً ويلقى شالاً على كتفه وقد لف عمامته حول رأسه بصورة متراخية ، وارتسمت على وجهه ملامح ساخرة ، ونادراً ما يبتسم الرجل ، وعندما يفعل ، يبدو وكأنه يضطر إلى ذلك مما يجعل من يبتسم لهم يشعرون بالامتنان غير المريح .

عندما قدم على إلياس لمحمد تفرس محمد في وجه الضابط الشاب ثم سأل في روح من
التعالى وكأنه لم يسمع عن إلياس من قبل .

- من أى جزء من الجنوب انت ؟

- أنا من قرية اسمها داك - جور في شمال غربى بحر الغزال .

- يبدو أن ذلك من بلاد الدينكا ..

قال محمد ذلك في صوت لا يكاد يخفى معرفة الرجل بالمنطقة .. ثم اضاف إلياس
موضحا :

- نعم بلاد الدينكا ، فانا من الدينكا فرع مثيانق .

قال على :

- على ما أذكر فان محمد يتحدث بعض لغة الدينكا ،

- أحقا ؟ ..

علق إلياس ببعض الانفعال .

وجد محمد نفسه في ورطة ، ولسبب ما رغب في التقليل من معرفته بلغة الدينكا فهمهم
بقوله :

- ان معرفتى لاتزيد عن بعض الكلمات وقد كان ذلك منذ وقت بعيد .

تصاعد حب الاستطلاع لدى إلياس فسأل :

- متى كنت في بلاد الدينكا ؟

الا ان شيئا ما عن إلياس أزعج محمدا الذى ظهر وكأنه منصرف عن الحديث أكثر منه
ضائقا ذرعا به ، لكنه كان جافا في تعامله . أجاب محمد بصورة عابرة :

- لم أكن حقا في بلاد الدينكا .

ثم أشاح بنظره بعيدا بصورة متعمدة .

وظل إلياس مستغرقا في الأمر فألح في السؤال بقوله :

- ولكن كيف تعلمت لغة الدينكا ؟

استدار محمد تجاه إلياس ورمقه بنظرة جادة ظهرت وكأنها تخترق الشاب . وكأنه قد
تعمد عدم الارتياح للشباب ، قال محمد :

- لقد مررت من خلال بلاد الدينكا والتقطت كلمة هنا وكلمة هناك .

ولكى يمنع إلياس من اثاره سؤال آخر استدار محمد منصرفا وهو يقول اثناء
انصرافه :

- شد حيلك .

وهى عبارة تدعو الى الاجتهاد واثبات الجدارة ، ودون ان ينتظر ردا من إلياس ، صاح
محمد الى اهله وهو يسير تجاه السيارة :

- هيا بنا ، دعونا نذهب !

وكانه يعرض عن سوء معاملة أخيه لإلياس ، لفت على نظر إلياس لابنة محمد واسمها
فضيلة ، فعرفها باليأس قائلا وهو يمسك بذراعيها :

- وهذه ابنة اخى المفضلة .. تعالى وقابل ابنى المفضل والوحيد الضابط الذى افخر به كل
الفخر .

كان على ملحا لدرجة انست فضيلة دعوة ابيها للخروج بينما ظهر ابوها وكأنه يفصل
الاختفاء بدلا من ان يسمع إلياس صوته مرة اخرى .

كانت مهنة فضيلة غير عادية (على الاقل في نظر والدها) اذ كانت معلمة بمعهد
الخرطوم للفنون الجميلة . كان اهتمامها الاساسي هو التصميم الا انها كانت تمارس
النحت والرسم ايضا ، وقد كانت منبسطة الشخصية وغير متحفظة لدرجة مذهلة بمقياس
الشمال المسلم . كانت متوسطة القامة سمراء اللون ، وذات اسنان ملتوية بعض الشيء
مما اضاف شيئا من النشاز الغريب واللافت للنظر بخاصة في مقابل لثتها السوداء
اللون .

- اذن فانت الشاب الذي سمعت عنه كثيرا .

علقت فضيلة وهي تمد يدها لإلياس وتبتسم ابتسامة لعوبا وتلوى من قوامها
النحيف ، وكان إلياس مأخوذا بالسيدة الشابة لدرجة اعجزته عن الرد على تحيتها
بصورة مناسبة فلم يجد مايقول سوى عبارة « كيف حالك » .

استفرقت فضيلة في التناقض الظاهر بين سمعته الرفيعة وتواضعه الظاهر . قالت في
ثقة اخاذة ومهيمنة :

- لقد قررت قبل ان ألقاك أن أطلب منك أن تقف نموذجا لأنحت عليك تمثالا . وبالطبع سيكون
ذلك في اطار العائلة ولايثير الريبة .

بما ان فضيلة على مايبود قد فكرت في التبعات المحتملة لطلبها ونجحت في حلها بصورة
مرضية ، فقد قرر إلياس الا يشغل نفسه بردود الفعل الاجتماعية . وهو قد فوجيء
بالطلب وشعر بأنه أسيرها بصورة غريزية ، وقال مداعبا :

- والان وقد رايت هدف خطتك الفنية ، فهل انت واثقة بأنك ترغبين في مواصلة
المشروع .

فأجابت عابثة :

- بل وخاصة بعد ان شاهدت موضوع المشروع

وخوفاً من أن يتوهم إلياس أنها غير جادة ، أضافت القول ..

- لعلك تظن اني عابثة ، ولكني في غاية الجدية .

- هل تعلمين ان ذلك لايد ان يكون في الامسيات او خلال عطلة نهاية الاسبوع فقط .
قال إلياس ذلك مشيرا إلى انه سيواصل العمل بوزارة الدفاع في انتظار القبول بجامعة

امريكية .

- اجابته بقولها :

- انا لاامنع من ذلك ، فانا اعلم في الامسيات على كل حال .

- ورغم ان عليا كان منصرفا عنهما في البداية إلا انه عرف مضمون حديثهما ، فقال :

- لإلياس بعض المشغوليات الجادة هذه الأيام .

ولكن من الناحية الأخرى فقد يكون هذا هو افضل الاوقات اذ قد يروح عليه المشروع
من عناء تلك المشغوليات ذاتها . ولن يكون بالامر السييء ، أليس كذلك ؟

- لا ايدا ..

فكان رد فضيلة المتشوق هو :

- متى نبدا اذن ؟

فرد إلياس بلا تردد :

- بأول فرصة ترغبين فيها أنت .

- ماذا عن أول أيام الاسبوع المقبل ..

- هذا يناسبني تماما .

واصل على وإلياس حديثهما بعد انصراف الأسرة حيث لخص إلياس ماجرى في قرية
داك - جور لعلى واتفقا على أن الحد الأدنى من رد الفعل على الهوس الذي يحدث هو
احسن وسائل معالجة الموقف .

وعند وداع على لإلياس ، عاد حديثهما إلى مشروع فضيلة ، فقال على :

- إنى اعترف بأنى مستغرق في المشروع . إن فضيلة فنانة مبدعة وأصيلة ، وهذا
المشروع جدير بالاهتمام .

ولم يعرف إلياس إلى أيهما يرمى على بالإطراء :

- من الذى يهمة أمر هذا النحت ، ياعم على ؟

سأل إلياس بطريق تستجدى المزيد من الإطراء أكثر مما تقلل من شأنه هو أو من
شأن ملكات فضيلة الفنية .

- أرجو أن تعنى به أنت وعلى التحقيق هي معنية به وإذا لم يعن به أى منكما ، فانا معنى
به بلا ادنى شك .

أصبح من الواضح لإلياس أن علياً كان حريصا على استمرار المشروع لكنه لم يعرف
السبب وراء ذلك . فقد لفت شيئا ما عن فضيلة نظر إلياس ، ولكن ماذا يكون ياترى ؟
فهي ولاشك امرأة جذابة ، لكنها مسلمة وهو مسيحي . فماذا يمكن أن يكون بينهما أكثر
من اهتمامها الفنى المهنى ووضعه هو وكأنه الابن المتبنى لأسرة عمها ؟

انقضت الجلسة الأولى على احسن ما يكون من وجهة النظر الفنية ، حيث جلس إلياس
طوال الجلسة دون أن يفصح عن أى دوافع خفية ، أما فضيلة ، فما كان من الممكن أن
تكون أكثر جدية في العمل . وفي الحقيقة ، فقد كانت صامته بصورة مدهشة خلال عملها
ولم تتفوه إلا بعبارات التوجيه من وقت لآخر كقولها : مل رأسك الى اليمين قليلا ، احن
رأسك قليلا ، ابرز ذقنك للضوء الطبيعي .. وما إلى ذلك . انحسر ثوبها عن رأسها عدة
مرات ، فكشف عن عنقها الطويل حتى الكتفين ، لكنها أعادته إلى موضعه بصورة عملية ،
ولم يفسر أى منهما مظهرها بخلاف أنه مظهر طبيعي .

وبعد اليوم الأول علق بقولها :

- إنك نموذج ممتاز ، واعتقد أننا سنعمل معا بصورة جديدة للغاية ، تذكر ان كل الامر
يتم في إطار الأسرة .

وأوحى شيء ما في عبارتها الأخيرة بأنها تلقى بالافكار في ذهنه لكنه فسر الامر على انه
لايزيد عن الدعابة العابثة لتجد عنده الضحك المناسب ولا تؤخذ مأخذ الجد .

كانا قد فرغا من خمس جلسات وبدأت ملامح الشكل المنحوت في الظهور عندما
حضرت فضيلة إلى الاستديو ذات يوم وعليها آثار الانزعاج . اتخذ إلياس موضعه
وجلست فضيلة على مقعدها الطويل وبدأت في العمل بهدوء بدون أن تنطق بكلمة لكنها
كانت تنطوى على شعور عدائى لم يفهمه إلياس ، دع عنك القدرة على تفسيره . وقد
انزعج هو لمزاجها لدرجة أفقدته القدرة على الاسترخاء وكان حالتها قد انعكست على
شكله هو واثرت على تكوين النحت . قرر إلياس ان يفعل شيئا تجاه البرود في العلاقة

بينهما فقال :

- يافضيلة ، ينبغي أن يكون هناك المزيد مما تسمينه انت بالأمر في إطار العائلة .
- ماذا تعنى ؟

سألت فضيلة وهي لاتزال باردة وإن ظهر على صوتها بعض الود .
- أعنى اننا منذ البداية في هذا المشروع ، كان الأمر مهنيا أكثر من اللازم . فنحن لانفعل
اي شيء آخر مع بعضنا البعض .

ظهرت على وجهها ابتسامة دافئة ، تعبر عن شخصيتها المنبسطة التي عهدا إلياس
وسألت : ماذا تقترح أن نفعل ؟

- لماذا لانذهب إلي السينما ؟

أجاب إلياس وكأنه يقول بأن أى شيء بخلاف العمل في التمثال يكفى .

- وهل هذا من المناشط العائلية ؟

تساءلت فضيلة وهي تبتسم بصورة مداعبة :

- اذا لم يكن ذلك فهل تفضلين متحف الفن الحديث ..

اجابت فضيلة بجدية اكثر :

- إنك تعلم بأنى لاأمانع . وفي الحقيقة فبني أرغب في ذلك كثيرا ، ولكنى خائفة .

- خائفة من ماذا ؟

فأجابت وقد عادت إلى حالة التفكير والاكنتاب : أنت تعلم .

علق إلياس بصورة جادة نوعاً ما : أرجو ألا تكونى خائفة منى .

فنظرت إليه وقالت مبتسمة .

- ربما ينبغي لى أن أخاف منك ولكن لست انت بالذى أخشاه .

الح : إلياس في طلب التوضيح فسأل :

- فمم تخافين إذن ..

- لاأعلم أين أبدا وماذا أقول .

وخوفا من أن يكون قد الح عليها اكثر مما ينبغي ، قرر إلياس اتخاذ مدخل اخر فقال :

- لعل تغييرا في الجو يساعد في جلاء الموقف . ماذا عن تناول العشاء في نادى الضباط ؟
فردت بقولها :

- ربما يعقد ذلك في الأمر . فأنت تعرف نوع المجتمع الذى نعيش فيه .

ومن ذلك فهم إلياس أن فضيلة كانت تخشى الشائعات أو الفضيحة الاجتماعية ، فمن

الواضح أن علاقتهما ليست في إطار الأسرة . ورغم أنه في مقام الابن المتبنى لأسرة على

فإن الأسرة المباشرة للشيخ محمد والتي تنتمى إليها فضيلة ، هي شيء آخر ،

ومن الناحية الأخرى فقد شعر إلياس بحاجة أكبر للحديث الهادىء مع فضيلة . كما

قدر أن نادى الضباط هو المكان اللائق للقائهما .. فقال موضحا :

- يعرف أغلب الضباط عن علاقتى بالعميد على ومن المؤكد أن تناولى لطعام العشاء مع

ابنة أخى على سيعتبر أمرا عاديا او على الأقل لائقا .

- أخشى مايمكن لوالدى أن يستخلص من ذهابى معك لو علم عن ذلك .

قالت فضيلة ذلك وهي تنظر بعيداً وكأنها تفكر بصوت مسموع ، ثم استدارت نحو إلياس
مرة أخرى وهي تبتسم ابتسامة أخاذة وأضافت :

- ومن الناحية الأخرى ، فما الذى يمنع من ذهابى معك ؟ هيا بنا .
يقع النادى بالقرب من مطار الخرطوم . وهو مبنى ضخم ذو حديقة واسعة ومؤنثة
بالمناضد والمقاعد رفيعة الذوق ومحلى بأنوار النيون . وداخل المبنى حجرات ذات أحجام
متفاوتة وقد تم تأثيثها بصورة فخمة لمختلف الأغراض ، منها حجرات الجلوس
والاجتماعات الرسمية وأخرى لتناول الوجبات .

رأى رئيس النداء الشبابين وبصورة غريزية اختار أن يأخذهما إلى حجرة صغيرة
هادئة شبه منعزلة ، داخل المبنى ، ومع أن ذلك يضمن لهما الخصوصية فإنه يفوت
عليهما جمال الخضرة الخارج . نظرا إلى بعضهما البعض وكأنهما يتشاوران فى صمت ،
ثم أشار إلياس بيده موحيا بأنهما يفضلان الجلوس بالخارج ، أجاب النادل بقوله :
حسناً .. ثم ساقهما إلى مائدة فى الطرف الجنوبى من الحديقة بلا أدنى أثر لامتعاض
لرفض عرضه الأول .

كان المساء حلوا وقد جلس الأزواج والجماعات على بعد من بعضهم البعض ، كل
يستمتع بلطف الهواء البارد العليل بعيدا عن حرارة المناخ الصحراوى للمدينة . وعلى بعد
كانت الطائرات تقلع وتهبط فى المطار حيث تصل أصوات محركاتها إلى أذان الحضور
بصورة خافتة .

وعندما جلس إلياس وفضيلة فى ركنهما ، كان من الواضح أنهما احرص على الحديث
منهما على تناول الطعام ، طلبا كوبين من شراب الليمون ثم أمرا بإعداد طعام العشاء لهما
وأخذا فى الحديث .

جلس إلياس مائلا إلى الامام وقد عقد ذراعيه وأراحهما على المائدة وركز نظره على وجه
فضيلة وعيناه تشعان بالنشوة أكثر من كلماته التى قال فيها :

- هل يمكن أن تخبرينى الآن بما يشغل بالك ؟
ويبدو أن فضيلة قد أحست بما يوحى به لكنها تظاهرت بعدم المعرفة ، أعاد إلياس
طلبه منها فقال :

- هل تمنعين إذا الححت فى طلب الإجابة ؟
فأجابت فضيلة :

- لاأمانع ولكن ذلك لايهون من أمر الحديث .

تلاعبت بشوكة وسكين الطعام لوهلة ثم واصلت القول :

- ربما يكون من الأفضل أن أقول لك ، لقد تشاجرت مع والدى قبيل حضورى إلى
الاستديو فهو يسأل لماذا أقوم بعمل تمثال لك ؟

سكتت فضيلة وكأنها تحاول أن ترى أثر كلماتها على إلياس الذى لم يملك أن يقاوم
الإغراء بأن يسأل :

- وماذا قلت أنت ؟

- لقد قلت بالحرف الواحد : ياوالدى أنا فنانة .

كان يمكن لإلياس أن يضحك وقد اراد طرف منه أن يضحك ولكن حسه الغالب أوحى
له بأن الضحك لايناسب فى ذلك الموقف . وبدلا من ذلك ظهر جادا وهو غارق فى تأمل
عميق .

سألت فضيلة وهي مستغربة نوعا ما لرد فعل إلياس :

- ماذا حدث ؟ .. هل أخطأت أنا القول ؟

فقال إلياس مطمئنا :

- لا .. أبدا

- إذن لماذا يظهر عليك الشعور بالغضب .

- ليست عبارة الشعور بالغضب بالوصف الدقيق لما اشعر به .

قال إلياس ذلك دون أن يغير من هيئته أو نبرة صوته .

واصلت فضيلة استقصاءها للأمر بقولها :

- على كل حال ماذا حدث ؟

- أتصور بأنى قد كنت أمل فيما هو أكثر من الاهتمام الفنى .

كانت فضيلة قد رفعت نظرها تجاه إلياس فخفضت نظرها وظلت صامتا لبرهة من

الزمن . فضل إلياس عدم إزعاجها في صمتها وقدرت هي ذلك منه وبعد أن تفكرت لبعض

الوقت رفعت عينيها وصوبت نظرها تجاه إلياس . ألم إلياس بنظرتها بطرف عينه ورد على

نظرتها بينما ركزت هي نظرها ثم ابتسمت .

احضر النادل طعامهما واستمر صمتهما اثناء وضع الطعام على المائدة بخلاف عبارات

الشكر للنادل من وقت لآخر ..

وعندما أصبحا وحيدين مرة أخرى ، ظهر أنهما أقل حرصا على الطعام وإن ظلا

يتلاعبان به ويتناولان لقمة منه بين وقت وآخر .

تذكرت فضيلة أن إلياس كان آخر من تحدث وأنه قد عبر عن بعض خيبة الأمل حول

تركيزها على الجانب الفنى في علاقتهما . رغبت هي في تصحيح ذلك لكنها فضلت أن تترك

الأمر على غموضه الأول . لعل ذلك يكون أبلغ أثرا من الرد المباشر والصريح . وبدلا عن

الرد الصحيح قالت :

- يمكننى أن أقدر أسباب انزعاج والدى وحال مجتمعنا المسلم على ما هو عليه ، ولكنى

امراة ناضجة بل وصاحبة مهنة محترمة .

استرجع إلياس ما اكتسبه من تنشئته الدينكاوية حول كيفية التدخل الإيجابى فى

صراع يكون أحد أطرافه أقرب إليك من الطرف الآخر . فى هذه الأحوال على المرء أن

ياخذ جانب الطرف الأبعد عنه ، وبذلك يحمى مصلحة الطرف الأقرب بطريقة الفضل .

- اذا كان على المرء كما تقولين أن يحاول تفهم موقف والديك من وجهة نظر المجتمع الذى

نعيش فيه فإنك عليك أن تقدرى أن الإسلام يجعل المرأة غير المتزوجة معتمدة على

والدها ، كذلك لا يجوز لك أن تلومى الشيخ لعدم تفهمه لامر لايفهمه جيله ولا دينه .

- هل أنت فى صفة أم فى صفى أنا ؟

تسألت فضيلة بصورة مداعبة ابانت لإلياس أن أسلوب الدينكا الذى اتخذه قد أدى

مفعوله .

أعاد إليها السؤال بقوله :

- هل يمكنك التخمين ؟

وفهمت فضيلة مرمى سؤاله فتسألت بنفس الطريقة المداعبة :

- ماذا تقترح إذن ؟ هل أخضع لإرادة جيله ودينه .

ابدئى اولا بتفهم موقفه .
قال إلياس ذلك وقد بدا يتحدث بصورة جادة .
من خلال ذلك الإطار يمكنك التفكير في حلول تتجنب الصراع وتنمى التفهم المتبادل .
اجابت فضيلة وهي تبدو جادة ومداعبة في أن معا : إنك تتحدث بكل الحكمة .
ولكن هل يمكن أن تخبرنى مايعنى ذلك بصورة محددة ؟
وبذلك حاصرته بسؤال حاسم لايمكك هو الإجابة عليه بصورة مرضية .
اجاب إلياس بقوله :

- ارجو الا يعنى ذلك انه ينبغى علينا الامتناع عن مقابلة بعضنا البعض . هل صحيح ان
لك اخا .

- نعم .. واسمه بركة وهو اكبر منى سنا . بركة قاضى بالمحاكم الشرعية .
وواصل إلياس تتبع الامر بسؤاله :

- هل ياترى يتصرف والدك بالتشاور مع اخيك بركة .
قالت فضيلة مطربة على إلياس : إنك عبقرى حقا كيف خمنت ذلك ؟
وقدر إلياس اعادة الفكاهة التى استخدمها عثمان جار النبى خلال رحلة القطار إلى
الفاشر فأشار بأصبعه إلى راسه وقال : « إن لى كليتين » .
فهتمت فضيلة النكتة وارادت أن تصقلها فقالت :
- إنه الذكاء ياغبى ..

وضحكا معاً ولعلمهما للمرة الاولى قد شعرا بأنهما يقفان على ارض مشتركة .
واصل إلياس الحديث بقوله :
- فى حقيقة الامر أنا لاافترض أى شىء . ولكننى بكل جدية اتسامل عن موقف بركة وهو
من جيل مختلف عن جيل والدكما .
- اصدقك القول بأنى لااعرف أيضا ، فأنا لم اتحدث معه . وكل ما أعرفه هو ما قاله
والدى .

تساءل إلياس : وماذا قال ؟ حقا أود أن أعرف المزيد عما دار بينك وبين والدك .
ظلت فضيلة صامته ونظرت إلى اسفل تجاه المائدة ثم حولت نظرها تجاه إلياس
وابتسمت وهي لاتزال صامته . وكان من الواضح انها تحاول إخفاء شىء ما ، وربما كان
ذلك لحماية مشاعر إلياس أو الحيلولة دون نشوء العداء بينه وبين اسرتها .
حشا إلياس بقوله :

- ارجوك أن تخبرينى ولا تخافى من إيذاء مشاعرى .
- وماالذى يجعلك تظن بأنى اخاف من إيذاء مشاعرك ؟
فقال إلياس مصرا على معرفة الحقيقة .
- يمكننى أن أخمن لك ولكن أرجوك أن تخبرينى على كل حال .
- ولماذا تريد أن تعرف ؟

قالت فضيلة ذلك فى محاولة لتفادى الامر .
- وعلى كل حال لايهم الامر كثيرا . علاوة على ذلك فبأنى واثقة بأن لك امورا اخرى تعنك
وتشغل بالك .

فقال إلياس فى إلحاح : لقد نجحت فى جعل هذا الامر هو همى الأول . فى هذه اللحظة
أرجوك أن تخبرينى .

ظهر التنازع على فضيلة . فبالطبع يتحتم عليها الآن ان تقول اكثر لإلياس ، لكنها كانت تخشى أن تسبب بذلك المزيد من التعقيد في الأمور . تنهدت وظلت صامته لوهلة ثم بدت وكأنها قد قبلت المخاطر الموجودة في الموقف وقالت « حسنا ، مادمت مصرا على

معرفة ماحدث ، فسوف أخبرك بكل الحق ولا شيء غير الحق كما يقولون في المحاكم . وأنا على وشك مغادرة المنزل في طريقى الى الاستديو سألتنى أمى عن موعد عودتى فقلت بأنى لا أعرف لأن الأمر يتوقف على سير العمل في التمثال . سمع والدى ماقلت فبدأ في استجوابى وكأنها المرة الأولى التى يسمع فيها عن المشروع . وعندما سقت له حججى قال والدى : لا يمكن لأحد أن يفهم كيف يقف ضابط شاب كنموذج لنحت تمثال بكل براءة . وعلاوة على ذلك ، فإن هذا الشاب نصرانى (مسيحي) . وأنت تعلمين أن أخاك بركة قاضى شرعى له تطلعات للزعامة في هذا البلد . كيف يفسر الناس حقيقة أن أخته معجبة بنصرانى ، بل وجنوبى أيضا ، لدرجة أنها تنحت تمثالا له .
وعندما صممت فضيلة تسامل إلياس :

- ثم ماذا بعد ذلك ؟

- قلت له ، يا أبى ، أولا ، دعنى أخبرك بأنى فنانة وأنى أهتم بموضوع عملى وليس بالرجل .

طأطا إلياس رأسه في حالة من خيبة الأمل ، لكنه كان يأمل سرا بالأ تكون فضيلة قد عنت ما قالت . وبدلا من إحراجها بسؤال محدد عن ذلك ، طلب منها الاستمرار . وبعد ذلك واصلت الحديث بقولى : « وعلاوة على ذلك ، ما الذى يجعلك تظن انى أوافقك أنت وبركة في رؤيتكما السياسية . الا تعلم بأنى كامرأة إنما ينحط مقامى إلى الدرجة الثانية في الدولة الإسلامية . إنى امرأة محترفة لمهنة محترمة يا أبى وأتطلع لأن أكون مساوية للرجال في مهنتى . وعلى كل حال ، فأنا ناضجة بالقدر الذى يؤهلنى للتقرير فيما أود أن أفعل بحياتى . لماذا لا تقدر على تفهم هذا ؟
- وماذا قال هو ؟

تسامل إلياس وقد بدأ يستغرق في الحديث .

- كان رده أن قال « اصمتى يابنت » وقد ظهر لى أنه كاد أن يضربنى ، ثم واصل الحديث : « من الواضح أن هذا الجنوبى قد سمم تفكيرك . لا أريد لك أن تقابليه مرة أخرى ، وهذا قول نهائى » .

ونفضت وقلت وأنا أغادر الغرفة « في هذه الحالة فإنى ذاهبة وهذا قول نهائى أيضا » . ثم خرجت غاضبة . وهأنذا تعلم الآن لماذا جئت وأنا متعكرة المزاج .
- وماذا تفعلين الآن ؟ ..

قالت فضيلة :

- من المؤكد بأنى لن أعود إلى المنزل فأننا لى كرامتى أيضا .

ولم يملك إلياس إلا أن يتسامل :

- ولكن أين تعيشين الآن ؟

.. هذا ما أعنيه بقولى بأنى ناضجة .. إنى متأكدة أن أبى لا يصدق بأن لى بدائل عن منزله ، ولكن لى زميلة وهى صديقة لى واسمها عواطف . إنها تعمل بالتدريس في المعهد وهى غير متزوجة . لقد تحدثت إليها بعد شجارى مع والدى وعرضت على شقتها .

- عرضت عليك شقتها ؟

وعلق إلياس وهو مندهش بصورة واضحة :

- وهل ستشاركينها العيش في الشقة ؟ ..

- لا ، فقد سافرت هي لزيارة أقاربها في بورسودان وأعطتني المفاتيح قائلة ان بوسعى ان استخدم الشقة متى شئت .

- ولكن يا فضيلة هذا يؤكد شكوك والدك !

فقالت موافقة : أنا أعلم ذلك ولكن ينبغى أن يعلم والدى بأنى امرأة ناضجة ولى آرائى الخاصة فى الأشياء . كما أنى ذات مهنة محترمة وقادرة على الاستقلال بأمرى . هل يعتقد هو بأنى أعيش معهم لأنى غير قادرة على تدبير أمرى بنفسى ؟ أريد أن أثبت له بأنى غير محتاجة للمأوى الذى يقدمه لى .

- كانت فضيلة مندفعة فى حالة من الغضب . فتدخل إلياس بقوله :

- يا فضيلة ، هدئى من روعك ، عليك بالصبر مع الشيخ .

اجابت فضيلة بقولها :

- ماذا تعنى بالصبر ..

فقال الياس :

- فى الوقت الحاضر يعنى ذلك عودتك إلى المنزل :

تفكرت فضيلة لوهلة قصيرة . هل من المحتمل أن يكون إلياس قد أساء فهم نواياها ؟ هل يكون قد ظن بأنها توحى إليه بأمر ما ؟ وكلما فكرت فى الأمر زاد شعورها بالإهانة ، وفجأة صمتت عن الحديث .

لاحظ إلياس ذلك فسأل :

- ماذا حدث ؟ هل قلت لك شيئا مسيئا ؟

- لا ، ولكن الوقت تأخر وعلى التجهيز للتدريس غدا .

فهم إلياس أن فضيلة قد أساءت فهم مقصده فقال :

- لا تكونى حمقاء يا فضيلة . بالطبع لم أقصد أنا ما أعتقد بأنك تظنين أنى قد قضدت : صمت الياس لوهلة ثم واصل الحديث .

- دعينى أجيب عن سؤالك عن الصبر بصورة كاملة . ألم تسمعى عن القول بأن الوالد هو من الدرجة التالية بعد الله .

وكان إلياس بذلك يكرر قولاً كثيراً ما سمعه فى بلاد الدينكا .

- إذن فليتصرف كما ينبغى لله أن يتصرف .

علقت فضيلة بذلك وهى لا تزال تشعر بالمهانة .

فأجاب إلياس :

- هل تعتقدين بأن الله يتصرف دائماً كما ينبغى لله أن يتصرف ؟ ألم تشاهدى ما يبدو

وكانه عمل عشوائى يكون الله مسئولاً عنه ؟ .. ورغم ذلك نبذل غاية جهدنا لنجد المبررات

لتصرف الله ، بل ونقول له بأنه دائماً على حق . ولماذا نفعل ذلك ؟ جزء من السبب هو

خوفنا من أن يفعل ما هو أسوأ من ذلك ، إذا غضب ، والطرف الآخر من السبب هو

شعورنا بالامتنان له لخلقنا وحماية حياتنا .

قالت فضيلة :

- إنك تتحدث الآن كواعظ .

فأحتج إلياس بقوله :

- لا أبدا ، فكل هذا بديهي . فإذا أنت أقحمت نفسك في صراع طويل مع والدك فإنك لا تؤذينه بشدة فحسب ، وكذلك تؤذين والدتك ، وإنما تؤذين نفسك أيضا . وسوف يشكو والدك بمرارة وستتهمين أنت بالخيانة ونكران الجميل . وحتى الله سيستمع إلى شكواه . وبمختلف الطرق ، بعضها واضح والآخر خفى ، سوف تشعرين أنت باللوم وتعانين العقاب . وفي نهاية الأمر ، سوف تندمين أنت وتشعرين بالذنب لدرجة أنك ستعاقبين نفسك . ومثل الابن العاق ، فقد تختارين أن تعودي لوالدك وتطلبين الصفح بكل تواضع أو تفضلين مواصلة السير في طريق العناد نحو تحطيم الذات . فلماذا تذهبين في تلك الرحلة الرهيبة ؟ ..

وشعر إلياس وكأنه هو أيضا قد اتخذ طريقا لم يتصوره ، كما أحس بالآثر الذي خلفه على فضيلة .

وقرر أن يثبت مصداقيته فقال :

- لو كنت أنا الشيطان الذى يزعم والدك بأنى أضلك عن طريق الله ، فمن وجهة النظر الأنانية الصرفة ، فانى لا أحقق أى مكسب من مصالحتك مع والدك . ولكنى أعتقد بأنى أخلص لك النصح بلا غرض خفى . أعتقد بأنه عليك العودة والاعتذار لوالدك قبل أن تسوء الاحوال بينكما .

وحل الصمت بينهما وهما يحدقان في المائدة . ثم استدار إلياس نحو فضيلة ورأى الدموع تتكون خلف رموشها . وعندما أدركت أنه ينظر إليها ، أمسكت بطرف ثيابها ومسحت الدموع بسرعة .

قالت فضيلة وهي تجهش بالبكاء : لا أعرف ماذا أقول له .

- فقط عودى وتجاوبى مع الموقف كما يبدو لك . إذا كان نائما ، فهذا حسن ، اذهبى للنوم وسترين ما يكون غدا . وإذا كان مستيقظا ، فقولى بأنك أسفة للطريقة التى تصرفت بها تجاهه ولا تزيدى على ذلك . وإذا أجابك فأستمعى بانتباه لما يقول وردى عليه حسب قوله ولكن بأدب . تذكرى أن المفتاح هو الولاء الأسرى .

ومسحت دموعها بالثوب مرة أخرى وقالت :

- أعتقد أنه من الأفضل أن تأخذنى إلى أهلى الآن اذا سمحت .

استدعى إلياس النادل وطلب فاتورة العشاء ، وبمجرد أن دفع القيمة نهضا وانصرفا .

وعندما جلسا في سيارة إلياس ، قالت فضيلة :

- إن أغراضى في شقة عواطف ولن يستغرق احضارى لها سوى لحظة .

وجهت فضيلة إلياس نحو شقة عواطف . وعند وصولهما ، خرجت فضيلة من السيارة وسارت المسافة القصيرة إلى المبنى . تذكر إلياس أن عواطف غير موجودة في الشقة وأن الشقة متروكة لتستخدمها فضيلة تلك الليلة . وشعر إلياس بالرغبة بأن يتبع فضيلة إلى داخل الشقة . ليست تلك فرصة ذهبية ليكونا في عزلة تامة ؟ هل كان محقا في إقناع فضيلة بالعودة إلى أهلها تلك الليلة ؟ هل ينبغى عليه أن يتبعها ويقنعها بالعدول عن خطتها ؟ ولكن صوت العقل تغلب عليه وشعر بأنه أخلص النصح لفضيلة وأن تردده يعود إلى بواعث الإغراء . وعندما خلاص إلى ذلك القرار ، ظل بالسيارة حتى أخذ فضيلة إلى منزل أهلها دون تعقيدات أخرى في الموقف .

وأوقف السيارة على بعد مسافة من المنزل ، وعند هبوطها من السيارة اتفقا على اللقاء في السادسة والنصف من مساء اليوم التالي في الاستديو . وعندما أصبح إلياس منفردا ، أخذ يعيد على نفسه ما أخبرته به فضيلة . وشعر بكراهية مفاجئة لمحمد وأدرك أن ذلك الشعور كان كامنا فيه منذ لقائه الأول بالرجل . ولاشك أن محمدا كان يكرهه أيضا كما ظهر من ملامح وجهه عند لقائهما . ورغم ذلك ، ظل إلياس مطمئنا إلى أنه أحسن النصح لفضيلة . ولكن زاد من عمق شعوره تجاهها معرفته أنها خاطرت بالانفصال عن والدها من أجل نحت التمثال .

تذكر إلياس أن فضيله لم ترد على تساؤله عندما أمل هو في أن يكون في الأمر ما هو أكثر من مجرد الاهتمام الفنى ، وتساؤل عما إذا كان حقا أن في الأمر ما هو أكثر من ذلك . فعلى كل حال ، لم يقولا أى شيء عن العواطف . ولماذا لم ترد فضيلة على تعليقه ذاك ؟ هل كانت ياترى متحرجة في أن تقول عما هو واضح للعيان أولعل اهتمامها هو حقا اهتمام فنى ؟ لم يجد إلياس الإجابة على كثير من الأسئلة التي تدور بذهنه . وغلب التعب على الخواطر والشكوك والأمال فراح في نوم عميق .

وقضى إلياس اليوم التالي وهو يتحرق شوقا للقائهما في الساعة السادسة والنصف مساء . وعندما حان الموعد ، كان هو بالاستديو قبل عشر دقائق من الموعد ، وهو ينظر إلى ساعته بنفاد صبر . وبدأ يشعر بالقلق عندما انقضت خمس دقائق ، وتحول قلقه إلى انزعاج شديد عند الساعة السادسة وخمس وأربعين دقيقة .

لماذا تأخرت فضيلة وهي عادة خريصة على الحضور في موعدها ؟ . حاول أن يصرف نفسه عن حالة الانزعاج ، فكما يقولون الغائب حجتة معه . وكاد إلياس أن يخرج عن طوره عندما حلت الساعة السابعة مساء . لاشك أن لفضيلة سببها في عدم الحضور ، ولكن ماذا يكون ياترى ؟ هل تشاجرت مع والدها وسبب لها الأذى ؟ لعلها تكون بالمستشفى الآن ؟ أم أن أسرتها قد أقنعتها بنسيانته ونسيان التمثال ؟ ولكن إذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لم تحضر لتخبره بذلك ؟ أم لعلها تنقل إليه الرسالة من خلال غيابها ؟ وعند الساعة السابعة والربع ، فكر إلياس في الانصراف ، لكنه ظل يمهل فضيلة لدقائق أخرى كل حين وحتى الساعة الثامنة مساء . ووقتها ذهب منصرفا ثم عاد مرة أخرى ليرى هل حضرت . وكانت الساعة الثامنة والنصف عندما قرر أخيرا أن أمرا خطيرا قد وقع .

وأثناء ما كان إلياس يقود سيارته نحو مكان سكن الضباط ، خطر له أن يتوقف بمنزل العميد على ، لكنه صرف النظر خوفا من أن يعكر ذلك الجو . فمن المؤكد أن عليا سوف يتسامل ويتحرى في الموقف أكثر مما ينبغي .

ولم يكد إلياس ينام ليلته تلك . فعلاقتها قد اضطربت بعد أن بدأت في غاية السلاسة ونجمت عن علاقة عمل مسترخية . هل تراه قد بدأ يسقط صريعا لحب فضيلة ؟ أم لعله غارق في حبها فعلا ؟

وقضى إلياس يوما قلقا آخر في انتظار المساء . ومرة أخرى ذهب إلى الاستديو قبل الساعة السادسة والنصف ببعض الوقت ، أملا في أن يلقي فضيلة ، ولكنها لم تكن هناك . وظل منتظرا وهو قلق . وعندما انقضت نصف ساعة ، حفزه حافز ليذهب إلى التمثال . وكأنه فضيلة نفسها . وهناك رأى مظروفا موضوعا بعناية على منضدة تحت التمثال مباشرة ، والتقط إلياس المظروف وكأنه كنز ثمين أو عبوة ناسفة ، وهو يعلم أنه

من فضيلة . وفتحته باستعجال مع الحذر من اتلاف مافيه ، وبدأ الخطاب باللغة العربية.
المعهودة :

أخي العزيز إلياس ، لا بد لي من الاعتذار عن عدم الحضور في الموعد المحدد بالامس .
لقد كان عندنا مجلس عائلي بدأ في الخامسة مساء واستمر إلى ساعة متأخرة من الليل . لم
أقدر على إخطار عائلتي أنك في انتظاري ، غير أنني لم أكذب عليهم . ورأيت أن اغفال ذكر
الامر هو اخف الضررين وأنا واثقة بأنك ستفهم بصورة ما .
كما انى اكتشفت ، بل على الأحرى تذكرت ، أن أسرتى ستقوم بزيارة عمى عبد
الرحمن وأسرتى بكوستى ، وابنه خليفة وهو طبيب يعمل بمستشفى كوستى . اخبرتهم
بأن لي غرضاً عاجلاً بالمعهد على قضاؤه قبل السفر فوافقوا على المرور بالمعهد لذلك
الغرض . وغرضى هو بالطبع أن اترك لك هذه الرسالة في الاستديو .
أود أن اختتم رسالتي بشكرك على أمسية ممتعة للغاية . لعلها لم تكن مناسبة
سعيدة ، لكنها كانت فرصة للنصح الجميل . سأخبرك بالمزيد فيما بعد ، وأكتفى الآن بأن
أقول أن حكمتك قد نجحت على ما يبدو .
سنعود مساء الجمعة وأرجو أن القاك بالاستديو مساء السبت ولكن في الخامسة
والنصف ، أى قبل موعدنا المعهود .
وكان التوقيع هو « أختك فضيلة » .

أراح الخطاب إلياس بصورة فورية ، لكنه أثار المزيد من التساؤلات . ماذا كان
موضوع الاجتماع العائلي ؟ هل كان الأمر يتعلق بخلاف فضيلة مع والدها ؟ وكيف نجح
نصحه هو ؟ يبدو واضحاً من سفر الأسرة معاً لزيارة الأخ محمد أن المصالحية قد تمت ،
ولكن على أى أسس ؟ هل ستواصل فضيلة العمل في مشروع التمثال أم تم إقناعها
بالانصراف عنه ؟ وماذا عن مستقبلهما معاً ؟

أعاد إلياس الاطلاع على الخطاب ، وفجأة برز له اسم خليفة بصورة واضحة . لماذا
ذكرت فضيلة اسمه بهذه الطريقة المحددة ؟ من هو وما علاقته بفضيلة ؟ وفكر إلياس في
أنهما أبناء عمومة لكنه تذكر أنه ، بخلاف الأمر عند الدينكا حيث يمتنع الزواج بين
الأقارب لدرجة بعيدة ، فإن العرب يفضلون زواج الأقارب بل ويعتبرونه من الالتزامات
العائلية . كبح إلياس لجام خياله الجامح وأكد لنفسه ضرورة الصبر . ستوضح فضيلة
الامر وتزيل كل شك عند عودتها .

بما أن الأسرة قد غادرت يوم الخميس وستقضى يوم الجمعة في كوستى لتعود في
المساء ، فقد قدر إلياس أن فترة الانتظار لن تطول رغم أنها ستبدو وكأنها مفرطة في
الطول . وهو على كل حال سيلهى نفسه عن الأمر بزيارة بعض الأصدقاء . أم لعله يزور
العم على ؟ لا ، ولنفس الأسباب التى صرفته عن ذلك في مساء اليوم السابق .
وعندما حضر إلياس إلى الاستديو في الخامسة من مساء السبت وجد أن فضيلة قد
حضرت مبكرة أكثر منه هو وظلت في الانتظار وقال محيياً وقد شعر كأن سحابة كثيفة قد
انقشعت .

- السلام عليكم .

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

ردت فضيلة بحيويتها ومرحها المعهودين .

ورغم ان الانطباع الاول قد اتى ببعض الراحة ، إلا ان إلياس ظل قلقا ومتوترا ، فأعلن في شيء من الدعابة :

- لقد قررت الا اقف نموذجا للنحت هذا المساء . اقترح ان نذهب في نزهة على ضفاف النيل ثم نتناول الشاي في نادى الضباط - ثم نذهب للسينما - لا ، ليس السينما وإنما مكان نستطيع ان نتحدث فيه .

كانت فضيله مسترخية وفي روح عالية ، لدرجة قريبة من الحالة التي كانت عليها عند لقائهما الاول . وقالت وفي عينيها نظرة رومانسية :

- في الحقيقة .. اعتقد ان النزهة على ضفاف النيل فكرة رائعة ، ويمكننا ان نجلس في مكان ما لتناول الشاي .

- حسنا ، لنذهب قبل غروب الشمس .

وفعلا كان الغروب في غاية الروعة والرومانسية عندما كانا يتمشيان على شارع النيل الوارف الظلال . كانت الشمس تنشر أشعتها الذهبية على مياه النيل وهي ترتجف في الهواء البارد لذلك الموسم من العام . كان الهواء الناعم يداعب أوراق الاشجار وينغم صوتها مع صوت الامواج على ضفاف النهر . سارا نحو ملتقى النيلين الابيض والازرق وقد استحوذ القرص القرمزي للشمس الغاربة على أنظارهما ، وعلق إلياس بقوله :

- الا يقصى هذا المنظر الخلاب كل هم .

فهمت فضيله ان هناك غرضا ما وراء تساؤله وادركت أيضا ان عليها الرد فقالت :

- وهل لديك من الهموم ما يقصيه هذا المنظر ؟

- أوليس لك أنت هموم .

احتجت فضيلة بقولها : أنا أسألك أولاً .

فقال إلياس موضحاً : عندما تحدثنا آخر مرة ، كنت أنت الموضوع الأساسى للحديث . ألا أستحق تقديراً منك عما حدث ؟

حاولت الاجابة بقولها :

- لقد بلغت خلاصة الامر في خطابى . ويبدو ان نصيحتك قد نجحت بصورة كاملة . واصل إلياس الاصرار للحصول على المزيد من المعلومات فقال :

- وماذا يعنى هذا ؟

- حسنا ، بعد أن تركتك ، دخلت الى المنزل فوجدت أمى مستيقظة ويبدو انها كانت في انتظارى . وأخبرتني فوراً بأن والدى كان في غاية الانزعاج . كان أخى بركة قد زارهم ووجد والدى في غاية الغضب والهيياج . وحسب رواية والدى ، فقد كان بركة مدهشاً في تهدئة والدى وتقديم الامر من وجهة نظرى أنا بأن يسمح لى بقدر من الاستقلال وحرية التصرف المهني . ولكن على ما يبدو ، ورغم حجة بركة القوية نيابة عنى ، فقد ظل والدى غاضباً مما اعتبره سوء أدب منى أن أرد عليه بتلك الطريقة . وأثناء رواية أمى لما حدث ، أخذت تبكى ثم أجهشت بالبكاء . وقد تأثرت كثيراً لتعاطفها مع أبى ومعى أيضاً . ثم قالت شيئاً جعلها تبدو وكأن المتحدث هو أنت ، حيث قالت يا بنتى ، ان الأب مثل الرب . لا ينبغي أن تؤذى والدك ، بل يجب أن تكونى شاكرة له . وبكيت انا لبكاء أمى ولانى سمعتها ترزء كلماتك . وبعد أن هدأت ، كان دورى لاهدئها هى .

ثم سألت : هل أبى مستيقظ ؟ وعندما علمت بأنه لا يزال مستيقظاً نهضت وذهبت الى

غرفتهما وقرعت الباب فأجاب أبى . وبمجرد دخولى ، ذهبت اليه مباشرة واحتضنته وانا ابكى معتذرة عن الطريقة التى خاطبته بها من قبل وكان ذلك كافيا . قال لى معلش (لا ضير) واخذ يهدىء من روعى .

وفى ختام روايتها المثيرة لما حدث بينها وبين أسرتها قالت فضيله :
- وهكذا ترى كيف كانت نصيحتك الحكيمة مفيدة للغاية .
وسعد الياس لجدوى نصيحتة لفضيلة ، وكذلك سعد لدور بركة وللطريقة الودية التى انتهى بها الخلاف فى العائلة .. ثم تساءل :
- هل ستواصلين العمل فى المشروع ؟
- يبدو أن والدى قد اقتنع بأنه ليس فى العمل الفنى أى شىء غير لائق .
- انى أفهم ذلك .

علق الياس وهو غير متأكد كيف يفهم التفسير الذى قدمته فضيله . كانت الشمس قد غربت وأخذ الظلام يشتد بسرعة ، وحان وقت الذهاب لتناول الشاى فى مكان ما ، ولكن اين يكون ذلك ؟ سيكون رائعا لو أمكن الجلوس فى شرفة الفندق الكبير على ضفاف النيل الأزرق ، ولكن ذلك قد يثير الاقاويل ويخلق مشاكل جديدة . وقد قدرا الآن أن مجرد السير على ضفاف النيل قد يثير الاقاويل . قالت فضيلة : .

- لا تقلق ، فقد تصالحت لتوى مع والدى وسيبقى ذلك الصلح لفترة من الزمن على الاقل . وعلى كل حال ، فإن الحقيقة هى التى تهتم . دعنا نذهب الى الفندق الكبير .
ذهبا وجلسا على مائدة فى موقع استراتيجى فى أحد الاركان وبمجرد جلوسهما علق الياس بقوله :

- لقد طرا لى الآن بأنك لم تحدثينى حقا عن أسرتك . أى نوع من الرجال هو والدك ؟
واعترضت فضيله بقولها :

- لا ينبغى سؤال ابنة هذا السؤال عن والدها الذى تصالحت معه لتوها . انه مثل سؤال الزوجين اللذين افترقا ثم اجتمعا عن رأيهما فى بعضهما البعض .
وأجاب الياس :

- ربما يقدران على اجابة السؤال .
- وكذلك أستطيع أنا أن اجيب على السؤال .. فى الحقيقة يقول لى الجميع أن والدى يحبنى غاية الحب ، ولعله حقا يفعل ذلك . ولكن يصعب عليه إظهار دلائل الحب ، ليس لى فحسب وانما لأى شخص آخر ، بما فى ذلك والدى المسكينة . أذكر بعض الاوقات عندما كنت لا أزال صغيرة السن عندما كان والدى يضرب والدى حتى تهرب من المنزل بحثا عن الحماية عند الجيران . لكنه لا يعاملها دائما بقسوة . بل على العكس من ذلك ، فانى أعتقد بأنه يحبها حقا . ولكن يبدو أنه غير قادر على إظهار العطف والحنان .

- هل يكره الجنوبيين حقا ؟
ظلت فضيلة جالسة فى صمت وتفكر ، وقد استغللت حضور النادل كعذر لعدم الرد الفورى . طلبا كوبين من شراب الليمون والشاى . وعندما انفردا مرة أخرى واصلت فضيلة الحديث :

- لعل كلمة « كراهية » أقوى من اللازم . ولعلها نفس المشكلة السابقة ، أى عجزه عن إظهار العطف والحنان . ولكنها تتعقد أكثر بالنسبة للجنوبيين بسبب التحيز . لا أعتقد

انه يكره الجنوبيين ، ولكن وبأمانة فإني أعتقد أنه يرى أن كل من هو غير مسلم وعربي
انما هو أدنى درجة . والعروبة في تقديره تتعلق بأن يكون الشخص من اللون المناسب .
فإذا كنت فاتح اللون أكثر من اللازم فأنت «حلبى» أو ربما «خواجة» أى من الأوربيين
وذلك يعنى كونك مسيحيا من الناحية الدينية وعرقيا على طرف النقيض الآخر في المجال
الانسانى . وإذا كنت داكنا أكثر من اللازم ، فذلك يعنى أنك زنجى أو عبد . وهو وضع لا
يزيد كثيرا عن كونك قردا . والجنوبيون من هذا الصنف في تقدير والدى . ولكن والدى لا
يتوقف حتى ليفكر في هذه الأمور . فبمجرد أن يرى الشخص ، فانه يصنفه في إحدى
هذه المجموعات ويحدد ذلك رأيه في الشخص .
- انى اعلم ما تقصدين .

علق الياس وهو يتذكر لقاءه الأول مع الشيخ محمد .
- دعنى أعطيك نموذجا لما أقول .

قالت فضيلة وهى تكاد تقاطع قول الياس ولكن في تلك اللحظة أحضر النادل ما كانا قد
طلبناه ، وقررت فضيلة انتظار انصرافه . وعندما آلى عليها الياس أن تواصل الحديث ،
ترددت وكأنها قد أعادت النظر في حكمة أن تقول كل ذلك القدر عن أسرتها ، فعلقت
بقولها :

- من غير المناسب أن يتحدث الشخص بهذه الطريقة عن والده .
فأجاب إلياس بقوله :

- هيا يافضيلة ، فأنا لم أعد غريبا عنك رغم تقديرى بأنى لست من أفراد عائلتك .
وواصلت فضيلة الحديث بعزم متجدد في أن تصارح الياس القول :
- خذ مثلا أخى بركة ، فدون تحيز له أقول بأنه حقا شخص رائع وعطوف ومهذب لأقصى
درجة . وهو أدكن لونا منى أنا . وقد سمعت والدى ينعتة بأقبح الصفات بسبب لونه ،
ولكنه رغم ذلك فهو شديد الفخر والحب لبركة . من وجهة نظر والدى يجب أن يكون الشخص
من اللون المطلوب والدين المطلوب واللغة المطلوبة وتكون له الصلات الأسرية المناسبة لكى
يصبح من أولاد البلد وتنطبق هذه المواصفات بصرامة أكبر على النساء .

فقال الياس : ورغم ذلك فقد علمكما ، أنت وبركة ، أحسن التعليم .. قد يظن المرء أنه
لا يهتم بالتعليم بهذا القدر ، وخاصة للنساء ، سوى الاشخاص المستنيرين .
وايدت فضيلة الحديث بقولها :

- ولكن في هذا المجال ينبغى أن يحفظ الفضل لاهله .

- ماذا تقصدين . هل يعود الفضل في تعليمك لشخص آخر غير والدك .

- لقد زار عمى على والدى ونحن لانزال أطفالا صفارا ، وكان والدى وقتها في جنوب
دارفور حيث يتاجر في الماشية في بلدة صغيرة لا أذكر اسمها الآن . عندما حضر عمى
على ، أولم والدى وليمة كبيرة دعا لها عددا من موظفى الحكومة . أذكر أن بعض الزوار
قد علقوا بأنه من المحزن أن تفوت فرصة التعليم على أطفال نجباء مثلنا . وافق عمى على
على ذلك القول ، وفيما بعد أصر على أخذنا معه الى الشمال حيث ذهبنا الى المدرسة .

أحضرونا في بداية الأمر إلى مدينة كوستى حيث أقمنا مع عمى عبدالرحمن وذهبنا أولا
« الخلو » لتعليم القرآن حيث برز بركة بروزا كبيرا ، بل إن اهتمامه بالدراسات الدينية
لم يتزعزع أبدا . وقد أحسنت أنا أيضا في تلك المرحلة . وبعد ذلك ذهبنا إلى المدرسة

الابتدائية ، وانت تعلم ما حدث بعد ذلك ، وقد ترقينا من مرحلة الى أخرى لاننا كنا تلاميذ نجباء . كان والدي بالطبع هو الذى يدفع مصروفاتنا المدرسية ويقدم لنا الكساء والمصروفات الثرية ، كما كان يقوم بزيارتنا من وقت لآخر ، وكنا نحن نذهب لزيارة اسرتنا في العطلات المدرسية . الا ان عمى عبدالرحمن هو الذى رعانا اغلب الوقت ، كما احسن الينا عم على كثيرا .

وهكذا ، بينما دعم والدي تعليمنا من الناحية المادية ، فقد كان ذلك بسبب إلحاح عمينا الشديد ، وبخاصة عم على ، مع الدعم العائلي من عم عبدالرحمن . وعلى التحقيق ، لولا عم على ، لما تمكنا من تحقيق التعليم العالى . واصلت فضيلة الحديث وكأنها مدفوعة لتحكى كل شيء .

- أراد والدي أن يعاونه بركة في تجارة الماشية ، لكن بركة كان مفرط الذكاء لدرجة ان الشيخ المحلى ، بمعاونة عم على ، قد نجح في الضغط على والدي ليواصل دراسته في القسم الشرعى من كلية القانون بجامعة الخرطوم . احتج والدي في بداية الامر بضرورة تركى المدرسة إذ لا تجد الفتاة ذات التعليم الجامعى فرصا للزواج . ولكن عم على أصر على مواصلى للتعليم ومكننى من الالتحاق بمعهد الفنون الجميلة .

وكانها شعرت بأنها كانت شديدة على والدها أكثر من اللازم ، اختتمت فضيلة حديثها بقولها :

- انى أقول لك كل هذا لأشرح لك الصعاب التى تحتم علينا التغلب عليها ، ولكن رغم تردد والدي في البداية ، واستمراره في اظهار التحفظات ، فهو على التحقيق لم يصر على إيقاف تعليمنا . وقد كان في مقدوره أن يفعل ذلك لو اراد حقا إيقاف تعليمنا ، رغم انه كان سيجد معارضة من عمينا .

غير إلياس محور التركيز بسؤاله :
- أخبرينى عن أمك .

اجابت فضيلة بحماس واضح :

- إنها حقاً امرأة رائعة وهذا القول بلا تحيز على الإطلاق . لابد أن يكون الشخص متميزاً بدرجة كبيرة ليقدر على التعامل مع والدي لكل هذه الفترة الطويلة . إنها صبورة للغاية ومحبة ومعطاءة . إن بركة ليس أخى حقاً ، بل هو أخى غير الشقيق وقد اختفت والدته ، الزوجة الأولى لوالدي ، اختفت بعد ميلاده بفترة وجيزة ، والرواية التى تحكيها الأسرة أن الدينكا قد اختطفوها في إحدى غاراتهم . ورغم ذلك ، لم ألاحظ أبداً أى اختلاف في معاملة والدي لبركة عن معاملتها لى وإخوتى الأصغر . لقد أنشأته كما تنشئ ابنها حقاً . وفى الحقيقة ، رغم أن بركة من صلب والدي وليس من أحشاء والدي ، فيمكنك القول أنه أقرب بكثير إلى أمى منه إلى والدي . إلا أن بركة ووالدي قد نجحا في احتواء التوتر بينهما ، فكما قلت من قبل ، فإن والدي شديد الفخر والاعتزاز ببركة . وأعتقد أيضاً أن بركة قد كان ابناً شديد الولاء ، وبخاصة بعد نجاحه المذهل .

نظرت فضيلة الى ساعتها وقفزت بصورة شبه لاشعورية :

- يا إلهى .. إنها الساعة التاسعة وقد أخبرت والدي بأنى سأحضر الى المنزل مبكرة . يجب على الانصراف .

- بدون تناول العشاء ؟

تساءل إلياس وهو يعرف الإجابة مسبقاً : بدون تناول العشاء ؟
أصرت فضيلة وهي تنهض واقفة فقالت : لامع الشكر ، لا بد لي من الإسراع . لا يجوز
أن أخلق مشاجرة جديدة مع الأسرة بهذه السرعة الكبيرة .

نهض إلياس واستدعى النادل ، ثم دفعا ثمن المشروبات وانصرفا .
تفكر إلياس في حديثهما بمزيج من المشاعر ، فقد كان حديثاً منبسطة وممتعا ، حيث
كانت فضيلة في غاية الصراحة معه . لكنها كانت أمسية غريبة أيضاً . كما أنه لم يكن يعلم
حقيقة مشاعر فضيلة تجاهه . وماذا عن مشاعره هو نحوها . فقد كان متنازعا حتى في ذلك .
فسوى اللحاحات الرومانسية القصيرة الأمد ، فقد انصرف أغلب المساء في النقاش العقلاني
حول أسرة فضيلة . وهنا تذكر إلياس أنه لم يسألها عن ابن عمها خليفة . فمن روايتها ، لا بد أن
تكون قد نشأت مع خليفة ويفترض أنها تعرفه جيداً . وتنهى إلياس وهو يفكر لنفسه :

- حسنا ، أظن أن ذلك سيكون موضوع الحديث في المرة القادمة .
عند لقائهما التالي ، قررا تناول عشاء مبكر في حديقة فندق قصر الصداقة على ضفاف
النيل الأزرق من ناحية الخرطوم بحرى . وكلنا قد جلسا لتوهما عندما علق إلياس .
- هناك أسئلة في غاية الأهمية فات على أن أسألها في المرة السابقة .
أجابت فضيلة بسرعة . انتظر لحظة .. لقد كان الأمر انسيابا للمعلومات الشخصية من
جانب واحد ، لقد أخبرتك بكل شيء عن نفسي وعن أسرتي ولم أسمع شيئا عنك أنت .

- حسنا ..

قالها إلياس وهو يتنهى ثم صمت لوهلة وواصل الحديث قائلا :
- أولا ، إنك تبالغين حين تقولين بأنك قد أخبرتنى بكل شيء عن نفسك وعن أسرته ولم
تسمعي شيئا عنى . لقد قلت لك الآن بأنى قد نسيت أن أسألك بعض الأسئلة في المرة
الفائتة وهذا يعنى أنك لم تخبرينى بكل شيء . كما أعلم بأن عم على قد أخبرك ببعض
الأشياء عنى . وعلى كل حال ، لنترك هذا جانبا ، ما الذى تودين معرفته ؟
- حسنا ، أريد أن أعرف عن أسرته وعن شخصك وعن مهنتك وطموحاتك ، وكل شيء .

قالت فضيلة ذلك وهي ترمقه بطريقة أخاذة . أجاب مداعبا :
- ان المفيد في السؤال المستحيل هو أنك تستطيع الإجابة عليه بأى طريقة تشاء . دعيني
أخترق كل أسئلتك وأخبرك بشيء أعتقد أنه يتعلق بحديثنا السابق عن أسرته . إنى من
أسرة تجمع بين التضحية بالذات في خدمة المصلحة العامة وشعور بالفخر والعزة الذاتية
والجماعية في ذاتيتها العرقية والثقافية بالإضافة للعزة والفخر في كونها زعيمة لقومها .
عندما كنت تتحدثين عن تحيز والدك العرقى أردت أن أقول بأنه غير شاذ في ذلك .
تساوت فضيلة :

- ماذا تعنى ؟

- يبدو لي أن الحس العرقى والعزة والفخر مضمنة بصورة أصولية في اعماق وجداننا
كثير . لقد ولدت وترعرعت في قوم يعتبرون أن جنسهم وثقافتهم هي النموذج الإلهي لبني

الانسان وكذلك ينبغي أن تكون تقاليدهم الاخلاقية . إلا ان الفرق الوحيد هو انهم لم يملوا ذلك الراى فى انفسهم وعن العالم على الآخرين . هم فقط يعتبرون انفسهم خواص ومتفوقين ، ولا يريدون أن يغيروا الآخرين ليكونوا مثلهم . إن الآخرين ليسوا بدينكا ولا يمكنهم أن يصيروا من الدينكا .
علقت فضيلة وهى لاتصدق ماتسمع:-

- بالله العظيم !

- غير أن الدينكا يدركون أن هناك أشياء معينة لدى الأروبيين ولدى العرب لو تعلمها الدينكا لحسنت من أحوالهم ، فمن الناحية المادية الحديثة ، مثلا ، يرى الدينكا أن العرب أحسن حالا من حيث الملابس والجياد والثروة المادية فى السوق . إلا أن للدينكا الثروة النموذجية وهى قطعان ماشيتهم . وما هو أهم أن العرب هم عرب وذلك يجعلهم دون الدينكا من حيث القدر . وأسوأ من ذلك ، فقد ظهر أن العرب منحطون أخلاقيا لتجارتهم فى الرقيق وصيد البشر كما تصطاد الحيوانات وإخضاعهم لمهانة الرق . وعندما تسأل الدينكا عما إذا كانوا قد أسروا العرب فى الحرب ، فانهم يقرون بذلك ولكن فقط بسبيل من الرد على العدوان . كما أنهم يحتجون بقولهم بأن جميع من أسروهم قد تم تبنيهم وادخالهم فى أسرهم كأقارب لهم . فبالنسبة للدينكا مفهوم الرق نفسه مفهوم غريب وعربى محض . تلك هى الطريقة التى خلق بها الله العرب فى تقدير الدينكا ، وقد خلق الله الدينكا بطريقة مختلفة .

تدخلت فضيلة بالقول :

- يالها من ادانة دامغة ! ولكن إذا اعتبرنا الطريقة التى عامل بها العرب غير العرب فى هذا البلد ، فإن الدينكا على حق .

وواصل إلياس الشرح بقوله :

- أما الأروبيين ، فقد كانت لهم فضيلة إنهم يعيدون كل البعد وغير معروفين للدينكا . فالرجل الأوربى يعتبر كمخلوق غريب لا يكاد يكون مؤهلا للاعتبار كمخلوق آدمى ولا يقاس بالمقاييس العادية .

قالت فضيلة مقاطعة :

- يبدو هذا وكأنه رأى والدى .

واستطرد إلياس فى الحديث فقال :

- إلا أن الأوربى كان يتمتع بميزة واحدة وهى أنه منع العرب من استرقاق الدينكا وباقى أهالى الجيوب . وهو قد ترك مختلف الناس ذوى الثقافات المتباينة ليحيوا حياتهم مع ضمان السلام والأمن لهم جميعا . كما أنه جاء بالتعليم والطب الحديث للناس ولحيواناتهم ، وجاء بالنظام الاقتصادى الحديث الذى لم يكن هناك من قبل . تلك هى بعض المميزات التى شعر الدينكا بأنه يمكن تحقيقها عن طريق التعليم ، ولذلك السبب أرسلوا أطفالهم الى المدارس .

سالت فضيلة :

- أين تعلمت أنت كل هذا ؟

قال إلياس مداعبا :

- فى مدرسة الحياة ، الا تعلمين بوجود هذه المدرسة ؟

على كل حال ، عندما ذهبنا نحن معشر الدينكا الى المدرسة العادية واحتكنا بالعالم العريض ، فسرعان ما أدركنا ان العزة والتحيز اللذين يشعرا بهما اهلنا ضد العرب وضد الأوربيين قد قاما لحد كبير على الجهل .
فبطبيعة الحال ، ليس العرب والأوربيون بأقل قدرا من الدينكا ، وما هو أهم من ذلك هو ادراك المرء بأن هناك أفرادا لا يوافقون على الإطلاق التصور الشائع لجماعاتهم . اعنى ، مثلا ، عمك على . قبل ان القاه ، كنت أكره كل العرب . ولكن عبر السنين ، نجح عم على في تحويل رأى تماما . والفريق خالد عبد المجيد نموذج آخر مما أقول . وعندما يفكر المرء في الموضوع ، هناك العديد من الحالات الفردية التي لا توافق التصور الشائع لقومهم ففى بلد كالسودان ، حيث مختلف القبائل أو الجماعات ، وكل يعتبر نفسه متفوقاً على الآخرين ، يكون الأمل الوحيد للتطور كأمة هو التعليم ليتحرر أكبر قدر ممكن من الناس من التحيز الذى خلقته فيهم تنشئتهم منذ الطفولة الباكرة .
واصل إلياس الحديث بصورة جادة :
- ولكن لا يقدر كل المتعلمين على تجاوز تحيزاتهم .

وهنا تذكر إلياس تجاربه في دارفور وفي قريته داك - جور حيث كان التحيز هو القاعدة الغالبة . إلا ان الحالات الاستثنائية هى الأبلغ في صياغة المستقبل . واستطرد قائلاً :
- وفي الحقيقة ، فان التحيزات عميقة الجذور الى درجة أن الغالبية العظمى من الناس لا تنجح في التغلب عليها . وإذا قدروا على التغيير على الإطلاق ، فانما يفعلون ذلك بطريقة بطيئة لا تترك أى أثر إيجابى على المجتمع بصورة عامة . ولا تقدر على التغيير بصورة تدخل التغيير المؤثر على المجتمع إلا فئة قليلة من الناس . ما أخبرتنى به عنك وعن والدك يدل على أنك واحدة من أولئك النفر القليل وأنك قادرة على تجاوز التحيزات الاجتماعية القائمة فى خلفيتك .

تدخلت فضيلة بالقول المداعب :

- إن الإطراء على لن يفيد بشيء . فأنا نكرة ، وعليك التركيز على كبار القوم القادرين على تحويل البلاد فى الاتجاه الذى تريده أنت .
وضحكا معا .

- إننى جاد فيما أقول . وبكل التواضع ، فأنا أعتبر نفسى أحد أولئك النفر القليل . وإلا فكيف يفسر المرء وجودنا أنا وأنت هنا ونحن نتحدث بهذه الطريقة ؟
كانا مستغرقين فى الحديث لدرجة أنهما لم يلتفتا لفترة من الزمن للنادل الذى حضر لأخذ طلبهما .

وفى نهاية الأمر ، التفتا اليه وأخبراه بما يريدان ثم واصل الحديث .

وكانما اكتشفت فضيلة لتوها جانبا من إلياس لم تكن تعرفه من قبل ، وبصورة ما كان ذلك هو حقيقة الأمر إذ رغم وجودهما معا فى العديد من المناسبات فلم يسبق أن استكشفا المسائل بهذا العمق . ومن ذلك الاكتشاف لجانب من شخصية إلياس سريعا ما تصاعد بينهما الشعور المتبادل بالفهم والاحترام لبعضهما البعض وعلقت فضيلة بقولها :
- كل ما تقول مقنع لى تماما ما عدا شيء واحد .
- وما هو ؟

- هو انى لا افكر فيك مطلقاً كجنوبى . لقد سمعت من عمى على انك من الدينكا ولكنى لم ارك كجنوبى .

- قفى لحظة فانت تظهرين بمنتهى التناقض . وافقت فضيله بقولها .

- انى اقدر بان ما اقول ليس من المنطق فى شىء . فمنطقيا انت من الدينكا والدينكا جنوبيون فاذن لابد ان تكون انت جنوبيا كذلك وهذا واضح ورغم ذلك فانى اقول لك بانه رغم علمى بانك من الدينكا وان الدينكا جنوبيون لم افكر فيك كجنوبى .

احضر النادل طلباتهما باسرع مما توقعا ولكن كالعاده كانا مستغرقين فى الحديث لدرجة ان الطعام والشراب ظهر وكأنه مجرد العذر لوجودهما معا وليس السبب لذلك وهكذا اخذا يتلاعبان بطعامهما وهما يواصلان الحديث . تذكر إلياس ان فضيله كانت اخر من يتحدث عن عدم تفكيرها فيه كجنوبى فسأل :

- كيف تفسرين ذلك ؟

فاجابت فضيله :

- لقد اعترفت لتوى بأن ذلك غير منطقى وتطلب منى أن أفسره لك ؟ حسناً دعنى أحاول : لقد سمعت عم على وحتى والذى يطرون على الدينكا بأنهم قوم نوو عزة وكرامة وشجاعة ونبل . كما سمعت أيضا عن وجود دماء الدينكا فى عروق أسلافى . غير انى سمعت الكثير من الامتعاض والادانة للجنوبيين بصورة عامة بانهم قوم كسالى متخلفون متوحشون متعطشون للدماء . وبكل صراحة يشبهون الحيوانات والآن هل ترى لماذا افكر فيك كدينكاوى ولكن ليس كجنوبى ؟

وافق إلياس .

- نعم أرى ذلك ولكنه لا يقلل من تحيزك ضدى كجنوبى . ردت فضيلة فى دهشة :

- توقف لحظة ، كيف أصبحت فجأة متحيزة ضدك ؟ - لأنى جنوبى .

- ولكن لم افكر فيك كجنوبى فكيف أكون متحيزة ضدك ؟

- هل أنت متحيزة ضد الجنوبيين ؟

- إذا جعلتنى أقسم على القرآن الكريم فانى اعترف بانى متحيزة لدرجة ما .

- وهل تعلمين بانى جنوبى ؟

- نعم غير انى قد كررت القول بانى لا افكر فيك كجنوبى ؟

- انى اقول بانه عندما لا يكون التحيز امرا متعلقا بالوعى الذاتى الشخصى او الجماعى وانما يكون مفروضا من احدى الجماعات لتفوقها على الآخرين فانه يصبح تحيزا عنصريا لاترضاه الناس التى يفرض عليها . يمكن ان ينعكس ذلك التميز فى صورة التميز العنصرى بل وحتى فى صورة الاستيعاب . إن رفضك الاعتراف بهويتى الجنوبية انما هى محاولة لانكار تلك الهوية والاستيعابى فى هويتك الشمالية وتصورك للجنوب ، ولا تشعرين بأى تهديد من كونى من الدينكا لانك قد نشأت على الاعتقاد بان الشخص قد يكون شمالي الهوية ومن اصل دينكاوى فى أن معا . ان نوع التحيز العنصرى الذى تعانى منه بلادنا ليس هو النوع الذى يميز عنصريا بقدر ما هو النوع الذى يستوعب . ان الدينكا يميزون

بعدم مطالبتهم للآخرين بأن يكونوا دينكا بينما تحاولون انتم يا عرب الشمال ان تستوعبوا
الآخرين بان تطالبوهم بان يكونوا مثلكم .

- ان هذا فظيع .

علقت فضيلة وكأنها تقول ذلك رغم إرانتها :

- إن هذا فظيع . لماذا ياترى نعمل ذلك ؟

أجاب إلياس :

- عليك أن تخبريني بالإجابة بدلاً من أن أخبرك أنا بها ، بل وأسوأ من ذلك أنكم تفعلون
الشيئين معاً .

قال إلياس ذلك وقد قرر مواصلة الهجوم .

- وكيف ذلك ؟

- ذلك لأنكم بينما تستوعبون الاخرين فانكم تواصلون التمييز ضد من يرفض الاستيعاب .
وبعبارة أخرى فانكم تحتفظون بالفطيرة وتاكلونها في أن معا بينما تحرمون الاخرين من
الاحتفاظ بفطيرتهم ومن أكلها أيضاً . وهل تعلمين ما يفعل رجالكم لضمان هذا الاستيعاب
من جانب واحد ؟

وتساءلت فضيلة :

- وما هو ذلك ؟

فقال إلياس موضحاً :

- انهم يتزوجون بفتيات الغير بينما يمنعون فتياتهم من الزواج بالغرباء ، بالطبع لدى
الدينكا نفس الموقف ولكن في حالتهم يقوم الامر على التحيز الاجتماعي بينما يجد موقفكم
انتم حصانة الاسلام وهو دين قاهر وعالمى . وعند الدينكا يمنع الزواج من خارج الجماعة
على الرجال والنساء معا وإن كان المنع أقوى ضد النساء فقط .

قالت فضيلة :

- ولكن هناك شيء لا أفهمه .

- وما هو ؟

- انى أفهم ما تقول عن رغبة العرب في الاحتفاظ بنسائهم ، ولكنى لا أفهم ماتقول عن
رغبتهم بالزواج من خارج مجتمعهم . كيف تفسر الاتجاه في الشمال نحو تفضيل ابناء
العمومة ؟

- اليس ذلك نمودجا كاملا لما قلت عن احتفاظك بالفطيرة وأكلها في نفس الوقت . بتشجيع
الرجال على الزواج من بنات اعمامهم تضمنون الإيفاء باحتياجات النساء وبذلك تضمنون
سلامة الجبهة الداخلية ويتدعم موقف الجماعة . وفي نفس الوقت توسعون الدائرة
بادخال نساء من الخارج ليحضرن ويلدن النسل الذى يتخذ هوية الاباء ويضيف
اسمائهم إلى قائمة الذكور في الجماعة . إذا كان الرجال مقيدون بالزواج من امرأة واحدة
فسينشأ التعارض بين الاحتفاظ بنساء العشيرة وإحضار النساء من الخارج في نفس
الوقت . ولكن بما أن الرجل يستطيع ان يتزوج من عدة نساء ، فمن الممكن الاحتفاظ
ببنات العم وإحضار الغريبات فى آن معاً . وبعبارة أخرى فان المرء يأكل فطيرته ويحتفظ
بها في نفس الوقت .

علقت فضيلة بقولها :

- انك تجعل الامر يبدو في غاية المعقولة والمنطق ومع ذلك فانى اعلم انه من الناحية الوراثية فان الزواج من الاقارب غير صحى ويقود الى اضعاف النسل . كيف تربط بين التحيزات التى ذكرت وهذه الحقيقة العلمية ؟
- ما الذى يجعلك تعتقد بأن للتحيزات أى علاقة بالحقائق العلمية ، إذا كان علميا لما كان تحيزاً .

- يبدو هذا فى غاية التعقيد .

قالت فضيلة ذلك وهى تحاول قمع التناوب ، ثم واصلت الحديث :
- أعتقد أنى أوافقك ولكنى غير واثقة بأنى أفهم تماماً الظلال والتبعات لما تقول .
قال إلياس فى تفهم وتعاطف : ربما لأن الوقت قد تأخر وأنت متعبة .
قالت فضيلة وقد نظرت إلى ساعتها : يا إلهى .. لقد انقضت ساعة على الوقت الذى وعدت بالعودة فيه إلى المنزل . لكننى أرغب فى متابعة هذا الحديث فى أقرب وقت . أعتقد أنه فى غاية الإمتاع .

- فى المرة القادمة ، أريد أن أسألك عن النقاش الذى دار بينك وبين أسرتك فى الأمسية السابقة لسفركم لزيارة عمك فى عطلة نهاية الاسبوع . كما أود أن أسألك عن أسرة عمك وبخاصة عن ابن عمك الطبيب .
وعلقت فضيلة قائلة :

- حسنا من المؤكد أنك تضع قائمة طويلة للموضوعات التى سنتناولها ، أما قائمتى انا فهى تتضمن السؤال عما عناه عم على عندما قال بأن لك شواغل خطيرة هذه الأيام .
أتصور أن بعض الاشياء التى قلتها هذا المساء لها علاقة بذلك . يبدو أنك قد امعنت التفكير فى هذه المسائل .

ضحك إلياس وقال وهما يتبادلان تحية المساء .

- لقد أحسنت التخمين .

واصل إلياس وفضيلة الاجتماع مع بعضهما البعض كثيراً ولم تكن تلك اللقاءات دائماً بغرض مواصلة العمل فى التمثال . أصبحت علاقتهما وثيقة وحميمة وأصبحا يمارسان الأنشطة مع بعضهما البعض دون الانشغال الزائد بما يقول الناس ، مثل التردد على دور السينما وتناول العشاء فى نادى الضباط والذهاب لتناول الشاى فى الفندق الكبير وزيارة حديقة الحيوان والكثير من الأشياء الأخرى ، وفى تلك الأثناء واصل إلياس الاتصال بضابط الاتصال والتنسيق لدارفور وبحر الغزال وبالقيادة العامة وذلك لمتابعة الموقف بالنسبة للمعتقلين . إلا أنه لم يحدث أى شىء مثير . ورغم رد سلطات الأمن على أسئلة الصحفيين من وقت لآخر بتجديد التهديد بتوجيه تهمة الخيانة العظمى ضد المعتقلين وتقديمهم للمحاكمة فقد أصبح من الواضح أن الدولة لا تملك البيئة الكافية ضدهم وأنها قصدت فقط اعتقالهم تحفظياً وردع أصحاب النشاط السياسى الآخرين ، ووضح أنه حتى الاعتقال والسجن لم يعد يخضع لضوابط سيادة حكم القانون وبذلك ظهر بأن الموقف الأمنى فى البلاد قد تدهور لدرجة بعيدة . وعزى إلياس وغيره ممن يعينهم أمر المعتقلين ، عزوا أنفسهم بمعرفتهم أنه رغم رفض الحكومة إطلاق سراحهم ، فإنها لا تملك أن تؤذيهم باكثر من الاعتقال بدون محاكمة :

واخيرا جاءت الاخبار من الولايات المتحدة بقبول إلياس بجامعة كلومبيا بمدينة نيويورك . وخلال أسبوع واحد من اخطار إلياس بالامر حصل على جواز سفر وتذاكر وتأشيرة الدخول إلى الولايات المتحدة وتأشيرة الخروج من السودان . وبعد فترة وجيزة سيكون في طريقه إلى عالم جديد - أمريكا .

وانشغل هو وفضيلة بنشاطاتهما الاجتماعية لدرجة عطلت العمل في التمثال كثيرا ، لكنه أصبح وشيكا على الانتهاء .

التقيا للعمل في التمثال في الاستديو في احدى العصريات . كانت العواصف الرملية قد هبت ذلك اليوم بغبار يعمي الأبصار فاختر الناس البقاء ببيوتهم . ولكن بما أن إلياس وفضيلة لم يقدرآ على الاتصال ببعضهما البعض لالغاء الموعد ولحرصهما على مواصلة العمل على كل حال فقد التقيا بالصورة المعتادة . جلست فضيلة في مقعد العمل بينما جلس إلياس على طرف المنضدة التي وضع عليها التمثال . أخذت العاصفة الرملية (الهبوب) في الانحسار بينما بدأت الامطار في الهطول وهي تضرب على السقف المعدني للمبنى بأصوات مزعجة ومهدنة في آن معا .

افترعت فضيلة الحديث بقولها :

- وهكذا تتخذ طريقك إلى أمريكا ؟ عندما طلبت منك أول مرة أن تقف نموذجا للنحت ، لم أكن أعرف ما أنا مقدمة عليه . والآن أعرف ما قد ورطت نفسي فيه .

ترك إلياس ذلك القول وفضل الرد بتوجيه سؤال لها :

- هل يمكنني الكتابة لك من الولايات المتحدة ؟

لم تجب عليه بالكلمات وبدلا عن ذلك نزلت الدموع على خديها . أخذت مندبلا من حقيبة يدها ومسحت الدموع . وقالت وكأنها تستدرك لتجيب على سؤال إلياس ، - « إذا رغبت أنت في ذلك » .

تأثر إلياس بصورة واضحة وقال لفضيلة بصورة حنونة :

- حسب مقتضى منهج الدينكا فإن المرء لا يبكي لدى الفراق لان ذلك طالع سوء .

ثم قال وكان سلوكه يعتمد على ردها .

- يا فضيلة ، إذا كتبت لك فهل ستردين على خطاباتي ؟

أجابت ببساطة :

- نعم

فقال في فرح عظيم :

- هذا عهد بيننا . والآن دعينا نعود إلى خلق إلياس بول ملك .

واستطردت في جدية ووقار : لدى طلب أخير منك يا إلياس .

عند عودتك هل تذكرت المرأة التي وهبت نفسها لخلق إلياس بول ملك على حد تعبيرك ؟

فأجاب إلياس :

- سأفعل بإذن الله .

الفصل السابع عشر

رغم مشغولا بذكرى أيامه الأخيرة مع فضيلة وبالتطورات السياسية في أرض الوطن . وبعد فترة قصيرة من وصوله كتب إلياس لفضيلة :

« مع أن اقامتي هنا لم تطل ، فان المسافة بيننا شاسعة ، ورغم ذلك ، لا ازال مشغولا بأيامى الاخيرة بالخرطوم وبالوقت الممتع الذى قضيناه معا . لن اتجرا بتخمين ما تعنيه تلك الذكريات ، ولكنى أرغب فى أن أحيانا مرة أخرى فى ذاكرتى وأن اشارك اياها فى خطاباتى .

ان امريكا بلاد تبقى فيها مسألة العرق مسألة حيوية ، وقد دهشت كثيرا بالمطار عندما رأيت أناسا يشبهون السودانيين الشماليين ، الا ان اللغة الانجليزية هي لغتهم . هؤلاء هم الامريكان السود أو الامريكان الافارقة والذين كانوا يعرفون حتى عهد قريب باسم الزنوج . وبعبارة أخرى ، فان أهلنا فى الشمال والذين يحتقرون سكان الجنوب والغرب على أساس أنهم زنوج يعتبرون زنوجا فى الولايات المتحدة . يصدم هذا اخواننا وأخواتنا الشماليين لدى حضورهم الى الولايات المتحدة . أما بالنسبة لى ، فقد فتح ذلك أعينى لتعقيد مسألة العرق على الصعيدين المحلى والعالمى ، وأعتقد أنه قد زاد من حكمتى فى العديد من الجوانب .

هناك الكثير الذى يقال ، ولكنى سانتظر حتى اسمع منك قبل ان اكتب بالمزيد .
وعندما لم يسمع الياس من فضيلة كتب مرة اخرى ، ولكنه لم يجد الرد على ذلك
ايضا .

وحزن للامر ، لكنه قرر النسيان اذ لم يكن هناك بديل عن ذلك . لا بد ان شيئا ما قد
حدث . لعل فضيلة تكون قد تزوجت ، ربما من ابن عمها . ثم اخذ يتفكر ويعقلن الامر
بان علاقتهما كانت على كل حال غير مجدية اذ هى عربية وهو جنوبى ، وهى مسلمة وهو
مسيحى . ول بعض الاحيان كان يضحك ويخاطب نفسه بصوت مسموع .
« تصور انى كنت من الحمافة بانى تورطت فى تلك العلاقة ؟ اى غرض يمكن ان
تخدمه تلك العلاقة ؟ على كل حال ، الامور واضحة الآن وهكذا ينبغى ان تكون . انسها
ايها الاحمل » .

وحقا ، مع مضى الزمن وعزمه على النجاح فى دراسته ، تناقص انشغاله بفضيلة .
تدرجيا . ورغم ذلك ، لم يقدر على ان ينساها تماما . فكر فى الكتابة للعميد على ليسال عن
المواقف السياسى ثم يتسائل عن فضيلة بصورة عرضية ، غير ان ما سمعه عن التطورات
السياسية لم يشجعه على الكتابة ، وعلى كل حال ، فان التقصى فى امر فضيلة قد يفجر
المواقف اذا تشكك على من تساؤل الياس عنها . لذلك قرر ان الحكمة تقتضى الا يفعل اى
شئ .

ومن الناحية السياسية ، فبمجرد سفره تقريبا ، انتقلت البلاد من سيىء الى اسوأ من
جميع النواحي . تردد الياس على بعثة السودان الدائمة لدى الامم المتحدة ليطلع على
الصحف ويتابع الاخبار . ولكن لم يكن من الحكمة الاعتماد على الصحف كمصدر
للمعلومات الصحيحة لانها خاضعة لسلطان الحكومة . وكان الاعتماد الاكثر على الافراد
العابرين من خلال مدينة نيويورك او من خلال انحاء اخرى من الولايات المتحدة ، والذين
عادة ما يتشوقون للحديث على الهاتف واشاعة الاخبار . ويظهر ان الفريزة الديمقراطية
للسعب السودانى قد تحركت ضد الحكومة واخذ الناس يستمتعون بنقل الاخبار عن
تدهور موقف النظام الحاكم . وبعد سفر الياس مباشرة تقريبا ، جاءت الانباء عن اعمال
عنف متفرقة كرد على القبض والاعتقال الواسع النطاق الذى تسربت اخباره من بحر
الغزال ودارفور .

ودهش الياس وانصدم بخبر اعفاء ولى نعمته ، الفريق خالد عبد المجيد من كل
اعبائه ، حيث استولى خصمه اللواء ادريس عبد الجبار ، رئيس جهاز الامن ، استولى
على منصب الفريق خالد بجانب احتفاظه بموقعه فى جهاز الامن . وتمت ترقية لواء آخر الى
رتبة الفريق وتميينه وزيرا للدفاع . كذلك سمع الياس من مصادر خاصة عن بروز مشاكل
اخرى فى البلاد .

واناد احد القادمين الجدد من الجنوب :

- انى اقول لك يا اذى بان الجنوب قد امتنع منذ فترة عن التعاون فى السلام الذى تحقق
قبل عشر سنوات تقريبا ، وان الغضب على الطريقة التى املت بها المنطقة قد حل محل
الفرح والبهجة التى كنت تراها . يطالب الجنوب بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية . وبدلا
من الرد بطريقة ايجابية ، فقد تبنت الحكومة سياسات زانت من عداء الجنوب اذ قامت
محاولة اعادة تحديد الحدود الاقليمية لكى تبعد عن الجنوب تلك المناطق فى حدوده
الشمالية التى اكتشفت فيها كميات تجارية من النفط ! وعندما نجحت حركة المقاومة لذلك

التصرف ، حاولت الحكومة نقل النفط الخام من الجنوب لتتم تصفيته في الشمال . هل يعجب المرء من فقدان الكامل لثقة الجنوب في الحكومة ؟ وحتى تلك القناة الكبرى التي تقول الحكومة بأنها ستجفف مناطق المستنقعات في الجنوب وتوفر الارض للزراعة والتنمية تعتبر الآن كوسيلة لاستنقاذ المياه التي تضيع من خلال التبخر ، وذلك لتوفيرها لمصلحة الشمال ومصر . وسيتم هذا على حساب البيئة في الجنوب مع تهديد حياة القبائل الرعوية النيلية وتهديد حياة قطعانهم ، دع عنك الحيوانات الوحشية في المنطقة . ومع مرور الايام ، تزايد الشعور بالقلق . ظل الياس يتابع تطورات الموقف من خلال اخ جنوبي يعمل بالبعثة الدائمة لدى الأمم المتحدة . وذات صباح ، وإلياس لا يفكر في أمر السودان ، جاءت محادثة هاتفية من صديقه الجنوبي .

قال الصوت على الهاتف :

- هل سمعت آخر الاخبار ؟

- لا ، أى اخبار تعنى ؟

- لقد قررت الحكومة التحرك بقوة اول امس ، ويقال ان قتالا عنيفا لايزال دائرا . ويقولون ان هناك العديد من الخسائر في الجانبين .

ولمعرفة للموقف العسكري ، فلم يكن لدى إلياس كبير شك في أن تؤدي الواقعة إلى اثار واسعة في كل أنحاء الجنوب . فعلا ، عندما انتهت الواقعة ، لم يتكبد الطرفان خسائر جسيمة فحسب ، بل ذهبت الوحدات المعنية في باقى الجنوب الى الغابة لتبدأ حرب عصابات تكون النواة للنضال المسلح في الجنوب .

وخلال ايام قليلة ، ولدهشة البلاد بل والعالم اجمع ، فقد أعلن جابر المنير بموجب أمر جمهوري تقسيم الجنوب الى ثلاثة اقاليم وتخفيض سلطات كل اقليم الى مستوى سلطات حكومات الاقاليم الاخرى في البلاد . وبذلك ألقى المنير بصورة فردية اتفاقية السلام التي انتهت الحرب الاهلية في الجنوب من قبل .

وذاذ يوم فوجيء . إلياس باستلام خطاب طويل في مظروف باهر وعليه طابع بريدي بريطاني . وكان أسم مرسل الخطاب ، حامد الدرقاوى حاكم دارفور ، مطبوعا على المظروف . فض إلياس المظروف في لهفة وأخذ يقرأ :

- أخى العزيز إلياس .

لقد حصلت لتوى على عنوانك من اخ هنا في لندن وأسارع بالكتابة لك . دعنى أخبرك أولا بأنى قد هربت من السودان ، اذ لم يعد في مقدورى أن أحتل الحال هناك . لدى اسباب عديدة لمغادرة البلاد ، بعضها يتعلق باهمال الحكومة المركزية لأمر دارفور وأخرى تتعلق بما يحدث في البلاد بصورة عامة وبخاصة لاخواننا في الجنوب .

لقد عدت لتوى من زيارة الاخوة في اثيوبيا . وجدت الوحدات المتمردة شرعية جديدة بسبب الغاء المنير لاتفاقية السلام بصورة فردية . وبمساعدة اثيوبيا واعداء المنير في ليبيا ، فقد نظم المتمردون أنفسهم في صورة جيش نظامى حسن العتاد والتسلح ، وسوف يثبت هذا الجيش أنه قوة هائلة في مواجهة جيش المنير المتهاك . تدعو الحركة الى تحرير كل السودان من التمييز على أساس العرق أو الدين أو الجنس . هذه دعوة غير متوقمة وسوف تربك السياسيين الشماليين . ولا يمكن الاستخفاف بهذه الحركة لمقدرتها العسكرية الكبيرة .

كذلك لا تساعد أخبار الجبهة الاقتصادية النظام الحاكم إذ أخذت الشقة بين الاحلام والواقع في الاتساع . لقد حل وقت سداد الديون الاجنبية وتصاعدت تكلفة اداء الارباح المفروضة على تلك القروض وتجاوزت مصادر الدخل المتوفرة . فاذا أضفنا هذا الى التعبئة السياسية الهائلة والباهظة التكاليف من خلال الاتحاد الاشتراكي وتوظيف اعداد كبيرة من الناس في مواقع عليا غير منتجة دع عنك الوجود الدبلوماسي التفاخري في كثير من الدوائر العالمية ، فان النتيجة تكون عبئا ثقيلا يتجاوز بكثير الامكانيات المتاحة وحتى السلع الضرورية قد أصبحت نادرة ، وأصبحت « سلة غذاء العالم » (كما يزعمون للسودان) أصبحت في حالة يرثى لها . ان الامة على حافة الانهيار .

وكانما يحيل أمر البلاد الى القوى السماوية ، فقد وضع جابر المنير ، بالتعاون مع الاخوان المسلمين ، وضع البلاد على خط الاصولية الاسلامية المزعومة . ومن خلال « قوانين سبتمبر » المشنومة ، والتي سميت كذلك لاجازتها خلال شهر سبتمبر ، اتخذ المنير الشريعة الاسلامية كقانون للبلاد ويتم تطبيقها بقسوة فائقة من خلال محاكم عشوائية تتميز ببساطة اجراءاتها كما تتميز بسذاجة محتواها . ويعانى صفار اللصوص ، ومعظمهم من الجنوب ودارفور ، يعانون عقوبات القطع لجريمة السرقة والقطع من خلاف (قطع اليد اليمنى والقدم اليسرى) لجريمة النهب . وكثيرا ما تظهر هنا في الصحافة الاوربية صور شباب الجنوب والغرب الذين قطعت ايديهم وأرجلهم ، مما يثير الرعب والتقزز لدى العالم المتحضر ، بما في ذلك الدول الاسلامية المحافظة والمتخذة للضجج الديني مثل المملكة العربية السعودية .

ان غرضي من الكتابة هو وصل الملاقة معك واخطارك بما يدور اذا لم تكن تعلم عنه . لقد حزنت غاية الحزن للحالة المؤلمة في بلادنا . على كل حال ، دعني أسمع منك ومن المؤكد اني ساكتب لك بالمزيد .

سعد إلياس لرسالة الدرقاوى ، فهما لم يكونا على صلة منذ إجلاء سوه التفاهم السابق بينهما . ومما لاشك فيه انهما قد استعادا وزادا من قوة صداقتهما .

وهكذا كتب إلياس فورا ، ليشكره بحرارة على خطابه ويقول بأنه يقدر الظروف التي أدت إلى مغادرته البلاد . وأضاف إلياس القول :

من موقعي هنا ، يبدو لي أن الموقف في الوطن لا يمكن الدفاع عنه بحال من الاحوال . وفي الحقيقة ، فقد سمعت لتوى عن الاعتقال والمحاكمة والاعدام العلني لمحمد أحمد طاهر .

وخلال أشهر معدودات ، احتشد أهل السودان تحت قيادة المهنيين ، من الاطباء والمحامين وغيرهم ، وتظاهروا مطالبين بنهاية النظام . وفي نهاية الامر ، انحاز الجيش لجانب الشعب وتمت الاطاحة بالمنير الذي كان قد غادر البلاد في صلف وغرور بينما كانت المظاهرات على أشدها . وترك ذلك الانقلاب السلمي أجهزة الدولة في سلامة تامة تقريبا ، ما عدا ابعاد المنير نفسه وبعض أقرب المقربين اليه في جهاز الحكومة ، بما في ذلك طبيبا نائبه ورئيس جهاز الامن .

تم تشكيل حكومة انتقالية بقيادة عليا من المجلس العسكري الانتقالي يتعاون مع وزارة انتقالية من المدنيين في اعادة البلاد تدريجيا الى نظام الحكم الديمقراطي البرلماني من خلال انتخابات عامة تجرى بعد سنة من ذلك التاريخ .

الا ان حركة التحرير في الجنوب ، والتي تزعم بانها حركة قومية ، قد صرفت التغيير على انه مجرد استمرار لنظام المنير وتقويض للثورة الحقيقية التي سيأتي بها الشعب . ففي تقديرهم ، ان كبار ضباط الجيش قد سرقوا الامر من الشعب وحولوه الى تلميع للنظام الحاكم ليكسبه المشروعية . ونتيجة لذلك ، فقد واصلت الحركة سعيها للحصول على تأييد الجماهير في الشمال والجنوب معا ليتعاونوا معهم على تخليص البلاد من تسلط الاقلية الصفوية الحاكمة .

راقب الياس هذه الاحداث باهتمام شديد ، لكنه ظل يولى جل اهتمامه لدراسته . وعندما تمت الاطاحة بالمنير واخذت البلاد طريقها نحو الحكم الديمقراطي ، كان الياس يجلس لامتحاناته النهائية . وتفكر كثيرا في حجة خاله البيير عندما حاول اقناع الياس بالعدول عن الانضمام للجيش . كان خاله قد قال :

- يا ابن أختي ، ان الزعماء من أهلنا نحن معشر الدينكا ، هم رجال الكلمة وليسوا رجال السلاح . ومنذ ان خلق الله الخليفة ، فقد كانت قوة الكلمة أعتى من قوة السلاح . والرجل الذي هزم في القتال يرغب دائما في العودة للانتقام لهزيمته . ولكن الرجل الذي يقتنع بقوة المنطق والحجة ، فانه يظل مقتنعا ولا يطلب الانتقام . يا ابن أختي ، ان الرمح وقوة الذراع هي سبيل الشباب المقاتل ، ولكن القلم الذي اكتسبته في المدرسة والكلمة التي ورثتها من أسلافك هي أدوات الزعامة المقدسة التي جاءتك عن طريق نسل والدك وامك معا . لا تستبدلها بالسلاح .

أشرك إلياس ، حامد الدرقاوي في نصيحة خاله من خلال خطاب كتب فيه « واني أتساءل الآن ألم يكن خالي محقا في نهاية الامر . بصورة ما ، اشعر بأن نموذج المنير كدكتاتور قد امتد ليفسد نموذج الجيش نفسه . اني افكر جادا في الاستقالة من الجيش ، ولكن ماذا أفعل بعد ذلك ؟ يمكنني الانضمام الى جيش التمرد . غير ان ذلك ايضا هو جيش ، رغم ان الروح المعنوية ستكون أعلى لعدالة القضية . على كل حال ، فالمهمة الاولى هي اكمال دراستي ثم تقييم الموقف والتقرير على حسب الظروف . ولكن اذا كانت عندك نصيحة لي ، فساكون شاكرا . »

كان الياس يتفكر في هذه الامور عندما اتصل به هاتفيا الملحق العسكري بسفارة السودان بواشنطن ليقول له بأنه قد تلقى لتهو خطاباً لإلياس مكتوب عليه « عاجل وهام وشخصي » . فماذا يفعل به ؟ اتفقا على ان يرسله له بالبريد العاجل . لم يكن الملحق العسكري يعلم من هو مرسل الخطاب ، وبما انه مكتوب عليه « شخصي » فلم يرتج لاقترح الياس بأن يفتح الخطاب لمعرفة المرسل انتظر الياس في لهفة وصول الخطاب في اليوم التالي ، وعندما وصل فض الظروف بقلق ليجد انه مكتوب نيابة عن والده بواسطة كاتب . لم يصدق الياس عينيه فلم يسبق ان تبادل الخطابات مع والده ولم يفهم كيف خطرت فكرة كتابة الخطاب لوالده .

جاء في الخطاب « يا ابني الاعز . اني استكتب هذا الخطاب لك على أمل ان يجديك في سلام وصحة جيدة . واذا سألت عنا ، فنحن جميعا على أتم عافية ولا نفتقد الا وجودك الغالي . لا شك بانك تتابع التطورات في البلد . لقد حدث الكثير منذ سفرك ، لكن ربما يكون أهم ما حدث هو تغيير نظام الحكم . لم يرض الجميع عن التغيير وكما تعلم بلا شك ، فقد رفضه بعض اخواننا في الجنوب على اعتبار أنه غير كاف وقرروا مواصلة النضال ضد النظام .

يا بنى ، انا اعلم بانك قد اخترت ان تكون مقاتلا ، ولذلك انضمت الى الجيش . ولكنى اكتب لك لانى اعتقد ان هناك وسائل عديدة للقتال . هناك السلاح كما هناك الكلمة . لقد فتحت الحكومة جبهة الكلمات ، ونحن فى حاجة لمن يقدر على الكلام فى هذا النظام الجديد الذى يسمونه الديمقراطية ، وما هو أهم من ذلك فإذا لم يحضر أبناؤنا ليمثلونا فى هذه الجمعية الجديدة فستملاً الحكومة مقاعدنا بمن تختارهم من الأفراد الذين يكونون أبواقاً للمرب بينما يظهرون كممثلين لنا ، وستدعى الحكومة وقتها بأننا حقاً ممثلون فى النظام الجديد . لهذا السبب اجتمع أهلنا من كبار القوم هنا ومن الشباب المتعلمين ، وقرروا أن يطلبوا منك العودة إلى الوطن وترشح نفسك فى انتخابات الجمعية التشريعية المقبلة ، إذا حضرت فسوف نطمئن إلى أننا سنجد من يمثلنا فى الجمعية ، ولكن إذا لم تحضر فإنى أخشى ألا يتفق الناس على شخص آخر ليمثلهم وبذلك نفقد فرصتنا التى سيأخذها العملاء .

إن أهلك فى حاجة لك وانى اثق بانك ستستجيب للدعوة الى الواجب «
وإى صباح اليوم التالى ، ورغم عدم تلقيه لرد على خطابه السابق ، فقد اتصل إلياس هاتفياً بالحاكم الدراقاوى ليناقدش معه خطاب والده ويسأله النصح . وافق الحاكم على رأى والد إلياس رغم أنه هو شخصياً لم يثق كثيراً فى النظام الجديد والانتخابات المقبلة . ونصح إلياس بقوله انه ، مع ان دعوة اهله نبيلة وتستحق الاستجابة ، فعلى إلياس ان يترك الجيش بصورة مشرفة اذا اراد ان يكون له نفوذ فى النظام فيما بعد . لذلك اقترح على إلياس ان يكتب خطاباً بواسطة الملحق العسكرى يوضح فيه دعوة اهله له وقبوله للتحدى بتمثيلهم ، وأن ذلك يقتضى بكل اسف استقالته من الجيش .
تقبل إلياس تلك النصيحة ، ووعده الملحق العسكرى بتأييد خطابه بالاستقالة . وتالم إلياس لاضطراره إلى الانسحاب من دراسته بجامعة كلومبيا وأخذ فى الاستعداد للعودة للمودان .

وبعد أيام قلائل ، استقل إلياس الطائرة الى لندن حيث التقى لفترة وجيزة بحامد الدراقاوى ليتابع معه آخر التطورات من الناحية الداخلية ومن ناحية المتمردين ، ثم واصل الرحلة على طائرة الخطوط الجوية السودانية مساء نفس اليوم . وصل إلياس الى الخرطوم فى الساعات الاولى من صباح يوم الجمعة . وليعوض عن عدم النوم لحوالى ثلاثين ساعة من السفر المتواصل ، نام إلياس حتى الظهر تقريبا . وبعد ان استحم ، لبس ملابسه واتجه الى منزل العميد على .

كان إلياس قد سمع من قبل بأن عليا قد أحيل الى المعاش قرب نهاية دكتاتورية المنير . ورغم احواله الى المعاش ، فقد ظل على يتابع التطورات فى البلاد عن كثب . وجده إلياس مستلقياً على سريره فى شرفة منزله وهو يستمع الى المذياع .

بينما أقبل إلياس الى ولى نعمته القديم فى حرارة ، أحس ببعض التحفظ فى تحية على له . تسائل إلياس عما اذا كان العميد غير راض عن الدور السياسى النشط الذى اختاره إلياس لنفسه ، الا انه شعر بأن عليا اوسع أفقا من ان يتأثر بذلك . فماذا حدث اذن ؟ هل حدث سوء بالعائلة ؟

وسأل إلياس عن الاسرة دون أن يفضح انزعاجه . أجابه على بصوت بارد النبرات - أنهم جميعاً بخير .

ثم أضاف فى سخرية : انهم على الاقل على قيد الحياة

- وبعد ذلك سأل إلياس عن فضيلة وهو يحاول اخفاء تشوقه
أجابه على وقد ظهر عليه عدم ارتياح ظاهر : إنها بخير .
- وأصل إلياس الاستقصاء بشيء من البراءة :
- وماذا عن أعمالها الفنية ؟ هل تتقدم في ذلك ؟
- في الحقيقة هناك أشياء أهم اقتضت العناية بها قبل الالتفات إلى اهتماماتها الفنية .
- لا أفهم ، ما هي تلك الأشياء ؟
وادرک على وقتها أن إلياس جاهل بالتطورات التي أعقبت رحيله .
وتسأل على حذر :
- هل واليت الاطلاع على أخبارها ؟
- لا ، أبدا . فقد حاولت لكنى لم أفلح في ذلك .
لم يشأ أن يذكر بأنه قد كتب لفضيله ولم يتلق ردا على خطاباته .
- هل حدث لها شيء ؟
وأصبح إلياس في غاية الانزعاج .
فتسأل على في دهشة حقيقية :
- اتعنى ان أحدا لم يخطرک بما حدث لها ؟ ..
- لا ، لم يخطرني أحد بشيء .
- يا للعجب . ظننت أنك قد حضرت الى منزلي لثقتك في رغم ما حدث .
وصاح إلياس في انزعاج فاق مقدرته على التحكم :
- وماذا حدث ؟
أخذ على في الشرح بقوله :
- من الناحية الرسمية ، لا ينبغي ان تكون أنت هنا . وبصراحة ، لو أن احد أفراد أسرة
أخى او حتى من أفراد الأسرة الكبيرة شاهدك هنا فسأجد أنا مشقة في منعه من ان
يقتلك .
- أرجوك ، انك تعذبني ، أخبرني بما حدث
قال إلياس ذلك وقد خرج عن طوره تماما من شدة الانزعاج .
رد على وهو يتجنب اتجاه التحدى السابق :
لقد وقع خلاف خطير بين فضيلة ووالدها بل وكل أفراد الأسرة .
- وماذا كان موضوع الخلاف ؟
- الزواج .
نطق على الكلمة بطريقة عرضية لكنه لاحظ مظهر على وجه إلياس .
- الزواج ؟ هل تزوجت فضيلة ؟
- لا ، وتلك هي المشكلة . أراد والدها أن يزوجه من ابن عمها ولكنها رفضت ذلك .
شعر إلياس بالراحة لكنه حرص على عدم اظهار مشاعره وظل صامتا لبرهة وهو لا
يعرف كيف يرد دون الافصاح عما يحسن السكوت عنه .
قطع على حبل الصمت بقوله :
- اعتقد انه في هذا الزمن لا يمكن للمرء أن يتوقع من هؤلاء النساء المصريات اتباع
التقاليد بلا منازعة .

وتشجع إلياس بذلك التعليق فسمى للحصول على المزيد من المعلومات : أخبرني عما حدث في الواقع ؟

- هل تعرف خليفة ابن اخينا عبد الرحمن والذي يتبع في السن محمد ؟
- لم اقابل عبدالرحمن ولا ولده خليفة ولكنى بالطبع سمعت عنهما .
- يعيش عبد الرحمن في مدينة كوستى وابنه طبيب يعمل بمستشفى كوستى .
- ثم ماذا ؟

تسائل إلياس وهو يتذكر حاسته الاولى عما يمكن ان يكون بين ابناء العمومة (فضيله وخليفه) .

- اعترضت فضيله بحجة انها لا ترغب في الزواج من ابن العم ، واعتقدت بان ذلك غير مناسب لأسباب طبية . هذا بالاضافة انها تعتبر خليفة كاخ لها . ورغم تعاطف الطبيب نفسه مع وجهة نظرهما ، إلا أن الاسزة لم تقتنع . فعلى كل حال زواج ابناء العمومة امر شائع في الشمال .

- في هذا يخالف الدينكا العرب . ان راي فضيله مطابق لرأي الدينكا تماما . ولكن على كل حال ، ماذا حدث بعد ذلك ؟

- ثم قالت بانها تحب رجلا اخر . وكان هذا حاسما بالنسبة لخليفة .
- رغب إلياس في السؤال عما اذا كانت فضيلة قد أفصحت عن هوية الرجل الذي تحبه ، لكنه تشكك في حكمة الإلحاح في السؤال بهذه السرعة . وأضاف على القول : ولم يكن ذلك هو ختام الامر فقد اعلنت فضيله بانها حامل ..
- حامل ؟

وكرر إلياس القول بشعور من الصدمة القوية « فضيله حامل ؟ »

- نعم فقد ظهر الحمل عليها بعد سفرك بقليل .
- طفت المشاعر على إلياس ولكنه تمكن من القول .
- لا بد لي من مقابلة فضيله ، كيف يمكن ان افعل ذلك ؟
- قال على في اخلاص .

- لقد كنت انا شابا ذات يوم واعرف اغراء الشهوة الجنسية . لقد عاملتك كابني وفضيلة هي ابنتى . اول ما أود معرفته منك هو الحقيقة . هل أنت والد الطفل ؟

عزم إلياس على الصراحة التامة فقال :

- يا عم على ، انى اتحدث اليك الآن من اعماق قلبي . انى لا اقدر على الاجابة على سؤالك وليس لأنى لا أرغب في ذلك ولكن لأنى لا أعرف ولا أريد أن أكذب عليك ولكنى أقدر على أن أعدك بشيء واحد ، فاذا كنت انا المسئول عن حمل فضيلة ، فانى اعتبره شرفا لي ان تلد فضيلة طفلي وسأبذل غاية جهدى لآكون جديرا بها وبطفلها وكل ما اطلبه هو ان يتم قبولى . يا عم على ، انك لم تخبرنى بما يكفى عن فضيلة . هل اجهضت الجنين أم حملت بالطفل حتى ولادته؟ وماذا حدث لها الآن ؟

ظهر السرور على على لرد إلياس وبخاصه لانشفاله بحالة فضيلة : بالطبع ارادت منها الاسرة أن تجهض الجنين لكنها رفضت في عناد واصرار فكانت مواجهة مروعة . وكاذ وألدها بجن من الموقف . وكان جادا في رغبته أن يقتلها فقمت أنا بنقلها إلى منزلى ثم تدبرت أمر نقلها لتدريس الفن بمدرسة في دارفور حيث لا يعرفها احد ويمكنها ان تزعم بصدق أن والد الطفل في مهمة بخارج البلاد .

- هل الفهم من ذلك بانها قد وضعت الطفل ؟

- نعم وقد رزقت بابن ذكر وهو ولد في غاية الجمال . ينبغي لوالده ان يفخر به . في بداية الامر رفضت الاسرة فضيلة تاما الا اني نجحت في اعادتها الى كنف الاسرة بعد جهد جهيد . وهي قد عادت للزيارة مرة او مرتين حيث تمكنت انا من رؤية الطفل . لكنها تفضل البقاء عند صديقة لها اسمها عواطف تعمل بالتدريس بالمعهد الذي كانت تعمل به فضيلة . على كل حال فاني انصحك بالابتعاد عن الاسرة ، على الاقل في الوقت الحاضر .. لقد كانت الاجابة التي قلتها طيبة وسانظر انا في تسهيل الامور بينك وبين الاسرة . ربما نقدر على حل المعضلة .

وفي ذلك الوقت ظهر على ودودا لدرجة قريبة من عهده القديم ونجح في اقناع إلياس بمواصلة حملته السياسي وترك امر فضيلة جانبا في الوقت الحاضر :

- تذكر أن الزمن خير علاج . بعد فوزك في الانتخابات واتخاذك لمقعد في البرلمان عد لمقابلتي وتحدث في الامر وخلال هذه الفترة ، سوف اعمل عملي بين الاقارب بخاصة مع اخيها بركة والذي يترشح في الانتخابات من ضمن قائمة مرشحي امة الاسلام . واذا تم انتخابه سيكون عضوا هاما في البرلمان .

جاءت الانتخابات وانقضت ، وتم انتخاب كل من إلياس وبركة واتخذوا مواقع هامة كل في حزبه . وقد نجحا بالاحتفاظ بقدر من الادب والتهديب في معاملة بعضهما البعض مما دل على صحة سلوكهما المهني ، كما دل علي أن عليا قد جاهد كثيراً في تحسين العلاقة بين إلياس والاسرة . ولكن كما لاحظ الجيلاني رئيس الجمعيه ، فقد كان هناك برود في علاقة الرجلين بعضهما البعض لا يمكن تفسيره في اطار سياسي بحت . اما بالنسبة للعالمين بأمر الصراع حول فضيلة فقد كان الأمر مفهوماً تماماً . لم يكن جيلاني من العالمين بذلك الصراع العائلي ، لكنه عندما تحدث للشابين قبل ذهاب إلياس لاهله لمقابلة والده المريض كان يهدف الى تنقية الجو وتحسين العلاقة بينهما لمصلحة مسنولياتهما القومية .

بالنسبة لإلياس فقد اقتضت حالة والده الخطيرة ذهابه إلى اهله فوراً . ورغم ان ارواح الاسلاف قد طمأننت مليونيت من خلال الحلم بأنه سيحيا ويتجاوز مرضه ذاك ، فان إلياس لم يشأ أن يخامر ولذلك قرر أن يأخذ والده معه الى الخرطوم من أجل الحصول على افضل العناية الطبية الموجودة في البلاد .

الفصل الثامن عشر

عودة إلياس إلى الخرطوم ومعه والده ، دبر لإقامته في غرفة خاصة بالمستشفى **بمجرد** العسكري حيث يسمح لزوجته أوليل والدة إلياس وإحدى الزوجات الصغيرات بالبقاء لمرافقته . ومع أن إلياس لم يبق معه بالمستشفى ، إلا أنه كان يقوم بزيارته بصورة منتظمة وظل على صلة وثيقة بفريق الأطباء الذي يعنى به .
وعندما ذهب إلياس للزيارة ذات صباح ، قابل الدكتور عثمان عوض الله كبير الأطباء وهو يغادر الغرفة . قال الطبيب :

- أنا سعيد برؤيتك لأنى أود أن أتحدث معك عن حال والدك .
بعثت الطريقة التى تحدث بها الطبيب رعشة في جسد إلياس الذى توجس بان الطبيب مشغول بشيء خطير . وتمكن إلياس من ان يسأل : ومتى ترغب في مقابلتى ؟
- اذا كان عندك الزمن فهل يمكن ان نتحدث الان ؟
- هذا طيب لانى هنا من اجل ذلك .
وبمجرد انفرادهما في مكتب الطبيب ، ذهب الاخير إلى جوهر الموضوع بصورة مباشرة .

- لدى أخبار سيئة لك ياخ إلياس .
ظل إلياس يحدق في وجه الطبيب دون الافصاح عن مشاعره ، فهو قد توجس من ذلك على كل حال ، وكان مستعدا لتلقى التفاصيل .
قال الطبيب :

- ان والدك يعانى من مرض السرطان الذى لا شفاء منه .
- لا ، إن هذا مستحيل يادكتور لقد أخبرنى بأنه يشعر بتحسن كبير ولحضرته أنا إلى هنا فقط لأطمئن عليه ،

كل ما أستطيع أن أقوله هو ما أعتقد بأني قد اكتشفته في حالته . ولك القرار في أن
تصدقني أو لا تصدقني وما تود أن تفعل في الموقف الراهن ..
أحسن إلياس بشيء من الامتعاض في كلمات الطبيب .
- أنا اسف يادكتور ، فانا لا اقصد التشكك في صحة قرارك الطبي . ربما يعود الامر لهول
المفاجأة .

رضى الطبيب بذلك التفسير

- انى اتفهم شعورك واشعر بالاسف لاضطرارى بأن أنقل إليك هذا النبأ . انه من
الواجبات المحزنة . على كل حال ، اعتقد ان السرطان قد بدأ بالكبد وانتقل الآن إلى
الرئتين ، وهذا يعنى أنه قد دخل في مرحلة متقدمة . كل ما بوسعنا أن نفعل هو تخفيف الألم
وراحته . لا نقدر على عمل الكثير في تأخير النهاية .

- ولكن يادكتور ، لم يحدث أن شرب أبى الخمر أو دخن التبغ في حياته . كيف تكون
كبده أو رئتاه معرضة لمرض السرطان ؟

- إنك تقول بفهم شائع لكنه لايتعلق اطلاقا بأسباب مرض السرطان . فنحن لا نعرف في
حقيقة الامر ما هو سبب مرض السرطان ،

- عفوا يادكتور ولكنى لا ازال لا افهم ما يحدث . فعندما ذهبت إلى اهلى كان والدى
مريضاً للغاية . ولكن حدث شيء ما وظهر كأن والدى قد استعاد صحته بصورة معجزة .
حتى انه قد قال لى أن ارواح الاسلاف قد ضمنت له استمرار حياته لحين حدوث أشياء
معينة . وفعلا بدأ يشعر بتحسن ملحوظ بعد ذلك .

واصل إلياس ليروى للطبيب عثمان حلم والده وظل الطبيب يستمع في استغراق تام .
قال إلياس :

- إلى اقدر أن حديثى يبدو خرافياً للغاية ولا ينبغي لرجل متعلم مثلى أن يردده ، دع
عنك أن يصدق بصحته ، ولكن تأكيد روايته بظهور استعادته للصحة دعانى لتصديق
الامر . والآن هو يبدو أحسن حالا بكثير مما مضى ، تخبرنى أنت بأنه على وشك الموت ؟

- ياعزيزى إلياس ، ان حقيقة الامر هى انه على أساس البيانات الطبية ، فانى اعتقد ان
والدك يعانى من مرض السرطان الذى لا شفاء منه وقد أخبرتك بموقع بداية المرض
والمرحلة التى وصلها الآن . كما ان روايته هو للطريقة التى احس بها لتقدم المرض تدعم
الخلاصة التى توصلت إليها . وبعد ان قلت هذا دعنى اسرع بأن اضيف بأننا لسنا
الهة . وإذا كان الله أو ارواح اسلاف والدك قد أفادوه برسالة ما ، فلا يجوز ان اعارض
قولهم . فكما تقول يبدو أن والدك قد تحسن كثيرا بعد الحلم الذى ظهرت له فيه ارواح
الاسلاف . وكل ما بوسعى أن أقول هو أنه من الناحية العلمية فإن قوة الإيمان وإرادة
الحياة قوة لا يستهان بها في معالجة المرض . وانا لا أرفض احتمال الشفاء التام بصورة
مجزة كنتيجة لاثرتك القوة . ومع ذلك تبقى الحقيقة وهى ان والدك يعانى من هذا

مرض وأن ظهر عليه التحسن . وبما أنى لم أره عندما كان في حالة أسوأ بكثير من حالته
لراهنه كما تقول ، فانا لا أقدر على المقارنة . لعل قوة إيمانه وقوة إرادته للحياة قد نجحت
بمس في تحسين حالته فحسب وانما في مقاومة تقدم المرض ايضا . ولكن يتحتم على أن
اخبرك . انه في تقديرى يعانى من هذا المرض . وأن المرض يوالى الانتشار وأن النهاية
وشيقة . يمكنك ان تتوقع بقاء والدك معك لأسابيع وأن تشعر بالامتنان اذا بقى معك

لاشهر . ونصيحتي الوحيدة لك هي ان تجعل باقى ايامه مريحة وسعيدة . وانا اترك لك تقدير كيف تفعل ذلك ، لكننا سنعطيه الادويه التى تقاوم الالم وتمنحه الراحة .

- شكرا لك يا دكتور .

قالها الياس وهو ينهض وقد بدت عليه علامات الحزن والتفكر العميق . فقال الطبيب فى تعاطف عميق :

- انى أسف يا اخ الياس ولكن الموت جزء لا يتجزأ من الحياة ، وعلينا ان نتقبله .
واثناء حديثه ، مد يده مودعا الياس .

- اذا اردت اخراج والدك من المستشفى ، وهو ما انصح به ، فما عليك الا ان تخطرني برغبتك .

- شكرا لك يا دكتور .

- مع السلامة وحاول ان تتصالح مع هذا الموقف المفجع .

قال الطبيب ذلك وهما يفترقان .

فرد الياس وهو خارج من الغرفة .

- إن شاء الله

قرر الياس عدم زيارة والده ذلك اليوم ، اذا كان حزنه اظهر من ان يخفى على والده او حتى والدته .

خطر له ان يخبر والده بالحقيقة ويقنعه بالعودة الى القرية ليرتب امور الاسرة والقبيلة ، لكنه عدل عن ذلك اذ رأى انه من القسوه المفرطة اشباع حاجات الاحياء على حساب راحة والده خلال الايام الاخيرة من حياته .

وبدلا عن ذلك ، قرر الياس ان الكذب فى تلك الظروف امر مبرر تماما . ذهب لوالده وأخبره بأن الاطباء ينصحون بأن الراحة التامة هي كل ما يحتاج له والده ، لذلك سيأخذه ليرتاح فى منزله بالخرطوم .

استمع طينقديت لابنه وهو ينظر اليه بطريقة هادئة لكنها مستخبرة . وعندما فرغ الياس ، تحدث والده بعبارات محسوبة :

- يابنى ، لقد استمعت لقولك . لكننى الاكبر سنا وللكبار معرفة بهذه الامور . لقد رأيت شيئا ما فى عيني ذلك الطبيب ، وانا اعرف ما هو فى جسدى . اذا قال الطبيب بأنى احتاج للراحة فى المنزل ، فانى اريد ان اذهب لارتاح فى قريتي . اريد ان اكون قريبا من قومي . لقد اكد لى اسلاى ان أشياء معينة ستحدث قبل موتى . ولكن لا يدري احد متى يكون ذلك . نحن الآن فى موسم الامطار ، واسوا ما يمكن ان يحدث لى هو ان اموت بعيدا عن اهلى ولا ادفن بمقتضى عادات قومنا . من المناسب ان تنتهى حياتى بالطريقة التى اقرها الله لزعماننا منذ بدا الخلق . لذلك ، عند مفادرتى للمستشفى ، اريد منك ان تدبر لعودتى لاهلى بأول فرصة ممكنة . هذه هي كلماتى .

علم الياس أن والده يقول الحق ولم ير أنه من المناسب له ان يعارض كلماته الحكيمة على أسس باطلة . ورغم ذلك ، فلم يكن من الممكن اطلاقا ان يعترف بالحقيقة لوالده . شعر بالدموع تظفر من عينيه فأخرج منديله بسرعة ومسح الدموع . وتمكن الياس من القول :

- يا والدى ، لاداعى للتفكير في أسوأ الاحتمالات عندما تكون دلائل الحياة بين أيدينا .
مازلنا بعيدين عما تتحوط له .
- يابنى ، ان ما أقوله لن يقتلنى ، ولكنى أريد ان أتحوط لكل الاحتمالات ،
وادراكا منه لان الموضوع مزعج لابنه ، أضاف ملينقديت القول :
- على كل حال ، لنندع الامر الآن . سيكون لدينا الزمن للحديث عنه عندما أخرج من هنا
واعود لمنزلك .

وتذكر الياس رواية والده عن وعد ارواح الاسلاف له بأنه سيعيش حتى يوجد ابنه
المفقودان ، وشعر الياس بالتنازع بين أن يحترم دين اهله أم يرفضه على أنه مجرد
خرافات . وعندما تفكر الياس في الامر ، شعر بأن أحسن ما بوسعه أن يفعل في تلك
الظروف هو مواصلة مهامه البرلمانية كأنما لم يلحق بوالده امر خطير .

كان من المقرر أن يناقش البرلمان خلال ذلك الاسبوع العلاقة بين « التجمع الثورى
لاقليات السودان » وحركة التحرير في الجنوب والتي تلجأ للعنف . وكانت المسألة
الجوهرية هي ما اذا كان من الممكن اعتبار « التجمع » ، والذي كان الياس هو الناطق
الرسمى له ، مشاركا مشروعاً في العملية الديمقراطية ، أم ينبغي تحريم نشاطه .
قدم برکه أخو فضيله حجة الاحزاب الحاكمة فقال :

- سيداتى وساداتى ، اخوتى واخواتى ، ان الديمقراطية تتحدث بلغة واحدة وهى لغة
الكلام ، لغة الاقناع ولغة المجتمعات المتمدنية والمتحضرة . ولا تتحدث الديمقراطية بلغة
التهديد ولغة العنف والسلاح . لقد أطاحت هذه الامة بالنظم الدكتاتورية مرتين لحبنا
لليامية الديمقراطية والتزامنا بالدفاع عنها . لا مكان في هذا النظام للمتطرفين الذين يطلبون
النفوذ السياسى من خلال التعصب واثارة الشحنة العرقية . كلنا يعلم أن النضال قد
انحرف به من نضال من أجل الديمقراطية الى حملة ضد العروبة والاسلام بواسطة من
يزعمون بأنهم الابناء والبنات الحقيقيون لهذا البلد ويحلمون بطرد من يزعمون بأنهم
أقلية عربية وافدة . انهم يجلسون هنا معنا ويستمتعون بثمار نضالنا من أجل
الديمقراطية بينما يسعون ، في نفس الوقت وبلا هوادة ، لتحطيم أسس ديمقراطيتنا .
ولكننا نقول لهم أن الديمقراطية ليست ذات وجهين ، احدهما يستمتع بحرية التعبير
بينما يهدد الوجه الآخر بالسلاح . ان السؤال الذى نوجهه لاخواننا في « التجمع » هو ،
مع أى من الجانبين أنتم ، مع جانب الكلمة أم جانب السلاح ؟
دفع برکه الجمعية لهدير من التصفيق ، وسمع صوت يصيح :
- نعم اخبرنا يا الياس ، اخبرنا « وصاح آخر » لقد تعبنا من نفاقكم . هل أنتم مع الحرب
أم مع السلام ؟

وجاءت صيحات متناقضة من كل مكان .
صاح الجيلانى وهو يضرب بمطرقة الرئيس : الصمت ، الصمت . فإن النظام هو
جزء من هذه الديمقراطية وواجبى هو ضمان المحافظة عليه . الفرصة الآن للاخ الياس .
نهض إلياس في ببطء وكأنه يزن رد الفعل حوله . ثم عدل من حلقه الزرقاء الداكنة
وأصلح من وضع رباط عنقه وتنحنح وهو لا يزال يزيد من ترقب المستمعين بصمته
الاولى .

- شكرا لك ياسيدى الرئيس ..

وبدا الياس الحديث في نبذة منخفضة وموزونة .

- بوصفى من المؤمنين بالديمقراطية ، لا بد لى من الاطراء على الاخ بركه لاستخدامه سلاح الكلمات لغاية قاتلة . فرغم ان كلماته لا تقتل الجسد ، الا انها تهدف الى اغتيال الشخصية والروح ، ولا اجزم انا اى النوعين من القتل هو الاسوأ ، ولكن فى هجومه بالكلام ، فقد تعمد خلط المسائل وتضليل ممثلى اهل السودان الطبيين .

ودعونا نستوضح الحقائق . لا ينكر احد ان اهل السودان قد تعرضوا ولسنين عديدة للاهانات ، بل والمعاملة اللاانسانية ، من التمييز العرقى والدينى القائم على هيكل هرمى واضح المعالم . منذ حضور العرب والمسلمين لهذا البلد ، فقد مكنوا لانفسهم كجنس متفوق صاحب دين متفوق . لكنهم كانوا من الاحسان بأن فتحوا ابوابهم لكل من يرغب فى تحسين وضعه بقبول الدين واللغة والثقافة والجنس العربى ، حتى عندما يكون ادعاء الجنس العربى قائما على بضع نقاط من الدم العربى ، وفى بعض الاحيان بلا ادنى دم عربى . اما الاجناس الافريقية السوداء ، وخصوصا اذا لم تستنقذ باتخاذ الدين الإسلامى ، فقد ردت إلى أسفل درجات الهرم . ثم جاء المستعمرون وأضافوا إلى الهرم الموقع الأعلى الذى استمتعوا به هم كطبقة حاكمة . لكنهم وفى نفس الوقت آمنوا بل وزادوا من قوة ادعاء العرب المسلمين للتفوق الذى منحه لهم الله .

والآن ، ياسيدى الرئيس ، وفى الوقت الذى نعتز بأننا أمة مستقلة ينبغى أن يكون جوهر وجودها هو المساواة التامة بين جميع المواطنين بغض النظر عن العرق والدين ، فأننا نجد التعصب الملحاح الذى يزعم بأن بعض الناس مقدر لهم أن يحكموا وأن دينهم هو كلمة الله المعصومة . ان هذا الواقع البسيط هو الذى دفع بعض اخواننا فى الجنوب لحمل السلاح ضد المنير عندما خان الاتفاق الذى أتى بالسلام الى البلاد .

نعم بيننا من يدعو الى الديمقراطية ، ولكن هل تغيرت الطبقات القديمة كنتيجة لتلك الديمقراطية ؟ ألم نقاتل فى حقيقة الامر فقط لنزد السلطة الى الذين ادعوا التفوق دائما وكأنه ارادة الله ؟ ألم نخدع لنتوهم بأننا قد كسبنا حقوقنا الديمقراطية بالعرق والدم بينما نسقط فريسة لديكتاتورية المضللين الذين لا يصوتون الا لمن يعتقدون بأنهم مختارون ليكونوا اسيادا لهم ؟

فى الحقيقة ، ياسيدى الرئيس ، وياسيداتى وسادتى ، ان بعضنا يعارض الرق بلا هودة حتى عندما يحب العبيد اغلالهم . لقد ظننا بأننا قد حررنا انفسنا من تجارة الرقيق البغيضة التى كانت سائدة فى القرن التاسع عشر . ولكن ليس الامر كذلك اننا قد عدنا الى الرق ولكن فى صور خفية . بل وكما تنبئنا الاخبار الجديدة ، فقد عدنا حتى لصور الرق الغليظة والتقليدية .

من هو المتعصب عرقيا ، ياسيدى الرئيس ؟ هل هو من يناضل لانهاء التعصب العرقى أم من يفرض التعصب العرقى على أناس تقتضى العدالة انهم قد ولدوا مساوين لكل أفراد الجنس البشرى ؟ الا يفضب المتعصبون عرقيا فقط لافتحاح هويتهم وشخصيتهم الحقيقية ؟ ولكن لا يمكن اخفاء الحقيقة بعد الآن . من المؤكد أن جابر المنير قد ارتكب أخطاء كبيرة ، لكنه قد منح اهلنا ، الاغلبية الريفية لهذه الامة ، منحهم القدرة والامكانيات الكافية لمعرفة القدر الذى حرموا منه والقدر الذى يمكنهم المطالبة به . اننا على أعتاب ثورة سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية كبرى ، اذا لم يكن القائمون على

امر السلطة من الحكمة بحيث يسبحون مع هذا التيار الجارف ، فانه سيؤدى بلا ادنى شك الى فتنة هائلة .

انى او من ياسيدى الرئيس بقوة الكلمة ، وقد تعلمت ذلك عند اهل وهذا هو سبب وجودى هنا . ولكن عندما تعجز الكلمات عن تحقيق الاهداف المطلوبة ، فلا بد من اتخاذ وسائل اخرى . هناك بعض التفسيرات التى لا تتحقق بالكلمات وحدها . لم يتم اسقاط المنير بالكلمات . لقد اسرت اسمى انا شخصيا بواسطة طلاب الرقيق من العرب وكان لابد من انقاذها . لم يتم ذلك بالمطالبة بالعدل شفاهة ، وانما تم بالقوة .

هذا ما ادرکه اخواننا فى الغابة ، اذ لم يعودوا يرون اى جدوى من العمل فى اطار الديمقراطية المزعومة . بما ان الموجودين منا هنا قد اختاروا الكلام ، فسوف نواصل تضخيم الديمقراطية بالكلمات عديمة الجدوى . ولكن ماهو المبرر الاخلاقى لمطالبتنا لاخوتنا فى الغابة بأن يضعوا السلاح ؟ ماهى الدلائل التى نشير اليها لنعدهم بالتغيير من خلال الكلمات ؟ وماذا رأينا نحن لننقع انفسنا بأن من يتسلطون على حياتنا السياسية يعترفون بنظام اخلاقى أعلى ، يعترفون بقانون الانسانية الذى يفرض وضعاً جديداً يتناسب مع وعى وحنكة بل وحضارة امتنا ؟ سنواصل الحديث والاعتماد على تلك المبادئ ، ولكن ليس لدينا المبرر الاخلاقى لادانة حمل اخوتنا للسلاح . اذا كان سلوكنا يشكل جريمة يعاقب عليها القانون ، فللقائمين على امر تحديد مبادئ العدل فى هذا البلد أن يفعلوا بنا ما يشاؤون .

وعندما جلس وسط تصفيق يصم الاذان من نواب المناطق الاكثر تأثرا بحديثه ، كان من الواضح ان الياس قد تفوق فى ذلك اليوم . طالب بركة بالحاح لفرصة الرد وأعطيت له الفرصة . وحالة الخزى التى لم يملك حتى هو الا ان يشمر بها ، فقد اختار ان يرد على مسألة واحدة وهى ادعاءات الرق ومساهمة العرب فى حضارة البلاد .

- لقد درج الاخ الياس على التلاعب بالحقائق لتحقيق غرضه الخاص ، وقد فعل ذلك ببراعة فائقة فى مسألة الرق . لقد سئم العرب من وصمهم دائما كأنهم هم الجنس الوحيد الذى مارس تجارة الرقيق . فالاوربيون الذين يزكّهم الافارقة بأنهم قد انقذوهم من الفزاة العرب لم يكونوا متورطين فى تجارة الرقيق فحسب ، بل كانوا اسيادها . وفى الحقيقة ، حتى السود انفسهم الذين يجدون الشفقة الآن بوصفهم ضحايا ابرياء لتجارة الرق لم يكتفوا ببيع اهلهم هم بل اخذوا العبيد من القبائل العربية ايضا . تحدث الاخ الياس عن أخذ العرب لوالدته وانقاذها فيما بعد بواسطة اهلها هو . انى اكره إقحام مسائل شخصية فى أمور الدولة ، ولكنى اود ان اطلع الاخ الياس على امر ما . انا لا اذكر حتى مجرد رؤيتى لوالدتى وليس ذلك لانها ماتت قبل ان أعرفها وانما لان الدينكا قد اخذوها والافتراض بأنهم قد استرقوها .

كذلك تحدث الياس عن هجرة العرب الى السودان وعن اثرهم السيئ على البلاد . وقد تحدث وكان الاثر الوحيد للعرب هو تسلطهم واخضاعهم لغير العرب . ان هذا القول يلقى بالضوء السلبي على صفحة ايجابية من تاريخنا . لماذا لانملك الشجاعة الاخلاقية الضرورية لتسمية الاشياء باسمائها ؟ لنعترف بالحقيقة وهى انه ، وعبر كل التاريخ ، تشكل العالم بواسطة موجات كبرى من الحضارات العالمية . قد ينظر بعض الناس ، ربما ينظر أغلب الناس ، اليوم الى العرب كآثر لحضارة غابرة . ولدى بعض الناس ،

حتى في هذا البلد ، عندما يقال عن الشخص بأنه « عربي » يوحى ذلك بأنه « بدوي » متخلف يحرص على رفقة جماله وعلى قيم بالية ماعادت قادرة على مواكبة الحياة في الاطار العالمي الحديث . ولكن يجب الا ننسى ان العرب كانوا رواد حضارة منتعشة قامت على حنكة العلوم والقدرة التقنية في وقت كانت فيه اوربا التي تعتبر الآن سيدة التقدم ، كانت لا تزال غارقة في هاوية الجهل والوحشية . لقد كان اجدادنا هم الذين اتوا لهذه الامة بشعاع الاستنارة ومنحوا اهل السودان نقطة التطلع الاعلى التي رفعتهم على افريقيا السوداء الى يومنا هذا .

وهكذا ، ياسيدى الرئيس ، دعنا نتفكر فيما نسمع . اذا كان لك الخيار ، فهل تختار ان تحسب في عداد قوم وقارة لاتزال الصورة الشائنة عنهم وعنهما في العالم هي صورة الفقر المادى والأخلاقى والروحى ؟ أم تختار ان تحسب من اهل حضارة عالمية يمثلها خاتم انبياء الله ؟ انى اعتمد على امانتك في الاجابة على هذا السؤال .

وتلقى بركة ايضا تصفيقا حادا ، اغلبه من العرب والاسلاميين الاصوليين . رفع الياس يده ليطالب فرصة الرد ، لكن الجيلانى ، تحسبا لتصاعد حرب الكلمات ، قرر ان الرجلين قد تبادلوا مايكفى من الكلام واختار ان يعطى الفرصة لآخرين ليتحدثوا عن الموضوع المدرج في قائمة أعمال الجمعية .

- سوف نناقش موضوع الدين في الاسبوع القادم ولا أشك في انكم ستجدون الداعى للعودة لبعض هذه الموضوعات :

قال الجيلانى ذلك في توضيح رفضه لاعطاء الفرصة لالياس . وعندما صوتت الجمعية في نهاية الامر حول تحريم نشاط « التجمع » سقطت التوصية بفارق كبير في الاصوات ، مما اشار الى أن قاعدة عريضة من بين أعضاء الاحزاب الحاكمة تؤيد وتدعم التعددية والتنوع الثقافى .

ثم جاء دور النقاش لمسألة الشريعة الاسلامية حيث كان الموضوع بالتحديد هو : هل تبقى أم تعدل أم تلغى قوانين سبتمبر القائمة على الشريعة الاسلامية . اراد « الاخوان المسلمون » الذين اعدوا تنظيم وتوثيق تأييدهم تحت اسم الجبهة الاسلامية القومية ، ارادوا الاحتفاظ بقوانين سبتمبر . اما حزب أمة الاسلام الحاكم ، الذى تعارضه الجبهة الاسلامية القومية رغم مشاركتها إياه القاعدة الدينية ، فقد اراد استبدال قوانين سبتمبر بقوانين اسلامية أكثر مناسبة لواقع الأحوال . ومع أن الرأى العام لم يستفت في الامر ، فقد كان من الواضح ان الاجماع القومى العريض يقول بالفناء قوانين سبتمبر ليس لان تطبيقها يقسم الامة فحسب وانما ايضا لان الخبراء يقولون بأنها تشويه للشريعة الاسلامية نفسها . وبصورة خاصة ، يرفض الاجماع القومى القطع القاسى لايدى وارجل صفار اللصوص ، ويقدم ذلك الرفض ليس على اسس اخلاقية عامة فحسب بل ولخالفته للمبادئ الاصولية للفقه الاسلامى ايضا . فمن الناحية الشرعية لاينبغى تطبيق تلك العقوبات الشديدة الا اذا وفرت الدولة سبل العيش الكريم . وبحكم الفقر السائد في السودان ، فان ذلك كان بعيدا كل البعد عن واقع الحال . وعلى العكس من ذلك ، فقد كان معلوما للجميع أن معظم المجرمين الذين قطعت ايديهم وارجلهم كانوا من الفقراء المهاجرين من الغرب والجنوب ، بل ولم يكن العديد منهم حتى مسلمين .

وعندما علم الياس بمحض الصدفة ان محاكمة احد صبيان الدينكا بجريمة السرقة تتم صباح يوم النقاش في الجمعية ، قرر حضور المحاكمة قبل الذهاب الى الجمعية . دخل الى حجرة المحكمة بصورة غير ملفتة للانظار وجلس وسط جموع المشاهدين ، وهم خليط من الشماليين والجنوبيين ، منهم المسلمون والمسيحيون والمعتنقون لديانات افريقية محلية . وقد انبعث منهم تنوع في المشاعر ، يتفاوت بين الاثارة والقلق والاكتئاب لتطبيق العقوبات الاسلامية الصارمة .

كانت المحكمة من النوع الذي يسمى بمحاكم الطوارئ التي سميت فيما بعد بمحاكم العدالة الناجزة ، وكان المنير قد انشأ تلك المحاكم لتطبيق قوانين سبتمبر . كانت قاعة المحكمة خالية من الاثاث ، وجلس ثلاثة قضاة على دكة مرتفعة . جلس رئيس المحكمة في الوسط ، وهو قاضى متمرس فاتح اللون وفي اواخر الثلاثينيات من العمر ، وقد عرف عنه انه من اصحاب المعتقدات الاصولية الاسلامية . اما الاثنان الاخران فقد كانا من المعاوين غير المؤهلين بدراسة القانون ، ومن الواضح انهما كانا اصغر سنا وخاضعين لنفوذ الرئيس .

اما المتهم فقد كان شابا نحيل الجسم يرتدى سروالا مهترنا وقميصا . ظهر وكأنه دون العشرين من العمر او فوقها بقليل . ووقف خلفه رجل شرطة ذو كرش كبير وهو يحمل بندقية .

- ما اسمك ؟ « سأل القاضى المتهم فى احتقار ظاهر » .

أجاب الشاب ببساطة تعود نوعاً ما إلى جهله باللغة العربية إذ أنه قد جاء إلى حياة المدينة منذ عهد قريب : أكوت .

- اليس لك أب ؟

- انه ميت

- هل مات بلا اسم ؟

- كان اسمه اليو

- هل تمت بصلة القرابة لنيل اليو ، النائب السابق للرئيس ؟

- لا ، ولكن كلانا من الدينكا !

قال الشاب موضحاً في لفته العربية الضعيفة .

قال الرئيس بسخرية : هذا القدر واضح لى لاداعى لأن تقول ذلك بكل تلك العزة وكأن الدينكا هم شعب الله المختار . ما اسم جدك ؟

أدرك الشاب أن المحاكمة قد بدأت بصورة غير موفقة ، فقرر تجاهل التعليق عن الدينكا واكتفى بقول اسم جده : مارول .

- حسناً إذن يا أكوت ما قولك ؟ أنك متهم بسرقة شباك وباب تم بيعهما فيما بعد .

- يا جناب القاضى ، لقد رأيت الشباك والباب على ما يبدو وكأنه كرم من الاوساخ . وعندما سمعت فيما بعد بحاجة أحدهم لمواد لاصلاح منزل قديم ، قلت له انى أستطيع أن احضر له باب وشباك اذا كان هو على استعداد لدفع قيمتهما . واجاب بأنه سيدفع القيمة لكنه يجب أن يراهما قبل الاتفاق على الثمن . ولأحسن من مظهرهما ، ذهبت وأخذتهما بعيداً عن كرم الاوساخ وتركتهما تحت عناية حارس . ويبدو أن المقاول شاهدهما عند الحارس ،

وعندما أخبروه بأنى أحضرتهما إلى هناك ذهب وأبلغ الشرطة عنى . وتم القبض على .
رسأل أحد القضاة الشاب المتهم :

- ما هو عملك ؟

- لا عمل لى يا جناب القاضى .

- ماذا تعنى بقولك لا عمل لى ؟ الا تعمل بشئ لكسب العيش ؟

- من حين لآخر أعمل فى مواقع البناء مقابل أجر يومية ، لكنهم لا يحتاجون للعمال دائما .
وعلى كل حال ، فمعظم رؤساء العمل من النوير وهم ينصحون المقاولين بأخذ أهلهم هم .

ظهر على رئيس المحكمة عدم الارتياح لاتجاه الاسئلة ، فقال مقاطعا زميله بصورة تكاد
تكون وقحة :

- نحن لانعنى فى حقيقة الأمر بما تعمل وبما لاتعمل . ما يهيم هو أنك قد سرقت مال
شخص آخر . وأنت تعلم ماتفعل الشريعة باللصوص ؟

وبصورة شبه غريزية قال الشاب غاضبا :

- انا لست بلص .. انا لست بلص ..

- اشتعل الياس غضبا لكنه ظل صامتا زغم ذلك . أدرك الياس بأن القاضى جاهل تماما
بالعرف الاخلاقى لدى الدينكا ولم تكن لديه أدنى فكرة عن أن السرقة فى الدينكا من أسوأ
الجرائم التى يمكن للرجل ان يتهم بها .

- لقد أخبرتكم بأنى أخذت الأشياء لأنى أعتقدت بأنها قد أهملت ووضعت مع الاوساخ
وانى أخذتها لأنى وجدت من هو على استعداد ليدفع ثمننا لها

قال أكون ذلك ليقاوم التهمة ، ولكن رئيس المحكمة واصل أسئلته

- لقد كنت تعلم ان لتلك الأشياء قيمة مالية ، وأنت قد أخذتها فى الحقيقة لتبيعها . فحتى
لو كانت على كوم من الاوساخ ، فقد كان من الواجب عليك ان تعلم ، بل لقد كنت تعلم
فعلا ، بأنه من المحتمل أن تكون لتلك الاوساخ قيمة مالية .

- الا يستطيع هذا العربى أن يسمع ؟

قال أكون بلغة الدينكا مما جعل الدينكا من الحضور ينفجرون بالضحك .
ثم أضاف باللغة العربية :

- لماذا تصر على وصفى بأنى لص مع انى قد أوضحت لك لتوى بأنى لست بلص ؟

وهنا تساعل رئيس المحكمة فى تشكك :

- انى رجل مثلك ولى كرامتى أيضا . لماذا تصر على أهانتى ؟

- ماذا قلت بلغة الدينكا ؟ - : ماذا قلت بلغة الدينكا ؟

رواصل الشاب الحديث :

- لا ينبغي الإساءة للرجال بلا سبب . لماذا لاتقدر على سماع كلماتى ؟

- ماذا قلت ؟

- هذا ماقلت من قبل : لماذا لا تقدر على سماعى ؟

همم الرئيس لزملائه باللغة العربية لبعض الوقت ثم أعلن :

- أمامنا قائمة طويلة للقضايا الواجبة السماع . وهذه قضية واضحة ولا ينبغي أن
تستهلك وقتا بلا موجب .

ثم استدار نحو المتهم وقال :

- ان المحكمة تجدك مذنباً بجريمة السرقة وتحكم عليك بقطع اليد اليمنى من الكف

ثم همهم لنفسه بصوت مسموع :

- ليدفع العبد الثمن لجمعه بين السرقة واساءة المحكمة .. الى القضية التالية

احضر المتهم الويل.ملك

- هل هذه هي المرأة الجنوبية التي تتاجر في المريسة (الجعة البلدية) ؟

- اجاب الشرطي - نعم يا جناب القاضى وهى ايضا من الدينكا .

بعد مراقبة هذه الاجراءات ، اسرع الياس الى الجمعية حيث كان النقاش يجرى حول قوانين سبتمبر . وبعد ان ارسل بمذكرة قصيرة لرئيس الجمعية يطلب فيها الحديث بأول فرصة ، جلس وهو يتشوق لدوره . وعندما جاء دوره كان لايزال يشتعل غضبا . - سيداتى سادتى ، لقد شاهدت لتوى مشهدا مروعا ومشينا لدرجة انه لو كانت أغلبيتكم هناك ، لتصرفنا الآن بلا نقاش تقريبا . لقد حضرت قبل قليل محاكمة رجل بتهمة السرقة وقد ادين وحكم عليه بقطع اليد . ولكن ليس هذا هو الموضوع الجوهرى ، اذ يمكن ان يقال ان هذه الوقائع البسيطة تعبر عن نظام قانونى . ان الجريمة الحقيقية هى ان هذه المحاكمة نفسها كانت مهزلة ، وامتهانا مرفوضا لقيم العدل بأى صيار مقبول من معايير الانسانية ، دح عنك الحضارة والمدنية . لقد كانت محاكمة مشحونة من اولها الى آخرها بالتحيز العرقى والتعصب والاضطهاد .

ثم واصل الياس الحديث ليصف المحاكمة فى تفصيل كبير ، وانتهى بتعليق القاضى عن « العبد » الواقف امامه .

واختتم الياس حديثه بقوله :

- يا أعضاء الجمعية المحترمون . لا يوافق الفقه الاسلامى على توقيع هذه القوانين ، وبخاصة على تطبيق هذه العقوبات القاسية ضد السرقة ، الا اذا ازالنا الدولة الفقر وضمنت ضروريات الحياة التى قد تضطر الفقير الى ارتكاب تلك الجرائم . لا يقدر احد ان يزعم باننا قد وفرنا الشروط لتطبيق هذه العقوبات فى السودان . واذا فعلنا أى شئ فهو اننا قد حرمانا أهلنا بدلا من توفير السبل لهم لمقابلة احتياجاتهم الضرورية . وبهذا المعنى ، فان هذا التطبيق الأخرق لأحكام الشريعة هو فى الحقيقة معارض للشريعة نفسها .

« ايها السيدات والسادة ، نحن أعلى سلطة تشريعية فى البلاد . اذا لم نوقف المحاكم فورا عن هذا العمل القذر ، فاننا نكون قد فشلنا فى أداء واجبنا المقدس . بل واقول ، أكثر من ذلك ، أن الله الذى يتم باسمه سوء استقلال السلطات بهذه الطريقة المريية سيجعلنا فى نهاية الامر ندفع الثمن لفشلنا ، هذا اذا سمح لنا أهل هذا البلد بمواصلة أقرارنا الراهن لهذا الشر المستطير . وأنا شخصيا ساعانى من وخز الضمير اذا واصلت التظاهر بأنى من المشرعين فى مؤسسة ترضى عن هذه الممارسات فى الوقت الحاضر . وعندما جلس الياس ، حل صمت مهيب على الجمعية مما جعل طلب بركة لفرصة الحديث يبدو عاليا أكثر من المعتاد . قال :

- ياسيدى الرئيس لدى كلمة قصيرة ..

أعطى الفرصة فواصل الحديث :

- تحدث أخونا الياس ببلاغه كاملة وقد حققت كلماته غايتها بلا أدنى شك . لكنى أحب أن أنكر هذه الجمعية المحترمة أننا لانجلس هنا لنشرع على اساس العواطف . ما قاله الياس يتعلق بحالة واحدة من حالات إجهاض مزعوم للعدالة وهو أمر إجرائى محض . نحن بالطبع لانعرف حقيقة ما حدث ، ولكن لو قبلنا صحة ما قاله الياس ، فانه لا يشكك اطلاقا في مشروعية تطبيق الشريعة ، وانما يتعلق بالطريقة التى طبقتها بها محكمة معينة . هناك اجراءات مقررة للحد من مثل هذه التجاوزات . لا ينبغى أن تحملنا العاطفية او نقفز الى النتائج عن كل النظام القانونى او نعمل أى شىء يضعف من موقفه . أن الشريعة هى التعبير عن حكمة الله سبحانه وتعالى ، ولا يعقل على الاطلاق أن تكون مجافية لمقتضى العدل . انه فقط الخطأ البشرى الذى ربما يكون قد اساء فهمها وتطبيقها . ان هذا الامر في غاية الدقة وينبغى ان نكون على اقصى درجات الحذر .

وعندما جلس بركة وسط صيحات الموافقة من جانب الاصوليين الاسلاميين ، طلب بيتر مالودا ، وهو من الاستوائية ومن قبيلة البازى ، طلب الفرصة للحديث . اشتهر بيتر بعدائه للعرب . وقد بدأ تعامله السياسى مع الياس ، والذى صار فيما بعد نوعا من الصداقة ، بدأ بحادثة كشفت عن عداة بيتر العميق الجذور للعرب . وقد تشغل رايه في الياس لدى الوهلة الاولى على اساس ماسمع عن تعليم الياس وعلاقته بالعميد على .. وعصر ذات يوم قام بيتر وبعض الاصدقاء بزيارة الياس الذى اجلسهم ثم خرج من حجرة الجلوس ليطلب لهم بعض المشروبات . وماكاد يغادر الغرفة حتى سمع بيتر يهمس بقوله :

- انى اكره ان ارى احد الاخوان في ملابس عربية ..

وعندما انضم الى ضيوفه مرة اخرى ، شرع الياس في الحديث بقوله :

- ياخى ، اذا كنا نقاوم التحيز ، فهل ينبغى ان نصبح انفسنا نماذج للتحيز الأعمى . تحدث الياس بصورة مداغنة وعلية وجهه ابتسامة ، ثم أضاف ليوضح الموقف :
= في تقديرى ، انه من التحيز الأعمى ان نكره ملابس تتناسب والمناخ الذى نعيش فيه مع خصومنا السياسيين والذين تواءموا مع ذلك المناخ بطريقة أفضل منا . ضحك الضيوف في دهشة لأنه سمع ما قيل وفي تقدير للطريقة الخفيفة الظل التى رد بها . اجاب بيتر بقوله :

- ياخ الياس ، لا بد من الاقرار بالحق عندما يقال . انك محق تماما وانا اشكرك على تعليمى هذا الدرس .

ومنذ ذلك اليوم ، تقارب الاثنان من بعضهما البعض حتى اصبحا من أكثر من يكمل بعضهما بعضا من بين السياسيين الجنوبيين . ودرجة ما ، كان ذلك حقا لانه ، ورغم اختلافهما في العديد من النواحي ، فقد احتفظا بتحالف سياسى متين . لذلك كان من المتوقع أن يطلب بيتر الفرصة للرد على مناقضة بركة لما قاله الياس . حيث قال :
- ياسيدى الرئيس . في غالب الاحوال تعكس الكلمات مستوى البراعة وليس مستوى الحقيقة . لا ينبغى أن نتجنب العواطف لان العاطفية في بعض الاحيان تحكى الحقيقة أكثر مما تحكيها البراعة . لقد أفلح المتحدث الأخير في تغطية الحقيقة عن طريق البراعة وأبعدنا عن ارادة الله التى عبر عنها أخونا الياس بكلماته المؤثرة . من يملك ان يخبرنا اين نجد الله حتى نستوثق من الحقيقة منه ؟ اين يذهب الرجل المسكين الذى يسقط

ضحية لاستغلال قوانين الله لأغراض دنيوية ، أين يذهب ليجد العدل ؟ كيف نميز بين الله الذى يتحدث عنه بركه وبين من عينوا انفسهم خلفاء له على الارض ، وهم يتفاوتون بين المنير والقاضى الذى شاهد عمله الياس ؟ هل يريد لنا بركه أن نعيش فى حلم الاتقان الالهى ، بينما ينهار العالم باسم ذلك الاتقان ؟

انى اقول للأخ بركه اننا نرى الله بطريقة مختلفة . ان الله يتحدث الينا بطرق مختلفة وما نسمعه منه يتفاوت كثيرا من مجتمع لمجتمع ومن شخص لآخر . كيف نوحده تلك الرسالة ؟ هذا هو السؤال . ولكن بينما نطلب الاجابة على هذا السؤال ، باسم الله اسالكم ان نوقف قطع الايدي والارجل وكاننا جزارو البشرية .

انفجرت الجمعية فى خليط من التصفيق وصيحات الغضب ، مما يؤشر لفعالية قول بيتر وأثره فى تقسيم الحضور .

تواصل النقاش حتى وقت متأخر من ساعات العمل ولكن ، فى نهاية الأمر ، قررت الجمعية تكوين لجنة برئاسة عضو محترم من اعضاء الجمعية هو أحمد ود السلطان ، من علية القوم فى دارفور . كان على اللجنة التحرى فى الموقف والتوصية عما اذا كانت جرائم مثل السرقة والتعامل فى المشروبات المسكرة ترجع الى حالة الفقر والحرمان ومن ثمة لا ينبغى ان توقع عليها العقوبات الشرعية الصارمة . وتم تعيين كل من الياس وبركه لعضوية اللجنة .

اجتمعت اللجنة واستمعت إلى العديد من الشهود . وقادت بعض البيانات المقدمة للجنة إلى اكتشاف شبكة كثيفة من « اللصوص » بقيادة رجل يقال بأنه قد جمع قدراً هائلاً من الثروة والقوة فى عالم صغار المجرمين . كان اسم الرجل هو التوم حسب الرسول . وسرعان ما تكثف أن التوم حسب الرسول يتحكم فى سوق المال المسروق وان اغلب ما يسرق يذهب اليه أولاً . وكان هو الذى يقرر أين تباع الاشياء المسروقة من خلال المخارج العديدة التى تمتد بعرض البلاد وطولها . كذلك ظهر ان جزءا من عمل التوم هو « معاونة » ضحايا السرقة على متابعة أموالهم على افتراض انه يفعل ذلك من خلال قدراته السحرية ومقابل أجر زهيد بالمقارنة لقيمة الاشياء المسروقة .

تمكنت الشرطة من معرفة مكان التوم وتم القبض عليه ، ولكن كان من الواضح انه لن يفصح عن أى معلومات تهدد امبراطوريته الهائلة . تحصل التوم على خدمات أحسن المحامين بالخرطوم والذى نصحه بأن يلزم الصمت . وعجزت الشرطة عن الحصول على أى معلومات اضافية منه عن امبراطوريته الاجرامية .

وبعد مشاورات مكثفة مع محاميه ، قررت اللجنة أنه من الافضل منح التوم حسب الرسول حصانة ضد الاجراءات الجنائية او المدنية وذلك لمصلحة التحقيق ومن أجل التفهم الافضل للجذور الاجتماعية للجريمة ، وبخاصة فى العاصمة المثلثة ، وكان ذلك كافيا لاغراء التوم بالتعاون مع اللجنة .

أصبحت اجراءات سماع اللجنة ، والتي كانت تذاق من خلال الراديو والتلفزيون ، أصبحت مصدرا للمتعة والترفيه لجمهور المدينة . وكانت الجلسة التى شهد فيها التوم ممتعة للغاية . كان التوم داخل حجرة اللجنة وعلى وشك الشروع فى اداء شهادته عندما دخل الياس . ورغم أنه كان جالسا ، فقد ظهر أن التوم رجل طويل وضخم الجثة . كان يرتدى جلبابا ابيض بدا أكبر حجما من جسده الكبير ، وعلى راسه عمامة ملفوفة بطريقة مسترخية ومائلة الى أحد الجانبين . وفى يده مسبحة أخذ يداعب حباتها وكأنه يؤكد أنه

مسلم تقى وودع ولا يمكن أن يكون مجرماً وعلى التحقيق لم يكن لصا . وفي الحقيقة كانت هناك هيئة البراءة والبساطة الموضوعية بعناية على وجهه . لم يظهر بأنه رجل ساذج لكنه أيضا لم يشع بذكاء المجرم المتمرس . وبعبارة أخرى ، فقد ظهر أن التوم كان لغزا حقيقيا ، وحالة جديدة بالدراسة والفحص حقا .

طلب منه رئيس اللجنة احمد ود السلطان .

- أرجو أن تذكر اسمك بالكامل .

- التوم حسب الرسول .

هذا اسمك واسم والدك فقط . لأغراض السجل نحتاج في العادة لاسم الجد أيضا .

- في الحقيقة حسب الرسول ليس اسم والدي .

أدهشت هذه المعلومة أعضاء اللجنة ، فسأله احمد ود السلطان :

- ماذا تعنى ؟

- كما أن التوم ليس باسمي الحقيقي أيضا .

- أنا لا أفهم .

- ان روايتي طويلة ومعقدة يا سيدي رئيس اللجنة وايها الأعضاء المحترمون لقد اتيت من الجنوب وأنا شاب صغير أبحث عن العمل في العاصمة ، ولم أجد أية مهنة تناسبني .

فقد كنت عاجزا جسدياً عن أداء أى عمل يدوي شاق ولم أعتبر نفسي مؤهلاً للخدمة

المنزلية لا من الناحية الجسدية ولا من ناحية المزاج .

كانت لهجة التوم العربية ممتازة تقريبا ، فهي دارجية نوعا ما ، ولكنها تخلو من أى

لكنة أعجمية .

وسأل الرئيس !

- وأى نوع من العمل كنت تتوقع أن تؤديه عند حضورك الى هنا ؟

- لا أعرف ولا أعتقد أني فكرت في الأمر قبل ذلك . لأسباب لانحتاج لتفصيلها هنا وجدت

نفسى فى موقف عصيب عند أهلى وكان الحضور إلى المدينة هو مخرجي الوحيد .

وتساءل أحد أعضاء اللجنة قائلاً :

- وما هو الموقف العصيب الذى وجدت نفسك فيه عند أهلك ؟ فبخلاف ما تعتقد ، قد

يكون ذلك متعلقاً بعملنا هنا .

- أكون شاكراً لو اعفيتنى من اجابة هذا السؤال .

- حسناً ، لنعد الى اسمك .

- عندما وصلت الى الشمال ، أردت حقا أن أفتح صفحة جديدة في حياتي ، وهكذا منحت

نفسى اسم التوم حسب الرسول .

قلت بأنك لم تجد العمل الذى يناسبك ، فماذا فعلت انذ ؟

- لقد اكتشفت بسرعة ان هناك العديد من الشباب من الجنوب يواجهون نفس الموقف

فحتى القادرون جسدياً على أداء أى عمل لم يجدو العمل . كما حدث للعديد منهم مشاكل مع

سلطات الأمن لتصرفات ما كانوا يعلمون بأنها تخالف القانون . لذلك تحتم علينا أن ننظم

ونعمل على حماية أهلنا من التطبيق العشوائي لقانون لم نشعر بأنه ينتسب إلينا .

قال رئيس اللجنة :

- أرجو أن تخبر اللجنة بالحقيقة كاملة فأنت قد أقسمت على قول الحق كما تعلم بأنك معنى من أى مسئولية جنائية كانت أم مدنية .

- لسبب ما كان الجميع ينظرون الى طلبا للتوجيه والمساعدة . فأنا كنت فى حاجة لهم وكانوا هم فى حاجة لى . وكان غذائى اليومى يأتى من هباتهم رغم أنهم كانوا ينظرون لى كزعيم لهم . وتحتم على أن انهض لمستوى تحدى الزعامة التى عرضوها على .
وعم الصمت قاعة اللجنة .

- كنت منتبها لنوعين من المصالح . من ناحية هناك مصالح قومية الذين كانوا فى أشد الحاجة وقد وجدوا انفسهم ضحايا لمجتمع ولنظام قانونى لا ينتمون اليهما فى حقيقة الامر . ومن الناحية الأخرى هناك مصالح الضحايا الأبرياء لتلك الاعمال الانتقامية والجرائم الناشئة عن الضرورة والذين لم يكونوا مسئولين عن سوء حظهم . لذلك كان على أن أصمم نظاماً يؤمن احتياحات كل من الطرفين .

وفكر الياس لنفسه .

- يالها من معضلة .

- قد أدركت أن قيمة المال المسروق ليست فى عين المال وإنما فى قيمة بيعه . لذلك قررت أن أفتح سوقا للمال المسروق ، ولكننى أردت أيضا أن أعطى أصحاب المال المسروق فرصة لاستعادة أموالهم مقابل أجر زهيد . وفى الحقيقة ، بما أن الأشياء العظيمة الثمن يسهل التعرف عليها فى السوق الأسود كمال مسروق ، فقد أنشأت نظاما للمشورة المتخصصة فى متابعة المال المسروق ، على زعم أن المتابعة تتم بواسطة الرؤيا الروحية التى أشيع بآنى أملكها . بطبيعة الحال ، اعتمدنا على اعتقادات أهلنا فى الخرافة التى دعمت ما أشيع عنى بآنى أملك قوى روحية تمكننى من التعرف على مكان المال المسروق .
.. فسألة بركة قائلنا :

- وكيف استطعت أن تفعل ذلك ؟

ظهر أن التوم كان يتوقع السؤال فأجاب :

- بالتحكم فى سوق المال المسروق وبتقديم الارشاد لضحايا السرقة . تلك هى الطريقة التى أتقنت بها وسائلى فى البحث الروحى والعلمى .

استغرق الجميع فى حديث التوم وكأنه يقول كل الحق ولا شيء غير الحق لكى يكفر عن سيئاته . لكنه لم يظهر أى شيء من الشعور بالذنب أو الندم لما فعله من قبل .
وسأله رئيس اللجنة :

- وكيف كنت تلتفت نظر ضحايا السرقة الى خدماتك ؟

- فى غالب الحال ، من خلال الكلام الشفهي والذى يوجه من حين لآخر الى أشخاص الضحايا انفسهم ولكن مع ضمان أن يظهر الامر طبيعيا وعرضيا وليس كجزء من مخطط كبير .

لقال الرئيس مذكرا :

- لقد قلت من قبل أنك لم تقدر على الحصول على عمل مناسب من الواضح أنك قصدت

بانك غير قادر على اداء أعمال معينة ، هل يمكنك توضيح هذا ؟ ماذا كانت مشكلتك ؟
لم يرد التوم فوراً بل دفن وجهه في راحتي يديه ، وحل الصمت مرة أخرى على أعضاء
اللجنة .

- لا اعرف أين أبدا ، فهي رواية مؤلة لدرجة يصعب استذكارها .
- نأسف لضبطارك للاجابة ، ولكن ذلك سيعين اللجنة في تقدير حالتك وحالة الآخرين
الذين يجدون انفسهم في مواقف شبيهة .
- أرجو أن لا تروا عيباً في يدي وراسي
ولقيت دعاية التوم الضحك من الجميع .

- لاشك أن أولئك الذين رأوني وأنا ادخل قد لاحظوا وجود المشكلة . يعود الامر الى وقت
طويل ، ولم أكن حتى وقتها في العمر الذي يمكنني من أن أتذكر ما حدث . هجم غزاة من
العرب على قريتنا ، وخلال الهجوم قبض على أمي وأخي التوام وحملا على ظهر الجياد .
أما أنا فقد سقطت وكسرت عظم حوض المقعد . كان الأذى أكبر من أن يعالج ، وتحتم
على أن أعيش بعاهتي هذه طوال حياتي . وقد كانت المهانة التي تعرضت لها وسط القبيلة
بسبب هذه العاهة هي التي أرغمتني على الهجرة الى الشمال . وقد غيرت اسمي لأبقى
مجهولاً وأنسى الماضي ، ولكنني سميت نفسي التوم للتأكيد بأنى حقا أحد توأمين . كان
اسمي لدى الدينكا هو مديت ، وهو أحد الأسماء التي يعطيها الدينكا للمجموعة الثانية
من التوام . اسم أخي التوام هو اشويل واسم والدي هو ملينقديت ، وقد كان زعيم قبيلة
دينكا ميثانق .

في تلك اللحظة عجز الياس عن مواصلة التحكم في نفسه ، فصاح وهو يقفز من مقعده .
- ماشاء الله ، لقد وجدت أخي في نهاية الامر ،
ثم قفز نحو التوم وعانقه وهو يقول :

- أنا بول ، أخوك الأصغر . أه يامديت ، مديت أخي الحبيب . لقد وجدتك لقد وجدتك .
وساد الهرج في المكان ، إذ كان الموقف أكبر من أن يصدق المرء ، وصعق الجميع .
نهض أعضاء اللجنة وجمهور الحاضرين وهم يتساءلون عما حدث وعما يمكنهم عمله في
ذلك الموقف . هل جن جنون الياس فجأة ؟ ظهر أن ذلك هو أكثر التفسيرات معقولة .
ومع ذلك ، كان من المحتمل أيضا أنهما حقا أخوان وقع التفريق بينهما بصورة مأساوية .
وتذكر بعض أعضاء اللجنة كيف تحدث الياس عن اختطاف أمه وانقاذها فيما بعد . فإذا
كان التوم هو أخوه المفقود ، فمن المفهوم حقا أن يكون لقاؤهما عاطفياً في تلك الملابس .
شعر بعض الناس أنه من الخير حماية الأخوين من فضول آلات تصوير الصحافة
والاعلام ، فقادوهما من القاعة الى مكان خاص في مبنى الجمعية . وتأجل اجتماع اللجنة
بصورة رسمية وانصرف الجميع وهم في غاية التعجب مما حدث .

الفصل التاسع عشر

أن سنوات الانفصال والتغير قد حولت الأخوين إلى درجة أن أيا منهما لم يقدر على التعرف على الآخر، إلا أن إلياس كان قد تأثر بالتوم منذ أن وقع نظره عليه. وهو لم يكن يعلم السبب، إلا أن الرجل بدا مألوفاً له بصورة من الصور. وبالطبع، بما أن إلياس كان يجلس وسط أعضاء اللجنة الآخرين، فلم يكن بمقدور التوم أن يركز النظر عليه، ولذلك لم يتعرف على أى شيء ملفت للنظر في أمر إلياس. ومن الناحية الأخرى، فقد ظل إلياس يتساءل لنفسه عن أمر التوم، وكلما برزت تفاصيل أكثر من روايته ازداد شعور إلياس بأن التوم يبدو مألوفاً أكثر. وعندما تم الكشف عن أمر مأساته وخلفيته الأسرية، تحققت النبوءة بارادة الاسلاف. وبالنسبة لـ إلياس، فقد كان الأمر هو أحد تلك الاحداث المعجزة التي تحول الواقع فجأة الى نوع من العالم الخرافي.

وبطبيعة الحال، فقد تتبع التوم أخبار أسرته بقدر الامكان. وكان ذلك أسهل منذ انتخاب إلياس الى البرلمان، الا ان مزيجاً من الخجل والخوف قد منعه من محاولة الاتصال بأهله. لذلك جاءت لحظة التعرف كصدمة له أيضاً، وإن كانت أقل من الصدمة التي لقيها إلياس.

وعندما استعاد إلياس رباط جأشه من أثر صدمة ذلك اللقاء المعجز، كان السؤال عن كيفية اخطار والديه. فقد كان يخاف أن تكون آثار الخبر ورد الفعل العاطفي قاضية على والده في حالته الصحية الضعيفة تلك. ومن الناحية الأخرى، فقد تجدد من حماسه للحياة مما يمد في أيامه المحدودة.

شعر الياس بتأكيد وانتعاش لاعتقاده في تقاليد اهله الروحية بسبب العثور على مديت .
الا ان استعادة أخيه المفقود وتشخيص الطبيب لحالة والده ذكره بارادة الاسلاف ان
يعيش ملينقديت حتى يتم العثور على ولديه المفقودين . وفي هذا الاطار ، فقد كان ظهور
مديت بركة ولعنة في آن معا . ولكن طالما ظل اشويل مفقودا ، واذا صدق الاسلاف ، فان
والده سيبقى حيا حتى يوجد اشويل ايضا .

قرر الياس ومديت ، الذي بعث اسمه القديم في اوساط الأسرة ، ان يتم نقل والدهما
من المستشفى أولا ويجرى اعداده بعناية لتلقى الخبر في اطار الامل بالمنزل .
اراد الياس الاحتفال بخروج والده من المستشفى بعمل وليمة شكر او « كرامة » كما
يسمى اهل الشمال الاحتفال بالشفاء من المرض . دعا العديد من الناس ، من الاعيان
وعامة الناس ايضا ، للوليمة التي تم فيها ذبح ثور وكبش . فيظهر مديت ، احس الياس
بان الامر قد تحول من مجرد تشجيع كاذب بتحسن صحة والده الى احتفال سعيد حقا
باجتماع شمل الأسرة .

خلال الاعداد للوليمة وتجهيز كميات كبيرة من الطعام ، قرر الياس تهيئة والده لتلقى
الخبر . وحتى ذلك الحين ، أصدر الياس تعليمات صارمة بعدم تسريب أى شيء عن الامر
لوالده . فبما ان الارسال التلفزيوني المباشر قد كان ييئس من مكان لقائهما ، فقد أصبحت
القصة معروفة في أنحاء العاصمة المثلثة . لذلك اقتضى الامر التحكم الشديد في أى
احتمال لاطار شخص ما للشيخ بما حدث . وعندما حلت اللحظة المناسبة ، أحضر
الياس مديت الى مكان قريب من المنزل وتركه مع أحد الجيران لحين استدعائه . جلس
الياس منفردا مع والده في حجرة النوم الكبيرة .
شرح الياس في الحديث بقوله :

- يا والدي ، أود أن تكون مستعدا لما سأخبرك به . لا ينبغي أن أخاطبك بهذه الطريقة
لانى أنا الابن وأنت الوالد ، ولكن من المهم أن تبقى رابط الجأش عندما أخبرك . أريد أن
أقول لك يا أبى بانى قد أصبحت على قناعة تامة بالقوى الروحية لاسلافنا . لقد قلت أنت
بأنهم قد وعدوك بأن أسرتنا ستجتمع في يوم من الايام بأخوى المفقودين . سيتحقق قريبا
أحد الاجزاء الرئيسية لذلك اللقاء . لقد وجدنا يا أبى ابنك مديت وهو على احسن حال .

قاطعته ملينقديت وكأنه لم يكن منتبهاً لحديثه منذ بدايته فقال : ماذا تقول ؟ هل سمعتك تقول
بأنكم قد وجدتم مديت ؟

- نعم يا والدي .

- مديتى أنا ؟

- نعم .

ضحك ملينقديت بطريقة توحى بعدم تصديقه للنبا ، لكنها في حقيقة الامر كانت
ضحكة فرح الانفعال الخفى . ثم نجح في اظهار الهدوء ، ثم سأل في رباطة جأش مفتعلة :
- اين هو ؟ ..

- انه قريب جدا وسيأتى في أى لحظة .

- اطلق ملينقديت أنشودة الرضى بقوله :

- لقد أرسل ثورى العظيم الارقط اللون خواره نحو السماء ! ليس عندى ما أقوله حتى

ارى مديت بعينى .
فى ذلك الوقت ، ارسل الياس فى طلب مديت الذى حضر وبرفقتة جمع من الدينكا بينما
كانت النساء يزغردن من الفرحة .

وعندما اقتربت الجماعة من بوابة منزل الياس ، اقتنع ملينقديت بأن اجتماعه بمديت
سيتم خلال دقائق معدودة ، فنهض وأنشد نشيدا قديما يقول :

ربى يا سيد كل الالوان

أنت أبو الجنس البشرى

اليك نمد الطرف

فى الأرض وفى السموات

فاذا نلنا شرا

نستلقى فى دعة ثقة فى عدلك

تبدى حكمتك خوافيها فى أوقات معلومة

سبحانك فى الأرض وفى العلياء

من عظمتك تجيء مصائرنا !

عندما انفتح الباب ودخلت الجماعة ، نظر ملينقديت نحو ابنه ثم أشاح بنظره عنه
بصورة متعمدة وقال :

- دعه يقف هناك . ينبغي أن يبارك طريقه قبل أن يدخل منزل أخيه . أتني بوعاء من
الماء .

أحضر له اناء من الفخار الصينى وبه ماء ، فاعترض قائلا :

- أن أسلافنا لا يعرفون هذه الأشياء الحديثة . الا يوجد اناء من القرع الجديد فى هذا
المنزل .

ولكن لم يكن هناك أى اناء من القرع ، دع عنك القرع الجديد .

- فلنكتف اذن بما عندنا .

قال ملينقديت موافقا وهو يتناول الاناء ويتقل فيه وأخذ يصلى :-

« أنتم يا أرواح أسلافنا وأنت يا الله يا والد الجميع ، هذه كلمة شكر لكم . اننا
نشكركم من أعماق قلوبنا . لو كنت عند أهلى ، لاستدعت هذه المناسبة تقديم القرابين من
الشيران لاسمائكم العظيمة . لكننا بعيدون عن أهلنا ، لذلك لا بد من تعديل توقعاتكم . لقد
تأكدت دائما بأن وعدكم لى سيتحقق . انى أعلم بأن ابنى مديت قد كان غائبا لوقت
طويل . ولكن ما تقول أرواح الاسلاف بأنه سيكون لابد أن يكون . أنا لم أشك فى ذلك
مطلقا . ورغم ذلك ، عندما تتحقق ارادتكم كما حدث الآن ، فان الفرحة باحسانكم يغمرنا ،
وبما أن الاحسان هو حقا واجب الوالد نحو الابن ، فانكم لم تفعلوا شيئا خارقا . ولكننا
نقر ببركتكم ونشعر بالشكر والامتنان كأطفال لكم . ليكن اجتماع الشمل هذا مصدر قوة
للأطفال ليخدموكم لدرجة أكبر حتى مما مضى . رغم أن قلوبهم قد استولت عليها كلمات
أجنبية ، فان ما فعلتم اليوم سيقوى من اعتقادهم فى أرواح الاسلاف . سيكرمون
أسمائكم اليوم بأكثر مما فعلوا من قبل . »

ثم استدار نحو جمهرة الحضور الذين كانوا مستغرقين فى صلاته وقال :

- ليتقدم مديت إلى الإمام .

وعندما تقدم مديت ، وبدون أن يلمسه أو حتى يركز نظره عليه ، رش مليونديت بعض الماء من القدر تجاه مديت وهو يلمس قدميه ويديه وجبهته وصدره ، وذلك نوع من الطقوس الموهلة في القدم والتي تشبه المباركة المسيحية . وبعد ذلك قذف بنفسه نحو ابنه واحتضنه .

وقال وهو يضع صدره على صدر مديت ويحيطه بذراعيه :
- هل هذا أنت حقا يا بنى ؟ هل حقا جمعنا الاسلاف معا قبل أن أموت ؟ تبارك الله ، ففى مقدورى الآن أن أموت فى سلام .

لم يقدر أوليل ، أم الاولاد ، على احتمال الموقف ، فأشاحت بوجهها بعيدا وهى تبكى وكأنها فى حالة صدمة . وهى لا تود حتى أن تواجه مديت ، فهى على ما يبدو لا تطمئن تماما أن ما يحدث هو الواقع حقا . فكأنما كانت هنالك روح شريرة تخدعهم بأن ابنا لآبد أن يكون قد مات منذ وقت طويل هو فى الحقيقة حى يرزق . بدا لها وكأن الجسد القائم أمامها لم يكن فى الحقيقة ولدها وإنما هو « شبح » ربما تصدر عنه النجاسة الروحية . كيف يمكن لمديت أن يعود الى الحياة وهو ولاشك قد مات منذ وقت طويل ؟ وعندما عرفت الويل فى نهاية الامر بأن ابنها قد قام حقا من بين الاموات وأنه حقيقى ، كتب لها هى أيضا عمر جديد وبقيت أمنيتها الوحيدة أن يتم العثور على اشويل أيضا . فظهر مديت الآن جعل احتمال العثور على اشويل أكثر معقولة مما كانت تجرؤ حتى على أن تأمل فيه من قبل .

ولم تكن الويل هى الوحيدة التى تصاعدت توقعاتها ، فحتى الياس قد بدأ يعتقد بأنه طالما تحققت ارادة الاسلاف بالعثور على مديت فليس هناك ما يمنع من الاعتقاد بأنها ستنجح فى تتبع آثار اشويل . فبصورة من الصور ، أصبح هو من المعتقدين فى نبوءة الدينكا ، وشعر فى قرارة نفسه بالثقة بأن الاسرة ستتوحد وتجتمع باشويل ان طال الزمن أو قصر .

كانت رواية مديت لما حدث له منذ اختفائه أطول ، وربما أكثر ايلاما ، من أن يستذكرها المرء فى ظروف جمع الشمل السعيد ولابد من أن تنتظر لأوقات أخرى أكثر خصوصية . والاسبقية الآن هى للاحتفال العام واظهار الفرح بتوحدهم واجتماع شملهم . احتفل الناس وضحكوا كثيرا ، وخصوصا حول ما يتعلق بامبراطورية مديت السرية .

وأخيرا بدأت اعداد الحضور فى التناقص وأتى الحفل الى ختامه تدريجيا . وعندما حان الاوان لذهاب مديت نفسه ، قال لبول :
- لقد كان اليوم يومك أنت وهو بحق يوم رائع . أرجو لك دوام النعمة والعافية باذن الله . أود أن تحضر الاسرة والاصدقاء لمنزلى غدا لمقابلة زوجتى وأطفالنا ومشاركتنا فى وليمة بسيطة .

لم ينم مليونديت ولا أوليل تلك الليلة ، حيث أخذ كل منهما يوصل - يقول « الكلمة » على حد تعبير الدينكا - فى موقعه من المنزل . ومن حين لآخر كان مليونديت ينهض ويتجول فى أنحاء المكان وهو يخاطب ارواح أسلافه وينشد بصوت مسموع . لم يكن معظم ما كان يقول فى الشكر لعودة مديت فحسب ، بل من أجل سلامة وعودة اشويل أيضا . ورغم أن اشويل قد اختفى فى طفولته الباكرا ، فقد أقنع الظهور المعجز لمديت

ملينفديت بأنه ليس هناك شيء مستحيل ، وخصوصا لأن أسلافه قد كشفوا له الامر في الحلم .

عندما حان وقت وليمة الفداء ، أرسل مديت سيارته المرسيديس ومعها حافلتان لاحضار والده وبقية الضيوف . وعند اقترابهم من مسكن مديت بمدينة ام درمان ، ظهر الامر وكأن الاحتفال بعرس يحدث في المنطقة من كثافة الحضور وارتفاع اصوات النساء بالزغاريد . بلغت اصوات صيحات الفرح قممها عند وصولهم . كان ملينفديت يرتدى جلبابا ابيض وقد لف عمامته بعناية حول راسه ، كما تحلت زوجته بثياب ملونة مناسبة . انفتحت البوابة لتكشف عن منزل واسع بصورة غير عادية ، ساحة كبيرة خالية وجزاين منفصلين ، أحدهما للرجال والآخر للنساء . انقسمت الجماعة بنفس الطريقة فانصرف بول مع والده والرجال الى الجزء الخاص بهم من المنزل ، بينما دخلت النساء الى الجزء الخاص بالنساء في المنزل حيث كانت اصوات الزغاريد تصم الاذان .

كانت منطقة الجلوس في جانب الرجال حجرة واسعة وقد اصطفت جدرانها بالمقاعد وعليها الوسائد ، ومنضدة صغيرة بين كل مقعدين بينما تحلت الارضية بسجاد شرقي فاخر . تغطت الشبايك بستائر من الحرير الفاتح اللون ، مما زاد من فخامة المكان . وكان من الواضح ان اغلب الاثاث قد استجلبت من خارج البلاد .

وسأل الياس اخاه وكأنه يحاول اشباع فضوله :

- هل سافرت خارج البلاد كثيرا ؟

فأجاب مديت :

- معظم اسفاري كانت الى مصر وليبيا ودول الخليج ، كما سافرت مرة واحدة الى اوربا فكانت مغامرة حقيقية اذ اني لا اتحدث بأى من اللغات الاوربية .

وبعد جلوس الجماعة بقليل ، قدمت لهم المشروبات الباردة في اوان من الفضة الموضوعه على صواني من الفضة ثم قدمت المشروبات في اكواب مذهبة الاطراف . كانت اسفار مديت بالخارج واضحة من متاعه وممتلكاته .

علق الياس في دعابة :

- انك ولاشك لم تختف عبثا ، وهذا اكثر مما تستطيع ان اقول عن سنواتي أنا في الحكومة . وقبول تعليقه بالضحك .

احس مديت بالحاجة للرد فقال :

- أرجو أن توافقني انه هناك أنواع مختلفة للنضال . هذا على الاقل ما كنت احاول ان اؤكدك للجنتمكم ..

« على التحقيق » اجاب الياس . « ولقد أحسنت انت صنعا . على حسب تقديري للموقف ، فقد برزت أنت في صورة بطل ! وذاك انجاز كبير لشخص كان من الممكن ان يوصم بأنه مجرم ويوضع خلف القضبان او تقطع يداه ورجلاه لنفس الاعمال .

علق مديت قائلا :

- والآن الى مواضيع اكثر بهجة . دعني انادى على زوجتي واطفالي للحضور لتحيتكم . ولكن قبل ان افعل ذلك ، أرجو الا تتوقعوا مشاهدة فتاة من الدينكا ، خصوصا وانتم تعلمون سبب رحيلي .

ومرة اخرى ضحك الحضور ، وان كان في ضحكهم شيء من الالم .

دخلت عليهم سيدة بيضاء اللون وعلى وجهها ابتسامة جذابة وبصحبتها خمسة اطفال تتراوح اعمارهم بين الرابعة والخامسة عشرة من العمر . كان هناك ثلاثة اولاد وهم اكبر الاطفال واصغرهم واوسطهم سنا ، حيث كانت اسماؤهم هي سمير ومنير وانيس ، ابتداء من الاصغر وعلى التوالي . أما اسما البننتين فقد كانا نادية ودالية . كانوا جميعا اطفالا جذابين في اللون الاسمر الفاتح الذي يتميز به السودانيون الشماليون . كانت أمهم ، سلمى ، مصرية ، وكما عرفوا بعد ذلك بقليل ، فقد كانت سيدة ذات خصال نبيلة وذكية ومتواضعة ومهذبة وكريمة . وقد كانت اكثر من زوجة بالنسبة لزوجها ، ذلك لانه بالاضافة لمسئولياتها كام لخمسة اطفال ، كانت تعاونه في ادارة اعماله من المنزل في حذر وتحوط . وهي قادرة على ذلك بحكم تعليمها ومعرفتها بشئون العصر .

علق الياس بقوله :

- ما شاء الله . انها لأسرة يفخر المرء بها حقا .

فأجابت سلمى وهي تشيح بوجهها المحجب لدرجة ما .. وتحاول أخفاء احمرار خدودها للاطراء قائلة : شكرا وبارك الله فيك .

لم تكن سلمى ولا الاطفال قادرين على الحديث بلغة الدينكا ، الا ان ذلك لم يمنع الجميع من اظهار مشاعرهم .

طلب ملينقديت ماء وتفل فيه وقال صلاة قصيرة ثم أخذ يعمل طقوسه لمباركة زوجة مديت والاطفال :

« اننا جميعا ابناء الله ايا كان لون بشرتنا او كان ميلادنا »

قال ملينقديت ذلك في صلاته وفي ذهنه ، ولا شك ، سلمى .

- وعندما يجمع الله بين اثنين في الزواج يصبحان أعضاء في أسرتي بعضهما البعض ويجب الا يفرق بينهما بعد ذلك أى اختلاف في العرق أو اللون أو الدين . فهما قد أصبحا من الاقارب والاهل .. وهكذا يا اسلافنا ويا ارواح عشيرتنا ، ان هذه المرأة واطفالنا قد أصبحت تابعة لكم . انى أشكركم على توجيهكم لخطى ابنكم مديت نحو هذه المرأة النبيلة . أنها نخر لعشيرتكم . لقد مددت هذه المرأة دائرتكم بعيداً ووسعتها وهذا ما يسميه أهلنا العصا المقذوفة الى الامام لتحمل المرء في المستقبل المجهول . وفي الحقيقة ، لم يعد ذلك المستقبل مجهولا ، فقد أصبح معلوما وهذا هو سبب وجودنا هنا اليوم ،

لم تفهم سلمى والاطفال معنى كلمات ملينقديت لكنهم أدركوا مغزاها . ورغم أنهم قد شعروا بالتقزز من أنه قد رشهم بالماء المحتوى على اللعاب ، إلا أنهم قد احتملوا إجراء الطقوس في تأنيب واحترام .

وأخيرا جاء الطعام - أطباق سودانية ومصرية شهية ومقدمة في اوان ممتازة مما أكد الترف الشديد الذي يشع به المكان . ولو لم يكن مديت هو ابنهم الذي ولد وترعرع في سنوات عمره الاولى في الاطار التقليدي للدينكا ، لأرهبت أسرته من كل ذلك البذخ المادى . ولكنهم لم يرهبوا لان كل ذلك كان ملكا لابنهم وهو ملكهم هم إذ يجمعه وإياهم النسل الواحد . وهم لم يفكروا حتى في الأمر وتقبلوه بصورة طبيعية ووقورة . همس العميد على لالياس أثناء الحفل بأن فضيلة قد وصلت الى الخرطوم وأنه على استعداد للجمع بينهما بأول فرصة مواتية . اختارت فضيلة مكان الاجتماع وهو منزل عواطف ، أقرب اصدقاء فضيلة من النساء .

عند اقتراب إلياس من المنزل كان يشعر بالاثارة والتوجس في أن معا . ماذا عساه يقول لفضيلة ! فقد كان الغرض من الاجتماع واضحا في تقديره ، ألا وهو التأكد من أنه حقا والد ابنها . فاذا ظهر ذلك ، لم ير إلياس مانعا من التقدم لطلب الزواج منها . وكان إلياس يود أن ينتهي الأمر الى ذلك للعديد من الأسباب . فهو أولا واثق من شعوره نحو فضيلة . وثانيا ، ولنفس السبب ، فقد تألم للمعاناة التي سببها لها سلوكه هو دون أن تجد الدعم الأدبي الذي كان بمقدوره ان يقدمه لها لو كان في البلاد في ذلك الوقت . واخيرا وليس اخرا بالطبع ، فقد كان على أتم الاستعداد للزواج وتحمل اعباء الحياة الزوجية . وأي وقت يكون أفضل من الوقت الراهن لاعلان خطته ووالداه حاضرا في الخرطوم وقد ظهر اخوه الأكبر مديت بعد غيبة طويلة .

وجد إلياس البوابة شبه فاتحة وفهم فوراً أنه عليه الدخول . ولكنه صفق ونادى بالتحية التقليدية وهو يدخل المنزل « السلام عليكم » .
وردت هي من الديوان على بعد ياردات الى الداخل .
- وعليكم السلام ورحمة الله . تفضل بالدخول .

ولدى انفرادهما ببعضهما البعض ، اذ ان عواطف قد تركتهما منفردين لضمان الخصوصية لهما ، أحس إلياس بالتوتر ، ولم يعرف كيف يتصرف . عندما دخل الحجر ، وجد إلياس فضيلة جالسة على أحد المقاعد الموضوعة في شكل مستطيل مع ترك فتحة مقابلة للباب . نهضت لتحيته ، لكنهما شعرا بالحرج نوعا ما وترددا في تصرفهما وهما على ما يبدو غير واثقين من الطريقة المناسبة للتحية . سقط ثوب فضيلة من على رأسها وكثفها مما حتم عليها اصلاحه وهي تحيي إلياس . وقفز قلبه ، فقد أراد أن يحتضنها بعاطفة عارمة ، لكنه منع نفسه عن ذلك اذ كانت هي تتطلع على خواطره . ولعل ذلك هو سبب الطريقة الباردة التي مد بها يده لمصافحتها . ووقتها أحس إلياس بأنه من التجروء الزائد أن يحتضنها . فهي على حال لم ترد على رسائله أبدا مما يوحى بشيء ما . فكانما تحتم عليهما أن يجددا تعارفهما من جديد قبل أن يتصرفا باعتيادية تجاه بعضهما البعض ، دع عنك أن يكونا على علاقة عاطفية حارة . وبصورة شبه غريزية ، جلسا على بعد من بعضهما البعض وهما يتحكما في سلوكهما بصورة واضحة .
- كيف حالك ؟

سأل إلياس وهو لا يزال يحس بالحرج . نظرت فضيلة نحوه للحظة خاطفة ثم أشاحت عنه وعلى فمها ابتسامة ساخرة : ليس بي سوء كما ترى .
- لقد تغيرت نوعا ما ، ولا أعنى بذلك الطريقة التي ستفهمين بها قولي في غالب الحال . قال إلياس ذلك وقد قرر اضافة نبرة جادة للحديث وهو لا يزال يشعر بالقصور للطريقة اللامبالية التي أشار بها الى موقف فضيلة .

- في هذه الحالة أرى ، انه من الواجب أن تخبرني أنت على الطريقة التي تغيرت بها . قالت فضيله ذلك وهي لا تزال تتحكم في نفسها وعواطفها بدرجة تفوق تحكم إلياس في تصرفاته .

- أنت مثلا أقل وذا بكثير مما أذكر .

- أحقا أنا كذلك ؟

-ساءلت فضيلة وهي لا تزال ساخرة ثم قالت مستطردة .

- وكيف تحكم انت على نفسك ؟
- لعل لا ازال أبسو لك كما كنت من قبل اذا حكمنا على الامر من سؤالك ؟
- انى اتسائل فقط
- حسنا اذن فالاجابة الجادة على سؤالك هى انى ربما اكون قد تغيرت استجابة لتغيرك انت .
- قال إلياس ذلك فى صدق وإخلاص ، لكنه بدا حازماً بصورة شديدة .
- قالت فضيلة وقد بدأت فى اتخاذ موقف مهاجم :
- وهكذا وبعبارة أخرى فانا المسئولة ؟
- لا اعنى ذلك بمعنى الادانة ، ولكنك هذه اللحظة المتحكم فى الموقف .
- فقالت فضيلة فى استقصاء :
- بأى طريقة تعنى ؟
- لقد كنت انا فى الوضع الشاذ وانا بعيد عن البلاد بينما بقيت أنت هنا مشغولة بالتطورات فى الوطن . الا توافقين ان تلك التطورات فى غاية الاهمية لموقفنا ؟
- شىء غريب .
- قالت فى همس ثم واصلت الحديث بصوت مرتفع . أنت تقول اولاً بأنك كنت غائبا ولا تعرف عما حدث فى غيابك ثم تعود لتقول ان ماحدث هو فى غاية الاهمية لموقفنا . هل يعنى هذا انك تعلم بما حدث ؟ واذا كان الامر كذلك فلماذا تسالنى ؟
- انى اسف لكنى اردت ان اسمع روايتك أنت بدلا من ان اتفاعل مع مايقول الآخرون ؟
- سألت فضيلة مقاطعة :
- ومن الذى قال ماذا ؟
- هيا يافضيله أخبرينى كيف حالك ؟
- تحدث إلياس وهو ينتقل الى مقعد أقرب وقد صمم على أن يكون صريحا وان يخضع فى تواضع .
- لقد سبق أن أخبرتك بأنى على أحسن حال . وإذا كان هناك شىء ما تعرفه أنت ولم أخبرك به أنا فقل لى عن ذلك ؟
- لن يقودنا هذا الحديث إلى أية غاية .
- أعلن إلياس ذلك وهو مصر على الوصول إلى صلب الموضوع فقال مستطرداً .
- لقد علمت أنك ولدت ابنا .
- نعم .
- أجابت فضيلة بصوت خال من العاطفة ولكنها بدت غير مرتاحة لاتجاه الحديث .
- تردد إلياس حول السؤال التالى فمن الواضح أنه أراد أن يعرف ما إذا كان الولد طفله هو ، لكنه أيضاً رأى فضيلة غير مرتاحة للموضوع أو على الأقل للطريقة التى يتبعها هو فى استقصاء الأمر وبينما كان السؤال الطبيعى هو «من والد الطفل ؟» قرر إلياس عدم طرح ذلك السؤال وبدلاً عن ذلك غير نبذة الحديث فسأل :
- هل افتقدينى ؟
- وبدا انها أكثر استجابة وهى تقول :
- وماذا تظن انت ؟
- انى اعرف ما أحب ان اظن ولكنى لا أريد ان اكون متطاولا .

- « لا تقل لى أكاذيب الرجال المعهودة » .

ظهرت نبرة حزينة فى صوت فضيلة وهى تقول ذلك .

وبطريقة ما أطلق قولها شجاعة الياس ليذهب إلى لب الموضوع : هل صحيح يا فضيلة أن
الطفل هو ولى أنا ؟

- سأغض الطرف عن الإهانة المتضمنة فى سؤالك وأسألك عن غرضك فى معرفة الإجابة .
- بالطبع أريد أن أعرف . إذا كان حقا هو ولى الا ترين ما يعنيه ذلك ؟

فتسألت فضيلة فى ضراوة .

- بالنسبة لك أم . بالنسبة لى أم الطفل

فقال الياس فى صراحة تامة :

- بالنسبة للجميع

- وبأى طريقة تعنى ؟

- بطبيعة الحال أود أن أحصل على طفل .

فقال فى سخرية : هكذا .

ثم ظهر التصميم على وجهها وهى تقول : لك أن تحصل عليه فهو ابنك . وفى حقيقة
الامر ، لو كنت أعلم بأنى سأجرك فى الخرطوم لأحضرتة معى . لكن رسالة عم على لم
توضح بأنه استدعانى بسببك أنت .

كان هناك برود شديد فى صوتها وطريقتها فى الحديث أرسل القشعريرة الى عظام
الياس .

- إذا كان الامر كذلك يا فضيلة فبأنى أريدك والطفل معا .

- دعنى أقول لك يا سيد بأنى قد أخذت كفايتى من سيل الاهانات هذا . لقد سقطت
ضحية لحبك وسمحت لعواطفى أن تضل بى الطريق وتوقعنى فى ورطة كنتيجة لذلك ، فقط
لأجد نفسى وحيدة وعلى أن أدبر حالى بينما تندفع أنت الى أرض الميعاد حيث ربما تكون قد
وجدت كل ما تصبو اليه ونسيتنى تماما . والآن تعود وأنت لا تشكك فى ولائى فحسب ، بل
وتتجرا على سؤالى عما إذا كان الطفل هو ابنك مما يوحى بأنك تشك فى ذلك ، ثم تقول
بأنك بالطبع تريده وتريد أن تتبعه أمه .

أعتقد أن الموقف واضح . لقد عانيت أنا مهانة كبيرة وانقضى الجزء الصعب وأستطيع
أن احتل الباقي . والآن ، إذا سمحت ، فانى أرغب فى الانصراف .

- انتظرى لحظة ، أهذا ما يعنون عندما يقولون بأن الهجوم هو خير وسائل الدفاع ؟

قال الياس ذلك فى غضب مماثل لغضبها ما جعل فضيلة تتوقف .. ثم استطرد قائلا :

- اينا أجدر بأن يغضب لسلك الآخر . أغادر أنا هذا البلد للدراسة بالخارج وهو شىء لم
يعترض عليه أى منا . ومنذ يوم سفرى وطوال اقامتى بأمرىكا لم أفعل سوى واجبى فى
التركيز على دراستى والانشغال بأمر بلدى والتفكير فىك أنت . وكتبت لك الخطاب تلو
الأخر ولم ألتق أى رد منك . وأخيرا استخلصت بقلب مفجوع وانزعاج تام بأنك ولا شك
قد اتخذت لنفسك رجلا آخر ، ولعلك تكونين قد تزوجت ابن عمك الطبيب . ولى عودتى :

الى الوطن أسمع بأنك قد حملت وبأنى متهم بأن أكون الأب .

كيف يملك رجل انتظار الرد بفارغ الصبر على خطابات الحب المخلصة ولم يتلق أى رد
أن يفرح لسماع أنباء بأنه ولا شك أب لطفل ؟ لماذا لا ترين بأنى احتاج لبيئة واضحة

لتثبت لي بأنك مازلت تعنين بأمرى أو أنك قد عنيت بأمرى في أى وقت من الأوقات ؟
انفجرت فضيلة باكية عندما سمعت قوله ذلك :

- أه يا الياس ، لماذا لم تقل لي من البداية بأنك قد كتبت لي ؟ لقد كان ذلك هو كل سبب عبوسى وقنوطى إذ أنى قد تحطمت لعدم سماعى منك . من الطبيعى أن ابدو متفيرة لانى اقنعت نفسى بأن أكرهك حتى أقدر على نسيانك . صدقنى يا الياس ، بأنى لو تلقيت منك رسالة واحدة أو أنى عرفت عنوانك على الاطلاق ، لاختلفت الأمور كثيرا لي غالب الحال .
وجاء دور الياس لي اظهر عواطفه :

- صدقيني يا فضيلة وأنا أقسم باسم الله العظيم وانى أقول الحق بأنى قد عانيت كثيرا في الذهاب عنك وانى عانيت ألم الشوق لك طوال وقتى بأمرى . ولكنى دائما حفظت ذكراك عندى . انى أحبك كثيرا يا فضيلة ولم يخطر ببالي مطلقا أن تشكى أنت في ذلك الحب .

لم أقصد من ذكرى للطفل بأنه السبب في رغبتى فيك وإنما لأنه يكون تأكيدا لحبنا ودعمنا لوجودنا معا . اننا لا نقدر على انكار أن مجتمعنا يرى انجاب الأطفال أكبر أهداف الزواج . فإذا بارك الله حبنا بأن رزقنا طفلا قبل الزواج ، الا يثبت هذا أن الزواج هو قدرنا المسبق ؟

واستسلمت فضيلة تماما وهى تطايرت رأسها لي صمتت وتستمتع بكل كلمة يقولها وترغب في سماع المزيد .. اطلع إلياس على خواطرها فواصل الحديث :
- دعينا نتذكر يا فضيلة بأن هناك قدرا كبيرا من التحيز بين أهلنا من الجانبين . انى أكره أن أقول هذا ، ولكن الحقيقة هى لو أنى طلبت الزواج منك في الظروف العادية ، لفى الغالب ستعارض كل من أسرتينا الفكرة . ولكن مع وجود الطفل فاننا سنواجههم بموقف من المحتمل أن يتقبلوه . وما يهم هو رغبتنا نحن . والطريقة التى نحقق بها ما نريد هى أمر ثانوى في الأهمية .

أثناء حديثه ، بدأت فضيلة تحس بأن شعورها الأسمى تجاهه قد بدأ يعود حتى أيقنت بأنها ترغب فيه كثيرا جدا ، من الناحيتين العقلية وال عاطفية . وحقا ، أى دليل على شعورها تجاهه أقوى من حقيقة أنها قد حملت وولدت طفله . ان الياس على حق ، لقد كانت هى خيالية بينما كان هو واقعى . وبينما كانت تلك الافكار تمر بذهنها شعرت بجسدها يتحرك شهوة له في تلك اللحظة والمكان ، لكنها صرفت رغبتها على اعتبار أنها غير حكيمة . وبدلا عن ذلك رأت أن تداعبه ، فقالت :

- أنك لم تطلب الزواج منى بعد وما أنت تتعامل مع الأمر وكأنه حقيقة واقعة . وما الذى يدعوك للاعتقاد بأنى سأقبل ؟

وادراكا منها أن الدعاية لم تصب هدفها أو لعلها قد أسىء فهمها ، أسرع فأضافت :
- ولكن بجديية يا الياس ، أريد أن أخبرك عن مقدار سعادتى . لقد كنت في جحيم لما حدث لي بدونك . وكثيرا ما بكيت سرا وأنا أتشوق لوجودك معى لمشاركى عبه ما يحدث وبصورة ما كنت اعتمد على قوتك ولكن لم يكن إليك سبيل .. بالطبع تفمرنى السعادة كامرأة لحملى لولدى وأنا سعيدة الآن لأنك ترغب فينا معا . كم تشوقت أنا لهذا وكم تخوت من أنه لن يحدث أبدا وهكذا ترى مقدار سعادتى . لعلك لا ترغب في طلب الزواج منى ، ولكنك لو فعلت فإن اجابتى هى نعم .

فقال الياس : سأحدث فوراً لعم علي ، واعتقد انه بمقدورنا الاعتماد على تأييده . ومن حسن التوفيق أن والدي هنا أيضاً . في مجتمع الدينكا ، ليس من الغريب حقاً أن يفرض العشاق أمر زواجهما على كبار الأهل بأن ينجبا طفلاً أو حتى يهربا معا . ان هذا هو اخف همومي مع والدي .

وبينما كان يتحدث ، مد يده نحو فضيلة وهو ينظر إليها في شوق شديد وعلى وجهه ابتسامه عريضة . وامسكت هي بيده وابتسمت له رداً على ابتسامته ، لكنهما أدركا غريزيا بأنه عليهما التوقف عن المزيد . فلا جدوى من اشغال عواطفهما إذا كان الأمر سينتهي الى الاحباط أو الى ما هو أسوأ من ذلك وهو الفضيحة إذا اكتشف أمرهما . اختتم الياس الحديث بقوله :

- اعتقد أنه من الأنسب أن أكون أنا أول من ينصرف من هنا . ولكن لدي سؤال هام وهو : ماذا سميت الولد ؟

- لقد كنت أتساءل متى ستسأل عن ذلك . لقد سميتهُ « الفحل » تكريماً لمن ؟ إن ذلك من أسرارى الخاصة .

- ان ذلك اسم رجولي وأنا أوافق عليه .

الفصل العشرون

تَسْأَلُ إلياس عما إذا كان عليه مناقشة الأمر مع علي أم مع أسرته هو أولاً ، فقد كانت هناك أسباب جيدة لكل من المذهبين . فإذا لم يطمئن علي موافقة أسرة فضيلة علي الزواج ، فسيؤذي والده أن يوافق هو علي الزواج ثم يرفض طلب ابنه . ولكن ، وفي نفس الوقت ، ماذا لو وافقت أسرة فضيلة واعترض والده هو ؟ وعلى كل حال ، كيف يشعر والده تجاه مناقشة ابنه لأمر زواجه مع أهل الفتاة قبل أن يحصل علي موافقة أسرته أولاً ؟ لقد كانت مغامرة في كلتا الحالتين ، لكنه قرر إجلاء الأمر مع أسرته هو أولاً .

التقوا في منزل مديت الفخم وفي خصوصية حجرة الجلوس ، وقد احس كل من ملينقديت ومديت أن إلياس يرغب في مناقشة أمر هام فاذا الأمر هو الزواج ، فمن ياترى يكون الشخص المعنى في منطقة الخرطوم ؟

تم تقديم المشروبات الباردة وهم يجهزون انفسهم للحديث . اطلت عليهم ألويل ولكن ملينقديت طلب منها الانصراف بقوله :

- هناك اشياء يناقشها الرجال بدون حضور النساء ، زوجات كن ام امهات .
فقال ألويل في تقبل للأمر وهي قد خمنت موضوع الحديث وشعرت بالسعادة له :
- ناقشوا الأمر منفردين ، واذا كان هاما كما يبدو ، فانه سيصلنا في نهاية الأمر على كل حال .

ثم انصرفت عن الحجرة .

فقال إلياس :
- يا أبى ويا أخى مديت لا حاجة لى بأن أقول عن مقدار سعادتى لوجودنا معا هذه اللحظة . هناك اشياء فى الحياة ينبغى من طبيعتها المحضه أن تناقش فى إطار الاسرة مجتمعة . ولم يكن هذا ممكنا قبل وقت قصير . والآن وأنت هنا يا أبى ومديت قد طلع من عالمه الخفى .

وضحكوا جميعا .
فيبدو وكأن الله قد اراد أن يكون هذا هو وقت نقاشى معكما لأمر فى غاية الأهمية بالنسبة لى .

- لقد حدثنى اسرتى على البحث عن زوجة ، ولكن لم أقدر حتى الآن على العثور على فتاة . والآن اعتقد بانى قد عثرت على فتاة تناسب رغباتى . فهى متعلمه وشجاعة ولكنها ايضا مراعية لشعور الآخرين وجميلة . ولعله مما يهمكما ان تعرفاه هو انها ابنة أخ على احمد الجاك الذى احسن إلى كثيرا .

وواصل إلياس الحديث فروى لهما كيف التقى بفضيلة وظروف فراقهما وما وجده عند عودته من أخبار طفلهما وكذلك ما تعرضت له فضيلة من عقوبة قاسية بسبب ما حدث .
- أنى أحبها وأمل فى أن احصل على مباركتكما لانصرف سريعا إلى أمر الاعداد للزواج اذا وافقت اسرتها .

فسارع مديت بالاجابة :

- بول ، يا أخى ، دعنى أخبركما معا بأنه رغم شعورى بضرورة الهجرة تحت الظروف القاهرة التى تعرضت لها ، فقد كانت الحياة جحيما بدون اسرتى . ولقد تعلمت بأنه لا بديل عن الأسرة . ويبدأ الأمر دائما بالزواج والاطفال . وكما تعلم فان زوجتى مصرية ولكن هذه الحقيقة لا تهمنى . ان ما يهم هو حقيقة أننا أسرة . انى أحبها وقد ولدت هى الاطفال لى بحمد الله . انا لا اعرف ماسيقوله والدى ، ولكن من وجهة نظرى أنا ، فإن ما يهم هو أنك تحب الفتاه وانها تحبك وانها كما اظهر الله فعلا ، قادرة على انجاب الاطفال .

كان مديت واعيا لمقتضيات الموقف فقال :

- وعلى كل حال ، من أنا حتى أقول بغير ذلك ، وقد حصلت على اسرتى دون مشاورتكم انتم .

استدعت دعابته ابتسامه من والده وضحكة من أخيه . ونظر الاخوان لوالدهما فى انتظار تعليقه . ظل ملينقديت صامتا لبعض الوقت ثم تنحنح وعدل من وضع جلابه وضمه بين فخديه كما يفعل دائما عندما يتحدث :

- لقد احسنت الحديث يا بنى . هذا بحق هونوع الموضوع الذى يناقشه الرجل مع كباره . صمت ملينقديت ثم وجه سؤالاً إلى إلياس :

- هل اسم الجاك أسم عربى ؟

أجابه إلياس بقوله :

- فى الكتابة وحتى فى النطق ، فان الاسم يختلف عن اسم اجاك عند الدينكا اذ يقولون الجاك . ولكن الاعتقاد الشائع هو ان الاسم مشتق من الاسم الدينكاوى . وفى هذه الحالة

فان الجد الاكبر للفتاة يقال انه من الدينكا حيث كان اسمه اجاك . وفيما بعد تم تعريب الاسم إلى الجاك .

لقد فكرت أن الاسم يبدو كأسم الدينكا . منذ اجيال أبائنا واجدادنا تم اختطاف العديد من الناس بواسطة العرب . وبالطبع ، فقد حدث هذا منذ وقت طويل ولم يعد من الممكن تذكر أغلب الاسماء ، ومن المحتمل ان يكون بينهم رجل اسمه اجاك . وما يعنينى في هذا المجال هو ما اذا كان اجاك هو أحد الاقارب . فكما تعلم عندنا نحن معشر الدينكا لا ينبغي للرجل ان يتزوج من الاقارب بالدم مهما بعزت درجة القرابة . ونحن نستثنى من ذلك بعد عدة اجيال من كانت قرابتهم عن طريق النساء . أى من بنات العشيرة . ولكننا لا نستثنى ممن كانت قرابتهم عن طريق النسل المشترك من أب واحد . وفي الحالة الراهنة ، ليس من السهل الاطلاع على الحقيقة ، ولكن عندنا طرق للتصرف في هذه المواقف . يمكن اداء شعائر وطقوس لقطع روابط الدم التي قد تكون موجودة ولتجنب أى آثار ضارة قد تتبع من انتهاك التحريم .

تنحج ملينقديت مرة أخرى وكأنه يعلن بأنه على وشك اثارة نقطة جديدة ثم قال :
- اما عن المسألة الاساسية حول زواجك من هذه الفتاة .
وتوقف وكأنه تذكر نقطة أخرى فقال :

بالمناسبة ، ما اسم الفتاة

اسمها فضيلة .. فضيلة ابنه محمد احمد الجاك . وهى أخت لزميل لى بالجمعية .
واخوها في الحقيقة هو الناطق الرسمي باسم الحزب الحاكم .
- كما كنت اقول ، بالنسبة لموضوع هذه الفتاة - فضيلة . فقد حسم الله الأمر نيابة عنك بان جعلها تحمل من العاب الشنبا . واذا لم تحبها أو ترغب فيها ، فهذا النوع من المشاكل قد يسبب العداء المتواصل بين الاسر . ولكن بما أنك تحبها ، فهذه بركة من الله ومن الاسلاف . وبالطبع من المفهوم ان يغضب اهلهما ، خصوصا وقد كنت بعيدا وظلوا هم وحيدين مع ابنة حامل هجرها الرجل الذى سبب حملها . ولكن بما انك قد عدت وتطلب الآن الزواج منها . فانى لا أرى أى مشكلة في ذلك .

ومسألة أخرى ربما تكون قد أزعجتني هي اسرتها . فالرجل لا يتزوج المرأة منفردة ، وانما يتزوج معها اسرتها ومن المهم أن يعرف المرء الاسرة التي يتزوج منها ابنه . في حالة اخيك مديت ، لم نكن نحن موجودين لتجرى مشاورتنا ، ولكن والحمد لله يبدو انه احسن الاختيار منفردا . وفي حالتك انت فكما افهم من قولك ، فان انتماءها لاسرة على يشهد لها بالمنبت الحسن . هذا بالاضافة لقولك بان جدها الاكبر من الدينكا ، وذلك أيضا يشهد على حسن منبتها .

وهي الوحيد هو أن علياً كان بمثابة الاب لك مما جعل هذه الفتاة بمثابة الأخت لك في عرف الدينكا ، ولكنى اظن ان منهجك انت مع العرب يختلف عن ذلك . بمقدورى ان اقوم باداء الطقوس التي تقطع تلك الصلة وتسمح لك بالزواج . ولا داعى حتى لذكر هذا الامر لهم .

وهكذا كان كل شيء على مايرام فيما يتعلق بأسرة الياس ، وبقي أمر الحديث الى اسرة فضيلة . ولكن قبل الحديث الرسمي معهم ، اراد الياس تنقية الجومع على . لذلك أسرع الى منزله ودخل من البوابة دون أن يطرق الباب واتجه نحو الديوان الذى يستخدمه على

كحجرة استقبال . وبمجرد النظر الى على أدرك الياس أن الامور ليست على مايرام .
قال الياس بعبارة التحية التقليدية والانزعاج ظاهر على وجهه .
- السلام عليكم ..

فاجاب على دون ان يحاول اخفاء انزعاجه .
- وعليكم السلام ..

فسال الياس في توتر :

- هل كل شيء على مايرام يا عم علي ان حالك ينم عن خلاف ذلك .
واجابه على قائلا :

- سنجد الزمن للحديث عن ذلك . دعنى أولا اطلب لك شيئا تشربه ، مارايك في الشاي ؟
- لست حريصا على ذلك يا عم علي ، ولا ارجب في أى شيء وإنما أفضل الحديث وعلى كل
حال ، فانا في اهل ، واذا اردت شيئا فيمكننى ان اذهب لاجضاره بنفسى .
- هذا حق ..

علق على وكأنه ذكر بشيء كان ينبغى عليه ان يتذكره بنفسه . ثم واصل على الحديث
بقوله :

- لفرط حماسها ، فقد اخبرتنى فضيلة بما دار بينكما من حديث . ولفرط حماسى أنا ،
ذهبت وناقشت الامر مع والدهما .
فتسائل الياس بصبر نافذ :
- وماذا قال ؟ .

- إنه مصمم بصورة مطلقة بأنه لن يسمح بهذا الزواج .
وتسائل الياس :

- لماذا ؟ هل اوضح لك الأسباب ؟

- لا اعتقد انى أقدر ان أقول بأنه شرح لى أسبابه . على الأقل لا يبدو لى ان فيما قاله اى
شرح لموقفه . ولكن عندما الححت عليه ، ذكر لى شيئا لم أفكر فيه أنا ، فقد ذكرنى بأنك
مسيحى .

وصدم الياس للأمر ، لماذا لم يتوقع هو إثارة هذه المسألة ؟ فقد كان يعلم بأن الدين
يمكن ان يكون عقبة في طريق الزواج ، بل وسبق ان ذكر ذلك بنفسه . ولكنه قد دفن الامر
بصورة لاشعورية . كما أنه قد استوعب في اسرة على لدرجة ان امر الدين لم يعد
مشكلة .

فقال على موضحا :

- اصدقك القول بانى قد نسيت بأنك مسيحى ، واسم كاسم الياس . والذى هو ايضا
من أسماء المسلمين وإن كان يكتب بطريقة مختلفة . فأنت مثل اى مسلم اعرفه . وانا
اعرف بالطبع بأنك لاتصلى ، ولكن هناك العديد من المسلمين الذين لا يصلون .
ثم اتخذ على هيئة جادة أكثر وهو يقول :

- أنت تعلم بأن الدين هذا لا يهمنى في الظروف الطبيعية ، ولكن بصراحة ، هذه هى
أحدى الحالات القاطعة تماما . لاتسمح الشريعة الاسلامية بزواج رجل غير مسلم من
فتاة مسلمة . ومهما كان موقفى الشخصى من امر الدين ، فانا لا أقدر على تجاهل هذا
الامر ، ولا يسمح لى المجتمع بأن اتجاهله حتى لو رغبت في ذلك .

تفكر إلياس في هدوءه إذ أن الأمر وصل طريقاً مسدوداً . وقد كان على صريحا ومباشرا في حديثه . ورغم ذلك ، بدا له الأمر بأنه غير منطقي . فهو لا يمارس الطقوس المسيحية على كل حال . وقد تم استيعابه في الثقافة العربية عبر السنين لدرجة أنه ، ورغم حديثه في معارضة الهيمنة العربية على المجتمعات غير العربية ، يمكن القول بأنه قد أصبح عربيا من الناحية الثقافية . فما هو الاختلاف بينه وبين باقي الشماليين الذين لا يمارسون الطقوس الإسلامية ؟

وبينما ظل هو غارقا في هذه الخواطر ، ظهر أن عليا أيضا يتفكر في الأمور من وجهته هو .

- لا بد لي أن أقول ، يا إلياس أن شعوري تجاهك مثل شعوري تجاه ابني . ورغم أن فضيله هي ابنة أخي ، فاني أعترف بأنني أتعاطف معك أنت أكثر مما أتعاطف معها هي . ولا بد لي من أن أثير مسألة صعبة معك بوصفي والدك . ما هي المشكلة في إعلانك لاسلامك ؟ ستحمل نفس الاسم كما سيبقى مركزك الاجتماعي في نفس الموقع . والفرق الوحيد الذي أراه هو فرق ايجابي بازالة الموانع بينك وبين فضيله . لو كنت في مكانك لاصبحت مسلما .

دهش إلياس لهدوئه هو أثناء حديث علي . فقبل سنوات ، استفزته هذه الدعوة لدرجة التفكير في الخروج غاضبا من مكتب مدير المدرسة . فبصورة رمزية ، عرض عليه مدير المدرسة الزواج من إحدى بناته إذا أصبح هو مسلما . وهو الآن يسمع نفس الاقتراح ولكنه لا يفضب له . وفجأة لاحظ إلياس أنه يتفكر في أسباب رد الفعل عنده أكثر من تفكره في المسألة نفسها ، وقال :

- عم علي ، ربما ينبغي علي أن اذهب واتفكر فيما قلت . فقال علي : هذا عين الحكمة فانه ولا شك قرار خطير وانت محق في التروي في الأمر . احس إلياس بالارتباك وهو يقود سيارته في طريقه الى منزله ، فمن ناحية ، لم يعد الدين أمرا هاما بالنسبة له ، وتذكر أنه لم يكن يعرف ما هو دين مدينت ولا يهتم لذلك . وفي غالب الحال . بما انه قد تزوج من امرأة مسلمة ، فقد أصبح هو مسلما أيضا . ومن الناحية الأخرى ، ماذا يقول الناس لو غير هو دينه من أجل الزواج ؟ يبدو أن في الأمر ما يدعو للخجل . ولكن ، اليس للحب القدرة على جعل الرجال يفعلون ما لا يفعلونه في الظروف العادية ؟ وهكذا لم يؤد تحليله الى أي نتيجة ، وتنهى وقد قرر مشاوره والده واخيه في الأمر .

كان الوقت مساء عندما جلسوا في صحن دار إلياس . وربما بسبب طريقة تصرفه أولا لاشاراته الخفية بأنه يرغب في حديث عائلي ، فقد انصرف الضيوف مبكرين وتركوا الأخوين منفردين مع والدهما . بدأ إلياس بشرح اعتراض والده فضيلة على زواجهما على اساس الدين .

وتساءل ملينقديت لجهله التام بالموضوع .

- لا اعتقد أنني أفهم تماما ما تقول .

فقال إلياس موضحا :

- إن فضيلة مسلمة .

- وعلى أي دين أنت ؟

ادهش السؤال إلياس ، ألم يكن والده يعلم دائما انه مسيحي ؟ ألم يذهب الى مدرسة المبشرين ؟ وسأل إلياس والده تلك الاسئلة فاجابه ملينقديت ؟
- ولكن ألم تذهب الى مدارس المسلمين في الشمال ايضا ؟
هل يمكن ان يعتقد والده بانه يغير دينه مع تغير المدارس ؟ هل الشيخ واقعى وعمل اكثر مما كان إلياس يظن في الماضى ؟ وتدخل مديت في الحديث يعد ان كان يستمع في انتباه .

- لعلى يا بول لست بالشخص المناسب للحديث في هذا الامر . فزوجتى كما تعلم مسلمة . اجابه إلياس بإيماءة لرأسه ، فواصل مديت الحديث .
- ومن الملفت للانتباه في حالتنا ان امر الدين لم يثر على الاطلاق . اعتقد انهم لاحظوا الاسم الذى اتخذه « التوم حسب الرسول » وافترضوا بانى ولاشك مسلم . انا لا اصوم ولا اصلى ، وكذلك لا يفعل افراد اسرة زوجتى . ولكنى اتحدث باللغة العربية واستخدم اسم الله واسم النبى محمد في تعاملى اليومى كما يفعل المسلمون . وكما رأيت في اعمال لجنتكم ، فانى أقسم على القرآن وأحمل مسبحة . لذلك فقد تقول بانى مسلم من نواحي كثيرة ، وان لم يهتم احد بجعل أقوم بطقوس التحول الى الاسلام بشكل رسمى .
فماذا يعنى كل هذا بالنسبة لموقفك الراهن ؟ بحكم تعليمك ، لعلك تكون أكثر عروبة منى ، بمعنى انك تعرف اللغة العربية افضل من معرفتى بها ، وقد درست الاسلام والقرآن ، كما انك تتبع الثقافة الاسلامية في حياتك اليومية اكثر مما افعل انا . وحتى اسمك هو اسم مسلم . فلماذا الجلبة الزائدة حول أمر الدين ؟ وربما تكون المشكلة الوحيدة هى انه بما ان المسألة قد اثيرت ، فلا بد من اداء طقوس التحول الدينى .
والسؤال هو ما اذا كان الأمر يستحق ذلك . في تقديرى الشخصى ، انا لا ارى اى ضرر في اداء طقوس التحول الى الاسلام .

وأضاف ملينقديت قائلاً : انى اوافقك القول يابنى . فاذا سميت مسلما او مسيحيا ، فانت لا تزال من الدينكا وتحملك ارواح اسلافنا ، اذا اردت الحق ، فان هذا اكثر ما يهمنى . اذا كان أداء طقوس الاسلام سيعطيك ما ترغب فيه ، فلماذا لا تفعل ذلك ؟

- ولكن الا يبدو الرجل ضعيفا اذا غير دينه من أجل امرأة ؟
وجه الياس سؤاله لهما معا ، فرد عليه والده :
- تعتبر السعى خلف امرأة ضعفا ؟ هذا من العزم والتصميم يابنى ولا علاقة له بالضعف . دعنى أخبرك بشيء . عندما هبطت الروح دينقديت على رجل اسمه محمد احمد ، ويسميه العرب المهدي ، ذهب اعيان الدينكا لمقابلته وتلقى مباركته ، لم يكن وقتها قد أفلح بعد في طرد الاتراك والمصريين من البلاد ، ولكنه حصل على اعتراف كل القبائل كزعيم أهل الله في البلاد . وحتى جدى أنا شخصا فقد ذهب للقائه . وباركهم الرجل ومنحهم اسماء اسلامية وكرمهم بالرماح ورموز السلطة الدينية الأخرى . عاد أولئك الرجال ومعهم سند كلمة المهدي بالاضافة لسلطتهم الروحية كزعماء للدينكا . هل كان ذلك ضعفا ؟ وهل أثر ذلك بنى صورة من الصور على الاحترام والسلطة التى كانوا يجدونها بوصفهم زعماء لاهلهم ؟ لم يكن الأمر كذلك على التحقيق .

بدأ منظور الياس لكل المسألة يتحول بما سمعه من والده وأخيه . ورغم ذلك ، قدر الياس انه سيستجلب عداة حلفائه من المسيحيين لو غير دينه . ومن الناحية الأخرى .. فإن الجماعة التي يمثلها - التجمع الثورى لاقليات السودان - تمثل كل الاقاليم والاديان - وعلى التحقيق ، ومن الناحية السياسية ، فقد تتسع قاعدته السياسية اذ اتخذ الاسلام ديناً رغم أصوله العرقية والثقافية كجنوبى . كما انه من المحتمل الا يلاحظ احد الامر كما أوحى أخوه ووالده .

وخلاصة الامر هو انه يجب ان يتزوج ، واين سيجد فتاة أنسب من فضيلة التي يحبها كثيراً ؟ هذا بالإضافة الى أنها أم ولده .

وبينما واصل الياس التفكير في الامر ، تساءل عما اذا كان قد أغفل وجهة النظر المسيحية الجنوبية . هل أعمته مصلحته الخاصة ؟ وقرر الحديث مع بيتر مالودا حول المسألة ، وافتتح الحديث بقوله :

- لعلك قد سمعت بعض الشائعات ياخى حول حياتى الخاصة .

ورد عليه بيتر باشارة غامضة لاتقيد العلم ولا الجهل بالموضوع ، ثم قال :

- استطيع أن أقول أنى قد سمعت ما يحرمنى من فرصة السماع من صاحب الأمر نفسه . وضحكا معاً .

- يتعلق الامر بزواجى المقبل .

فقاطعه بيتر معلقاً :

- لقد بدأت أتصور ان الامر يتعلق بذلك .. هيا تحدث ، فكل آذان صاغية .

- أنها قصة طويلة ، وجوهر المسألة ان الفتاة مسلمة ، وأرجوك الا تسألنى عن ديانتى انا كما فعل والدى .

وضحكا معا مرة أخرى بينما علق بيتر :

- أنه سؤال موضوعى ، ولكنى أعرف الاجابة عليه .. فواصل الحديث .

- لعلك على حق ، ولكن لا الفتاة ، واسمها فضيلة محمد أحمد الجاك ، ولا انا من

المتدينين . فمن الناحية الثقافية ، هى فتاة عصرية للغاية ، بل وفى تقديرى ، فسلوكلها

عصرى أكثر من أغلب الشماليين . ولكن كما تعلم ، فإن الاسلام يحرم على المرأة المسلمة

الزواج من رجل غير مسلم . لقد ناقشت الموقف مع بعض اصدقائى الشماليين ومع افراد

أسرتى وكان رأيهم أنه بما أننا غير متدينين وفى الغالب سنبقى كذلك ، فلا ضير لو قمت

انا بطقوس الدخول فى الاسلام ، بل سيكون لذلك الاثر الايجابى بازالة المانع الشرعى من

الزواج . وانا أقدر رأيهم هذا وأكاد أقتنع بحجتهم . ولكنى أخشى كذلك أن يعتبر ذلك

ضعفاً منى وتكون له آثار سياسية ضارة . لهذا فإنى أسمى للحصول على مشورتك .

ظل بيتر جالساً وهو مستغرق تماماً فيما يسمع . وعندما فرغ إلياس من الحديث ،

شكره بيتر على تشريفه له باستشارته فى ذلك الامر ، فرد الياس بقوله :

- أنك الزميل السياسى الوحيد الذى أستشيريه فى هذا الموضوع ، ولا احتاج لأن أطلب

منك اعتبار هذا الحديث سرا بيننا .

- هذا سبب إضافى لشعورى بالفخر . وبهذه الروح ، أرجو ان تسمح لى بان اكون صريحاً
معك .

- لهذا السبب بالذات حرصت على مشاورتك .

- دعنى أسأل أولا هل قلت ان اسمها هو فضيلة محمد احمد الجاك ؟

- نعم ، فهى أخت بركة .

- هذا بالضبط ما تساءلت عنه . أخى إلياس ، لا بد لى من الاعتراف بان الامر لا يحتاج لتفكير كثير ، فهو فى غاية الوضوح . لا يمكن بحال من الاحوال ان اقترح عليك ان تغير دينك من اجل الزواج بهذه الفتاة . فاذا كنت مقتنعا بالاسلام وأردت ان تتحول له لما كان عندى ما اقول ان يكون الامر متعلقا بمعتقداتك ويكون النموذج الذى تضعه هاما لاهلك بوصفك زعيما لهم . ولكن فى الظروف الراهنة ، لا يكون فى تحوكل للاسلام شىء من النفاق فحسب ، بل - دعنى اصارحك القول لدرجة القسوة - سيكون فيه ادعاء وحتى عدم امانة وهذا شىء سيىء بالقر الكافى للشخص العادى ، اما بالنسبة للزعيم فهو كارثة محققة . فبالنسبة لى هناك مسألة الضعف ، وما هو اسوأ من ذلك هناك دلالات الاستسلام . إنى متأكد من أنك تقدر أن جزءاً من مشكلتنا مع الشمال هى مسألة حق البقاء الثقافى . وبحكم ان ثقافتنا قد انتهكتها السياسات الاستعمارية للعالمين الاسلامى والمسيحى ، فقد اصبح بقاؤنا الثقافى يأخذ الطابع السلبى بوصفه بأنه غير عربى وغير مسلم لأن الثقافة العربية والاسلامية هى التى تهددنا بالفناء . وحتى عندما نسمى ثقافتنا « افريقية » فهذا ايضا وصف معمم ، ان ان مقاومتنا للاستيعاب العربى الاسلامى هى التى تمنع حركتنا الحيوية . واذا أخذنا نحن القادة فى الاستسلام للابتزاز الاسلامى واستسلمنا للاستيعاب ، فكيف يقدر اهلنا على مواصلة النضال ؟

إنى اتحدث عن الابتزاز لأنى مقتنع بان كل هذه المسألة المتعلقة بتحريم زواج النساء المسلمات من غير المسلمين من الرجال لا تعدو أن تكون مجرد تحيز وتعصب عرقى عربى ملبسة فى ثياب الدين . فى الجنوب ، انت تعلم بان المسلمين منا يزوجون بناتهم من الجنوبيين غير المسلمين . ذلك لانهم لا يحتقرونهم بوصفهم أقل درجة منهم ، لا من الناحية العرقية ولا الثقافية . ويتم هذا عبر كل أنحاء افريقيا السوداء . اذا كان الامر يتعلق باجراءات الزواج ولا يريدون لبناتهم ان يتزوجن فى الكنيسة ، فانا اقدر ذلك . ولكن هناك نوع من الزواج اسمه الزواج المدنى المحايد دينيا . لماذا لا يكون ذلك مقبولا ؟ ان رأى الصريح هو لا ولا ولا ، لا يمكنك ان تفعل هذا .

كان إلياس يقتنع بكل حجة من حججه اثناء حديثه ، وبختام الحديث ، اصبح من الواضح ان إلياس قد غير رأيه . وكانت الاشارة الى الزواج المدنى نقطة جوهرية ، فبيتر قانونى وينبغى ان يعلم ما يقول ، وقد بدا الحديث معقولا حتى لإلياس وهو لم يجد التأهيل القانونى .

فقال إلياس : هذا هو نوع القول الذى كنت ارجوه لقد اثرتنى كثيرا بحديثك ، وانا مقتنع الآن ، خصوصا بأمر الزواج المدنى .

توسع بيتر من شرح الامر بقوله :

- هناك مسألتان من الناحية القانونية . تتعلق الأولى بالزامية الشريعة لكما بوصفكما من دينين مختلفين . والأخرى تتعلق بالنوع البديل من صيغة الزواج المتاحة لكما . وفى الحالتين ، فان المبدأ الاول الواجب التقرير هو ان الاختصاص لا ينعقد للمحاكم الشرعية ، ولا بد ان يكون للمحاكم المدنية . وأقترح بأن الشخص الذى تحتاج لاستماتته

لجانبك هو فضيلة . فاذا اقتنعت هي ، فانى واثق بأن حجتك ستكون قوية امام المحاكم ، وإن كان المرء لا يطمئن لحالة القانون في الظروف التي تمر بها بلادنا هذه الايام . وعلى كل حال ، بما انك تحب الفتاة كما يظهر لي ، فان القضية تستحق النضال من اجلها .

وما ان غادر إلياس بيتر تساعل عما اذا كان عليه الحديث أولا مع علي . فعلى أكبر سنا وأكثر تجربة وحكمة . ومن الناحية الأخرى ، فقد دعاه على للتحويل الى الاسلام ، فهل يمكن ان يتوقع المرء ان يغير رايه ؟ لعله من الأفضل لإلياس الحديث مع فضيلة أولا ، فهما على كل حال اكثر المعنيين بصورة مباشرة بهذا الأمر .

ذهب إلياس الى منزل عواطف حيث كانت فضيلة في انتظاره . وحكى لها عن النقاشات التي تمت له وانتهى الى الاقتراح بأن يتزوجا زواجا مدنيا . كان متوترا خلال الحديث وكأنه يخشى ان تولد كلماته ردا سلبيا لدى فضيلة . كما انه لم يقدر على الاطلاع على شعورها من ملامح وجهها .

وادهشه الهدوء الذي تحلت به فضيلة .

- انك تعلم بانى لا اهتم كثيرا بكل مسألة الدين هذه . انى معك تماما . وما أجهله هو رأى القانون في الأمر ، ولكن يبدو انك وصديقك بيتر تفهمان حقيقة الموقف من تلك الناحية . فلماذا لا نواصل العمل بمقتضى ذلك ؟

- هل ترين بان اناقش الأمر مع علي ؟

- ستعلم الأسرة حالا أو فيما بعد وهو من افراد الأسرة الذين ينبغى اخطارهم أولا . والسؤال هو اينما ينبغى ان يخطره . وبما انك اعرف بالمسائل في هذا الأمر ، فأعتقد انه من المناسب ان تخطره أنت .

كان إلياس متشوقا للفراغ من الأمر بأسرع ما يمكن ، فاندفع الى منزل علي وكان الوقت عصرا . قدم إلياس الموضوع بسرعة لعلى الذي ظل يراقبه بهدوء ظاهرى . وفى دخيلته كان يشعر بالعطف على إلياس ويخشى ان يكون الشاب قد توصل الى نتيجة مثيرة للشقاق . ومن الناحية الأخرى ، فقد كان مقتنعا في نفسه بأن شعوره تجاه إلياس لن يتغير مهما كان قرار الأخير . فتسائل على في حيرة :

- أرجو أن تكون قد توصلت لقرار في الموضوع ؟

- نعم ، فقد استقر عزمى على أنه من الخطأ ان اتحول الى الاسلام . وعلى كل حال ، فقد استطلعت المشورة القانونية واقتنعت بان هناك طريقة بديلة للزواج تتجاوز الناحية الدينية .

وحكى إلياس نقاشاته المختلفة مع أسرته ومع بيتر وفضيلة . وكانت البيانات ونبرة القناعة فى صوت إلياس غامرين .

قال علي وهو يتنهد :

- حسناً إذن هذا تحول كبير فى الموقف . ليس لدى ما أقول سوى الملاحظة بأنك بهذا تلفت النظر لعلاقتكما العاطفية بصورة مثيرة . اتمنى لك التوفيق يا بنى ، فانت جدير بذلك .

- ان تخبرنى عما اذا كنت تؤيد خطتى أم لا تؤيدها يا عم علي ؟

- يا بنى ، ان هذه المسائل الدينية ، فى الاسلام بخاصة ، مسائل حساسة ودقيقة . وعلى المسلم ، مهما كانت درجة قناعته بالمسائل العقائدية ، ان يلتزم باحكام الله أو على الأقل لا ينازعها علنا . أنت تعلم بموافقتى على زواجك من فضيلة ، وتبقى موافقتى ايا كان الشكل المقبول اجتماعيا أو على الأقل من الناحية القانونية . وهكذا لك ان تطمئن إلى تأييدى

الأديبي الصامت ، ولكن لا تتوقع ان اصرح به في الوقت الحاضر . فاذا كسبت قضيتك وعندما تكسبها سيكون قرار القاضي ، والذي افترض انه سيكون مسلما ، هو درعك . ووقتها سيرتفع صوتي ضد من يصرون على إدانة قرار المحكمة باسم الاسلام وفي الوقت الحاضر فإن الحذر هو الطريق الأمثل بالنسبة لي ، والصمت هو ذلك السبيل .

قال إلياس ورأسه مطاطاً وهو يقدر جسامة المهمة التي تواجهه .
- انى اتفهم موقفك يا عم على ..

وعندما لقي إلياس بيتر في صباح اليوم التالي ، كان مهموما وقلقا . ولاحظ بيتر ذلك وسأل :

- ما هي المشكلة يا إلياس ؟ ..

- لاشيء في الحقيقة . ولكن الطريقة التي قابل بها على خطتي قد ازعجتني . لقد كنت دائما قادرا على التكهون برد فعله للمسائل التي اطرحها عليه حيث كان دائما مؤيدا لي . ولكنه في هذه المرة كان غامضا لدرجة تكاد تشكل المعارضة المهذبة .

وماذا كنت تتوقع . ان امر الدين هذا يذهب الى العظم مباشرة ، ولعله قد اظهر على على حقيقته . كنت سأدهش لو انه بوصفه مسلما ، وشماليا وعربيا ، قد تصرف بطريقة أخرى . علينا ان نكون واقعيين في توقعاتنا من هؤلاء الناس مهما اعتبرناهم من الاصدقاء والايخوان .

فقال إلياس في دعابة .. ولكن بروح مثقلة :

- احذر يا بيتر فانا على وشك الزواج من أحد هؤلاء الناس ..
وافق بيتر ضاحكا وقال :

- هذا حق يا اخي ، وأنا اعتذر ولعلها حالة من حالات الاستثناء من القاعدة العامة . حاول إلياس التوضيح بقوله : لا بد ان اعترف بانى في حالة على لم أعد اصنفه كعربي . ما لم اقدر على ادراكه حقا هو ما اذا كان يعكس معارضته الشخصية لفكرة اللجوء للمحكمة - أى مسألة الزواج المدنى - أم كان يتحسب للصعوبات الاجتماعية وربما القانونية التي تواجه ذلك المنحى .

قال بيتر بصوت واثق :

- لنكن عمليين ولنطمئن على الأقل إلى أن القانون المدنى سيكون فى جانبنا . أقترح أن نذهب لزيارة صديقنا القاضي رشيد دفع الله وهو نائب رئيس القضاء . لعلك تعلم أو لاتعلم ، لكنه رجل جيد ومتحرر نسبياً عند المقارنة مع التفكير الشمالى التقليدى لدى أغلب القضاة الشماليين . لقد تلقى دراسته فى معهد لندن للدراسات القانونية العليا وحصل على شهادة فوق الجامعية من جامعة ييل بالولايات المتحدة .

فأجاب إلياس بشيء من السخرية :-

- من الغريب ان ذلك النوع من المؤهلات لا يغير من حال الاخوان المسلمين في غالب الحال سوى ان يعمق من مواقفهم المتحفظة .

- من المؤكد ان القاضي رشيد دفع الله ليس من الاخوان المسلمين . وعلى كل حال ، فهو على التحقيق . شاذ عن القاعدة العامة .

لسوء حال نظام الهاتف في العاصمة المثلثة ، فقد قررا الذهاب مباشرة الى رئاسة الهيئة القضائية لزيارة نائب رئيس القضاء حيث وجداه بمكتبه يتجاذب اطراف الحديث

مع عدد من زملائه . وأوحت الحرارة التي لقي بها عضوى البرلمان من الجنوب لزملائه بالانصراف وتركهم وحدهم .

وعندما انفردوا ببعضهم البعض ، ذهب بيتر مباشرة الى جوهر الموضوع بتفصيل خلفية المسألة بمعاونة إلياس من حين لآخر والذي قدم الوقائع المتعلقة بالأمر ، استجابة لتساؤلات القاضى في بعض الاحيان . وانتهى بيتر الى القول :

- لقد حاولت أن اطمئن الاخ إلياس بأن القانون المدنى يساند موقفه . ولكن لانشغالى بالأمور السياسية ، فانا اول من يعترف بان معرفتى القانونية قد علاها الصدا . لذلك رأيت ان ادعوه ليسمع هذه الفتوى من صاحب العلم القاطع في الأمر . واذا خالفتنى الراى ، فان إلياس يكون قد حصل على النصح النافع .

ورغم انه كان في منتصف الاربعينات من العمر ، نحيف الجسم ومتوسط القامة ، الا ان القاضى رشيد دفع الله كان كامل بياض الشعر . ومع اسلوبه الوقور ومظهر الحكمة ، فقد بدأ القاضى بمظهر الأبوة والسن المتقدم . تابع القاضى الرواية باهتمام وجدية شديدين دون ان يبتسم مرة واحدة . وعندما فرغ بيتر من الرواية ، تبعه إلياس ليوسع في بعض جوانب الموضوع وبخاصة فيما يتعلق بوجهة نظر اسرته هو ورد فعل فضيلة وآخر حديث له مع على .

وعندما جاء دوره للحديث ، ظل القاضى رشيد دفع الله صامتا لبعض الوقت وكأنه يتفكر فيما يقول . وأخيرا قال :

- سأحاول ان أقدم لك النصح ولكن عليك تقدير حساسية موقفى كقاضٍ قد يتحتم عليه فيما بعد ان يحكم في الموضوع . لذلك ادعوك لأخذ ما سأقول كنصيحة شخصية لا تقيد بحال من الأحوال ما سأحكم به اذا احضر الأمر الى محكمتى .

اعتقد انه علينا التمييز بين نوعين من المسائل وهى المسائل القانونية من ناحية والنتائج أو الآثار الاجتماعية لتلك المسائل من الناحية الاخرى . لا شك ان الاراء تختلف حول حق المرأة المسلمة في مخالفة الشريعة الاسلامية بان تتزوج من رجل مسيحي زواجا مدنيا . في تقديرى الشخصى أعتقد أن الأمر ممكن ، ولكنى لا أصدر الحكم المسبق قبل ان اتفحص الحجج التي سيقدمها كل الاطراف .

وما اود ان الفت انتباهك له حقا هو النتائج الاجتماعية لهذا النوع من الزواج وما اذا كان هذا هو الخيار الأفضل في ظروفك المحددة . انا اتفهم تماما واقدر بل وأؤيد البواعث السياسية التي توليها عنايتك الخاصة . ولكن انظر للأمر من وجهة نظر المرأة . لقد سبق أن ضحت بالكثير من اجلك بأن حملت وانجبت طفلك بدلا من اجهاضه او محاولة اخفاء الأمر . كان من الممكن ان تقتلها اسرتها فعلا لهذا السلوك حسب القيم والاعراف الجارية . ورغم ان ذلك لم يحدث بحمد الله ، فقد أقصيت من مجتمعها ونفيت الى مجتمع بعيد وغريب عليها تماما . وخلال كل هذا ، لم تجد حضورك ودعمك ليمنحها العزاء . وتقترح الآن ان تقدم هى المزيد من التضحيات بارتكاب مخالفة خطيرة لدينها واعرافها الاجتماعية . ان حكم الاسلام قاطع في هذا الأمر . ليس لامرأة مسلمة ان تتزوج من رجل غير مسلم . وقد اصبح هذا الحكم هو العرف الاجتماعى ايضا بين المسلمين . وبدلا من استعداد اسرتها فقط ، فهى ستفضب الآن المجتمع المسلم برمته . ربما توافق الاقلية على سلوكها ، ولكنها ستدان وستنفي بصورة أكثر صرامة مما حدث لها اثناء الحمل .

لابد ان يحدث هذا بسبب الدعاية التي ستثيرها القضية امام المحاكم . فحتى لو سمحت المحاكم باكمال الزواج في هدوء ، فسوف يستأنف والدها القرار الى اعلى محاكم الاستئناف في البلاد . الا تعتقد ان هذه الفتاة المسكينة قد عانت بما فيه الكفاية بسببك انت ؟ الا ترى ان دورك قد حان لتضحى بشيء ما من اجلها هي ؟

ودعنا الان ننظر الى موقفك ونقيم التضحيات التي تطالب بها . كما افهم من قولك ، فعلى مستواك الشخصي ، فبينما لا توافق المسيحية الزواج من غير المسيحيين ، فانها لا تحرمه بصورة قاطعة كما يفعل الاسلام . وهذا يعنى انه من الناحية الدينية ، انت حر نسبيا في الزواج ممن تشاء . والعقبة الوحيدة امامك هي انك تنوى الزواج من امرأة يحرم دينها مثل هذا الزواج . علاوة على ذلك فدينها الاسلامي قد يعتبر هذا السلوك « ردة » عقوبتها الاعدام . ولا يهمنا هنا ما اذا كانت هذه العقوبة ستوقع الان او لا توقع . فالنقطة الرئيسية هي ان التوقعات الاجتماعية قائمة على الشريعة الاسلامية . وانت بحمد الله متحرر من ذلك الاعتبار .

وكما قال لك على و افراد اسرتك بوضوح ، فان تبديلك لدينك لن يغير من اسلوب حياتك او مركزك الاجتماعي على المستوى الشخصي .

وما يبقى اذن هو المدلول العام لسلوكك . اني اوافق على ما قاله كل منكما عن الابعاد السياسية للموضوع ، خصوصا اذا اعتبرنا انك يا الياس زعيم لقومك . ولكن دعنا ننظر للامر ايضا من هذا المنظور . بينما نجد ان الخلافات الدينية بين اهلنا خطيرة - فيمكن القول انه عندنا مسلمون من الجنوبيين ومسيحيون من الشماليين - فقد يستقل السياسيون امر الدين ، لكنه ليس بالمعضلة الاساسية بين الشمال والجنوب . يمكن للمرء ان يقول بأن الدين قد اصبح مجرد واحد من العوامل في موقف معقد تتعمق فيه جذور المشاعر العرقية والثقافية . وهناك ايضا مسألة ما اذا كانت الخلافات العرقية والثقافية مسألة حقيقية ام مفترضة او وهمية ! لا شك ان هناك الكثير من الوهم والخرافة في هذه التصنيفات المبسطة . لكنها قد استقرت في اذهان الناس . ان اوهام العروبة والافريقية تختفي في بعض الأحيان وراء الخلافات الدينية ، وهي التي يصعب تجاوزها . فالسؤال اذن ، اذا استبعدنا المسألة الدينية ، هل ستلعب المشاكل العرقية والثقافية دورا اساسيا كعقبة امام مثل هذا الزواج ، أعتقد أن فهم هذه المسألة سيعين على مواجهة هذا الموضوع . أرجو ان تفهم ما ارى اليه .

لم ينطق الياس ولا بيتر بكلمة واحدة . فما قال رشيد دفع الله قد فاجأهما تماما ، لكنهما تفهما كل مال قاله إذ بدا موضوعيا في تحليله لدرجة لم يجدا ما يقولانه في مناهضة حجته .. من المؤكد أنه قد القى الكثير من الضوء على تعقيدات الموقف .

قطع بيتر حبل الصمت باستدعاء مقارنته المحببة فقال :
- في الجنوب وفي العديد من أنحاء افريقيا السوداء ، يتزوج رجال مسيحيون بفتيات مسلمات ولا يقوم الاسلام كمانع للزواج . وذلك لان الناس يشعرون بالتوحيد ولا يريدون للدين ان يقسمهم . لهذا السبب اعتقد ان اخوتنا في الشمال يستقلون الدين لاخفاء تحيزهم العرقى .

قاطعہ القاضی بالقول : ولكن هذا بالضبط هو السبب الذى أرى بأنك تقدر على فضخ التحيز العرقى الخفى بإزالة العامل الدينى . ألا يكون من المثير للاهتمام والمفيد لقضيتك أن ترى ما إذا كانت الأسرة ستعارض حتى لو تحول إلياس إلى الإسلام ؟ فأجاب بيتر : هذا حق ، ولكن هذا السلوك سيدعم الاستيعاب من جانب واحد . ما نرمى إليه نحن هو التداخل والتكامل الحقيقى من الجانبين . وما تتحدث عنه أنت ، إذا فهمت أنا حقيقة ما تقول ، إنما يقود فى نهاية الأمر إلى استيعابنا فى الهوية الإسلامية والتي هى عربية عرقياً وثقافياً .

اعترف القاضى رشيد فقال :

- ومرة أخرى أوافقك من ناحية المبدأ العام . ولكنى لا أزال عند قولى أنه فى هذه الحالة بالذات من واجب إلياس نحو فضيلة - إذا أراد حقاً أن يتزوج من الفتاة - أن يقوم ببعض التنازلات أو التضحيات من جانبه هو . لقد فعلت الفتاة أكثر مما يتوقع المرء من البشر العاديين . لماذا ننقل عليها بمطالبتها بالتضحية القصوى دون مقابل معتبر ، ليوازن الأمر من جانب إلياس ؟ هذا خصوصاً إذا أخذنا فى الاعتبار أن الأمر لن يؤثر عليه من الناحية الشخصية بل وقد يخدم حقاً المصلحة العامة بإزالة العامل الدينى واكتشاف العوامل الأخرى الخفية .

فقال بيتر بمزيج من الجدية والدعابة :

- حسنا يا أخ إلياس ، ها أنت والموقف الراهن ، عليك الدور فى التحرك .. فأجابه إلياس موافقا :
- انه حقا كذلك .

وفى طريق العودة ، تحدث بيتر عن الاثر الذى خلفه حديث القاضى ..
- لا استطيع ان اقول بان موقفى قد تغير ولكنى استطيع ان اقول على الاقل بانى اقدر وجهة نظره فى الموضوع ، بخاصة الحجة القائلة باعتبار مصلحة فضيلة . انى على التحقيق لم اعد بقوة القناعة التى كنت عليها من قبل . بل انى اجد نفسى غير قادر على اسداء النصح القاطع . لهذا اقول لك : حالفك التوفيق يا صديقى فى اتخاذ قرار لا يملك اتخاذه أحد سواك .

قال إلياس فى نبرة جادة :

- اتعلم يا بيتر بانى اتساعل مع اى الجانبين يقف الله . واستمر إلياس فى شعوره بالتنازع بين الخطتين . فمن الناحية العقلية ، كان مقتنعا بحجة القاضى ان يتحول هو الى الاسلام من أجل خاطر فضيله . ولكن شعوره العفوى كان معاكسا لذلك . اذا قام بالتحول من أجل فضيله ، فهل يخبر على اولا ام فضيله نفسها ؟ وقرر ان فضيله ينبغى ان تكون اول من يعلم لانها المعنية فى المكان الاول . وبمجرد لقائهما فى منزل عواطف مرة أخرى ، لم يفوت اى وقت فى اخطارها بقراره واسبابه لذلك .

- انى اوافق القاضى بانك قد عانيت بما فيه الكفاية وانه من الظلم لك ان تحتملى المزيد من المعاناة نيابة عنى . أن المنطق يقضى بأن دورى قد حان لتقديم التضحية من أجل حياتنا معاً .

خالفته فضيله الراى وقالت :

- انى امضى للحد الذى اقول فيه بانك انت لا توافق نفسك . ان ما كنت تقوله لى ليس بكلماتك وإنما هى كلمات الآخرين وأنت لا ترددها حتى بصورة مقنعة . من تحاول إرضاءه: أنفسنا أم الله أم الناس الآخرين؟ إنى أعلم بأنك لا ترضى نفسك بهذه الطريقة . أما بالنسبة لى ، فثق بأنك لا ترضينى بل تخلق لى جحيماً بتضحيتك بنفسك من أجل خاطرى . وأما بالنسبة لله فإنه ولاشك سيعلم بأننا مخادعون وفى الحقيقة حتى المجتمع سيكشف فى غالب الحال

خداعنا ، هل لدينا الفرصة لكسب الاخير لجانبنا ؟ لا ، على الاطلاق . واما عن المنافقين الذين سيسعدون لتظاهرنا بغير الحقيقة وهم يعلمون باننا نفتعل الامر فهل يستحقون كل هذا الاعتبار والتقدير؟ انا على التحقيق لا اريد ذلك .

الياس يا حبيبي دعنا لا نرتبك وتختلط علينا الامور بسبب الاخرين مثل قصة الرجل مع ابنه وجماره والذى لم يقدر على إرضاء الجميع . لنرضى ضمائرنا اولا ونحصل على ما يستحق . فعلى كل حال ستبقى معتقداتنا كما هى مهما كانت الطقوس التى تؤديها لارضاء الآخرين .

اما عن الحجة القائله بانى قد سبق أن ضحيت بالكثير ولا ينبغى مطالبتى بالتضحية بالمزيد فانى اقول عما احس به حقيقة . لم يطلب احد منى التضحية من قبل وعلى كل حال من هو الذى يعرف ما هى التضحية ؟ بمعاييرى انا فانى اعتقد ان الناس يواصلون التضحية طوال حياتهم من خلال الخيارات التى يتخذونها ، هل سنحفظ سجلا بتضحياتنا ونقارن بين مساهمات كل منا من حين لآخر لنحافظ على الميزان الصحيح ؟ هذا قول فى غاية السخف . أنا ما يهمنى حقا هو الحصول على موافقة القانون السارى فى البلاد وخصوصا لمصلحة فحل ابننا . إذا قدرت المحاكم المدنية على اقرار مشروعية زواجنا فمن الذى يهمله ما يقول الآخرون ، ارجوك الا تفكر مرة أخرى فى التضحية بمعتقداتك الروحية أو مصالحك السياسية او عزتك وكرامتك من اجل انا ، وفى نهاية الامر لو فقدت توازنك واصبحت رجلا سهل القيادة لرياح الراى العابر فكيف اجد انا فيك الوزن والمرساة التى اجدها الآن ؟

فى تلك المرحلة امتلا إلياس بالشعور الغامر ونظر إلى فضيلة وعيونه تشتعل بالحب وهو يقول :

لقد كنت دائما متأكداً من حبى لك والآن يغمرنى الشعور بحبك . وأحس الآن بأنى أسعد رجل فى العالم .

- إنك تجعلنى أشعر بالسعادة لشعورك بالسعادة ولك تكن من قبل بهذه السعادة وأنت تخبرنى بقرارك ، كما أنى لم أكن سعيدة وأنا أراك تجاهد مع الأمر . وأنا أراك الآن سعيداً حقا فإنى أشعر بالسعادة أيضاً . آه . يا إلياس إنى أحبك غاية الحب وأريدك أن تكون سعيداً معى ومع فحل وبإذن الله ، مع المزيد من الاطفال .

فقال مؤكداً :

- بإذن الله

وضع طلبهما للزواج المدنى امام القاضى محمود على حسن الذى اشتهر كخبير فى امور القانون الخاص المقارن او ما يسمى تنازع القوانين . ويقال ان محمود حسن كان من الاخوان المسلمين خلال فترة الدراسة . ويعتقد من يعرفونه جيداً ان ذلك قد خلف عنده معرفه واسعه بالشريعة وموقعها فى الفقه المقارن القائم فى السودان . واذا صح ذلك فانه لم ينعكس فى قراره حول قضيه الياس وفضيله ، اذا رفض طلبهما بحجة انها ملزمة بالزواج من رجل مسلم حسب مقتضى احكام الشريعة الاسلامية .

استأنف الياس وفضيله ضد قرار المحكمة الاولى وطلب رئيس القضاة من القاضى رشيد دفع الله ان ينظر فى الاستئناف وطلب القاضى رشيد فى بداية الامر اعفاءه من النظر فى القضية على اساس انه سبق ان اسدى النصح الشخصى لاحد الاطراف وبذلك لم يشعر بالحياد التام فى القضية إلا أن رئيس القضاة خالفه الرأى . قرر القاضى الرشيد تخفيف الاهتمام الإعلامى بالقضية تقديراً لحساسيتها وقابليتها للانفجار . سمع القاضى القضية فى جلسة مغلقة حيث صاحب الياس وفضيله محامى قبضى مرموق هو بطرس سماني . ودعمت جماعة تسمى نفسها « لجنة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » موقف اسرة فضيلة وقدمت لها خدمات محام اسمه حسين عمر عابدين وهو من الاخوان المسلمين المعروفين .

احتج بطرس سماني فى دعواه بأنه فى قطر متعدد الأديان يضمن فيه الدستور حرية الدين الاعتقاد يصعب على المرء تصور إلزام الشخص بأحكام دين ميلاده بدون انتهاك لحقوق إنسان الأساسية وقال إنه على يقين بأن القانون قد وفر نظام الزواج المدنى من أجل أولئك الذين لا يرغبون فى اتباع الاجراءات التى تضعها القوانين الدينية وحرمان أى شخص ذلك الحق هو انتهاك لنص وروح القانون . كيف تكون لفضيله أى حرية فى الاعتقاد او الدين اذا تحتم عليها اتباع الشريعة الاسلامية لمجرد انها ولدت لأبوين مسلمين؟ وعلى كل حال هل يتبع كل المسلمين جميع جوانب قانون الله من صوم وصلاة وزكاة؟ انى اشك فى ذلك على ادنى تقدير . وأين نجد العقوبات لتقصيرهم فى أمر الدين؟ انى اعتقد ان الأمر فى النهاية يرجع إلى الله ، وكذلك ينبغى أن تكون تبعات زواج المسلمة من الزوج غير المسلم . يوفر القانون السارى فى البلاد البدائل ، وإذا لجأ أصحاب العقائد المختلفة إلى تلك البدائل . فإن الحكم النهائى هو الله والذى يرى بأن جميع الأديان هى ، على كل حال ، مناهج مختلفة إلى نفس الغاية .

وقال حسين عمر عابدين فى دعواه :

« يا جناب القاضى ، إننا لا نتحدث عن الخيارات البشرية أو حرية الاعتقاد وإنما نتحدث عن الطاعة لشرع الله من مسلمة واضحة الهوية الدينية . لا مجال للشك فى حكم الشريعة فى أمر زواج امرأة مسلمة من رجل غير مسلم . إن مجرد مناقشة الأمر مسألة ملعونة ومحرمة . إن هذا الأمر على التحقيق لا يخضع للجدل . لقد ارتكبت فضيلة (بحملها سفاحاً) جرماً يستحق عقوبة الجلد مائة جلدة إذا اتبعنا أحكام الشريعة حقاً . ورغم أن تلك العقوبة لم توقع فلا يمكن أن نضفى على الأمر حصانة القانون بحكم المحكمة بجواز جماع محرم بين امرأة مسلمة ورجل غير مسلم . بأى قانون نقدر على هذا؟ إنى أحمل كل الاحترام لعلمك بالقانون يا سيدى القاضى ولكنى أشك فى أن تجد العذر لهذا الموقف المخالف لإرادة الله .

رد بطرس سماني بتذكير خصمه المسلم بأن السودان ليس بدولة إسلامية .

- فحتى لو كنا نعيش في ظل دولة إسلامية ، فلدى تساؤلات كبيرة حول الحريات الأساسية وحقوق الإنسان في عهد العلمانية الحديث هذا . ولكنى لن أذهب كل هذا المدى في هذه الحالة الإنسانية واكتفى بسؤال المحكمة ، وأنا على التحقيق لأسأل زميلي المحترم ، ما إذا كان هناك مجال لمن يختارون أن يعيشوا حياتهم وفق مقتضيات ضمائرهم ويتصلوا إلى ربهم من خلال المنهج الذي اختطه لهم رؤاهم الخاصة ؟ إذا كانت الإجابة بالنفي فنحن نعيش في ظل نظام لا يستحق أن يسمى بالنظام القانوني وسيكون وجودى هنا مجرد هراء لا طائل من ورائه . إنى واثق بأن الأمر على غير ذلك .
رفض القاضى طلب حسين الحديث مرة أخرى بحجة أن الجدل قد يستمر إلى ما لا نهاية .

- مما لا شك فيه أن كلا منكما على حق وواجبى أن أحكم فى أى منكما على حق أكثر من الآخر وبذلك يستحق صوتى التأييد .

ليست القضية بجديدة على تماماً كما قد تعلمون . ولم يقل فى هذه المحكمة ما يزيد من رؤيتى فى الأمر أو بغير رأى الأول . أعتقد أنه على المرء أن يميز بين النواحي القانونية والنواحي الاجتماعية . فى هذه القضية من الناحية القانونية فأنا لا أشك بأنه لا يحق لنا أن نحكم على الزوجين بمعيار الدين الذى يعتقد به أحدهما أو ينتمى إليه بصورة شكلية وإذا فعلنا ذلك فإننا نميز بين الدينين وأعتقد أن هذا هو السبب فى إنشاء الزواج المدنى ليوفر البديل للزوجين اللذين يفضلان عدم الالتزام بنظام الزواج الدينى أو العرفى والحكم بخلاف هذا هو تناقض ظاهر .

الا ان منح الناس الحق الذى ينص عليه القانون لا يضمن لهم القبول الاجتماعى لذلك الحق . كثيراً ما يكون الدين هو العرف والسلوك الاجتماعى وحتى عندما يستوفى الشخص المتطلبات القانونية فاذا لم يتفق سلوكه مع المناخ الاجتماعى السائد فان الحق القانونى يكون مجرد كلمات تقال او وثائق تكتب ويوقع عليها . لدينا بطبيعة الحال الشرطة والجيش فى نهاية الامر لضمان نفاذ القانون ولكن من يرغب العيش فى مكان تفره الشرطة والجنود لتنفيذ حكم القانون خصوصاً فى مثل هذه المسائل العائلية الخاصة ؟

ماذا يعنى هذا التحليل من الناحية العلمية ؟ انه يعنى أو على الأقل مقصود منه ان يعنى ، ان الياس وفضيله يملكان الحق القانونى فى الزواج المدنى . اما من الناحية الاجتماعية فإنى أعتقد بانهم فى خطر من الازعاج . ومن الناحية الاخرى ، فاذا اختارا هذا الطريق فلهما الحق فى كل الحماية التى تستطيع الدولة توفيرها لمواطنيها . يجد البعض فى هذا ما يكفى بينما يرى الآخرون بأن تلك حياة صعبة وقاسية . ليس لى الحق فى أن أقول لالياس وفضيلة أيهما أفضل لهما . الواقع أنهم قد اختارا طريقهما بحضورهما إلى المحكمة . بهذا أعلن أنهما يملكان الحق القانونى بأنهما سيحصلان على كل الحماية التى يوفرها القانون لزوج مشروع .

ومع نهاية عباراته الختامية ، انفجرت فضيلة بزغاريد الفرح بينما استجلب حكم
القاضي الرد الفاضب من الاصوليين الاسلاميين الذين تجمعوا خارج قاعة المحكمة لي
انتظار القرار . وتصايحوا بالقول « الله اكبر ، الله اكبر » وهم يرفعون بقبضات ايديهم في
الهواء ويشرعون فوراً في تظاهر ضد قرار المحكمة بترييد الهتاف :
« لنت من اجل الله . الشريعة هي حكم الله . لنخلص انفسنا من العلمانيين
والكفار . فضيلة فضيلة ولية الكفار . السيف والسيف لإلياس وفضيلة اعداء الاسلام » .
كان القاضي قد توقع مثل هذا السلوك وحذر سلطات الامن بالتهاب لمقابلة الموقف . تم
اتخاذ الاجراءات ضد المتظاهرين وسرعان ما تفرقوا .
الا ان محمد أحمد الجاك لم يكن ليرضي بالنتيجة . وتقديراً منه لان حكم المحكمة حول
الاعتراض الديني كان نهائياً وفاصلاً ، فقد قرر استخدام السلاح الوحيد المتبقى له كما
عرف إلياس بعد قليل . وتهيأ المسرح لاعترافات خطيرة .

الفصل الحادى والعشرون

حضر إلياس لزيارة العميد على فى وقت متأخر من العصر حين يتوقع وجوده منفرداً بديوانه .
قال على بعد أن حيا إلياس .

- من الغريب أن تحضر فى هذا الوقت بالذات فقد كنت افكر فىك هذه اللحظة .
ورد عليه إلياس بقوله :

- يا عم على ، انى احتاج مشورتك واكثر من ذلك . اتوقع ان تعلم انه بالرغم من حكم المحكمة لصالحنا ، فأنا وفضيلة لا نزال قلقين بشأن رد فعل الآخرين الذى اشارت اليه المحكمة . واهم شخص بالنسبة لنا هو أنت ، لذلك نحب ان نعرف رد فعلك حول الحكم .
- لابد ان تكون قد عرفتنى بالقدر الكافى لتعلم ان ما يحقق مصلحتك يجد موافقتى بكل تأكيد . وهذا ينطبق على حكم المحكمة . ولكنكما محقان وكذلك كان القاضى محقا ، ان ان الحق القانونى لا يضمن فى حد ذاته القبول الاجتماعى ومن ثمة لا يضمن السعادة .
لقد ذهبت لمقابلة نسيبك (والد زوجتك) المقبل وتشاجرنا بشدة . ان ما حدث كان مشاجرة اكثر منه حديثا حول الموضوع . انه مصر على معارضة الزواج بأى وسيلة ممكنة لدرجة انه اخبرنى بانه قد عاد الى المحكمة وطلب اصدار امر بمنع الزواج على اساس انه يملك بيانات جديدة تحرم الزواج . وصدر الأمر بمنع الزواج فعلا . واخبرنى بانه فى تقديره الشخصى فان الزواج لن يتم .

واخبرته انا بانه يتصرف بطريقة مثيرة للسخرية ، وانه ليس بالمسلم الورع بالقدر الكافى ليحرص على منع الزواج لاسباب دينية ولا بد ان تكون له اسباب اخرى .
وظهرت على إلياس معالم الاحباط وكأنما اصبحت المعركة اكبر من طاقاته فقال :
- اعتقد انه ربما كان على ان احاول نسيان فضيلة .

وكانت الطريقة التى تحدث بها إلياس هى التى حركت على لأقصى درجة ، فنظر اليه نظرة الوالد العطوف وعض على شففته وهز رأسه ثم قال :

استمع الى جيدا يا إلیاس . كما ذكرت لك ، فقد تشاجرت مع أخى بشدة بشأن الموضوع واتهمته انا بانه متحيز عرقيا ، وغضب هو منى غضبا شديدا . وفى محاولة يائسة للدفاع عن موقفه كشف لى عن امر كنت انا مترددا فى إخبارك به ولكنى اعتقد انه لابد من الإفصاح عنه . إن الموقف من تلك المواقف التى لا يكسب فيها أحد . كان الصمت سيدع الامور كما هى ، وذلك ما رغبت انا فيه - لقد اتفقنا انا ومحمد على المزيد من التفكير فى الامر ، ولكنى اعتقد انه فى قرارة نفسه يرغب فى اعلان الحقيقة ولاسباب اكثر من مجرد دفع تهمة التحيز العرقى .

نظر إلیاس الى على وهو مستغرق بصورة تامة ، ولم يقدر ان يتصور ما يمكن ان يسبب كل ذلك العبوس لعلى . وكان إلیاس لا يكاد يصبر حتى يصل على الى لب الموضوع . - لقد تساءلت يا إلیاس منذ لقاء أخى محمد بك لماذا تصرف هو تجاهك بتلك الطريقة ، اذ ظهر لى الامر فى غاية الغرابة . لقد شعرت بانه يشعر بالعداء العميق لك ولكنى لم اتمكن من ادراك حقيقة الامر . كل ما كنت اعلم هو انه يشعر بحساسية شديدة تجاهك ولكنى لم اقدر على معرفة السبب .

كان إلیاس وقتها قد خرج عن طوره لنفاد صبره ولكن عليا واصل الحديث فقال :
- والآن اعرف السبب وهو ان محمدا يعتقد بانك ابنه .
لم يكن إلیاس متاكدا انه قد سمع حقا ما سمع فسأل :
- ماذا قلت ؟

- يعتقد محمد انك ابنه . يقول بانه لاحظ الشبه العائلى فيك منذ البداية ، ولم يقدر على تفسيره فصرف تلك الخاطرة وقتها . ورغم ذلك ، وفى كل مرة رآك فيها ، شعر بالانزعاج لما يراه فيك .

وفجأة اتضحت الصورة بسبب البيانات التى ادلى بها اخوك التوم امام اللجنة .
انفتح فم إلیاس واسما واتسعت حدقتا عينيه دون ان يرمش وهمهم وهو فى حالة صدمة شديدة .
- وماذا قال التوم ؟

- انا لست واثقا مما يعنى . فقد شاهد محمد جلسة اللجنة من خلال التليفزيون وهو يزعم بانه هو العربى الذى اختطف امك واخويك وانه عاشر امك معاشرة الازواج خلال الفترة القصيرة التى ظلت هى فيها حبيسة معهم وانها قبل انقاز الدينكا لها قد اخبرته بانها حامل بطفل منه . وهو يعتقد ان ذلك الطفل هو انت اذ انك قد ولدت بعد ميلاد التوامين .

وبدا لإلیاس أن عالمه ينهار تماما ، ولم يعرف كيف يفكر وماذا يقول او يفعل . وما هو اسوا من ذلك ، لم يعرف هل هو حزين أم سعيد . فالحزن يعنى انه يرفض الرجل الذى قد يكون والده بينما تعنى السعادة ضمنا انه يرفض الرجل الذى كان حقا والدا محبا بغض النظر عما اذا كان والده الطبيعى ام لا . كما ان عليا لم يقدر على مساعدته . فجلسا فى صمت وهما يتجنبان النظر الى بعضهما البعض ويحدقان بلا هدف معين تجاه الاشياء وهما مشغولان برؤيتها الداخلية .

استغرق إلیاس فى ذلك بعض الوقت قبل ان يقرر انه من الافضل له ان يكون مستلقيا على سريره ليتفكر فيما حدث فى خصوصية حجرته . فمن المؤكد انه لا يجدى ان يجلس

هناك وهو فى حالة ارتباك كامل وفكر نفسه بشأن على : من الممكن أن يكون حقاً عمى الطبيعى .

ثم نهض لينصرف .

- اعتقد انه من الافضل ان انصرف .

- وماذا انت فاعل ؟

- لا اعرف . اريد ان اعود الى منزلى اولاً لارتب افكارى اذ انى اشعر بالارتباك والحيرة الآن .

فقال على : إذا أردت المشاورة فعد إلى . فعلى كل حال ، ومهما كانت علاقتك بأخى ، فإنى أعتبرك إبني .

وبينما كان إلياس يقود سيارته الى منزله ، احس وكأنه فى عالم آخر ، عالم مزدحم بأنعكاسات وتوجسات متداخلة لم يقدر على تمييزها . لم يكن واعياً بالسيارات الأخرى أو الناس على الطريق ، وفى إحدى المرات تمكن من تفادى حادث فى الطريق برد الفعل الفريزى . وعند وصوله إلى منزله ، دخل وكأنما يمشى وهو نائم واتجه إلى حجرته . لاحظت الويل ذلك فتبعته ، اذ أوحى لها غريزة الأمومة ان فى الأمر شيئاً ، وربما احست بذلك لأن إلياس لم يحيها عندما مر عليها ، او لما راته على وجهه من عبوس . فتساءلت وهى تفتح باب حجرة إلياس لتجده مستلقياً على ظهره .

- مالك ..؟ هل فى الأمر شيء ؟

- ليس هناك أى شيء .. فقط أعتقد أنى مرهق ومحتاج لبعض الراحة .

أجابته وهى تغادر الغرفة .

- فى هذه الحالة ، أحسن أتركك لتتراخ .

وبالطبع لم يجد إلياس الراحة ، واخذ يستعرض شريط حياته كابن ملينقديت والويل .. ارتباطه بهما معا ، محبته العميقة لآخوته ، بما فيهم اشويل الذى لم يعرفه ابداً ، ثم السعادة التى جلبتها للأسرة التطورات الأخيرة ، وخصوصاً اكتشاف أخيه المفقود مديت . شعور بالعرفان لتحقيق ارادة الاسلاف ثم التطلع لاحتمال الوصول إلى اشويل يوماً ما . ولكن فجأة ، اكتشف انه ابن شخص آخر ، بل ابن نفس الرجل العربى الذى سبب كل ذلك الشقاء لأهله . وحدث نفسه قائلاً « هذه هى الطامة الكبرى . كيف أعترف بأبوة الرجل الذى اعتدى على أهلى بهذه القسوة الفائقة ؟ »

ولكن أى الاسرتين هى أسرته الحقيقية ؟ ماذا لو كان حقاً ابن محمد ؟ واحس ببعض العزاء لانه لا يزال ابن والدته ، مما يجعله على درجة من القرابة بملنقديت بوصفه ابن زوجته . ولكن ماهى حقيقة شعوره تجاه والدته التى لم تلده من محمد فحسب ، بل وكذبت عليه هو وعلى كل الناس لأعوام طويلة ؟ لعل ظروف حملها به لم تعطها خياراً فى الأمر ، ولكن اذا كان الأمر كذلك ، فلماذا أخفت الحقيقة ؟ لم يكن إلياس يملك الاجابة على ذلك السؤال . واحس بأن والدته قد خانته بصورة من الصور ، بأن جعلته يتقبل أبوة ملينقديت . وفجأة خطر له أنه قد استعجل ادانة امه بناء على قول محمد دون ان يستجلى الأمر منها هى بصورة مباشرة . فمن حسن التوفيق أنها موجودة معه . ونهض إلياس قائماً واستدعى والدته . دخلت الويل وهى تشعر بخليط من الراحة لان ابنها قد قرر الحديث معها والقلق لما يمكن ان يقول .

- ياأمى ، اريد ان اسألك سؤالاً وأناشدك أن تخبرينى بالحقيقة .

وكان من الواضح أن شيئاً خطيراً بحق قد حدث ، إلا أن الويل لم تكن تملك ادنى فكرة عما يمكن أن يكون ، فنظرت بترقب لابنها .
- ماذا حدث عندما اختطفك العرب ؟ .

- ماذا تعنى بسؤالك عما حدث ؟ أنت تعرف ما حدث حق المعرفة ، فلماذا تسألني ؟ .
- يا أمي ، لدى ما يحملني على الاعتقاد بأنى سمعت فقط طرفاً من الرواية . أما الجزء الأخطر ، على الأقل فيما يتعلق بى شخصياً ، فقد ظل على ما يبدو سرا دفيناً .
أخترقتها كلماته بحدة كادت أن تجعلها تصرخ من الألم . لكنها صرفت مشاعرها جانبا وقالت :

- حسنا ، إذا كان هناك شيء تعرفه أنت ولا أعرفه أنا فلماذا لاتخبرني به ؟ .
- هل حملت بى يا أمي أثناء وجودك مع العرب ؟ .
كانت تخشى أن يفاجئها بول بشيء ما ، لكنه لم يخطر ببالها أن يذهب الى ذلك المدى .
لقد حدث المستحيل . ما الذى جعله يفكر بهذه الطريقة ؟ ومن الذى بعث فيه هذه الخواطر المرعبة ؟ فحسب علمها ، لم يجر أى حديث مثل هذا فى نطاق الأسرة . لقد كادت أن تموت عند الولادة ولكنها أبت ان تعترف كما تساءلت العرافات عن سبب فقدانها لطفلها التالى وعجزها عن الحمل بطفل بعد ذلك . ومع أنه لم يحدث أن اتهمتها أى عرافه ، فقد كان واضحا انهن كن يتساءلن عما إذا كانت تخفى أمرا . وهى نفسها قد تساءلت عما إذا كانت حالتها المأساوية ترجع الى السر الذى أخفته ، لكنها أصرت على عدم إشانة سمعتها بالافصاح عنه . والآن ظهر لها ان كل ذلك بلا جدوى . كيف أمكن لبول حتى أن يتسائل عن الأمر؟ وهى لاتزال مصعوقة ردت عليه بصورة حادة :
- من هو ابن الكلب الذى أوحى لك بهذه الأكاذيب الخبيثة ليسم افكارك ويدمر حياتك ؟ .

واحس الياس بأنه مدفوع بقوى لم يعد قادرا على التحكم فيها فقال بصورة عدائية :
- يا أمي ، لقد أخبرني بالحقيقة محمد العربى الذى اختطفك . هو يزعم بأنى ابنه لأنك قد أخبرته قبل انقاذك بانك حامل بطفله هو ، وقد سمع رواية أسرتنا من التحريات مع مديت التى شاهدها على التلفزيون . والآن وقد ظهرت الحقيقة ، ماذا يمكن ان يقال ؟
ظلت الويل صامته . لم تكن محتاجة ليخبرها بول عن العربى الذى أخبرته بحملها بطفله هو من أجل حماية نفسها واشويل من المزيد من القسوة . فسيكون سيدهما أكثر رفقا بهما إذا علم بانها حامل بطفله هو . والآن حدث أسوأ ما يمكن تصوره - لم تعد الكلمات تجدى .. وحقا لم يعد هناك مجال للمزيد من الكلمات . وفى يأس مطبق ، صاحت الويل بأعلى صوتها وهى ترفع يديها فوق رأسها الذى كانت تحركه بصورة عنيفة وكأنها قد تلبستها الأرواح الشريرة - وصاحت قائلة :

- أه .. أه .. لقد دمرت ولقد أخذ العربى آخر نفس من حياتى . أه ياربى ، ويا أرواح اسلافنا ، ماذا فعلت حتى استحق كل هذا ؟ .
وأخذت تصرخ وتقفز وتدور وكأنها مجنونة .

وخلال دقائق معدودة تجمع عدد من الناس وهم يتساءلون عما حدث . وبما انها كانت فى خطر من أن تؤذى نفسها وهى تقذف بنفسها من مكان لآخر ، امسكوا بها وحملوها الى حجرتها . ولم يكن أى مما تقول يعنى أى شى بالنسبة لبول (الياس) بالطبع . فى بداية الأمر ، توهم الناس ان شخصا ما قد مات فجأة وان العرب هم الذين قتلوه . وعندما لم يظهر

شئ من ذلك ، ظنوا ان الويل قد تلقت انباء مفجعة من أهلها وأنها أيضا تتعلق بالعرب . ولم يتحدث في تلك الاثناء الياس الذى كان يعرف الحقيقة . وبدلا عن ذلك ، اسرع خارجا وركب سيارته وقادها مبتعدا دون ان يعطى أى اخطار بالمكان الذى يذهب اليه . وعندما عاد كان الوقت ليلا متأخرا وقد انصرف اغلب الناس الى النوم . كان مليونديت جالسا في صحن الدار مع الويل ومعهما مديت إذ كانوا في انتظار الياس . وعندما دخل رآه والده الذى كان يعانى من الألم بصورة واضحة لكنه لم يشأ الاقرار بذلك وصاح صيحة الراحة والامتنان للعناية الالهية .

- ثيى - لقد اعادته ارواح الاسلاف .

وكأنما حسنت رؤياه لبول من حالة مرضه القاتل .

مشى الياس نحوهم وهمهم بعبارات التحية المكتومة . ثم واصل السير الى حجرته ليغير ملابسه مؤكدا لهم بأنه سيعود . وعاد اليهم بعد ان ارتدى جلبابه المنزلى . جلس الرجال على قاعد بينما جلست الويل على حصيرة وقد طوت قدميها الى جانب وراحت يديها على فخذيها وحنن رأسها . وكان من الواضح انها شخص مختلف عن المرأة التى عرفها ووثق فيها بول طوال تلك السنين .

كان مليونديت متمالكا لروعه كالعهد به دائما وكذلك ظل مديت هادئا لا يفصح عن أى عواطف . وعندما جلس الياس تحدث مليونديت أولا في صوت ضعيف لكنه ناعم بصورة مريحة ، وكانت طريقته فى الكلام تدعو للتصالح وقد ظهرت من معالجته للموقف حكمة العمر الطويل والإقتراب من الله وأرواح الأسلاف .

- لقد كان هذا يوما طويلا يابنى . وقد انفقت اغلب المساء فى تهدئة امك أولا ثم الحديث معها - وبعد ان هدأت وامكننا مناقشة الموقف بصورة معقولة ، اخذنا فى الانزعاج عن المكان الذى ذهبت اليه وما إذا كنت ستعود . والحمد لله ، فقد عدت سليما ومعافى . وكح مليونديت فى ألم وكأنه يعلن بأن النهاية قد حانت ، ثم توقف . وكأنه يفكر فى احسن الطرق لصياغة ما سيقول .

- يا أبنى بول . ان الحياة من خلق الله الذى يستخدم الاب والام كمجرد ادوات لعمله . ان الله هو الأب والأم الحقيقيان لكل إنسان . وكل ما عدا ذلك وسائل لغاية الله . وعندما يقرر الله احضار شخص الى هذا العالم ، فالشئ المهم هو بقاء ذلك الشخص . وقد يبقى الشخص من خلال الاب والام اللذين استخدمهما فى إبرازه إلى الوجود أو من خلال أفراد آخرين اختارهم الله للعناية به .. ولا يتطابق الاثنان فى جميع الأحوال . عند أهلنا الدينكا يقال أن الطفل ملك لأرواح الأسلاف التى دفعت أبقارها فى الزواج من الأم . لهذا السبب يقول أهلنا أن الطفل هو ملك لأبقار الزواج قبل أن يكون ملكاً للأب والأم الطبيعيين . وما يعنيه هذا هو أنه

إذا تمت ولادة الطفل من رجل غير زوج المرأة ، فان الطفل يكون لزوج المرأة وقت الحمل ، بغض النظر عما اذا كان هو الاب الطبيعى أم لا . لهذا لا ينبغى يابنى أن تشك أنت فى أنك ابنى . واذا قلت أنت الآن بأنك قد اكتشفت والدك الحقيقى وترغب فى الذهاب اليه فانى لن افرض عليك حقوقى القانونية كأب بموجب عرف الدينكا . ساتالم لفقدك ، ولكنى ساتركك تتابع خيار قلبك .

اصبح إلياس في هدوء يشبه هدوء مليونديت ..
- هل أفهم مما تقول ان مقاله محمد هو الحقيقة فعلا وانى ابنه الطبيعي ؟
قال إلياس ذلك وقد ارتسم الاحتقار على وجهه .
وأجابه مليونديت متعمدا ادخال عنصر من التعقيد في حكمة الرجل العجوز فقال :
- ومن يعلم ماهى الحقيقة ؟

فلا يعرف الحقيقة الكاملة إلا الله . نحن لانقدر على إنكار أن امك قد عاشرت
محمدًا .. كذلك من الطبيعي أنها قد حملت بطفله هو أو ظنت ذلك أو قالت بأنها حملت
بطفله . انها لاتنكر ذلك ولكنها تقول بأنها اخبرت العربى بأنها حامل بطفله لكى تحمى
نفسها وتحمى أخاك اشويل . لقد تم انقاذ أمك سريعا بعد ذلك وتمت إعادتها الى أسرة
اسلافها . ماحدث في رحمها بين دم العربى ودم الدينكا هو عمل الله . من منا يستطيع أن
يتحدث نيابة عن الله ؟ دعنا لانشغل انفسنا بهذه الاسئلة . انك هنا وقد ارضيت قلوبنا
طوال سنوات حياتك . هذا هو الذى يهم .
فتسأل إلياس بشيء من المرارة :

- لماذا احتفظت أمى بكل هذا سرا منى طوال تلك السنين ؟
- لقد احتفظت بالامر سرا منى أنا أيضا . وهى لم تعترف حتى عندما كانت على وشك
الموت عند ميلادك لأنها كما تقول ، ارادت ان تحمى سمعة العائلة من الفضيحة كما أنها
تخاف من اثر الحقيقة على طفلها وسط الدينكا . وهذا الطفل هو أنت . ولكن بصراحة ،
هذا هو الخطأ الخطير الذى ارتكبته امك . فأنا اعرف الآن السبب فى أنها لم تقدر على
ولادة المزيد من الاطفال . ان ارواح اسلافنا شديدة ، ومهما طال الزمن على أخفاء
الجرم ، فإنهم دائما مايتابعون المحطىء حتى النهاية المرة . ان عرف اهلنا هو الاعتراف
بالخطأ والكفارة عنه لدى ارواح الاسلاف . وحتى اذا غطي الخطأ واستتر لمئات
السنين ، فان الله يكشف عن الحقيقة فى نهاية الامر . لو أنها أفصحت هي لأمكن
تعويض ابقار اسلافنا بولادة المزيد من الأطفال .

شعرت الويل بالتائب من جديد للطريقة التى تحدث بها مليونديت ، لقد سبق ان
عانت ذلك معه وشعرت بالخيانة لانعدام التعاطف . ولديرة الادائه فى صوته . فقالت فى ألم
وهى تبتكى

- الا تقدرون أيها الناس على ادراك انى قد عانيت بما فيه الكفاية . لقد كنت جارية مع
سيدى رغبت فى ويريد أن يجعلنى زوجة له . وكنت قد فقدت كل أمل فى الانقاذ بواسطة
قومى الذين اختطفتم منهم . لقد مكنت سيدى منى ليس لانى لم أمك اى خيار آخر
فحسب ولكن أيضا على أمل ان يحمى الله وأرواح الاسلاف ابنى اشويل ويحمونى انا
أيضا . وعندما رزقت ببول ورايته كأحد الدينكا ، شعرت بأنى قد وجدت العوض عن
الاهانة التى الحقها بى العربى . وكنت أعفو عن محمد لأنه اعطانى بول ، بولنا نحن الذى
اصبح من الدينكا مثله مثل أم ابن من أبناء النبلاء الذين يفخرون بهم . والآن ، وقد
تقدمت بى السن وبعد أن تآب أفرح بنفسى من خلال بول ادا بالمهانة تعود مرة أخرى
واتهم أنا بالانحلال والسلوك المشين
وفجأة صاحت بصوت سزايد فى الارتفاع :
- لماذا أبغاني الله حية لأشهد هذا .

فصاح ملينقديت :

- اصمتى أويل الأترين أنك ستوقظين الناس ؟ ألم تفضحى نفسك بالقدر الكافى أمام الناس ؟ ألم توضحى موقفك من قبل ؟ لا اريد ان اسمع اى صوت منك بعد الآن . واستدار ملينقديت الى إلیاس موضحا :
- لقد سبق ان تحدثت امك عن اغلب هذه الاشياء . انك تعلم بانى متألم من كل هذا ، ولكن يجب الا يسمح المرء لهذا الامر بتدمير العائلة .
- قال مديت الذى ظل جالسا فى صمت .
- هل فكر اى منكم فى أخى التوأم اشويل . اذا زعم محمد بانه هو الذى اختطف أمى واشويل ، فهو على التحقيق يعلم ما حدث له : الا ترون نقطة مشرقة وسط كل هذا الحزن والاسف وهى امكانية العثور على اشويل ؟
- حل الصمت المفاجيء على المكان اذ لم يخطر ذلك السؤال ببال أى منهم .
- وبعد وهلة من الصمت تحدث ملينقديت :
- حسنا يا بول ، هل أخبرك على بأى شىء عن ذلك ؟
- لا

- ما رأيك ؟

- اعتقد انه امر يستحق الحديث مع محمد عنه .. اعنى الحديث مع على .
- فى الحقيقة انت تقصد الحديث مع محمد بواسطة على .
- وبمجرد إثارة مديت لموضوع اشويل ، بدأ إلیاس يلاحظ الشبه الجسمانى بين بركة ومديت . هل أوشك اكتشاف العضو المفقود فى الاسرة .
- لم ينم إلیاس تلك الليلة وقد أقلقته الافكار الواعية والاحلام والكوابيس المختلطة ببعضها البعض . وفى الصباح الباكر من اليوم التالى ، اسرع الى منزل على ليجده يتناول الشاى بمفرده فى الديوان .
- علق على بقوله :

- من الغريب انى توقعت حضورك هذا الصباح اذ لم اتصور كيف تترك هذا الموقف المثير معلقا فى الهواء .

- لقد انجلت عدة اطراف من المسألة يا عم على وبقيت أخرى غير معروفة .
- أخبرنى ما هى لعلى أقدر على معاونتك على استجلائها . فانا لم ابق عاطلا منذ حديثنا السابق وقد قمت ببعض الاعمال .
- إحدى المسائل المجهولة هى مصير أخى ، أم ينبغى ان أقول أخى غير الشقيق وهو ابن أمى ، أشويل الذى اختطفه محمد مع أمه لكنه لم ينقذ معها .
- فأجابه على وهو هادىء بصورة مذهلة قائلا :

- هذا أمر هين . بركة هو أخوك ، أم لعله أخوك غير الشقيق أو ابن امك كما تقول . والآن دعنى أخبرك بتطورات أخرى قد تدهشك . حضرت فضيله لمقابلتى بالامس بعد انصرافك بقليل ، وقررت اصطحابها معى لمقابلة والديها ومحاولة ايجاد حل عائلى لكل المعضلة .

بدا على إلیاس عدم الاكتراث كأنه لم ير أى اهمية لما سيقوله على . لكنه واصل الاستماع لعلى رغم انشغاله عنه .

- كل ما اردت ان افعل هو الجمع بينهم لتبادل الحقائق والوصول الى نوع من التفاهم عما ينبغى عمله او الامتناع عنه ولأى الأسباب ، بصراحة كنت اتوقع أن يخبر محمد ابنته

بحقيقة ما حدث وكيف ان والد ابنها هو اخوها . اقصدا انه عند التفكير في الامر ، فان هذه هي اغرب الحكايات في أخبار الاسر . ولا اعرف حتى لماذا اردت ان اواجههما ببعضهما البعض ، ولكنى قدرت ان ذلك لا بد ان يتم حالا او لاحقا .

على كل حال ، بعد ان قلت قولتي ، فاجأتنا والدة فضيلة بان انفجرت باكية وهي تقول : يا محمد ، لن اسمح لابنتي ان تعذب بهذه الطريقة ! لقد تحملت ما فيه الكفاية من هذه الامانة ، انها اكثر مما احتمل . انك تعلم بالحقيقة فلماذا لا تقر بها ؟ انك تعلم ان فضيلة ليست ابنتك ، فكيف تعترف بابنتك ثم تستخدم تلك الحقيقة لتعاقب ابنتي .

وانت تعلم انهما ليسا اخوين ؟ إلياس ابنك ولكن فضيلة ليست ابنتك ، ولا أرى موجبا لمعارضة زواجهما على اساس درجة القرابة . اقسام بالله العظيم باني على استعداد للشهادة في المحكمة أو في أي مكان اذا دعت الضرورة لذلك ، وحتى لو مت بسبب شهادتي تلك .

انطلقت المرأة في الحديث بكل هذا بلا توقف بينما صمعتنا نحن دون أن نملك النطق بكلمة واحدة . واشتعل محمد غضبا ، وضرب زوجته امامي ضربة رهيبة على الوجه وهو يصرخ : اصمتي ايها المرأة الشيطانة . الا ان زوجته لم تخضع له وصرخت في وجهه أيضا هو الشيطان ، امن يكذب ام من يقول الحق ؟ وفي هذه الاثناء اطلقت فضيلة صيحة عالية وتحركت للدفاع عن أمها وهي تضرب محمد بيديها وتصرخ بالقول انه يقتل أمي ، النجدة ، النجدة ، النجدة ! إنه يقتلها . لقد كان موقفاً في غاية القبح .

وجاهدت لأفصل بينهم بينما اندفع الجيران اليانا لمحاولة المساعدة . وفي نهاية الأمر امكنتنا ان نعيد بعض الهدوء للموقف وعدت انا الى منزلي ومعى فضيلة وأمها . قضت فضيلة ليلتها هنا وانصرفت قبيل حضورك بقليل .

كان إلياس مأخوذاً بالرواية رغم انه لم يكن يصدق اذنيه . وعندما توقف على عن الكلام ، سأل إلياس ببساطة ..

- ماذا عن أن فضيلة ليست ابنة محمد ؟

وبدا على في رواية القصة فقال :

- كانت أم فضيلة متزوجة من اقرب اصدقاء محمد وزميله في التجارة وقد قتل الرجل في نفس المعركة مع الدينكا الذين انقذوا امك ، مخلقا وراءه عروسه الشابة أم فضيلة . وقرر محمد الزواج من الأرملة الشابة لتوفير الحماية لها كما هو العرف السائد عند أهلنا .

يقضى الاسلام ان تراعى الأرملة العدة لأربعة أشهر وعشرة أيام قبل ان تتزوج من رجل آخر حتى لا تختلط الانساب ويعرف من هو الوالد الحقيقي لأي طفل يولد بعد وفاة الزوج . وما حدث في حالة محمد ووالدة فضيلة هو ان الأرملة كانت قد حملت لتوها من زوجها قبل وفاته وتزوجت من محمد بعد انتهاء فترة العدة لكنهما ارادا للطفل ان يعتبر طفل محمد . وبما ان الاسلام لا يسمح بالتبني بالصورة المباشرة ، فقد رأيا انه من مصلحة الطفل ان يعرف بانه الطفل الطبيعي لمحمد لتفادي تحريم التبني . وهكذا ، عندما انتقلا من الجنوب وعادا الى الشمال ، قدما فضيلة للأسرة وللمجتمع بوصفها ابنتهما معا . ويبدو أن والديها هما الوحيدان اللذان كانا يعرفان الحقيقة بينما تقبل المجتمع فضيلة كأبنة لمحمد بلا منازعة ولكن في نهاية الأمر دفعت شفقة وتعاطف والدة

فضيلة مع ابنتها الى ان تكشف عن سر العائلة الذي احتفظا به لانفسهما طوال تلك السنين .

وتسائل إلياس وهو لا يكاد يصدق ما يسمع :
- وكيف حال فضيلة الآن ؟

- انها في غاية الحزن ، ولعل الصدمة هي الوصف الانسب لكنها أيضا تشعر بالراحة ، بل يجب ان أقول السعادة الفامرة لان مخطط والدها لمعارضة زواجها قد فشل بصورة غريبة .

لم يجد إلياس ما يقول ، وشعر انه متنازع بين السرور للنجاح والحزن للقسمة المؤلمة التي حلت بأسرة فضيلة . فقال :

- انى أسف لخلقى كل هذه المشاكل ، يا عم على .

قال إلياس هذه العبارة بصدق واخلاص حرك مشاعر على كثيرا .

- لانهتم يا إلياس ، فكل ما يحتاج له محمد هو الزمن ليهدأ ، انى واثق من انه سيتجاوز كل هذا مع الزمن . وفي هذه الاثناء ستبقى والدة فضيلة معنا حتى نصفى هذه المشكلة ونقدر على مصالحتها . انى متأكد من اننا سننجح في ذلك ، ولا تدع الامر يتدخل مع خططكما للزواج أو مع عواطفكما تجاه بعضكما البعض . يحتاج الزواج الى المثابرة والجهد المتواصل لتجاوز الصعاب . ومن السهل على أحد الزوجين اللذين عارض زواجهما الوالدان ان يضعف وينظر الى الوراء في حسرة وندم متمنيا لو انه قد استمع الى نصيحة الوالدين . انى اعتقد ان فضيلة شخص قوى ، وهى تعزف ما هى مقبلة عليه وأشك في أنها ستضعف . كان الله في عونكما معا .

وأحس إلياس بتحسن كبير وقال :

- لا اعرف ماذا كنا نفعل بدونك .

فقال على وهما يفترقان :

- فقط تذكر انك ابن لى وكذلك فضيلة ابنة لى ، ايا كان والدها .

وحتى لدى انصرافه ، وقد تشجع من كلمات على ، ظل إلياس مرتبكا مذهولا . لقد ظهر اخيرا ان اشويل هو بركة ، الشاب الذى وقف الى الجانب الآخر من معركة إلياس السياسية . بالسخرية الاقدار ! فقد كانت لبركة دوافع أكبر لان يكون المتحدث باسم التجمع الثورى لاقليات السودان لانه جنوبى من ناحية الوالدين - من الدينكا . اما إلياس نفسه فهو نصف عربى وهو من الدينكا فقط من جانب والدته . في عالم السودان ، ينبغى ان يكون مكانه موقع بركة أكثر منه كمتحدث باسم « التجمع » ! يا له من خليط بين الخرافة والواقع . يا له من عالم هذا الذى يعيشون فيه !

ومن الناحية الأخرى ، انتشى لفكرة ان تكون فضيلة هى زوجته -- اه يا فضيلة يا حبيبتي .. سنحصل معا على القوة التى تمكنا من حل هذه المعضلة واكتشاف الحقيقة عن انفسنا وعن أهلنا وعن وطننا . ومن ناحيتى ، وارجو ايضا ان يكون من ناحيتك انت ، سوف اسعى غاية جهدى لخلق اساس متين من الحقيقة التى ستنشئ الاجيال المقبلة من السودانيين على الاعتزاز والثقة فى هويتهم وفى الأمة التى يرجون ان يبنوها . ومن تلك القاعدة الداخلية سيتعاملون مع الشعوب والأمم الأخرى من موقع الثقة والقوة . انى أقسم لك يا فضيلة ولجميع اسلافنا ايا كانوا وايضا كانوا ، وأتعهد لأجيال الالهة المقبلين

باني سأسخر حياتي من أجل هذا الهدف النبيل في الصحة والحيوية والثراء لاسرتنا
ولاهلنا ولامتنا . واجانني الله ، واعاننا معا ، في ذلك .

المؤلف :

أجر كتب فرانسيس دينق (وجميعها باللغة الإنجليزية) هما كتابان «البحث عن السلام والوحدة في السودان» و«رجل يدعى دينق ماجوك... والأخير هو السيرة الذاتية لوالد المؤلف، الزعيم الاعظم لقبائل دينكا نقوك في جنوب السودان. كما سبق للمؤلف نشر رواية أخرى بعنوان «بذرة الخلاص».



خدم الدكتور فرانسيس دينق بلاده بامتياز في عدة مواقع، منها منصب وزير الدولة للشئون الخارجية وسفير السودان لدى الولايات المتحدة. وفي الوقت الراهن يعمل الدكتور فرانسيس كزميل رفيع بمعهد بروكنز في مدينة واشنطن حيث يعيش مع زوجته وأبنائه الأربعة.

From the reviews of **Seed of Redemption** the first novel by Francis Deng, published by Fiklan Barber Press

Must be taken very seriously indeed. The hero, Lurs Khalifa, manifestly a spokesman for the author, incorporates within himself the turbulent, conflicting elements aptating the nation, a unifying principle personified, the hope for a united nation sharing a common destiny in peace and harmony. The work spans a century from the Turco-Egyptian regime down through three generations culminating in the hero's lifespan, the tumultuous recent decades of Sudanese history and the fragile seed of a hoped-for redemption. *Publishers Weekly*

For those starting to learn about the Sudan, this is an excellent place to begin to appreciate the human wealth and complexity of the nation. For those who already feel themselves knowledgeable, the book provides a deepening awareness of the Afro-Arabist of this huge nation which comprises powerful forces of both unity and cleavage. *Highly recommended - Middle East Journal*

A highly provocative novel and a valuable and unique addition to Sudanese literature. *International Journal of African Historical Studies*

هذا الكتاب

تتميز هذه الرواية بالجمع الاوفى بين عناصر الحكمة القصصية المثيرة والمعالجة الرصينة لادق واعمق القضايا الاجتماعية والثقافية والسياسية في السودان . وفيها يجد القارئ وصفاً ممتعاً لتقافة قبائل الدينكا في جنوب السوان وتمازجها مع ثقافات سودانية اخرى . ثم تحليلاً موزوناً لمعضلات العلاقة بين الإفريقي والعربي ، والمسلم وغير المسلم في الذاتية السودانية المعاصرة . كل ذلك في قالب قصصي مشوق يعج بالشخوص الحية والتجارب المعاشة في حياة المجتمع السوداني . فمن خلال ميلاد ونشأة الياس في الجنوب . وتعليمه وحياته في الشمال . ثم ارتباطه بفتاة شمالية مسلمة . يثير المؤلف ادق مسائل التعددية الثقافية والتحيز العرقي والديني في حياة المجتمع السوداني . ومن خلال عمل الياس بالقوات المسلحة وتفاعله مع القوى السياسية في غرب وجنوب وشمال البلاد . ينفذ المؤلف الى جوهر قضايا الوحدة الوطنية والحرية والمشاركة السياسية .

والمؤلف من ابناء قبيلة الدينكا الذين تترجم حياتهم وسلوكهم وفكرهم كل قيم الجمال والحكمة والتسامح التي تعكسها شخوص وأحداث الرواية . فقد ولد وترعرع الدكتور فرانسس في جنوب السودان حيث مر بالمراحل الأولى من التعليم . ثم تعلم وعاش في الشمال وقدم لبلاده أجل الخدمات في العطاء الفكري والتمثيل الدبلوماسي والخدمة العامة . فبعد تخرجه من كلية القانون بجامعة الخرطوم . تلقى الدراسات العليا في بريطانيا والولايات المتحدة حيث عمل أستاذاً بجامعة بيل وكومبيا . ونشر العديد من الكتب حول ثقافة الدينكا ومقومات الذاتية السودانية . ثم مثل بلاده سفيراً لدى الدول الاسكندنافية والولايات المتحدة وكندا . كما عمل وزير دولة للشئون الخارجية .

نقل هذه الرواية من اللغة الانجليزية الى اللغة العربية الدكتور عبد الله أحمد النعيم . وهو من ابناء شمال السودان وأستاذ سابق للقانون بجامعة الخرطوم عمل أيضاً بتدريس القانون في الولايات المتحدة وكندا . وفي تعاون المؤلف والمترجم على اتصال هذه الرواية الى القارئ العربي نموذج واضح لروح الاخاء والاحترام المتبادل التي تجسدها الرواية ويحتاجها السودان لتحقيق الاستقرار والحرية والرفاهية .

الناشر



صيدلايت

المحدودة